

م

عن الإسكندرية إلى القنطرة الغربية



تأليف
د/ مصطفى العبادي

مِصْر

مِنْ الْإِسْكَنْدَرِ الْأَكْبَرِ إِلَى الْفَتْحِ الْعَرَبِيِّ

تأليف

الدكتور مصطفى العبادي

١٩٩٩

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد - القاهرة

اسم الكتاب : مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى

المؤلف : الدكتور مصطفى العبادى

الناشر : مكتبة الأنجلو المصرية

تليفون : ٣٩١٤٣٣٧ / فاكس : ٣٩٥٧٦٤٣ (٠٢)

رقم الإيداع : ٩٩/٤٥٢١

ترقيم دولي : I . S . B . N . 977 - 05 - 1688 - 0

طبعة : دار اللواء للطباعة . تليفون : ٢٧٩٢٩٤٨ - ٢٨١٦٧٠٧

تقديم

هذه محاولة لأقدم للقارىء فترة من تاريخ مصر أهملت في مجال الثقافة العامة لأكثر المصريين ، وهى تلك الحقبة التى تقع بين دخول الإسكندر الأكبر مصر فى الجزء الأخير من القرن الرابع قـ.م والذى يؤرخ نهاية العصر الفرعونى من تاريخ مصر القديم ، حتى فتح العرب لمصر فى القرن السابع للميلادى . وهى فترة تبلغ ألف عام قريبا ، لها خطورتها وأهميتها فى تطور أممتنا وبناء تاريخنا. ولنا نعرف سببا تعليميا أو تربويا يبرر إهمالها أو إسقاطها من الثقافة العامة للمصريين . ولعل هذا الكتاب المختصر يعوض شيئا من هذا النقص ، إلى أن يمكن القيام بالتعديل اللازم فى برامج تعليم التاريخ وإدخال الفترة اليونانية الرومانية ضمن مناهج التعليم العام .

ولقد سبقتنى فى دراسة هذه الحقبة من تاريخ مصر جهود كثير من المؤرخين والباحثين ، وخاصة من الغربيين ، الذين أدركوا أهميتها فأقبلوا على دراستها على نحو يفوق شتى فترات التاريخ ، وخاصة خلال القرن العشرين . ولعل السبب فى ذلك الإقبال هو تفرد مصر فى هذه الفترة بميزة لا مثيل لها فى تاريخ الإنسانية جمعاء ، وهو وجود وثائق أوراق البردى بكيات هائلة ، تبلغ المئتين من الآلاف بشتى اللغات القديمة : المصرية واليونانية واللاتينية والديموطيقية والقبطية والعبرية والآرامية والعربية . هذه الثروة الضخمة من المصادر أمدت المؤرخ لأول مرة بمعلومات وفيرة وتفصيلية عن حياة مصر وتاريخها من عديد من الجوانب السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية ، مما لم يتيسر لأية دولة أخرى . من أجل هذا أقبل كبار المؤرخين الغربيين على استغلال هذه الثروة الجديدة من المعلومات فى الدراسة والبحث .

وأخرجوا كثيراً من الروائع التاريخية في هذا المجال . ويكفى أن نذكر هنا أن العلامة روستقزف استعان بدراسة الوثائق البردية وغيرها من الوثائق في وضع أسس التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بالنسبة للعالم القديم .

ولم يقتصر التأليف في تاريخ هذه الفترة على الغربيين ، بل اقتحم لليدان مؤخراً عدد من المصريين السباقين ، مثل الدكتور إبراهيم نصحي فكتب عن مصر في العصر البطلمي ، والأستاذ زكي على الذي كتب كتاباً طريفاً عن الملكة الشهيرة كليوباترا (والدكتور عبد العفيف أحمد على وهو أول عالم مصري تخصص في علم البردي اليوناني وكتب عن مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الوثائق البردية ، ثم الدكتور السيد الباز العريفي الذي كتب عن مصر في العصر البيزنطي .

وما من شك أني قد أفلتت من جهود من سبقوني بصورة أكبر مما تدل عليه الحواشي أو للراجع . ولكنني في كتابة هذا الكتاب توخيت الدقة العلمية مع الوضوح . ولهذا تجنبت الإكثار من المراجع أو إثبات الآراء المتعارضة ، وإنما آثرت عادة إثبات من الآراء أرجحها عندي ومن المراجع أقصها للقارئ . كما حاولت - كما وجبت ذلك - أن أحيل القارئ إلى المصدر القديم مباشرة ، فهذا أتمتع للدارس قبل أي شيء .

ولاني لأكثر الناس إدراكاً أن هذا الكتاب بعيد عن الكمال ، ولكنني آثرت أن أقدمه للقارئ في هذه الصورة ، اعتقاداً أنه لا يخلو أيضاً من فائدة وهو لا يبدو أن يكون محاولة أرجو أن تعقبها محاولات أفضل ؟

مصطفى الباري

الباب الأول العصر البطلمي

الفصل الأول

مصر والإغريق قبل قيام دولة البطالمة

(١) العلاقات بين مصر وبلاد اليونان قبل الفتح للقدوني

يمثل فتح الإسكندر الأكبر لمصر عام ٣٣٢ ق.م ، نقطة تحول كبرى في تاريخ مصر العام ، إذ عندها ينتهى تاريخ مصر الفرعونية ويبدأ تاريخ مصر اليونانية الرومانية . والأحداث الكبرى في التاريخ لا تحدث فجأة ، وإنما تكون نتيجة لعوامل ومقدمات تسبقها وتنتهى إليها . من أجل هذا كان من الضروري عند كتابة تاريخ مصر اليونانية الرومانية على أساس على ، بمعنى أن أحداث التاريخ تربطها قوانين العلة والنتيجة ، أن ندرس نوع العلاقات التى وجدت بين مصر وبلاد اليونان قبل فتح الإسكندر الأكبر .

لم يأت الإغريق إلى مصر مع الاسكندر للمرة الأولى ، بل أن العلاقات بين الأمتين ترجع إلى أقدم الحقب التاريخية ، قد كشفت الحفائر التى تمت حتى الآن في جزيرة كريت عن آثار مصرية تثبت وجود علاقات بين مصر وهذه الجزيرة منذ عصر ما قبل الأسرات ، وأن التقارب بينهما بلغ ذروته في عصر الدولة الحديثة^(١) .

(١) للأكار أنظر: J.D.S. Pendlebury, *Aegyptiaca, A Catalogue of Egyptian objects in the Aegean Area* (1930) Introduction pp. XVII ff., 3—5, and catalogue pp. 6—40.

لدراسة حديثة شاملة أنظر: Helene J. Kantor, *The Aegean and the Orient in the Second Millennium B.C.* (1947) pp. 19 ff.; J. Vercoutte, *L'Égypte et le monde Égean préhellénique, Etude critique des sources Égyptiennes (du début de la XVIIIe à la fin de la XIXe Dynastie)*, Le Caire, 1956.

وتؤيد هذه الآثار نقوش مصر القديمة التي تمثل وفدا من «الكفتيو» -
الذى يعتقد أنهم أهل كريت^(١) - يقدمون لتحتونس الثالث أواني فضية
وسباثك من البرنز، لعلها هدايا للملك المصري من أجل تحسين العلاقات
والسماح لهم بالتعامل التجاري مع مصر^(٢). ولم يقتصر الأمر على كريت، بل
أن الآثار المصرية التي عثر عليها بكيات وفيرة في مناطق مختلفة من شبه
الجزيرة اليونانية ذاتها تثبت أن تجارة مصر قد وصلت إلى الأسواق اليونانية
المسماة في ذلك الوقت مثل اسبرطة وميكيني وأرجوس^(٣). ولكن هذه
العلاقات الأولى تنتهى عند نهاية الألف الثانى ق.م. بعد سقوط الدولة اللينوية
في كريت والدولة الليكينية في شبه الجزيرة.

مرت بلاد اليونان في القرون الثلاثة التالية بفترة من التوضى والاضطراب
بسبب الغزو الدوري (Dorian invasion) وآثاره؛ وفي نفس الوقت حدثت
في مصر تطورات سياسية عنيفة قضت على الدولة الحديثة وعرضت البلاد
للعلم الأجنبي الليبي والفارسي. ومع ذلك فيبدو أن المستوى الصناعى الراقى
الذى بلغت مصر خلال العصر الدولة الحديثة قد بقى كما هو بما جعل الصناعات

(١) حول تهديد معنى الكفتيو، انظر الدراسة للفتيشة لنصوص والآثار في .

J. Verconttor, *L'Égypte et la monde égéen*, pp. 33—125,
869—895, an esp. W 394—5.

(٢) توجد ترجمة للنقش في J. G., 760 *Breasted, Ancient Records*, II.
Wilkinson, Manners and Customs of the Ancient Egyptians
(1876) Plate II. A-p. 38.

Sir Arthur Evans, *Palace of Minoan II*. 736 ff

(٣) منظم هذه الآثار ترجع إلى عصر الدولة الحديثة. انظر لائحة الآثار في :

Pondiebury المصدر السالف الذكر صفحات ١٢ — ١٠٩٠٦٦

راجع أيضاً Kantor المصدر السالف الذكر ص ٢٢ وما بعده . وللال الحام ،

A.J.B. Wace C.W. Blegen, *Pottery as Evidence for Trade
and Colonization in the Aegean Bronze Age*, *Klio*, 32
(1939—40) pp. 151—147.

للمصرية مرغوبة في الخارج في القرنين التاسع والثامن ق.م. تشهد بذلك وفرة
ماثر عليه من الصنوعات المصرية في الخارج من زجاج وخزف وفخار ومرمر
وجمارين التي ترجع كلها إلى هذه الفترة^(١).

ومنذ نهاية القرن السابع تدخل مصر عصر النهضة في ظل الأسرة السادسة
والعشرين ، وفي نفس الوقت يبدأ العالم اليوناني في الاستقرار والنهضة أيضاً
ويعود الاتصال الوثيق بينه وبين مصر على نحو لم يسبق له مثيل من قبل ، إذ
حضر الإغريق إلى مصر في أعداد وفيرة كجنود مرتزقة احتلت بهم ملوك
المصر الصاوي ضد الليبيين والفرس على حد سواء ، كما حضر إغريق آخرون
بعد ذلك للتجارة .

أما الجنود المرتزقة فقد أقاموا عند دفتنه (إلى الجنوب من موقع مدينة
حمياط الحالية) وفي مدينة ممفيس ، بينما عين حكام مصر مدينة قراطيس
شمال غرب الدلتا ، مركزاً لإقامة التجار الإغريق^(٢).

من الصعب أن نفهم أهمية هذه العلاقة الوثيقة التي تمت فجأة بين الإغريق
والمصريين منذ القرن السابع حتى عصر الإسكندر دون أن نفهم حقيقة الظروف

F:W Bissing, *Zeit und Herkunft der in Gervetori gefundenen* (١)
Gefässe aus ägyptischer Fayence und glasier Ton, (1941)
p. 4, and 30.
Dunbabin, *The Greeks and Their Eastern Neighbours*
(1957) p. 39.

Petrie, *Tanis II*. (1888) وعن دفتنه أنظر Herodotus, II. 178 (٢).
ومن ممفيس (10) — Petrie, *Memphis* (1909) ، ومن قراطيس ،
Gardiner, *Naukratis II*, Petrie, *Naukratis I* Hogarth
Reports—J.H.S. (1905), 1924).
R. M. Cook, *Amasis and the Greeks in Egypt*, J. H. S.
(1935), 227 ff.

التاريخية التي في ظلها تمت واشتلت هذه الاتصالات حتى أصبحت ضرورة سياسية في كل من مصر واليونان على السواء . يليه أن قلنا انصقلت العلاقات الاقتصادية عن السياسية في العلاقات الدولية وهذا هو ما حدث بين مصر واليونان في هذه الفترة قد تلازمت السياسة والاقتصاد في هذه الحقبة أيضاً .

ولبيان ذلك نقول إن هناك ظروفًا معينة هي التي حددت صورة الموقف الدولي خلال هذه القرون الثلاثة : أولها أن فارس أصبحت أقوى دولة في العالم القديم في القرن السابع وأخضعت مصر لسلطانها وكذلك كانت أكبر خطر واجهه الإغريق في تاريخهم القديم بأسره ، وبعبارة أخرى ، كانت فارس عدواً مشتركاً لكل من الإغريق والمصريين . ثانياً : كانت مصر مركزاً من أهم مراكز إنتاج القمح في العالم بينما كانت بلاد اليونان أقلها إنتاجاً له ولهذا كانت للدين اليونانية في حاجة دائمة إلى قمح مصر .

ثالثاً : انتشرت في هذا الوقت عادة استخدام الجنود المرتزقة وكان الإغريق من خيرة هذه الجنود ، فاستعان بهم ملوك العصر الصاوي للقضاء على العناصر البيئية للتغلغل في صفوف الجيش المصري آنذاك ولتقاومة العدوان الفارسي . رابعاً : كانت بلاد اليونان غنية في مناجم الفضة وكانت قد توصلت إلى استخدامها في صناعة العملة التي أصبحت الوسيلة العالمية للتبادل التجاري ودفع الأجور . وفي نفس الوقت لم يكن لدى مصر مناجم فضة ولذا كانت في حاجة إلى فضة الإغريق في صورتها الجديدة وهي العملة لتسليح جيشها ودفع أجور الجنود المرتزقة .

فلذا كان التاريخ وليد الظروف للمادية للعصر والبيئة فإن التآثر الشديد بين مصر واليونان في هذه الفترة كما ذكرنا آنفاً يؤكد صدق هذا الرأي .

فن التاحية السياسية نجد أن الإغريق أثناء حربهم ضد الفرس كانوا في

حاجة إلى ثورات مصر للتمرد ضد السيطرة الفارسية .

وفي الوقت ذاته إن انتصار الإغريق على الفرس يكسر شوكة هذه الدولة وييسر أمر مقاومة المصريين لها . ومن الناحية الاقتصادية إن بقاء اليونان ومصر مستقلتان كان يمكن الإغريق من الحصول على القمح المصري ويمكن مصر من الحصول على الجنود المرتزقة والعملة الفضية مقابل القمح .

ويعدنا التاريخ بأمثلة عديدة تؤيد هذا التفسير^(١) ، فبملا ما أن انتشرت أنباء انتصار الإغريق في موقعة مارثون حتى قامت ثورة في مصر سنة ٤٨٦ بزعامة إرنواس وساندتها أثينا بأسطول بحري^(٢) . وفي مناسبة أخرى حينما مرت أثينا بأزمة حادة مع امبراطورتها سنة ٤٤٦ ق.م. أرسلت مصر أسطولا عملا بالقمح إلى مينائها يديه سنة ٤٤٥ ق.م. لمعاونتها^(٣) . وفي الجزء الأخير من القرن الخامس حينما حدثت الحرب الكبرى بين أثينا وأسبرطة ، حرصت كل من اللدنيين على منع وصول القمح للمصري إلى الأخرى^(٤) .

ولما خرجت أسبرطة من حربها ضد أثينا منتصرة ، دخلت في حرب أخرى ضد فارس ، فنسحق في سنة ٣٩٥/٣ ق.م . أن أسبرطة سعت إلى عقد

(١) يمكن مراجعة الظروف السياسية في مصر وعلاقتها الخارجية وخاصة مع اليونان في الكتب التالية :

Mallet; Les Rapports des Grecs avec L'Egypte pp. 31 ff, and 81 ff.; W W. Tarn; in Cambridge Ancient History Vol. VI. ch. VI; E. Drioton et J. Vandrier, L'Egypte, ch. XIII, pp. 545 ff.

(والمكتاب الأخير ترجمة حديثة قام بها عباس بيومي)

Herodotus, VII. 4, 5—7; Thucydides, I. 109—110. (٢)

Pintarch, Pericles. 37; Philochorus. fr. 90, ed Muller, (٣) L. 399.

Thucydides, IV. 53; VIII. 35. (٤)

حلف مع مصر ، ولكن يبدو أن مصر لم تكن في وضع يسمح لها بالدخول في مثل هذا الحلف واكتفت بإرسال نصف مليون كيل من القمح إلى أسبرطة، ولكن تهاجم هذه القافلة الممونية في البحر ويقع القمح في أيدي الأثينيين^(١) ومن دلائل استمرار التقارب بين الإغريق ومصر بعد ذلك أن عقدت كل من أثينا وقبرص حلفاً مع أحد ملوك مصر في أثناء الأسرة التاسعة والعشرين^(٢). وبعد ذلك بقليل يصل مصر من بلاد اليونان السياسي الأثيني خابرياس كنخبر مالى^(٣) والملك الأسبرطى الجوز اجيسلاوس ليعمل خبيراً حربيًا في خدمة للملك المصرى^(٤) (٣٦١ - ٣٥٤ ق.م.) .

وفي مجال التجارة ظلت للنتجات المصرية وأهمها القمح وورق البردى ترسل إلى بلاد اليونان والنتجات الإغريقية المختلفة ترد إلى مصر .

وليس أدل على ذلك من بيان الملك نكتانيو الأول (الأسرة الثلاثين) ٣٧٨ - ٣٦٠ ق.م.) الذى عثر عليه في قراطيس والذى يحدد فيه الضرائب على الواردات اليونانية^(٥) ، وكذلك وجود معبد مصرى للالهة إيزيس في بيريه الذى يدل على وجود مركز تجارى مصرى في أثينا^(٦) .

(١) Diodorus Siculus 14. 79; Justinus, 6, 2. 2.

(٢) توجد إشارة إلى الحلف الأثينى لـ Aristophanes, Eccles. II. 193. ff;

Plutus, I. 178. وحلف لبرس ذكر في

Theopompus, fr. III, ed. Didot-Muller, I. 295, Diodoro, XV, 24; 29.

(٣) Pa. Aristotle, Oeconomica II. 27, 37. (٢)

(٤) Plutarch, Agislaus 36. (٤)

(٥) Gunn, The Stela of Naukratis J.E.A. (1943) 50 ff (٥)

(٦) Tod, Greek Historical Inscriptions, II. No. 189, lines 42-5 (=Michel, Recueil d'Inscription Grecques, No. 140. (٦)

ليس هنا مجال الإفاضة في دراسة التجارة المتبادلة بين مصر واليونان ولكن يكفي أن نقول أن بلاد اليونان، كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على استيراد بعض السلع الهامة من مصر ، فشعلا البردى كانت مصر هي الدولة الوحيدة المنتجة والمصدرة له في التاريخ القديم بأسره وكانت بلاد اليونان منذ نهضتها الثقافية الكبرى في القرن الخامس ، في حاجة ماسة إلى هذه السلعة .

وليس أدل على ذلك من عبارة لما دلالتها وردت في خطاب خاص من الفيلسوف اسبيوسيوس Speusippus إلى الملك فيليب المقدوني في أواسط القرن الرابع ق . م . قال فيلسوف يعتذر عن عدم استطاعته الإفاضة في سرد ما يريد ذكره للملك بسبب ندرة الورق ، ويضيف هذه العبارة « إلى هذا الحد أصبح الورق نادراً منذ أن احتل الملك الفارسي مصر ^(١) » . هذه العبارة تعتبر من التعليقات القديمة النادرة على تأثير الأحداث السياسية في حالة الأسواق .

على أن أهم سلعة كانت تصدرها مصر إلى اليونان هي القمح . ذلك أن بلاد اليونان لا تنتج سوى جزء يسير من حاجتها إلى القمح ، ويكفي أن نذكر أن متوسط إنتاج أثينا من القمح هو عشر حاجتها السنوية ولهذا اعتمدت اعتماداً تاماً على الاستيراد . من أجل هذا نشطت حركة استيراد القمح من الخارج ، وكانت مصر من أهم مصادر القمح لبلاد الإغريق : وقد استطاع التجار الذين قاموا باستيراد قمح مصر من تكوين ثروات طائلة .

وفي ذلك يقول الشاعر الفنائي باخيليدس في مطلع القرن الخامس ق . م .
يصف أحلام رجل قد لعبت الخمر برأسه :

« وكان منزله يزخر بالذهب والماج ، وكأنه صاحب سفن مشحونة قمحاً

تسرى على صفحة البحر المتلاثلة ، تحمل له الثروة العريضة من مصر . هكذا يحلم قلب الفتى عندما تشعشع برأسه الحجر ^(١) .

من قواعد الاقتصاد في العالم القديم أن التجارة الخارجية كانت تقوم على أساس المقايضة ، أى أن الصادرات والواردات يجب أن يتعادلا تماماً ، نظراً لأن نظام الترويض الدولية لم يكن معروفاً حينذاك ، وقد دفعت المدن اليونانية قيمة القمح والبردى المصرى بإرسال بعض منتجاتها من الحبوب والأخشاب وأنواع مماثلة من المنسوجات ، ولكن وسيلة الدفع الأساسية كانت العملة الفضية اليونانية . فما من شك أن الجزء الأكبر من قيمة صادرات مصر إلى اليونان كانت تدفع في شكل عملة فضية ، وقد ثبت ذلك من كميات العملة اليونانية الكثيرة وخاصة العملة الأثينية التى عثر عليها فى أماكن مختلفة من مصر وترجع إلى القرنين الخامس والرابع ق.م ^(٢) .

نتيجتان هامتان لهذا التقارب التجارى السياسى يمكن أن نختم بهما هذه المقدمة التاريخية عن العلاقات بين مصر واليونان . الأولى أن وفرة وجود العملة اليونانية فى مصر ، جعل المصريين يقدمون على إصدار عملة مصرية لأول

Spensippis Brief an König Philipp. Berichte der Sächs. =
Akad. der Wissensch. zu Leipzig, Philol. - Hist. Klasse,
80 (1928) III, تاريخاً الخطاب
pp. 12-14.

Bacchylides, Carmina cum fragmentis, ed. Br. Shell, (١)
Teubner, (1949) Fragmenta, epikomei, 20 B, lines 13-16.

B. V. Head, in Petrie, Naukratis I. p. 63 ff; Dattari, (٢)
Commentary on a hoard of Athenian Tetradrachms,
Journal of International Archaeology (1905) p. 197; Milne,
Journal of Egyptian Archaeology (1939) pp. 178 ff.

مرة . ولقد كان رأى السائد إلى زمن قريب أن الإسكندروالبطالة هم أول من سك العملة في مصر^(١) ، ولكن اكتشافات العملة ودراسها في السنين العشر الأخيرة تدل على أنه في عصر الأسرات المتأخرة شرع المصريون في صناعة العملة ، أولاً عن طريق محاكاة العملة الأثينية التي كانت واسعة الانتشار وقتئذ ، وبعد ذلك عن طريق تطورها إلى عملة مستقلة تماماً . والنماذج التي عثر عليها من هذه العملة ذهبية فقط وتحمل على أحد وجهيها رسم حصان راقص وعلى الوجه الآخر كتابة هيروغليفيه ترجمتها « ذهب جيد »^(٢) .

النتيجة الثانية أنه عن طريق هذا التبادل التجاري الوثيق أخذ الإغريق يدركون مدى ثراء مصر وأهميتها كمصدر للثروة . وكان ذلك في الوقت الذي اتجهت فيه أفكار اليونان نحو غزو آسيا وهو العمل الذي حققه الإسكندر الأكبر . ولما كان الإسكندر سياسياً موهوباً وقائداً عبقرياً فلا بد

(١) من ذكروا هذا الرأي مثلاً B.V. Head, *Historia Numorum* (1911) p. 845; Cl. Préaux, *L'Economie Royale des Lagides* (1939) p. 62, 267 ff.; H I. Bell, *Egypt from Alexander the Great to the Arab conquest* (1949) p. 56.

يوجد الكتاب الأخير ترجمتان عربيتان ، الأولى قام بها الدكتوران محمد عواد حسين ومحمد الطيف أحمد علي ، والثانية قام بها الأستاذ زكي علي .

(٢) أنظر: G.K. Jenkins, *Greek Coins recently acquired by the British Museum*, *The Numismatic Chronicle*, (1965) pp. 144. ff.; *British Museum Quarterly* Vol. 20, 1, March (1965) pp. 10—11; c. f. *Cambridge Ancient History* Plates II, 4, note-

— ١٦ —

أنه أدرك أهمية امتلاك مصدر كبير للقمح لتموين بلاد اليونان من ناحية ،
وجيوشه الغازية في آسيا من ناحية أخرى ، ومصر يمكن أن تقوم بهذا
الدور ، ولعل هنا من أكبر المواقف وراء قرار الإسكندر الخطير بمد معركة
أيسوس أن يسير إلى مصر أولاً بدلا من تتبع الملك الفارسي المنهزم
إلى الشرق .

ب - مصر في عصر الاسكندر الأكبر

منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد ظهرت دولة فارسية جديدة . هي دولة ميديا كدولة كبرى على مسرح السياسة في الشرق الأوسط ، قضت على الدولة البابلية وورثتها في منطقة ما بين النهرين وبسطت نفوذها غربا فشملت إمبراطوريتها معظم أجزاء الشرق الأوسط بما في ذلك آسيا الصغرى وسواحل سوريا وفينيقيا وفلسطين ومصر التي فتحها قبيز سنة ٥٢٥ ق . م . ومنذ ذلك الوقت ومصر تارة تخضع لحكم الدولة الفارسية وتارة أخرى تثور حتى عام ٣٣٢ ق . م . حين حضر الإسكندر الأكبر .

أما بلاد اليونان فلأنها لم تسلم من خطر هذه الدولة الفارسية الناشئة ، إذ استطاع قورش ، أول ملوكها ، من إخضاع للدين اليونانية على ساحل آسيا الصغرى الغربي ، وبعد ذلك لم يكف خلفاؤه عن محاولة غزو العالم اليوناني نفسه حتى استطاع دارا الأول أولا ، ثم اكزرسيس ثانيا من غزو بلاد اليونان واحتلال معظم أجزائها بما في ذلك أثينا ذاتها ، لولا هزيمة الأسطول الفارسي في معركة سلاميس الشهيرة سنة ٤٨٠ ق . م . وفشل حملتهم نتيجة لذلك . ومنذ هذا التاريخ والإغريق يرون في فارس عدوم القليلدى ويمتهدون في الانتقام من الغزو الفارسي ، خاصة وأن فارس لم تقاطع الال القرنين الخامس والرابع ق . م . من التدخل في شئون العالم اليوناني وتأييب للدين بعضها ضد بعض كما سمنحت لهم الفرصة حتى رأينا الملك الفارسي يظهر بمظهر الفصيل في منازعات المدن اليونانية وحروبها على نحو جرح كبرياء الإغريق وجعلهم يتطلعون إلى من يوحد كلهم ويقودهم في حرب مقدسة ضد الفرس . ولقد (٢ م — الاسكندر)

استطاع فيليب ملك مقدونيا جمع المدن اليونانية تحت زعامته ، إن رغبة وإن كرهاً . ولكنه اغتيل أثناء استعداداته لغزو فارس خلفه ابنه الاسكندر الذى نفذ خطة أبيه قتاد الإغريق في حرب مقدسة ضد فارس في سنة ٣٣٤ ق.م. في هذا الوقت كانت الإمبراطورية الفارسية تعاني من داءين خطرين الأول هو سوء الإدارة في الولايات التى كانت تسمى ساتراپيات ، والآخر وهو الأسوأ أنه تربيع على عرشها ملك ضعيف متردد هو دارا الثالث ، ولهذا سرعان ما انتهت الإمبراطورية الفارسية أمام عبقرية الإسكندر الفذة . ولقد سلك الإسكندر في حربه ضد فارس خطة غريبة ، إذ بعد أن استولى على آسيا الصغرى وانتصر في معركة إيسوس سنة ٣٣٣ ق.م. لم يتبع الملك الفارسى المهزم شرقاً نحو عاصمته صوصه . وإنما انحدر جنوباً فاستولى على سوريا وفينيقيا وفلسطين بعد معارك عنيفة عند صور غزة . بعد ذلك اتجه إلى مصر التى سلمها له والى الفارسى دون مقاومة واستقبله المصريون بالترحاب استقبال البطل المنفذ لهم من الحكم الفارسى الناشئ . خاصة وأن المصريين كانوا قد ألفوا الإغريق كأصدقاء كثيرأ ما ناصرهم في ثوراتهم ضد فارس ، كما كان وجودهم كتجار في قرايطس ، مصدر كسب كبير للزراعين المصريين ومن أكبر عوامل تنشيط التجارة الخارجية لمصر كما بينا من قبل .

ويرجع المؤرخون عادة تفسير خطة الإسكندر الغربية في عدم تقبيل الملك الفارسى والقضاء عليه نهائياً إلى عبقريته العسكرية في أنه أراد محاصرة الأسطول الفارسى القوى عن طريق الاستيلاء على جميع السواحل في شرق البحر الأبيض المتوسط التى يمكنه أن يلجأ إليها ، وهى الخطة التى يوردها أريانوس على لسان الإسكندر نفسه في خطبة نسبها له في هذا الصدد^(١) . ولكن من المحتمل

أيضاً أن شهرة مصر كمصدر هام للغلال كان له دخل كبير في توجية خطة الإسكندر هذه الوجهة^(١)، إذ يمكن استخدامها كقاعدة لتموين المدن اليونانية من ناحية وتموين جيوشه الغازية شرقاً من ناحية أخرى .

على أى حال وصل الإسكندر بلوزيوم (القرما) في خريف سنة ٣٣٢ ق.م. ومنها اتجه جنوباً على امتداد الفرع البلوزى للنيل حتى وصل إلى ممفيس، وهناك سلمه البلاد ما زاكسى الوالى الفارسى على مصر^(٢). ولابد أن الإسكندر شعر حينئذ أن آماله قد بدأت تتحقق فعلاً ، وأن مرحلة الخطر والمعارك الكبرى قد انتهت ، فهذه مصر أكبر وأغنى قطر في الدولة الفارسية قد دانت له واستقبله أهلها بالترحاب استقبال البطل المنتقد .

كان الإسكندر سياسياً ماهراً بقدر ما كان قائداً نابغة يحسن معاملة الناس وكسب ودم . فلا أقل من أن يبادل المصريين ودّاً بود ، فزار معبد الإله بتاح وقدم القرابين للآلهة ، ويقال أن الإسكندر نصب فرعوناً حسب التقاليد الدينية المصرية . بعد ذلك أقام مهرجاناً موسيقياً رياضياً حسب التقاليد اليونانية ، اشترك فيه عدد من أشهر الفنانين والممثلين في بلاد الإغريق ولاشك أن مثل هذا المهرجان كان يخدم غرضين في وقت واحد . أولاً هو بمثابة ترفيه كان جنوده في أشد الحاجة إليه بعد استمرار النقلة وتوالى المعارك وثانياً هو عرض أمام المصريين لجانب من الحضارة اليونانية التى خرج الإسكندر يبشر بها ويقدمها للشرق .

بعد ذلك اتجه الإسكندر وجماعة من رجاله إلى الشمال الغربى في زيارة إلى

(١) يتضح مما يورده أربانوس أن مصر كانت هدف الإسكندر الأصل ل زحفه جنوباً

Arrian, III. I. 1.

أظهر خطبة الإسكندر مبالغة الذكر وكذلك

Arrian, III. I. 2.

(٢)

معبد الإله آمون في واحة سيوة . فأتخذوا الفرع الكانوبي من النيل حتى الساحل ، ثم تبعدوا الساحل غربا حتى وصلوا قرية تعرف باسم راقوده تواجهها في البحر جزيرة تعرف باسم فاروس كما تقع إلى الجنوب منها بحيرة ماريا (أومريوط) . هناك قرر الإسكندر تأسيس مدينة الإسكندرية وأمر بأن تتخذ عاصمة لمصر^(١) . وتعتبر هذه المدينة أعظم وأخلص أعمال الإسكندر في مصر ، كما تصبح من بعده مركزاً ورمزاً الحضارة المصرية التي ابتدأها الإسكندر .

بعد أن انتهى الإسكندر من معاينة مكان مدينته الجديدة^(٢) وأصل السير غربا مستأنفاً رحلته إلى سيوة . وكان خط سيره عن طريق الساحل الشمالي إلى بريتونيوم Paractonium (مرسى مطروح) حيث استقبل فيها يقال وفدا من أغريق برقة ، ثم اتجه جنوبا إلى سيوة .

وقد اهتم المؤرخون قديما وحديثا بتفاصيل رحلة الاسكندر إلى سيوة لغزابة الفكرة ودلالاتها^(٣) ، إذ ما حدا بقائد عسكري لم يفرغ بعد من حرب

(١) حول تأسيس الاسكندرية أنظر :

Arrian, III. 1 ; Justinus, 11, 11, 13; 13, 4, 11; Ps. Aristotelo Oeconomica, II, 33; Curtus Rufus, IV. 8.5.

وكتاب الاسكندر الأكبر تأليف و. د. تاون W.W. Taun وترجمة زكي علي

ص ٨٠ — ٨٤ .

(٢) كانت الاسكندرية تحتفل بعيد تأسيسها في مصر الروماني في يوم ٢٥ طوبة كما ورد في Pseudo Callisthenes 1, 31, 2 وللمصر الروماني كان هذا التاريخ يوافق ٢٥ يناير حسب التقويم اليوناني . أما عند تأسيس المدينة سنة ٣٣١ ق . م فكان يوافق ٧ إبريل أي قبل إصلاح التقويم المصري الذي أدخله يوليوس قيصر وطبقه في مصر أغسطس سنة ٣٠ ق . م .

(٣) أنظر : P. Jouguet, Alexandre à l'oasis d'Ammou et le témoignage de Callisthène Bulletin de l'Institut d'Égypte, 26 (1944) pp. 91-107. I. Nosen: Alexander and the Oracle, of Ammon Annales Fac. Lettres Univ. Ibrahim, 11 (1953) pp. 75-98

عدوه أن يقوم برحلة خلوية لا تخلو من مخاطرة إلى قلب الصحراء الغربية بعيدا عن العمران من أجل زيارة معبد . ولكن مثل هذه الرحلة مما يتفق وما نعرفه عن شخصية الإسكندر التي غلب عليها التأثير الديني إلى حد التطير إلى جانب ميل شديد للمخاطرة واكتناه المجهول، فليس مستغربا إذن أن تسهوى سيوه ومعبد الإله آمون الذي ذاع صيته في العالم اليوناني منذ القدم، خيال الإسكندر ليستلهم آمون الوحي عن مستقبل آماله . خاصة وأن اثنين من أبطال الإغريق هما برسيوس وهرقل قد سلكا هذا السبيل من قبل فيما تروى الأساطير . فالإسكندر بهذا العمل يضيف حلقة إلى تقليد ديني عريق يليق بشخصيته البطولية . على أي حال مضى الإسكندر إلى سيوه واستقبله كاهن للعبد على أنه ابن آمون . ونحن لانعرف ما حدث بين الإسكندر ووحى الإله آمون ولكن لابد أن الإسكندر قد سأل عما يشغل باله وهو حملته ومسير جبهوده، ولابد أن الرد كان منبثقا بتحقيق آمال الإسكندر وسيادته على العالم . أما الإسكندر نفسه فلم يفصح عما حدث داخل قدس الأقداس .

بعد أن أتم الإسكندر الزيارة عاد بالطريق للباشر عبر الصحراء إلى ممفيس حيث أقام بعض الوقت تفرغ فيه لإعادة نظام الإدارة والحكم في مصر على أسس جديدة تتلخص فيما يلي^(١) .

قسمت مصر إلى قسميها الرئيسيين ، شمالي وجنوبي (أي الوجه البحري الوجه القبلي) وعهد بإدارة كل قسم إلى موظف مصري ، ولكن حين تنحى أحدهما وهو بتيزيز Potisios تولى زميله دولاسبيس Dolosapis إدارة الوجهين معا . أما الحدود الشرقية والغربية فقد أنشأ بهما مقاطعتين جديدتين (العربية وليبيا) وعين على الأولى كليومنيس النقراطيلى .

Cleomenes of Nancratis وعلى الثانية أبولونيوس بن خاريتوس
- Apollonius son of Charisius

وفيا يتعلق بالسلطة العسكرية فقد عين قائدين على الحامية العسكرية التي
تركها في مصر هما ييوكتيس بن مكارتاتوس Peneestes son of Macartatus
وبلاكروس بن أمينتاس Balacrus son of Amyntas . كما عين بوليمون
ابن ثيرامين Polemon son of Theramenes قائداً للأسطول . هذا إلى
جانب قواد آخرين لبعض الوحدات المربطة في ممفيس وبلوزيوم . أما الإشراف
على الخزائن والشئون المالية فقد عهد به إلى كليومنيوس التقرامبسي ، وأمره
الإسكندر بأن يترك حكام اللدريات المختلفة يديرون مقاطعاتهم كما كان الأمر
من قبل وأن يجمع منهم الضريبة للقروضة . وأخيراً عهد إلى كليومنيوس أيضاً
بمهمة الإشراف على بناء مدينة الإسكندرية الجديدة^(١) .

هذا هو ملخص النظام الذي وضعه الإسكندر لحكم مصر قبل أن ينادرها
في ربيع سنة ٣٣١ ليواصل حربه ضد الملك الفارسي في الشرق . ونظرة سريعة
إلى هذا النظام تكشف لنا قصصاً ظاهراً فيه وهو عدم وجود منصب حاكم عام
للبلاد ، وإنما وزعت السلطة بعناية شديدة بين الشرفين على الإدارة والشئون
العسكرية والشئون المالية . وقد كان أريانوس أول من لاحظ هذه الحقيقة
وفسرها بأن الإسكندر فعل ذلك عامداً لينع أي حاكم بمفرده من أن يقوى
سلطانه ويتمكن من الاستقلال بمصر . ورغم أن أحداً لم يستقل بمصر أثناء
حياة الإسكندر ، ولكن ما أن ظاد هو مصر حتى وجدنا الشرف على

(١) منه الوظيفة لم يذكرها أريانوس ولكن ذكرها Pseudo Aristotle, Occ. II 3
و Justinus 13. 11. 4.

الشئون المالية كليومينيس النقراطيسى يظهر فوق كل الموظفين والقادة الآخرين وبدا كأنه والى مصر القعلى .

ورغم أعماله التى أغضبت سائر الإغريق فيبدو أنه ظل حائزاً لثقة الإسكندر الخاصة وبقى فى منصبه طيلة حياة الإسكندر .

معلوماتنا عن كليومينيس هذا محدودة جداً فنحن نسمع عنه للمرة الأولى حين عهد إليه الإسكندر بمدة مهام فى نظامه لحكم مصر وأهمها الإشراف على الخزانة ، ولانعرف عن تاريخه قبل ذلك شيئاً . ولكن نستنتج من اسمه أنه من إغريق مدينة قنطاطيس ، ولا بد أنه كان من أعيانها وكبار تجارها مما يجعله ذا خبرة وحداية بشئون السوق والحياة الاقتصادية المصرية ، الأمر الذى يجب أن يتوفر فيمن يعهد إليه بالإشراف على الخزانة .

على أن كليومينيس لم يكن مجرد موظف كفء يتلقى تعليمات الملك لينفذها بإتقان وإنما كان تاجراً ومالياً من نوع فريد حتى لنعبر فترة إشرافه على المالية المصرية تجربة فذة فى تاريخ الاقتصاد . فقد أوتى هذا الرجل ذكاء حاداً وخبرة نادرة ليس بالسوق المصرية فحسب وإنما بالأسواق العالمية فى البحر الأبيض المتوسط حينئذ ، وعامل المالية المصرية كما يعامل التاجر الطموح ماليته الخاصة ، وتاجر باسم الدولة .

والمتتبع لأعمال كليومينيس^(١) منذ أن تولى منصبه يلحظ أنه انتهج سياسة مقصودة لإقامة احتكار لتجارة القمح عن طريق السيطرة على السوق المصرية بأن يصبح هو المصدر الوحيد للقمح المصرى . وعن هذا السبل استطاع

التحكم في تجارة القمح العالمية وتحديد أسعاره في الخارج على نحو يحقق له الربح الوفير .

وقد ابتداءً بفرض سيطرته على سوق القمح المصرية بأن قضى على سائر المنافسين الذين كانوا ينتصرون في الكهنة وكبار المزارعين والمصدرين . وقد اشتهر كليومنيس بين القدماء بالخدعة والحيلة اللتين استخدمهما بنجاح لتحقيق أهدافه .

ابتداءً كليومنيس بطبقة الكهنة التي سعى إلى أن يضعف من مركزها عن طريق إضفاء قدرتها المالية . وكانت محاولته الأولى على فئة منهم في منطقة الفيوم كانت تقديس التمساح . فادعى أنه أثناء زيارة له لمنطقة الفيوم ابتلع تمساح أحد أتباعه وأنه انتقاماً من هذه الحادثة سوف يتصيد التماسيح في الفيوم ويقضى عليها . نفى الكهنة على إلههم من الإهانة التي ستلحق به ، فجمعوا ما استطاعوا من المال وقدموه لكليومنيس تمويضاً عن خسارته في أحد أتباعه . فرضى كليومنيس وهدأت ثورته .

بعد ذلك قام بمحاولة استهداف بها طبقة الكهنة بأسرها ، إذ جمع ممثلين من جميع المعابد وأعلنهم أن المعابد تتكلف الكثير من المال ولذلك يجب القضاء على بعضها . تخاف الكهنة على معابدهم وانفقوا على جمع مبلغ كبير من المال سواء من أملاكهم الخاصة أو من أموال المعابد وقدموها لكليومنيس .

كانت هذه الجولة الأولى وكان الغرض منها إخضاع الكهنة سياسياً واقتصادياً . بعد ذلك اتجه كليومنيس نحو طبقة المزارعين ونجح في التخلص من منافسهم بأن يتفق معهم على أن يبيعوا له جميع محصولهم من القمح بالسعر

الذى كانوا يصدرون به. وبذلك احتكر تجارة القمح وأصبح المصدر الوحيد لهذه السلعة في مصر .

أما عن تحكمه في الأسواق الخارجية العالمية ، فقد كان ذلك عن طريق شبكة متقنة من السماسرة والوكلاء بهم في موانئ البحر الأبيض المتوسط الهامة هؤلاء الوكلاء كانوا يخبرونه أولاً بأول عن أسعار القمح في الأسواق المختلفة وحينما شح القمح وارتفع سعره استطاع كليومينيس أن ينتهز الفرصة في الحال ويرسل إلى ذلك المكان شحنات من القمح ويبيعها بالسعر الذى يفرضه هو نظراً لندرته في ذلك المكان ، حتى ليقال أنه باع الكيل من القمح في بعض الأزمات بمبلغ ٣٢ دراهمة بينما السعر العادى كان يتراوح بين ٥ — ١٠ دراهمات فقط^(١) .

هذا مجرد عرض سريع لسياسته التجارية التى كانت تهدف إلى احتكار تجارة القمح . وقد نذكر هنا أن ممارسة الاحتكار لم تكن جديدة على مصر ، فقد مارسها الفراعنة من قبل في احتكار بعض السلع للتجارة الداخلية . ولكن محاولة كليومينيس إنشاء تجارة احتكارية دولية هي الأولى في التاريخ .

والجديد في محاولته هذه أنه مارسها بأساليب تجارية بحتة ، ، ليس مثل أئينا التى استخدمت سيادتها البحرية لاحتكار تجارة البحر لأسود في القرن الخامس ق . م .

(١) السعر المرتفع الذى باع به كليومينيس القمح مذكور في

Pl. Aristotele, Oec. II. 33, c.

Jardé. Les Ceronles dans أما عن متوسط سعر القمح فانظر :
l'antiquite grecque, p. 179.

سؤال أخير يجب أن نأله بشأن نشاط كليومنيس التجارى . وهو هل قام بهذه التجارة لحسابه الشخصى أو باسم الدولة ولصالحها . ليس لدينا رد قاطع على هذا السؤال ولكننا نستطيع أن نستشف من لغة مصادرنا القديمة أن كليومنيس قام بالتجارة على أنه رجل من رجال الدولة .

وهناك دليل آخر يؤيد هذا الاستنتاج هو أن بطليموس الأول سoter تسلم من كليومنيس فى خزانة الدولة مبلغ ثمانية آلاف تالنتوم^(١) مما يدل على أن أرباح كليومنيس من التجارة كانت تذهب إلى خزانة الدولة .

إلى جانب هذا النشاط التجارى الجرم ، فإن اسم كليومنيس يقترن أيضاً بتأسيس مدينة الإسكندرية فى مرحلتها الأولى وكان من أوائل مواطنيها^(٢) فحين عهد إليه الإسكندرية بالإشراف على بناء المدينة الجديدة أمر بأن تكون الإسكندرية عاصمة مصر . ويبدو أن كليومنيس جعلها فعلاً مركزاً لنشاطه التجارى . ورغم أن مباني الإسكندرية العظيمة لم توجد إلا بعد أن أنشأ البطالمة دولتهم . إلا إنه ما من شك أن إسكندرية كليومنيس كان لها طابع الميناء التجارى السريع البناء . وأنها فى عصره احتلت مكانة نفراطيس كركر للتبادل التجارى مع اليونان وليس أدل على سرعة نماء الإسكندرية فى أعوامها الأولى من أنه فى عام ٣٢٦ ق . م . (أى بعد خمس سنوات من تأسيس الاسكندرية كان بها دار نشطة لسك العملة تصدر عنها عملة الإسكندر المشهورة فى كميات كبيرة وفى إتقان فنى راق^(٣) .

Diodorus Sic. 18. 14. 1.

(١)

Ps Aristotle, Oec. 11. 33.

(٢)

C. Seltzman : Greek Coins, p. 212.

(٣) راسم

— ٢٧ —

هذه المدينة هي أفضل أعمال الإسكندر في مصر ، ودور
كليومنيس في تاريخها على أى حال لم يكن بالغ الأهمية ، وإنما البطالة
هم الذين منحوا الإسكندرية شخصيتها التاريخية التي عرفت بها على مر
العصور .

الفصل الثاني

التاريخ السياسي لمصر في العصر البطلمي عصر القوة

(١) بطليموس الأول سوتير (٣٢٣ - ٢٨٤ ق. م.)

الموقف عقب وفاة الاسكندر :

من أعقد مواقف التاريخ الموقف الذي نتج بعد وفاة الإسكندر فجأة في يونية سنة ٣٢٣ ق.م.^(١) ذلك أن هذه الإمبراطورية المترامية التي أنشأها الإسكندر في سرعة غريبة وشملت شعوبا وأقطارا متباينة أشد التباين لم تسكن قد خضعت لنظام سياسي وإداري محكم يكفل لها البقاء والاستمرار . كما أن مسألة وراثة العرش لم يكن الإسكندر قد تفرغ بعد لتنظيمها في الوقت الذي لم يكن له وريث شرعي .

من أجل هذا عندما توفي الإسكندر فجأة كان الأمر بيد كبار قواده وأعوانه في اللحظة، الذين كان لكل منهم أطماعه وآماله وقليل منهم كان يؤمن بفكرة الإسكندر عن وحدة العالم ومبدأ العمل على مزج الحضارات بين الشرق والغرب لنتج عن ذلك حضارة عالمية واحدة تجلب على الإنسانية السلام والرخاء . ولكن من آل إليهم أمر الإمبراطورية كانوا على النقيض من ذلك وكان الاختلاف بينهم يتوقف على مدى اختلاف أطماعهم ، فمنهم من أراد

(١) أفضل وأحدث محاولة لمعالجة هذه الفترة :

P. cluché, La Dislocation d'un Empire (323 — 280av J. C.)
paris, 1959

الإبقاء على وحدة الإمبراطورية ليخلف الإسكندر على رأسها مثل پرديكاس
 Perdicas أولا وأنتيجونس Antigonus من بعده، ومنهم من كان يسعى
 للحصول لنفسه على إحدى الولايات ليستأجر بها ويؤسس فيها دولة مستقلة مثل
 بطليموس Ptolemaeus

هذا هو الموقف الذى نشأ فى بابل عند وفاة الإسكندر بها ولكن مامن
 شك أن پرديكاس، صاحب المركز الأسمى فى الحملة بعد الإسكندر وبمناطة رئيس
 أركان حربه، كان أقوى شخصيه فى بابل فى ذلك الوقت ويبدو أنه كان موضع
 ثقة الإسكندر السكاملة وأقرب الناس إليه، حتى يقال أن الإسكندر حين
 حضرته الوفاة منح پرديكاس خاتم الملك^(١). لذلك لم يكن مستغرباً أن يشير
 پرديكاس بأنه صاحب الحق الأول فى تولى مقاليد الأمور بنفسه، واستطاع
 فعلاً أن يصل إلى التسوية التالية لتوزيع السلطة فى الإمبراطورية.

بعد خلاف بين القادة حول مشكلة الوراثة اتفق الجميع على أن يتولى
 العرش ملكان هما أريدورس Arrhidarus الذى لقب بفيليب الثالث، وكان
 أخاً غير شقيق للإسكندر، واللولود المنتظر للإسكندر من روكانا زوجته
 الفارسية إذا كان ولداً. وجاء المولود ولداً فى أغسطس سنة ٣٢٣ ق.م. وسمى
 الإسكندر الرابع. بعد ذلك منحت القيادة العليا للجيش فى آسيا لپرديكاس
 الذى استطاع أن يجعل من نفسه وصياً عاماً على الملكين خاصة
 وأن أريدورس فيليب كان معروفاً بالبلاهة وضعف العقل وعدم القدرة على
 الحكم بنفسه. أما القيادة فى اليونان فقد منحت لأنتيباتروس Antipatros
 أكثر قواد الإسكندر مكانة وشعبية بين الجنود.

وكان الإسكندر قد تركه لتدبير شئون مقدونيا فى غيابه وللإشراف على

اليونان، وقد بقي لهذا للنصب في التسوية الجديدة هؤلاء هم القادة الذين كانت لهم الكلمة العليا في بادئ الأمر، أما سائر أجزاء الامبراطورية فقد وزعت بين القادة الآخرين واستمر العمل بالنظام الفارسي فكل ولاية سميت ساترية وحاكمها ساترا. ولكن يهتما من هؤلاء أربعة فقط سيصبحون فيما بدم والأسر المالكة التي انشأوها في ولاياتهم محور التاريخ في مدى القرون الثلاثة التالية وهم انتيجونس Antigonos الذي منح فريجيا الكبرى وبامفيليا وليشيا (في آسيا الصغرى)، ولوسيامخوس Lysimachus منح طراقيا، ثم سليوقس عهدت إليه قيادة عليا في الجيش كالمساعد الأيمن لبرديكاس. أما مصر فقد منحت لبطلميوس بن لاجوس على أساس أن يصبح كليومنيس — الذي كان قد عينه الإسكندر مشرفا على مالياتها ولكنه غدا بمثابة الحاكم الفعلي للبلاد مساعدا لبطلميوس بمنصب (Hyparchon).

هكذا قامت في مصر أسرة جديدة ودولة جديدة، وكان بطلميوس على علم تام بـ... الذي فاز به، ويقال أنه كان متفقا مقدما مع برديكاس بأنه إذا ناصر برديكاس في صراعه من أجل السلطة سيعينه برديكاس ساترا على مصر. ولذلك لم يضع بطلميوس وقتا بعد صدور القرار بمنحه ساترية مصر بل مضى إليها في الحال تاركاً سائر القادة في خلافاتهم ومنافساتهم. وبأنه على يقين من المستقبل بأنه ليس مجرد حاكم معين من قبل السلطة المركزية، وإنما هو مؤسس دولة جديدة مستقلة.

ولكن من هو هذا الحاكم الجديد الذي أصبح فيما بعد ملكا لمصر؟ إن... لوماتنا عن تاريخه الأول قليلة جدّا تكاد تنحصر في أنه ينتمي إلى أسرة تعتبر من صغار أو أوساط النبلاء في مقدونيا. ويقال أنه تعلم وتربى في صباه في القصر الملكي للمقدوني مع الإسكندر كمادة أبناء النبلاء. وفي أثناء حملة

الإسكندر أصبح أحد أعضاء الحرس الخاص للإسكندر، الذين لم تقتصر مهمتهم على مجرد السهر على سلامة الملك وإنما كانوا بمثابة مستشارى هيئة أركان حربه أيضاً. ونعلم أنه أخلص الإخلاص كله فى خدمة الإسكندر وأنه أظهر تفوقاً وقدره حربية عظيمة فى معارك عديدة. وكان بطليموس إلى جانب هذا كله على جانب كبير من الثقافة ذا ذوق أدبى وميل إلى دراسة التاريخ. فلم يقصر حياته أثناء حملة الإسكندر على الواجب العسكرى، وإنما استغل هذه الفرصة وكتب كتاباً عن سيرة الإسكندر، مستخدماً فى ذلك معرفته الوثيقة بشخصية البطل الذى يكتب عنه ودرايته بكافة تفاصيل الحملة وأسرارها.

ورغم أن هذا الكتاب العظيم لم يصل إلينا سالماً إلا أن أجزاء منه قد وصلتنا فى كتابات اللاحقين من المؤرخين الذين اعتمدوا عليه فى التاريخ لعصر الإسكندر^(١). وتمتاز كتابته التى وصلتنا بالإيجاز والرأى السديد والبعد عن المبالغات وغلبة حكم العقل على حكم العاطفة. ومن المحتمل جداً أنه صحب الإسكندر فى مصر لأنه يهتم كثيراً بوصف مصر والرحلة إلى واحة سيوة.

أما عن شخصية بطليموس فرغم أن أحداً من مصادرنا لم يذكر وصفاً لها مكتفين بوصف أعماله، فإن العملة الفضية التى أصدرها بطليموس حاملة صورته على أحد وجهيها، تظهر شخصيته على أنه حازم واقى جم النشاط ذو عزيمة وإرادة قوية وقدره كبيرة على الاحتمال والعمل. وبالرغم من أنه لا يفتنى للمبالغة فى الاعتماد على مثل هذه الأدلة، إلا أن ما نعرفه عن أعمال بطليموس السياسية والعسكرية تؤيد مثل هذا الاستنتاج.

(١) يثير أريانوس فى كتابه عن سيرة الإسكندر Analosis أم من اعتمد على كتاب بطليموس.

بطليموس ومشاكل النزاع بين خلفاء الإسكندر^(١) :

هذه هي شخصية بطليموس بن لا جوس الذى جاء إلى مصر في صيف ٣٢٣ ليحكم بصفته ساربا . وأهم ظاهرة تتصف بها سياسته الخارجية والداخلية على حد سواء هي الحرص ، كما كان الغرور أبعد الأخلاق عن سلوكه . وهاتان الصفتان من أهم ما يجب أن يتميز به رجل الدولة الذى يهدف إلى إنشاء دولة تبقى من بعده . ولذلك بدلا من أن يضرب في متاهات السياسة العالمية وأن يسمى وراء الأحمال التى خدعت غيره من خلفاء الإسكندر مثل سيادة الإمبراطورية والتفرد بالسلطة فيها ، وجدناه يضع أسسا محددة لسياسته الخارجية قائمة على فهم تام لإمكانياته والظروف التى نتجت بعد موت الإسكندر في آسيا وأوروبا ، أما هدفه الرئيسى فكان تأمين سلطانه في مصر ، من أجل تحقيق هذا الهدف رأى أنه من الأفضل أن يخضع لسلطانه بعض المنازعات المجاورة على الحدود الشرقية والغربية لينجى إمكان غزو مصر فجأة عن طريق البر ، وكذلك أن يحمل له مناطق نفوذ في بحر إيجه وخاصة الجزر لتكون بمثابة نقطة أمامية تضمن له السيطرة على البحر^(٢) .

هذه كانت أسس السياسة الخارجية لبطليموس الأول وسبقى كما هي في عصر خلفائه ما بقيت لهم سياسة خارجية مستقلة ، ولكن من أجل تحقيق هذه السياسة كثيراً ما اصطدم بالقواد والحكام الآخرين الذين ورثوا إمبراطورية الإسكندر .

P. Cloché, La Dislocation d'un Empire, pp. 47 ff.; (١)
Tarn, Hellenistic Civilization, pp. 5 ff.; Jouquet,
L'Impérialisme Macédonien, pp. 139—167.
Jouquet, L'Impérialisme Macédonien, p. 281. (٢) أنظر :

وأول خلاقات بطليموس بدأت ضد السلطة المركزية وبشأن دفن جثمان الاسكندر، إذ كان پرديكاس قد قرر دفنه الأصلي في مقدونيا ولكن بينما كانت الجنازة في طريقها إلى مقدونيا، استولى بطليموس على تابوت الإسكندر في سوريا ونقله إلى ممفيس في مصر ثم نقله بعد ذلك إلى الإسكندرية حيث كان يشاهد هناك في العصرين اليوناني والروماني ويعرف باسم سوما (Soma) أو سوما (Soma) كان هذا العمل من بطليموس يعني أنه يستطيع مخالفة رأى پرديكاس وعدم طاعته في المستقبل.

بعد ذلك منحت لبطليموس فرصة لضم برقة إلى سلطانه عين قام في مدينة قورينة خلاف بين الأحزاب المختلفة ولجأ بعضهم إلى بطليموس، فأنهز الفرصة وأخضعهم جميعاً في نهاية سنة ٣٢٢ ق.م. هذا الانتصار السريع أكسب اسمه فجة شهرة وأهميه، وأشعره بإمكاناته حاجة سياسة مستقلة فصار خطوة أخرى في سبيل تثبيت مركزه في مصر، كانت بمثابة إلغاء تبعيته لپرديكاس. ذلك أنه كان يضيّق بوجود كليومينيس، رئيس خزائن مصر زمن الإسكندر والذي عينه پرديكاس ماعدا لبطليموس، وكان ينظر إليه على أنه رقيب من قبل پرديكاس. ولهذا قرر التخلص منه عن طريق توجيه بعض التهم إليه ومحاكمته وقتله.

وفي الوقت نفسه كانت ربيع المقاومة قد بدأت تنور ضد پرديكاس في سائر أجزاء الامبراطورية، تتحالف ضده انيبياتروس. (في مقدونيا واليونان) وانتجونس (وإلى فرجيا الكبرى في آسيا الصغرى) ولوسياخس (طراقيا) وانضم إليهم بطليموس، قرر پرديكاس محاربتهم وإخضاعهم لسلطانه. وجرت الحرب في ميدانين رئيسيين، آسيا الصغرى ومصر.

أما آسيا الصغرى فقد أرسل إليها پرديكاس أحد قواده وهو يومينيس (٣م - اسكندر)

Eumenes ، بينما اتجه هو بنفسه إلى مصر لتلقيها واليهما النشق درسا يكون عبرة لغيره . ولكن برديكاس يقتل في مصر ويعجز عن عبور النيل بينما يتآمر عليه ضباطه برئاسة سليوقس ويقتلونه سنة ٣٢١ وبذلك تفشل الحملة بأسرها ويجمع القادة الحلفاء بعد الانتصار في تريباراديس Tciparadise (شمال سوريا) لإعادة توزيع الامبراطورية ، وأهم معالم التوزيع الجديد هي إعلان انتيباتروس وصيحا عاما على الامبراطورية ، ولما كان مقره في مقدونيا فقد صعب اللسكين معه إلى هناك ، ثم تأكيد مركز بطليموس في مصر وبرقة وكذلك استمر انتجونس ساتراپا في فريجييا وعين قائدا عاما للجيش الملكية وكلف بإخضاع برديكاس ، كما استمر لوسياخس في منصبه ساتراپا في طراقيا ، أما سليوقس الذي قتل برديكاس فقد منح ولاية بابل .

لم يستمر الأمر على هذا النحو أكثر من عامين إذ توفي انتيباتروس سنة ٣١٩ ق . م . عين قبل وفاته بوليبرخون Polyperchon ، أحد قواد الاسكندر القدماء ، خلفه له وكان أول معترض على الاجراء كاسانديروس Cassandron ابن انتيباتروس الذي كان يعتبر نفسه أحق الناس بأن يرث منصب أبيه وأخذ يهاجمه في بلاد اليونان ذاتها منتهجا سياسة العنف والبطش ضد خصومه فجلب عليه سخط الاغريق جميعا . ولكنه وجد حليفين قويين في بطليموس وانتجونس ، ذلك أن بطليموس كان يعمل على الاستيلاء على سوريا منذ انتصاره على برديكاس . فانهز فرصة موت انتيباتروس وما نشأ عنه ، فزحف على سوريا واستولى على ما يمكن أن يسمى سوريا الجنوبية Gaelo Skria (ويشمل أساسا منطقة فلسطين وشمل عادة جنوب سوريا وفينيقييا أيضا) ، ولكي يبرر محالفته لكاسانديروس أرسل أسطولاه إلى بحر الأرخبيل دون أن يقوم بأي عمل إيجابي .

أما أنتجونس فقد كانت له أطماعه الشخصية أيضاً ، إذا كان يسعى إلى الاستقلال بآسيا الصغرى بأسرها ، فأمد ساندروس بالجند والسفن لمهاجمة بوليبرخون في مقدونيا ، بينما توجه هو لمحاربة يومينيس قائد برديكاس السابق والذي انحاز إلى جانب بوليبرخون واتخذ مركزه في آسيا وحارب حرباً مجيدة حتى أنه استطاع طرد بطلميوس من معظم سوريا . واستمرت الحرب حتى سنة ٣١٦ ق. م . حين انتصر عليه أنتجونس .

هذا الانقسام بين القادة الحكام كان له صدى في الأسرة المالكة . ظالمك الأب له أريدوس فيليب وزوجته الطموح | يوردى Eurydice انحازا إلى جانب كاساندروس بسبب كراهيتهم للملكة أولمبياس Olympias والدة الإسكندر الأكبر والتي كانت منطاة إلى جانب بوليبرخون . فما كان من أولمبياس إلا أن تأمرت على أريدوس وزوجته وقتلتها سنة ٣١٧ ق. م . أما ريسانو والملك الطفل الإسكندر الرابع فقد كانا كرهائن في يدى كاساندروس حتى إذا ما نجح هذا الأخير في الاستيلاء على مقدونيا وقتت أولمبياس في يديه قتلها ، أما بوليبرخون فقد لجأ إلى بعض المدن اليونانية التي أعلن مناصرتة لها .

ولكن ذلك لم يحل للوقف السياسى للحدث الناشئ عن موت أنتياتروس لأنه بعد انتصار أنتجونس على يومينيس في الشرق ، داعبت خياله فكرة الاستيلاء على الامبراطورية لنفسه فأنجه إلى بابل حيث كان سليوقس ساتراپا وعامله معاملة التابع ، وأخذ يطالبه بتقديم الحساب من ولايته ، كما استولى على الخزائن الملكية في موصه ، فاضطر سليوقس إلى الفرار إلى مصر مستنجداً بملكها على هذا النحو أصبحت الامبراطورية الفارسية بأسرها — باستثناء مصر — تحت سلطان أنتجونس .

هذا الموقف الجديد بعث القدر في نفوس الحكام الآخرين ، فتكون في الحال تحالف جديد من بطليموس ولوسياخس وكاسانديروس ، ووجهوا إلى أنتيجونس إنذاراً يطالبون فيه بأن يتنازل عن معظم للناطق التي استولى عليها أخيراً ، على أن تعود بابل إلى سليوقس ، وسوريا الجنوبية إلى بطليموس ، وقرمياً على الدردنيل إلى لوسياخس وأن يعترف بسلطان كاسانديروس على مقدونيا واليونان وبعض مناطق آسيا الصغرى . وأضافوا أن خزائن صوصه التي استولى عليها يجب أن توزع بين الجميع بالتساوي .

رفض أنتيجونس هذا الإنذار ، ونشبت بين الطرفين حرب مريرة استمرت من ٣١٥ حتى ٣٠١ ق م .^(١) . وابتدأ أنتيجونس يغزو سوريا الجنوبية فاستولى عليها ورد بطليموس إلى داخل حدوده وراء غزة ، وترك ابنه ديمتريوس الذي سيقب بظاهر المدن Demetrius Poliorketes حاكماً عليها . واتجه أنتيجونس بعد ذلك إلى العالم اليوناني لمقاومة كاسانديروس وهناك حاول تأليب المدن اليونانية عليه بأن أعلن سياسة الحرية والاستقلال لجميع المدن اليونانية . على أثر ذلك سنجد بطليموس بعلن انتهاج السياسة نفسها نظراً لأن له أطماعاً في بحر إيجه .

وفي سنة ٣١٣ ق م . قاد حملة بحرية إلى قبرص واستولى على الجزيرة . ولكن استمر تفوق أنتيجونس في منطقة بحر إيجه ، فنجح في الاستيلاء على جزر الكيكلاديس اليونانية كما مد نفوذه على أجزاء كبيرة من جنوب شبه الجزيرة اليونانية .

(١) المصدر الرئيسي لأحداث هذه الفترة هو ديودور Diodorus وحاتم الكتابين

١٨ و ١٩ .

P. Cloché, *La Dislocation*, pp. 141 ff.

أطراً أيضاً

في هذه الأثناء قام بطليموس بشن هجوم جديد على سوريا الجنوبية واثصر على ديمتريوس انتصاراً ساحقاً في موقعة غزة سنة ٣١٢ ق. م . وكانت أهم نتيجة لهذا الانتصار هو إمكان عودة سليوقس إلى بابل ، رغم أن ديمتريوس حاجه واستولى على بابل ولكن دون نتيجة حاسمة . وفي نفس الوقت تابع بطليموس تقدمه فاستولى على فلسطين وفينيقيا . ولكن سيطرته على ممتلكاته لم تستمر طويلا ، إذ سرعان ما عاد ديمتريوس من بابل واثصر على جيش بطليموس في شمال سوريا سنة ٣١١ ، وحضر أنتيجون بنفسه ، وانسحب بطليموس من فلسطين مرة ثانية .

وفي العام نفسه ثار عليه واليه في برقة . وهكذا فقد بطليموس معظم ممتلكاته الخارجية في عام واحد .

وفي هذا العام كان القادة الآخرون قد ضاقوا باستمرار هذه الحرب التي لم يروا لها نهاية حاسمة . فمقدوا اتفاقاً ، أهم ما يتضمنه هو أن يتنازل بطليموس عن سوريا الجنوبية ، وأن يعترف أنتيجون بكاسانديروس حاكماً لليونان حتى يبلغ الإسكندر الرابع سن الرشد ، وأضيفت إلى الاتفاق عبارة تنص على ضمان حرية المدن اليونانية .

في هذا الاتفاق سمي القواد الموقعون عليه أنفسهم « القاعمين على الأمر » ، وأرخوا وثيقتهم باسم الملك الطفل الإسكندر الرابع^(١) . ولكن لم يكف بعض عام واحد على هذا الاتفاق حتى خشي كاسانديروس أن يبلغ الإسكندر الطفل سن الرشد فيبطل حقه في السلطان حسب اتفاق سنة ٣١١ ، قرر

(١) أهم مصدرين لاتفاق عام ٣١١ هـ
Diodorus XIX. 75. 1-6;
O. G. I. S. I, 5 =
C. B. Wells, Royal Correspondence in the Hellenistic Period, no. 1.
ونقش به رسالة من أنتيجون

التخلص من الإسكندر ووالدته الفارسية روكسانا وقتلها سنة ٣١٠ وبذلك قضى على أسرة الإسكندر الأكبر نهائياً .

إن ما أقدم عليه كاسانديروس من قتل صاحب الحق الشرعى فى الملك أقعد اتفاق سنة ٣١١ كل قيمة فعلية ، وأخذ كل من بطليموس وأنتيجونى يعمل مستقلاً على تحقيق أطماعه . أما بطليموس فأخذ يعمل على تأكيد سيطرته على البحر وإنشاء إمبراطورية بحرية فى بحر إيجة ، متخذاً من قبرص التى كانت تابعة له مركزاً لمجمومه الجديد .

وفى سنة ٣٠٩ ذهب على رأس أسطوله القوى واستولى على ليكيا (فى آسيا الصغرى) وجزيرة كوس التى اتخذها بعد ذلك مقراً لقيادته فى المنطقة .

وفى العام التالى واصل أطماعه فاستولى على جزر الكيكلاديس تحت ستار تحريرها من سيطرة أنتيجونى . ومن هنا اكتسب لقبه « للنقذ Soter » ثم نزل إلى كورنثا ، فهدد بذلك نفوذ كل من كاسانديروس وأنتيجونى فى اليونان . ولكن نظراً إلى قلة التأييد الذى أبدته نحوه المدن اليونانية ، عاد إلى مصر تاركاً حامية عسكرية فى كورنثا وسيكيون Sinyon وميجارا Megara . ومن المحتمل أن بطليموس استطاع فى هذا العام أيضاً (٣٠٨) أن يسترد سلطانه على بركة .

لم يبق أنتيجونى ساكناً أمام نشاط بطليموس ، وفى العام التالى ٣٠٧ أرسل ابنه ديمتريوس إلى اليونان . وما أن وصل ديمتريوس إلى بيريه حتى سقطت حكومة الأقلية فى أثينا برياسة ديمتريوس الفاليري الذى هرب إلى مصر ، وقامت مكانها حكومة ديمقراطية موالية لأنتيجونى وإبنه . ولما حاول بطليموس القيام بنشاط مضاد فى اليونان مضى ديمتريوس إلى قبرص وهاجمها

وانتصر على بطليموس وأسطوله انتصاراً حاسماً قضى على نفوذه في الجزيرة وذلك في موقعة سلاميس سنة ٣٠٦ التي قضت في نفس الوقت على سيطرة بطليموس على البحر . كان لانتصار ديمتريوس في سلاميس دوى كبير في العالم اليونانى وأخذ رأى العام في المدن اليونانية تبعاً لذلك ينحاز إلى أنتجونس الذى انتهز فرصة هذا المجد وأعلن اتخاذه لقب ملك .

كانت هذه الخطوة الجريئة من جانب أنتجونس بمثابة تحدى صريح لائر القواد الآخرين . ومعناها ادعاؤه الرسمى لتقلد السلطة المركزية في الإمبراطورية .

ورداً على هذا الادعاء أعلن في الحال كل من كاسانديروس ولوسياخس وسليوقس و بطليموس أنفسهم ملوكاً في أقاليمهم . عند ذلك قرر أنتجونس محاولة إخضاع منافسيه بالقوة وابتدأ - كما فعل بديكاس من قبله - ببطليموس ليكسب مجداً سريعاً بالاستيلاء على مصر ذاتها بعد أن سلب بطليموس جميع ممتلكاته الخارجية . ولكن بطليموس تحصن كمادته داخل مصر ، واستعد لقاء أنتجونس الذى كان قد استعد لهذه الغزوة استعداداً هائلاً في تكوين قواته البرية والبحرية . وفي شتاء عام ٣٠٦ زحف أنتجونس برا عن طريق سوريا وفلسطين بينما تقدم إبنة ديمتريوس بحراً على رأس الأسطول . ولكن في ظروف طبيعية وحربية قاسية فشل أنتجونس في الاستيلاء على بلوزيوم كما فشل ديمتريوس في اقتحام النيل ، وآثر أنتجونس وإبنة أن ينسحبا من مصر قبل أن يهلكا مع قواتهما . بعد ذلك لجأ أنتجونس إلى محاربة بطليموس اقتصادياً بأن يفرض عليه حصاراً اقتصادياً كما قول الآن . فحاول أن يفرى جزيرة رودس بقطع علاقاتها التجارية مع الإسكندرية .

وكانت رودس في هذا الوقت أكبر مركز لتبادل التجارى في البحر

الأبيض للتوسط كما كان لازماً على السفن التي تعبر البحر من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب أن تمر بها حسب إمكانيات الملاحة القديمة ، فكل من يسيطر على هذه الجزيرة يمكن أن يتحكم في التجارة العالمية ، وإذا كان معادياً لمصر أمكنه أن يشل نشاطها التجاري تماماً . ولكن رودس كانت دولة تجارية قبل كل شيء وتعرف أن تجارة مصر الضخمة تدر عليها الربح الوفير ، فكانت تحرص دائماً على أن تحتفظ بعلاقات ودية معها . ولهذا رفضت طلب أنتجنوس الذي قرر إخضاعها بالقوة فأرسل ابنه ديمتريوس على رأس أسطول قوى لمهاجمتها . ولكن هذه الجزيرة الغنية كانت أيضاً ذات نظام جمهوري قديم وقوة عسكرية كبيرة فتسكنت من مقاومة عدوان ديمتريوس وحصاره لها في عامي ٣٠٥ — ٣٠٤ ق . م . خاصة وأن بطليموس لم يبدأ وسعاً في مساعدتها على السمود .

ولكن تطور الموقف في اليونان ضد والده ، جعل ديمتريوس برفع الحصار عن رودس ويذهب لمساعدة والده في اليونان ثم آسيا الصغرى (٣٠٤ - ٣٠٢) في هذه الأثناء تكون حلف جديد ضد أنتجنوس من كاسانديروس ولوسياخس وسليوقس وبطلميوس . ويبدأ شغل سائر الحلفاء بحرب أنتجنوس وإبنه في آسيا الصغرى ، شغل بطليموس نفسه بتحقيق أطماعه القريبة في سوريا فاستولى على سوريا الجنوبية للمرة الثالثة ، ولكن انشغرت إشاعة مؤداها أن أنتجنوس قد انتصر على الحلفاء وأنه في طريقه إلى سوريا . فالتان من بطليموس إلا أن انسحب مسرعاً إلى دال مصر . ولكن الإشاعة كانت كاذبة . والحقيقة أن الحلفاء انتصروا في موقعة فاصلة عند إيسوس في فريجيا الكبرى سنة ٣٠١ وفيها سقط أنتجنوس قتيلاً . أما ديمتريوس فجمع بقايا جيشه ولبأ إلى إفيسوس .

بهزيمة أنتجونس وموته على هذا النحو يمكن أن يقال إن إبسوس وضعت حداً لإمكان تحقيق فكرة توحيد إمبراطورية الإسكندر تحت سلطة مركزية واحدة .

على أى حال اجتمع القادة المنتصرون بعد إبسوس لإعادة توزيع الإمبراطورية على النحو التالى : كاساندرس فى مقدونيا واليونان ، لوسياخوس فى آسيا الصغرى ، وسليوقس فى بابل وسوريا . وبطليموس فى مصر فقط^(١) .

أهم ظاهرة فى هذا التقسيم الجديد هو سلب سوريا الجنوبية من بطليموس ومنحها لسليوقس . من أجل هذا يعتبر اتفاق عام ٣٠١ ق . م . السبب المباشر فى خلق ما يسمى بالسألة السورية لأن بطليموس كان يعتبر نفسه صاحب الحق الأول فى سوريا الجنوبية وفلا عاد واحتلها للمرة الرابعة عقب معركة إبسوس مباشرة . ولهذا حينما أعلن باتفاق القواد لم يعترف به وطالب بمنحه سوريا . فى حين أن سليوقس تمسك بالاتفاق الجديد واعتبر أن بطليموس فقد حقه فى سوريا لأنه لم يشترك فعلياً فى القضاء على أنتجونس كما أنه انسحب من سوريا بمجرد سماعه إشاعة . ولهذا طالب بطليموس بالانسحاب من سوريا . ولكنه لم يتخذ أى خطوة إيجابية فى الحال نظراً للصداقة التى بين الملكين . ولكنه فى الوقت نفسه تمسك بحقه الرسمى فى سوريا^(٢) .

من هذا زى أن القضاء على أنتجونس لم يمن انتهاء المغازات بين الملوك المقدونيين ، إذ استمر كل منهم يعمل آناً بالحرب وآناً بأساليب المؤامرات

(١) - معلومات عن هذه الاسوية مختلفة من مقرة مير واية و أيايوس
Appien., Syria, 55.

(٢) انظر تعليق ديودور الصقل على الملاحة الجديدة بين بطليموس وسليوقس
Diod. XXI. 1. 5.

الدبلوماسية على تحقيق أطماعه ، من ذلك أخذ بطلميوس يعمل على استعادة سيادته البحرية فاستولى على قبرص (٢٩٥ — ٢٩٤ ق . م .) وكانت لا تزال في أيدي ديمتريوس ، وأعقب ذلك بتأكيده نفوذه في بحر إيجه وحمايته لجزر الكيكلاديس (٢٨٧ ق . م .) .

أما ديمتريوس فيستغل موت كاسانديروس في مقدونيا ويسعى هو أيضاً لأن يخلقه في مملكته . وينجح في تحقيق خطته ويستولى على مقدونيا في سنة ٩٤ ق . م . ولكن يتحالف ضده الملوك الآخرون وتدور بينهم الحرب (٢٨٨ — ٢٨٥) ، فيستولى لوسيباخس وبيروس (ملك أيرس) على مقدونيا بينما يقع ديمتريوس في أسر سليوقس سنة ٢٨٥ ويموت في الأسر سنة ٢٨٣ . ويبقى من بعده ابنه أنتيجونس على رأس بعض الأتباع في بلاد اليونان حيث ساندته بعض المدن التي كانت صديقة لوالده .

بعد موت ديمتريوس طمع لوسيباخس في الاستئثار بعرش مقدونيا ولكنه بعظمم سليوقس وينهزم لوسيباخس ويقتل في معركة بينهما عند كوروبيديون Couroupedion (ومعناها سهل قورش) سنة ٢٨١ ق . م . ولم يوجد من يخافه أو يطالب بحقه من بعده .

وأخذ سليوقس يتقدم لتولي عرش موطنه الأصلي مقدونيا ، خاصة أنه هو الوحيد من رجال الإسكندر الذي كان لا يزال على قيد الحياة . ولكن القدر خبياً له مفاجأة قضت على آماله . ذلك أن بطلميوس منذ عام ٢٨٥ أحس وهو في سن الثانية والثمانين بضرورة ترتيب وراثة العرش من بعده ، خاصة وأنه كان يميل إلى أن ينحى عن العرش لابنه الأكبر من الملكة يوردريكى للمسمى بطلميوس الصاعدة (Keraunos) مؤثراً عليه ابنه الأصغر من ملكته الثانية برنيقة . فأشرك في الحكم معه الإبن الثانى الذى سينفرد بالعرش

بعد وفاة والده في عام ٢٨٤/٢٨٣ ويصبح بطليموس الثاني قيلا دلفوس ، وهو لا يزال في مقتبل الشباب في سن الخامسة والعشرين .

أما بطليموس الصاعقة فيلجأ إلى سيلوقس ليعينه على أخيه ويرده إلى عرشه للفتصب في مصر . ويعله سليوقس خيرا . ولكن الفتى يتنكر فجأة لسليوقس ويقتله بينما هو يستعد لدخول مقدونيا بعد انتصاره على لوسياخس ، ويقبل الجنود بطليموس الصاعقة قائدا لهم وينصبوه ملكا في مقدونيا ، بينما يخلف سليوقس على عرشه في سوريا وبابل ابنه الشاب أنتيوخس الأول .

أما في مقدونيا فإن الحياة لا تطيب لبطليموس الصاعقة ويقبأ بغزوات من المتبربرين السكتيين الذين يهاجمون مقدونيا واليونان وآسيا الصغرى . ويذهب ضحيتهم الملك الجديد في مقدونيا ويعله آخرون ينصبهم الجند ولا يبقون في الحكم سوى أسابيع أو أشهر قليلة ثم يختفون في أرض المعركة أو في ظروف غامضة . في هذه الأوقات العصيبة يظهر فجأة فتى شاب آخر كان قد اختفى خلف غبار الأحداث في السنوات الأخيرة وهو أنتيجونس بن ديمتريوس الذي عقد حلفا سريما مع أنتيوخس ملك سوريا وبابل ، بعد خلاف بينهما ، وجمع جيشا في آسيا الصغرى وقابل المتبربرين في معركة فاصلة عند لوسياخيا (في الجزء الجنوبي من طراقيا) وانتصر عليهم انتصارا حاسما كان له رد فعل كبير بين الإغريق إذ أظهره بمظهر البطل المنقذ . استغل أنتيجونس هذه الفرصة واتجه إلى مقدونيا — حيث كان الأمر فوضى — فلم يجد مشقة في إقامة نفسه ملكا سنة ٢٧٧ ق . م .

هكذا انقسمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر آخر الأمر إلى ممالك رئيسية ثلاث تحكمها أسر ثلاث ألا وهي : الأسرة البطلمية في مصر ،

والأسرة السلوقية في آسيا والأسرة الانتجونية في مقدونيا . وهكذا بعد أن قضى الرعيل الأول من أقران الاسكندر الأكبر ، تربح على العروش الثلاثة ملوك ثلاثة مازالوا في مستقبل العمر ، في ظروف متشابهة في وقت واحد . بطليموس الثاني فيلادلفوس وانتيوخس الأول وانتجونس الثاني الملقب جوناتاس (Gonatas)

ولقد حرصنا في هذه المرحلة الأولى من دراستنا على التمرض لكل هذه اللواقف المعقدة نظراً لأنها متصلة تمام الاتصال بقيام الدولة البطلمية ذاتها في أول أمرها ، كما أنها تبين الظروف العصيبة التي وجد فيها العصر الجديد الذي كانت الدولة البطلمية جزءاً منه تؤثر فيه وتتأثر به وهو العصر الهلينستي .

فيما بعد سنتقصر على عرض الخطوط الرئيسية لسياسة البطلماء الخارجية دون التعرض لأي تفاصيل في الدول الأخرى .

السياسة الداخلية لبطليموس الأول :

في دراستنا لسياسة الخارجية لبطليموس الأول ، نمتد أساساً على المصادر الأدبية ، أي الكتابات التاريخية التي خلفها لنا القدماء ، وبأني على رأسهم بالنسبة لهذه الفترة ديودور الصقلي وأريانوس . أما إذا وجهنا نظرنا نحو الداخل ، وأردنا أن نعرف ماذا فعل الملك الجديد في داخل مملكته الجديدة ، كيف نظمها ؟ وكيف أدارها ؟ وجدنا أن المصادر الأدبية لا تشفي غالتنا في هذا المجال .

ولمذا تلجأ إلى نوع آخر من المصادر هو « الوثائق » وهو الاصطلاح الذي أطلق على مجموع النقوش الكتابية وأوراق البردي والعملة التي اكتشفها الإنسان الحديث وتوفر على دراستها ، وهذه تشتمل عادة على بيانات رسمية أصدرها الملك أو أحد كبار موظفيه ، أو قوانين قضائية أو إدارية ، أو لوائح

تنظيمية ، وعقود للبيع والشراء والإيجار والعمل ، أو خطابات رسمية. أو شخصية أو غير ذلك مما يسجله الأفراد في حياتهم العامة أو الخاصة .

وبدراستها وتفسيرها نستطيع عادة أن نستنتج منها معلومات قيمة عن النظم الإدارية والمالية والأحوال الاجتماعية وغيرها مما يوضح السياسة الداخلية للدولة. ولكن لسوء الحظ أن هذا النوع من الوثائق نادر جداً في عصر بطليموس الأول وأول عصر بطليموس الثاني ، ويأخذ في الوفرة والكثرة ابتداء من منتصف القرن الثالث ، ولهذا فإن ما عثر عليه من عصر بطليموس الأول لا يكاد يكون صورة صحيحة متكاملة عن سياسته الداخلية. ولهذا سنكتفي في هذا الفصل بذكر الملامح الرئيسية للاتجاهات العامة التي انتهجها في معالجتها لكل الداخلية، مرجئين الحديث عن التطبيق الكامل للنظم الداخلية في عصر البطالة إلى ما بعد الفراغ من عرض التاريخ السياسي للأسرة .

ونحن همنا سياسة بطليموس الأول الداخلية بنوع خاص، لأنه كما فعل في مجال السياسة الخارجية التي وضع أسسها وسار عليها خلفاؤه — كذلك في مجال السياسة الداخلية ، وضع كثيراً من الأسس التي سار عليها خلفاؤه من بعده كما سيتضح فيما بعد.

سلطة الملك :

وأول مشكلة على الحاكم الجديد أن يحلها هي. وضعه على رأس الدولة^(١). ويبدو أن بطليموس الأول لم يثن كثيراً في حل هذه المشكلة. فهو مقدوني ينتسب إلى دولة عرفت النظام الملكي للطلق، وقد عاصر في الإسكندر ملكاً لم يكتف بشخصية الملك بل اتخذ لنفسه صفة إلهية أيضاً. وإلى جانب

Jougot, *Imperialisme Macedonien*, 332, 11.

(١)

انظر إبراهيم نمى تاريخ مصر في عصر البطالة - ٢ ص ٢١٧ وما بعده .

ذلك فإن بطليموس قد أصبح على رأس دولة ألقت حكم الملوك الآلهة في شخص فرعون منذ أقدم المصور . فالملك المصري القديم كان مصدر وحدة الدولة سياسياً ودينياً واجتماعياً . وما أحوج للملك الجديد لهذه السلطة ، وهذه الوحدة في الدولة من أجل بنائها من جديد .

إذن فالوضع للألف هو خير الحلول أيضاً ، وأصبح بطليموس ملكاً وفعرونا لمصر ، رغم أنه من الناحية الإسمية للبحثة كان يسمى « نائب الملك » في الفترة الأولى من حكمه حين كان ساتراً . ولكن منذ سنة ٣٠٥ بعد أن اتخذ نفسه لقب ملك أصبح يسمى بالملك الإله ابن الإله .

على أي حال منذ اللحظة الأولى التي ولى فيها بطليموس مصر أخذ بمقاليد الحكم في يده ، ومارس السلطان الملكي المطلق ، فكان هو الرئيس الفعلي للدولة سياسياً ودينياً واجتماعياً .

أغرة الحكم في مصر :

نقطة ثانية بالغة الأهمية كان على بطليموس أن يقرر موقفه فيها منذ البداية ، وهي : هل سيحكم مصر بواسطة المصريين أو بواسطة المقدونيين والإغريق ؟ لقد وقف الإسكندر هذا الموقف من قبل فقرر الإبقاء على الإدارة والمديرين للمصريين ، ووضع المناصب التي تهم مصلحة الإمبراطورية العليا مثل الجيش والخزانة في أيدي الإغريق .

ولكن الإسكندر كان يصدر في أعماله عن فلسفة سياسية ومثل حضارية يسمى في تحقيقها ، وقد سبق وصفها . أما بطليموس فقد كان رجلاً عملياً واقصياً لا يدع المثل الفلسفية تلعب بنغماته طويلاً ، وكانت مصر التي وجدها في سنة ٣٢٣ بلداً قد عانى من فترات متتالية من الاحتلال الأجنبي الأثيوبي واليهي

والفارسي عما أصابها بالتأخر والانهيار ، حتى أن الملوك المصريين المتأخرين أنفسهم لجأوا ، حينما حاولوا الثورة ضد الحكم الفارسي ، إلى الاعتماد على الجنود المرتقة من الإغريق بينما كانت اليونان في ذلك الوقت في أعقاب نهضة حضارية ، وسياسية وعلمية أصبحت فيها بعد إحدى معجزات التاريخ . قرر بطليموس الاعتماد على اللقديونيين والإغريق في جيشه وحكومته من أجل بناء مصر الجديدة . وهذه حقيقة يجب أن نقرها وهي أن بطليموس الأول . وسائر البطالمة من بعده لم يتبعوا سياسة تهدف إلى أغراق مصر أو نشر الحضارة الهلينية بين المصريين ، وإنما كان مهمهم هو أغرة الجيش والإدارة فقط .

من أجل هذا كان بطليموس في حاجة إلى أعداد كبيرة من اللقديونيين والإغريق . ولم تكن مصر خالية منهم من قبل فإن الحاميات العسكرية التي تركها الإسكندر في مصر كانت تتكون من هذه العناصر ، كما أنه حين فتح بطليموس سائر بقية مصر ، لابد أنه أحضر معه بعض فرق الجيش ، بالإضافة إلى هذا كله فإن مدينة قراطس كانت مركزاً تجارياً يونانيا يقوم في شمال غرب الدلتا منذ القرن السابع ق . م . ولكن الجيش البطلمي كان في حاجة ماسة إلى مزيد من آلاف الجنود ، كما أن الإغريق المستقرين في قراطس أو ممفيس لا يمكنهم أن يمددوا بطليموس بمحاجته إلى الرجال لإدارة جميع مرافق الدولة .

من أجل هذا اتخذ بطليموس سياسة ثابتة لتشجيع وتنظيم هجرة الإغريق إلى مصر . فتح الجنود في جيشه قطعا من الأرض يمكنهم أن يقيموا عليها ويستثمروا في وقت السلم . وكذلك طبق مثل هذا النظام بالنسبة لموظفي الدولة خاصة وأن نظام المرتبات النظامية لم يكن يمارس في ذلك الوقت . نحن نعرف أن هذا النظام كان متبعاً في عصر الملوك البطالمة فيما بعد ،

ولكن هناك بعض الأدلة تثبت أنه يرجع إلى عصر بطليموس الأول . من ذلك ما يرويه ديودور الصقلي أن بطليموس الأول بمسح أن اقتصر على ديمتريوس في معركة غزة سنة ٣١٢ أرسل إلى مصر ما يزيد على ٨٠٠٠ جندي من الجيش المهزم ، ووزعهم في بقاعها المختلفة . فإن العادة للتبعية في ذلك الوقت هي أن جنود الجيش المهزم كانت تنقل عادة إلى خدمة القائد المنتصر ولهذا كانت اقتضارات بطليموس الحربية تجلب له عدداً من الجنود القندونيين والإغريق ، في حين أن هزائمه لم تكن تفقده الكثير لأن جنوده كانوا يرفضون الانصواء تحت لواء خصمه و كانوا يفرون مسرعين إلى مصر حيث لهم أرض وممتلكات وأهل على أى حال لم يجد بطليموس سناء في الحصول على أعداد كبيرة من الإغريق ، فإن اشتهار مصر بالفنى واشتهار بطليموس بالسكرم جعل جماعات كبيرة منهم تأتي إلى مصر .

ولم يقتصر الأمر على هجرة الجنود المرتزقة وأفراد من الطبقة الفقيرة ممن ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم . بل حضر إليها كثير من الشخصيات السكيرة من أصحاب اللواهب والفنون والآداب من أمثال ديمتريوس الفاليري ، والسياسي والفيلسوف الأثيني الذي قام بتأسيس متحف الإسكندرية الشهير ، و تيموثيوس الأثيني الذي ينتمي إلى أسرة دينية عريقة في أثينا وكان حجة في الديانة الإغريقية ، وكذا كاليماخس الشاعر ، وإرانشثيس الجغرافي .

للدن اليونانية :

حيثما وجد الإغريق القدماء في أعداد وفيرة كونوا لأنفسهم مدينة على نمط اللدن اليونانية . وهكذا فعلوا في مستعمراتهم المختلفة في أنحاء البحر الأبيض

المتوسط ومنها قراطيس ، في مصر . وهكذا حاول الإسكندر أن يفعل حين خرج يشر بالحضارة الهلينية في الشرق ، وهكذا أيضاً فعل خلفاؤه في سوريا وآسيا الصغرى . وذلك لأن الإغريق كانوا قد ألفوا هذا النوع من الحياة ، واعتبروا نظام المدينة اليونانية أسمى صور الاجتماع الإنساني . ولكن ماذا فعل بطليموس ؟ كان من المتوقع أن نراه يؤسس للندن المختلفة في أنحاء مصر ليقم فيها الإغريق القدين وفلوا إليه ، جريا على عادة الإغريق أنفسهم وأتباعها لنال الإسكندر . ولكن بطليموس لم يفعل هذا . وإنما انتهج سياسة محافظة في هذا الاتجاه . فأبقى على المدن اليونانية التي كانت موجودة من قبل وهي قراطيس والاسكندرية التي كان الاسكندر قد أسسها . ولم ينشئ هومن للندن الجديدة سوى مدينة في أعلى الصعيد هي بطلمية ، ولعل الهدف الأصلي في انشائها هو أن تكون مركزاً لحامية للدفاع عن الجنوب .

أما باقي الإغريق في مصر القدين فاضوا على المدن الثلاثة فقد أسكنهم على الأرض الزراعية في قرى وبلدان النومات المختلفة وخاصة في نوموس الفيوم . هذه هي سياسة بطليموس الأول في إقامة الإغريق في مصر ، وهي السياسة ذاتها التي التزمها خلفاؤه من بعده فلم ينشئ أحد منهم مدينة جديدة أخرى . أما عن السبب وراء هذه السياسة فإن نظام المدن اليونانية يعني استقلال المدينة ، فمواطنيها الحرية في تدبير شئونهم وانتخاب موظفيهم ، ومثل هذا الاستقلال لا يتفق مع نظام البطالة لحكم مصر . وفي الوقت نفسه لم يكن من صالح سياسة الدولة الجديدة تجميع الإغريق في نظام المدن لأن خطة التنمية الاقتصادية التي انتهجها البطالة كانت في حاجة إلى أن تنشر أعداد كبيرة من الإغريق في الريف المصري فيقيموا على الأرض التي أقطعت لهم وبذلك يساهمون بمجهودهم الشخصي في زيادة الانتاج بطريقة مباشرة . ومع ذلك فقد (٤٢ - الإسكندر)

وجد لهذه الفئة الأخيرة من الاغريق وغيرهم من بعض الجاليات الأخرى
تنظيمات خاصة تعرف باسم البوليتيوما politeuma ، سيأتى ذكرها فى الفصل
الخاص بالسكان .

الاله الجديد :

كان المجتمع المصرى الجديد شديد التعقيد فى تكوينه فهناك الغالبية
العظمى من المصريين هم المقدونيون واليونان والافريق والسوريون والفينيقيون
والفرس واليهود وغيرهم ممن كانوا بمصر من قبل . أو جاءوا سعيًا وراء
السكس تحت لواء البطالة . وكان لكل جماعة من هذه الجماعات آلهتها ،
وفى بعض الأحيان اختلطت بعض الآلهة بعضها ببعض حينما وجد تشابه بين
آلهة الشعوب المختلفة ، مثل تشبيه آمون المصرى بزيوس الاغريقى أو إيزيس
المصرية بمشطروت الفينيقية ، أو هاتور بأفروديتى^(١) ولستكن للملك الجديد
كان فى حاجة إلى نوع من الوحدة الدينية التى تشمل أهم العناصر فى دولته وهم
المصريون والافريق ، حتى تساند هذه الوحدة الدينية الوحدة السياسية
للدولة^(٢) . ولم يكن من تقاليد القدماء مقاومة الألهة والأديان الأخرى إلا
حينما تصبح خطرا سياسيا أو اجتماعيا . لهذا وجدنا آلهة متعددة تعبد فى البلد
الواحد ، وأحيانا وجدنا آلهة متعددة تعبد فى معبد واحد أيضا . ولهذا
كان الأسلوب المتبع هو أن يحتضن الملك أحد الآلهة ويجعله إله الدولة الرسمى .
ومن أجل أن يتجنب بطليموس فى محاولاته يحب أن يتخير إلهًا يقبله كل من
المصريين والافريق معًا ، وبطبيعة الحال لا يصلح أحد الآلهة الكبرى من
أجل مناورة سياسية بحته مثل هذه ، لأن شخصيتها كاملة محددة

Hell, Cults, and Creeds, p. 51

(١) أنظر

(٢) حول سياسة البطالة الدينية أنظر د . إبراهيم لصحى : تاريخ مصر فى عصر

البطالة ٢ - ٢٠٧ .

يصعب التلاعب وتسويقها للأجانب . ولها فإن آمون رع، ويتاح لايصلحان .
ولكن يجب اختيار إله قليل الانتشار ، حتى يمكن إرضاء كهنته بسهولة
عن طريق شعورهم بالفرور لازدياد أهمية إلههم . ومتى صحت العزيمة وجدت
الوسيلة ، وكانت في شخصية إله محلي في مدينة ممفيس هو « أوزير آيس » ،
وهو جعل آيس الذي كان بعد موته يتحد بالاله أوزيريس ويصبح
أوزير آيس ^(١) .

هذا الإله كان مقره الاصلى المدينة العاصمة لمصر آنذاك، وكانت
مثل المدن الكبرى عامة مختلطة السكان من مصريين وإغريق وفينيقيين
وسوريين وغيرهم .

وقد لوحظ أن أتباع هذا الاله ، حتى قبل بطليموس ، لم يقتصرُوا على
المصريين ، بل كان منهم أجانب ويونانيون بالذات . وإذن فأوزير آيس له
من الصفات ما يرشحه ليقوم بدور إله الدولة الجديدة . ولكن كان لا بد من
إحداث بعض التعديل في شخصيته حتى يمكن أن يتقبله الإغريق عموماً الذين لم
يألفوا عادات المصريين في تمثيل آلهتهم في صورة حيوانية ، كما ألفها الإغريق
ممفيس الذين كانوا بمصر منذ عصر بهاتيك وأمازيس . ولهذا من أجل
أغرة هذا الاله أدخل عليه تعديلاً : الأول يمس اسمه فأصبح سرايس بدلا
من أوزير آيس ليسهل على الإغريق نطقه ، والآخر هو تمثيله في صورة
إنسانية بدلا من صورة العجل . وبعد ذلك أنشئ له معبد كبير في الاسكندرية

(١) خير دراسة عن عبادة سرايس قام بها فلكن (U. Wilcken) في تعليقه على

Urkunden der Ptolemäerzeit, No. 1; also of E. Wasser,

Götter und Kulte in Ptolemäischer Alexandria, pp. 20-24

نظرية فلكن هي التي يأخذ بها معظم الدراسين الآن ويوجد تلخيص جيد لها في :

Bosan, Egypt, pp. 41 ff, and Bell, Cults and Creeds, p. 19 ff.

فى الحى الشعبى الذى كان يقع فى موقع قرية راقوده القديمة . وأصبح معبد الاسكندرية هو المعبد الرئيسى والرسمى لهذه العبادة ومركزاً لاشعاعه إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط . وسرعان ماخلت على الإله الجديد الصفات الالهية المتعددة فهو أوزيريس الملقب وإله الشفاء والخصب والوحى والحياه الثانية . وشبه بعدد من الآلهة اليونانية التى تتفق مع صفاته مثل اسكليبيوس وديونيسوس وهليوس وزيروس .

على أن سرايس لم يبق بمفرده ولكن مادام هو متحداً أصلاً بالإله أوزيريس قد أكل الثالوث الأخير وألحقت به الزوجة إيزيس والابن حورس ، حتى أن القسم الرسمى للدولة البطلمية كان يذكر سرايس وإيزيس باسميهما دون سائر الآلهة الأخرى ، وذلك فى الصيغة : « أقسم بسرايس وإيزيس وبسائر الآلهة والآلهات الأخرى » . ولم يكن فى ذلك صدوبة ، لأن الثالوث مصرى أصلاً ، وفى الوقت نفسه كان الاغريق معتادين على أسر الآلهة مثل الأسر الأولمبية ، ومن ناحية أخرى كانت إيزيس منتشرة ومحبوبة لدى كثير من الشعوب ، وكانت قد وصلت إلى اليونان حتى قبل أن يخضر الاسكندر إلى مصر .

ولقد نشأت عبادة جديدة أخرى ذات طابع رسمى فى عصر بطلميوس الأول ، وهى عبادة الملوك^(١) . وقد ابتدأت بتقدیس الاسكندر رسمياً وعينه له كاهن خاص تؤرخ باسمه الوثائق الرسمية . وهذه العبادة تختلف عن التقاليد المصرى الذى كان يؤله الملك أثناء حياته ، فالاسكندر حين أصبح ملكاً لمصر صار فى نظر المصريين ملكاً مؤلهاً وإبناً للاله آمون رع .

وكذلك بطلميوس وسلالته . أما عن تقدیس الملك بعد موته وعبادته ،

فقد نشأت عن عادة يونانية قديمة وهي إضفاء نوع من القداسة على أرواح الرجال العظام بعد موتهم ، وكان يقوم الأفراد بهذا التقليد الإغريق بصفتهم الشخصية البعثة . أما البطالمة فقد أدخلوا عليها بعض التغيير إذ أضفوا عليها الثوب الرسمي وبذلك أصبحت عبادة الاسكندر عبادة رسمية في الدولة. ولكن الأمر لم يقف عند الاسكندر بل شملت هذه العبادة الرسمية الملك بطلمبوس فيما بعد ، فبحكم كونه ملكا لمصر كان أيضا حسب العرف المصري إلهما وإبنًا للاله ، أما في نظر الإغريق فقد كان بشراً عادياً ولكن أخذت بعض المجتمعات اليونانية مثل أهل رودس وبعض أفراد القصر الملكي يخلعون عليه بعض مظاهر التقديس حين أسموه الإله المنتقد Soter ومع ذلك فإن هذا التقديس لم يأخذ أبداً صفة رسمية في مصر طيلة حياته ولكن بعد وفاته أعلن الملك بطلمبوس الثاني تأليه والديه تحت لقب الإلهين المنتذين وأصبعا يعبدان مع الاسكندر ، هكذا نشأت عبادة ملوك الأسرة البطلمية بصورة رسمية .

بطليموس الثانى فيلادلفوس^(١) (٢٨٥ - ٢٤٦ ق م)

السياسة الخارجية :

عند وفاة بطليموس الأول سنة ٢٤٨ ق . م . تفرد ابنه بطليموس الثانى بالحكم بعد أن اشترك مع والده فى الحكم منذ ٢٨٥ ق.م . وكان الملك الجديد لا يزال فى أروع سن الشباب لم بكل العقد الثالث من عمره بعد ، ولكنه كان يختلف عن والده كل الاختلاف ، فبقدر ما كان بطليموس الأول جندياً من الطراز الأول ، كان بطليموس الثانى بعيداً كل البعد عن حياة الجندية وأخلاقيها ، يشق حياة النعيم والبذخ .

فبالرغم من الحروب الكثيرة التى خاضتها الدولة فى عصره لم يعرف عنه أنه قاد جيشه بنفسه فى أى من هذه الحروب ، وكان يكتفى دائماً بأن يقودها عنه قواده .

ومن أهم الشخصيات التى لعبت دوراً رئيسياً فى سياسته هى الملكة أرسنوى الثانية ، أخته الشقيقة وزوجته الثانية ، بينما كان هو ثالث زوج لها وأصغر منها سناً ، فقد سبق أن تزوجت من لوسياخس وبعد موته تزوجت من أخيها غير الشقيق بطليموس الصاعقة الذى أصبح ملكاً لمقدونيا . ولكنه فضل إبنها الأكبر من لوسياخس فهربت منه واستقرت فى الإسكندرية . وهناك كان أخوها الشقيق بطليموس الثانى متربعا على العرش ، هو والملكة أرسنوى

(١) أنظر الفصول المكتوبة عن بطليموس الثانى فيلادلفوس فى : د . د . إبراهيم مصطفى .

مصر فى عصر البطالة جا .

الأولى وكان لهما من الأطفال ولدان وبنت . فما كان من أرسنوى الأخت اللاجئة إلا أن دبرت مكيمة أوقعت بها بين بطليموس الثانى وزوجته ، فنفاها إلى قفط في صعيد مصر ، بينما تزوج من أخته الشقيقة أرسنوى التى تبنت أولاد أرسنوى الأولى من بطليموس . هذه الملكة الجديدة التى أصبحت فيما بعد أرسنوى الثانية ، كانت ذات طموح لا يحد ولا يتقيد بعرف أو قانون أو أخلاق . وسنجد لها تأثيرا كبيرا على سياسة بطليموس الثانى أثناء حياتها وبعد مماتها حتى أنها أصبحت أشهر وأقوى امرأة فى عصرها . وكانت أرسنوى أول ملكة بطلمية تؤله رسمياً هى وبطليموس الثانى أثناء حياتها تحت لقب فيلادلفوس (أى المحبة لأخيها أو المحب لأخته)^(١) كما أطلق اسمها على إحدى مقاطعات مصر الكبرى وهى منطقة الفيوم .

ولبدأ بنشاط بطليموس الثانى فى مجال السياسة الخارجية ، فنجد أنه سار على نهج والده فى توطيد نفوذ مصر السياسى أو العسكرى فى مناطق ثلاثة أساسية هى : سوريا الجنوبية على الحدود الشرقية وبرقة على الحدود الغربية وحوض بحر إيجه فى الشمال .

فما يتعلق بسوريا ، كما يينا فى عصر بطليموس الأول ، فإن الاتفاق لم يتم على تبعية منطقة سوريا الجنوبية (أو سوريا الحالية Coelo Syria كما تسميها المصادر) لأى من الدولتين البطلمية أو السليوقية ، ولهذا ظلت موضع نزاع مستمر بين الأسرتين ، وتكررت الحروب بشأنها . وقد شهد عصر بطليموس الثانى حربين سوريتين .

معلوماتنا عن الحرب السورية الأولى قليلة جداً ومشوهة ولا تعطينا صورة

(١) كان المتحد من قبل أن أرسنوى ألفت بعد وفاتها سنة ٢٧٠ ق . م — ولكن بردية حديثة (P. Hibeh, 11. 199) ترجع إلى عام ٢٧٣ / ٢٧٢ تثبت أنها ألفت مع بطليموس الثانى أثناء حياتها .

متكاملة عنها . فن المرجح أنها ابتدأت في ربيع سنة ٢٧٦ ق . م . ولو أننا لانعرف كيف ابتدأت . ولكننا نرى القوات المصرية تتقدم شمالا في أول الحرب حتى تحتل مدينة دمشق . ولكن يبدو أن الملك السوري انتيوخس الأول Antiochos تمكن من استخلاص دمشق وردت القوات المصرية ثانية إلى سوريا الجنوبية في فلسطين . وبذلك بقيت فينيقيا في قبضة الملك المصري .

يبدو أن فيلادلفوس لم يقتصر على استخدام جيوشه البرية بل استخدم أيضا قواته البحرية في مهاجمة سواحل آسيا الصغرى الجنوبية التي كانت تابعة للملك السلوقي حتى أنه عندما تم الصلح بين انتيوخس وفيلادلفوس كانت أجزاء من سواحل كيليكيا Cilicia وبامفيليا Pamphylia وليكيا Lycia وكاريا Caria تتبع السيادة المصرية .

وفي بحر إيجه كان لمصر منذ عصر بطليموس الأول قوة بحرية لا يستهان بها وكانت جزر الكيكلاديس Cyclades تدين بالولاء لملك مصر . ولكن فيلادلفوس سعى إلى زيادة النفوذ المصري في هذه المنطقة ، فهد نفوذه إلى جزيرة ساموس Samos ومدينة مليطة Miletus ثم مدينة هاليكارناسوس Halicarnassus على ساحل آسيا الصغرى الغربي . هذه المدن والجزر كانت بمثابة نقط ارتكاز تمكن بطليموس من التدخل في شئون العالم اليوناني بما يحقق مصالحه .

فن ذلك مثلا أنه أثناء اشتباك فيلادلفوس في الحرب السورية الأولى نجد أن الملك المصري يساند الملك بيروس pyrhus ضد انتيجونس ملك مقدونيا في الصراع بينهما . وذلك ليمنع تحالف انتيجونس مع انتيوخس ضده في الحرب السورية . يجب أن نذكر أن الملكة أرسنوى الثانية كانت لما اليد الطولى في توجيه مثل هذه السياسة ، خاصة وأنها كانت تكن لانتيجونس كل عداوة

نظراً لأنها كانت من قبل ملكة مقدونيا ذاتها حينما كانت زوجة للوسياخس أولاً وبطلميوس الصاعقة ثانياً، وكان الجميع يعرفون أنها الوجهة الحقيقية لسياسة فيلادلفوس الخارجية، فكانت المدن والأفراد يتقربون إليها ويخطبون صداقتها وحتى بعد أن توفيت في سنة ٢٧٠ وهي في أوج سلطانها، كانت المدن اليونانية تعتبر سياسة فيلادلفوس في بلاد اليونان فيما بعد ، تنفيذاً واتباعاً لسياسة أرسنوى .

وأشهر مثال على ذلك ما حدث في الحرب الخريمو نيدية ، وذلك أنه في سنة ٢٦٦—٧ ق.م. جمعت المدن اليونانية شملها تحت قيادة أثينا واسبرطة معاً وقرروا إعلان الحرب ضد أنتجونس ملك مقدونيا والتخلص من الحكم الذين أقامهم في المدن . وقد حفظ لنا نقش يوناني قديم قرار الشعب الأثيني في هذا الشأن وهو يصور الموقف أحسن تصوير . إذ ينص القرار — بعد أن ينوه بخدمات أثينا واسبرطة وجهودهما من أجل حرية اليونان — أن الوقت قد حان لإقراض العالم اليوناني بأسره من أيدي أولئك الذين يهدرون قوانين البلاد ونظمها الشرعية الموروثة . ويضيف القرار أن الملك بطلميوس جرياً على سنة والديه واتباعاً لنوايا أحته قد أعلن مناصرته للحرية الإغريق جميعاً^(١) .

من هذا النص يتضح أن الإغريق كانوا معتقدين أن هذه السياسة كانت من وضع أرسنوى أصلاً وليس فيلادلفوس . ونظراً لأن هذا القرار الأثيني اتخذ بناء على اقتراح سيماسي أثيني يسمى خريمونيدس Chremonides الذي كان أيضاً القوة المحركة في الحلف بين المدن اليونانية ، فقد سميت هذه الحروب بحرب خريمونيدس . وعلى هذا النحو قامت في عام ٢٦٦ حرب شاملة

(١) Michet, Recueil d'Inscriptions Grecque, 130—7—19 (١)
(١٠. 267 Av. J. C.) — Dittenberger, O. G. 1. 5. 163.

بين أنتجونس ملك مقدونيا وحلف المدن اليونانية تحت قيادة أثينا وأسبرطة ويبدو أن حلف المدن اليونانية كان يؤمل أن يخوض بطليموس الحرب إلى جانبهم وأن يتحمل نصيبه كاملاً ، ولكن بطليموس فيلادلفوس خيب ثلث الجميع في أنه اكتفى بتقديم المساعدات المالية والتموينية والقيام بمظاهرات بحرية بواسطة أسطوله في بحر إيجه ، في حين أن المدن اليونانية كانت في حاجة إلى جيش يحارب معهم . ولهذا رجحت كفة أنتجونس منازلة البداية واستطاع أن يهاصر أثينا وأن يعزلها عن الاتصال بحلفائها في شبه جزيرة البلوبونيز : والـ حاول ملك أسبرطة أن يخترق مضيق كورنتا إلى أثينا قابله أنتجونس عند كورنتا حيث دارت معركة حاسمة هزم فيها الملك الأسبرطي وسقط قتيلاً سنة ٢٦٤ بعد ذلك صمدت أثينا بفردا مدة عامين ثم سلمت سنة ٢٦٢ : وهكذا تولد سلطان أنتجونس في مقدونيا واليونان معاً .

في هذه الأثناء نجد فيلادلفوس يلعب دوراً دبلوماسياً آخر في شرق بحر إيجه ، كانت نتائجه أكثر نجاحاً من دوره في اليونان : وذلك أنه سار على تقليد والده في محاربة مدينة برغامنة Pergamum في شمال غرب آسيا الصغرى : فهاصرها في صراعها ضد انتيوخس ، وبذلك شغل الأخير عن مهاجمته في سوريا الجنوبية أثناء الحرب الحريمونية ، وكان لهذه الصداقة مع برغامنة دافعاً إقناعياً وهو أنها كانت من أهم مصادر الخشب لبحر إبناء أسطولها ، وخاصة في فترة العداء في ذلك الوقت بين مصر ومقدونيا الغنية بالأخشاب أيضاً : في سنة الحرب انتصر ملك برغامنة على انتيوخس في معركة سارديس Sardis سنة ٢٦٢ ق م . وفي هذا العام أيضاً استطاعت مصر أن تستولي على إنيوس Ephesus ومليطة Milotus على الساحل الغربي لآسيا الصغرى .

الحرب السورية الثانية : بعد هزيمة سارديس سنة ٢٦٢ توفي انتيوخس

الأول الملك السليوقي وخلفه ابنه انتيوخس الثاني على عرش سوريا . وكان عازماً على الانتقام من فيلادلفوس ودوره في مساعدة برغامة في حربها الأخيرة ضد والده . ولذلك شن حرباً اصطلاح على تسميتها بالحرب السورية الثانية رغم أن ميدانها كان غرب آسيا الصغرى . وذلك باعتبارها حلقة في الحروب بين الدولة السليوقية والدولة البطلمية . في هذه الحروب تألبت جميع الظروف ضد مصر ، تحالف مع انتيوخس الثاني كل من مقدونيا ورووس ، كما تار كل من والى إنيوس ومليطة التابعين للملك المصري . ولهذا لم يكن من المستغرب أن تلاحت على مصر الهزائم أولاً في معركة بحرية عند جزيرة كوس سنة ٢٥٨ (أو سنة ٢٥٦) على يد انتجونس ، ثم عند إنيوس سنة ٢٥٩ (أو سنة ٢٥٥) ملى يد قائد رودس^(١) بينما تتبع انتيوخس الجيوش المصرية في ليكيا وبامفيليا وساموطراقيا وطردوها من هناك ، حتى إذا كان عام ٢٥٣ قسدت مصر إمبراطوريتها في بحر إيجه عما في ذلك جزر الكيكلاديس . ولم يبق لها سوى أملاكها في كاريا وجزيرة نيرا . على أى حال لم يشأ أنتيوخس أن يستمر في الحرب أكثر من ذلك ، وتم صلح سريع بين الطرفين . ويبدو أن الصلح لم يكن هبة من انتيوخس ولكنه تقاضى عنه الثمن إذ إتفق اللسان أثناء مفاوضات الصلح على أن يتزوج انتيوخس إبنة فيلادلفوس المسماة برنيقة Beronice . وحسب تقاليد العصر كانت المرأة أو والدها هو الذى يقدم المهر . ويبدو أن مهر برنيقة كان من الضخامة بحيث لقيت (حاملة المهر Phornephorea) . ونحن لانعرف ماذا حملت برنيقة معها إلى زوجها ، وهل

(١) من المحتمل أن ساعها منفرداً عقد مع كل من مقدونيا ورووس سنة ٢٥٥ أظن .

إبراهيم لصحى . مصر في عصر البطالمة ج ١ ص ١١٣

هناك اختلاف حول تواريخ هذه الحرب . أظن W.Otto, Beiträge zur

Seiuekgeleht ebeiehh. e, and II, Cambridge Ancient History, VII. 714—5.

تضمن بعض ممتلكات مصر في سوريا أو بعض دخلها ، فليس لدينا من دليل .

برقة :

المنطقة الثالثة الهامة في سياسة البطالمة الخارجية هي برقة على الحدود الغربية وقد لعبت هذه المنطقة أيضاً دوراً هاماً في عالم السياسة والدبلوماسية لهذا .
العصر . كان نائب الملك في برقة منذ عهد بطليموس الأول هو ماجاس *Mageas* الأخ غير الشقيق لفيلاذلفوس . ولكن ما أن وصل فيلاذلفوس إلى العرش حتى أعلن ماجاس الاستقلال ثم شرع في غزو مصر سنة ٢٧٤ ، ولكن حملته باءت بالفشل بسبب ثورة بعض قبائل البدو ضده . على أي حال استطاع ماجاس أن يبقى منفصلاً عن مصر ، بينما وطلد علاقته مع أثيقوخس وتزوج ابنته المسماة باسم جدتها الفارسية أباما (*Apama*) ثم خطا خطوة أخرى نحو الاستقلال بأن أعلن ماجاس نفسه ملكاً . ولكن العلاقات بينه وبين أخيه ملك مصر تحسنت بعض الشيء واتفق الملكان على أن تزوج ابنة ماجاس المسماة بـ نيقية من ابن الملك فيلاذلفوس . وكانت هذه خير الحلول لعودة الوحدة بين مصر وبرقة . ولكن بعد وفاة ماجاس حوالي سنة ٢٥٩ أو سنة ٢٥٨ ق.م . لم تنفذ زوجته أباما هذا الاتفاق وبعثت تخطب لابنتها دمتريوس الأخ غير الشقيق لأنتيجونس ملك مقدونيا ، وكان معروفًا بشدة جماله . ويبدو أن الملكة لم تتمكن من مقاومة إغرائه فوَقعت في حبه . بطليمة الحال لم نرض ابنتها بالأمر وكانت من ذلك النوع من الأميرات المقدونيات صاحبات الطموح والدميم فديرث له مكيدة وقتلته وهو في فراش والدتها سنة ٢٥٥ وقبضت على زمام الحكم في برقة ونفذت خطة والدها الأصلية في الزواج من ولي عهد مصر الذي سيصبح بطليموس يوارجيس *Euergetes* . وهكذا عادت الوحدة بين مصر وبرقة .

هذه هي معالم السياسة الخارجية لبطلميوس الثاني وزوجته أرسنوى التى كان لها تأثير كبير عليه فى الشطر الأول من حكمه ، ولكن هناك اتجاهين آخرين جديرين بالذكر ؛ الأول أن فيلادلفوس إتخذ الخطوة الأولى نحو الإتصال بدولة ناشئة جديدة فى غرب البحر الأبيض المتوسط وهى دولة روما فيبدو أنه حدث اتصال بين مصر وروما عن طريق السفارات فى عام ٢٧٣/٢٧٢ ق م. أثناء حرب روما مع بيروس^(١) . وبعد ذلك فى عام ٢٦٤ أثناء حروب روما ضد قرطاجة ، بعثت قرطاجة تطلب مساعدة مالية من الملك المصرى . ولكن فيلادلفوس لم يشأ أن يتورط فى هذه الحرب الكبرى ، والتزم الحياد . فرفض مساعدة قرطاجة ، ولكنه عرض وماملته فى الحرب إذا لزم الأمر . الظاهرة الأخرى هى إهتمام بطلميوس الثانى بالمنطقة الأثيوبية فى جنوب مصر ، وهو ما لم يحدث فى عصر والده . فقد ذكر أنه بعث حملة إلى أثيوبيا . ولعل لهذه الحملة عدة دوافع أهمها حماية الحدود الجنوبية لمصر ، وثانياً تنشيط التجارة مع داخل أفريقيا ، وأخيراً تحقيقا لموايات فيلادلفوس فى صيد واقتناء الحيوانات والنباتات الغريبة .

السياسة الداخلية :

قد يتبادر لمن القارئ من العرض السابق لسياسة فيلادلفوس الخارجية والتي غلبت عليها الحروب حتى شملت عهده بأسره ، أن مصر فى هذا العصر كانت فى حالة حرب مستمرة وأن الروح العسكرية والحكم العسكرى هو طابع العصر . ولكن على العكس ، لم يشهد الحكم البطلمى بأسره الذى امتد ثلاثة قرون كاملة ، حكماً أكثر بذخاً وأكثر دعة وأكثر اقبالاً على التمتع

(١) أنظر د. عبد اللطيف أحمد على: مصر والأمبراطورية من ٢٠١-٢٠٢ وكذلك المواشى . لاحظ أن هناك بعض الشك بشأن سفارة مصر إلى روما سنة ٢٧٣ ق م .

بأسباب الحضارة السلية من حكم بطليموس الثانى . فكما ذكرنا من قبل لم يخرج هذا الملك على رأس جيش فى أى من الحروب التى خاضها ، وإنما كان يرسل جيوشه تحت قيادة أعوانه من القادة والضباط . وأقام هو فى الإسكندرية وكأنه فى معزل عن جيوشه المحاربة . ولسوء الحظ لا يتسع المجال هنا للافاضة فى وصف القصر المكي والبذخ الذى كان يموج به وتموج به معه الإسكندرية . ويكفى أن نقرأ أشعار المعاصرين من أمثال فيو كريتوس وهيرودنداس وكاليماخس وغيرهم فى وصف الأعيساد والأحتفالات الدينية والديونية فى الاسكندرية لتعرف مدى انتماس الملك ومن حوله فى الترف والاهو وأسباب التعميم^(١) . ولقد اشتهر هذا الملك بالهجون إلى أبعد الحدود فلم يكتف بأن بدأ تقليداً غريباً على الأخلاق اليونانية وهو قبوله الزواج من أخته الشقيقة وإقصاء زوجته الأولى وأم أولاده، بل عرف بأن له عدد من المحظيات مما يرشحه لأن يبارى أشهر رجال الهجون فى التاريخ .

إلى جانب هذه الحياة الخاصة الماجنة ، حرص فيلادلفوس على أن يحول نفسه بكل مظاهر الأبهة والمجد فعمل على تجهيل عاصمته الإسكندرية ، حتى أن كثيراً من المباني الكبرى التى عرفت بها المدينة فيما بعد ترجع إلى عصره واهتم اهتماماً خاصاً بجلب كبار الشعراء والعلماء إلى دولته وجعلهم جميعاً أعضاء فى الموسيون (Mousion) والمكتبة التى أنشأها والده ، خاصة وأنه كان هو نفسه متمتماً بثقافة عالية، إذ كان والده قد عين له خيرة الأسانذة فى عصره ليشرعوا على تعليمه وثقافته . وفى عصره نمت مكتبة الإسكندرية نمواً كبيراً حتى أصبحت أكبر مكتبة فى العالم القديم بأسره . وتذكر لنا المصادر القديمة أن هذا الملك كان ولوعاً بالجغرافيا والتاريخ الطبيعى . وحرص على تصيد أو إقتناء الحيوانات الغريبة من أفريقيا وآسيا .

(١) انظر أيضاً P.G. Elgood, the ptolemis of Egypt, pp. 44 ff.

ولكن هذه الجوانب من شخصية فيلادلفوس لا تعطينا سوى فكرة ضئيلة عن عهد هذا الملك الذى شبهه بعض الكتاب بمهد لويس الرابع عشر فى فرنسا^(١) لأنه إذا كان بطليموس الأول قد وضع أساس الدولة البطلمية فان بطليموس الثانى هو الذى أقام البناء ، فان معظم نظم الحكم الداخلى استكملت تكوينها فى عصره . فنظام الإدارة والاقتصاد والسياسة المدنية للدولة البطلمية يبدو لنا كاملا ومعمولا به لأول مرة فى عهده . هذه النظم المختلفة سوف نعرض لها فى نهاية الكلام عن الدولة البطلمية ، ولكن يكفى هنا أن نذكر أن نظام الموظفين ونظام الأراضى استكمل صورته فى عصره . وفى مجال التجارة نجده خالف سياسة والده فى التجارة الحرة وطبق نظام الاحتكار الشديد . أما فى جانب السياسة الدينية فيمكن أن يقال أن بطليموس الثانى هو المؤسس الفعلى لعبادة الأسرة المالكة : فبجرد وفاة والده أعلنت قداسته هو وزوجته برنيقة على أنه الإله المتقدس سوتير Soter وألحق عبادته بعبادة الإسكندر الأكبر . ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، بل جعل العبادة الملكية تشمل هو وزوجته أرسنوى فى حياتهما ، تحت لقب مقدس جديد هو فيلادلفوس philadelphus أى الحب لأخته أو المحبة لأخيها ، ولو أن الملكة أرسنوى أخته هى التى كانت مقصودة بذلك التشرىف فى أول الأمر^(٢) ومنذ ذلك التاريخ أصبح جميع الملوك البطالمة وزوجاتهم يعبدون تحت ألقاب قديسية مختلفة ، ويشملهم جميعاً لقب « آلهة شركاء فى المعباد » sunnaoi theoi (أى معابد الآلهة الأخرى إذ لم تفرد لهم معابد خاصة) وأصبح كاهن الاسكندر هو كاهن الملوك البطالمة للؤلهمين أيضاً^(٣) .

Bovan, Egypt, p. 58 "this ancient Roi Soleil". (١)

P. Hibeh, II. 199 (278—2 B.C.)

(٢) أنظر

Bell. Cults and Creeds, p. 23.

هذا الملك المتعدد الجنيات ، الذى يصلح موضوعاً لدراسة الذين يهتمون
 بإدخال التفسيرات النفسانية الحديثة فى البحث التاريخي، أشرك معه فى الحكم
 ابنه بطليموس بن أرسنوى سنة ٢٤٧ ، ولكنه لم يلبث أن توفى سنة ٢٤٦
 بعد أن بقى على العرش نحواً من أربعين عاماً ، فخلفه ابنه وشريكه بطليموس
 الذى أصبح يلقب باسم الملك بطليموس الثالث يوارجيس .

هـ - بطليموس الثالث يوارث جتليمن (٢٤٦ - ٢٢١ ق.م)

الحرب السورية الثالثة .

في خلال العام الأخير من حياة فيلادلفوس ، كان الموقف في سوريا قد تطور تطوراً سريعاً وخطيراً ، أدى إلى فشل خطته في زواج ابنته برنيقة من الملك السايوقي انتيوخس الثاني .

ذلك أن زوجة الملك السوري السماء « لاوديقة » Laodice التي كان قد هجرها بسبب زواجه من ابنة فيلادلفوس ، قد كسبت أنتيوخس لمامرة ثانية ، ولكن مالبث أن مات مقتولاً في ظروف غامضة في إفسوس Ephesus حيث كانت تقيم هذه الزوجة الأولى ، مما بعث على الريبة في أنها هي المدبرة لهذه الجريمة . وموت انتيوخس الثاني على أي حال ، ترك للسكتين وجهاً لوجه ، كل تسعى لتثبيت ابنها على العرش خلفاً للوالد المشترك وفي هذا الصراع سرعان ما رجعت كفة لاوديقة التي تمكنت من قتل برنيقة وإبنها .

هذا هو الموقف الذي واجهه ثالث ملوك البطالمة بمجرد توليه العرش . وكان عليه حيال أخته برنيقة التزام أدبي مزدوج ، فعليه أن يحميها هي وإبنها ماداماً على قيد الحياة ويحاول أن يمكن الإبن من تولي العرش السوري ، وفي حال وفاتها فعل لاوديقة كان عليه أن ينتقم لها . وكان بطليموس الثالث جديراً بهذا الموقف الذي تتفق فيه العاطفة والمصلحة . وكان لدى الملك الجديد من الهمة والروح العسكرية ما يذكرنا بمجده لا بوالده ، فخرج بنفسه على رأس الجيش المصري في سنة ٢٤٦ واحتل سوريا الشمالية وكيلىكيا ثم عبر الفرات ووصل إلى مدينة سليوقية على نهر الدجلة ، دون أن يلقى مقاومة تذكر . (م . - الإسكندرية)

ولكن ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى مصر فجأة لمواجهة أزمة داخلية في مصر بسبب حدوث مجاعة نتجت عن تخلف مياه النيل^(١) ، ويظن البعض أنه ربما قامت ثورة في الدلتا لهذا السبب . انتهز سليوقس ، الإبن الأكبر الذى تولى العرش في سوريا ، فرصة انشغال الملك المصرى بالأزمة الداخلية في بلاده ، وجمع جيشا وتمكن سنة ٢٤١ من أن يستخلص من أبدى المصريين معظم ممتلكاته في سوريا الشمالية و كيليكيا والشرق ، ولكن بقي في أبدى لمصريين سوريا الجنوبية بما فيها فينيقيا وفلسطين .

وفي آسيا الصغرى بقى السلطان المصرى فى معظم الساحل الجنوبى، وذلك لأن سليوقس لم يتمكن من الاستمرار فى الحرب بسبب الصراع الذى نشأ بينه وبين أخيه الأصغرسمى انتيوخس هيراكس ، والذى أدى إلى قيام حرب أهلية تعرف باسم « حرب الأخوين » .

ولم يخرج بطليموس الثالث للحرب مرة ثانية طوال حياته بعد ذلك ، مستغلا مجده الحربى الأول أحسن استغلال لتوطيد نفوذه فى الداخل والخارج وفى الوقت نفسه كتنفى باستخدام أساليب دبلوماسية قوية داخل بلاد منافسيه فى الدولة السلوقية فى سوريا والدولة الأنتجونية فى مقدونيا واليونان . وفى سوريا استغل الحرب الأهلية فى تمريض أحد الطرفين على الآخر عن طريق إمداده بالمال . هكذا بقيت الدولة السلوقية منشقة على نفسها فترة من الزمن فلم تتمكن من مهاجمة ممتلكات مصر فى سوريا الجنوبية . وفى الوقت نفسه تمكن بطليموس الثالث من مد نفوذه على حساب ممتلكاتها فى آسيا الصغرى ، حتى وصل نفوذه إلى إقليم طراقيا . وفى بلاد اليونان كان يساند المدن اليونانية فى

(١) ورد ذكر لانخفاض النيل والمجاعة فى قرار كاتب O.G. I S. 56. 18 ff. Jeuguet, Nation Egyptienne, p. 57; Bevan, Egypt, p. 197.

ثوراتها وحروبها ضد السيطرة القدونية كما فعل في ثورة البلوبونيز تحت زعامة أراتوس Aratus ، زعيم حلف الأخيين أولاً ، ثم تحت زعامة كليومنيس Cleomenes ملك أسبرطة الاشتراكي فيما بعد . ولكن اسقطاع أخيراً (٢٣٩—٢٢٢) انتجعونس دوسون ملك مقدونيا الجديد من هزيمة كليومنيس في معركة (سيلاسيا سنة ٢٢٢ ، وفر الملك الأسبرطي إلى مصر حيث مات)^(١) .

هذا هو مجمل نشاط بطليموس الثالث في مجال السياسة الخارجية . ويمكن أن يقال أنه بقدر قليل من الحروب صان الإمبراطورية المصرية على نحو أفضل مما فعل والده الذي شغلت الحروب معظم فترة حكمه الطويلة . ففي عهد بطليموس الثالث بقيت مصر ممتلكاتها في برقة وسوريا الجنوبية وآسيا الصغرى .

السياسة الداخلية :

أخذ بطليموس الثالث عن والده الثقافة والاستنارة وحسب العلم ، ولكن اختلف عنه في غلبة الاتزان والاعتدال على سلوكه وتمتعه بمثل أخلاقية رفيعة ، فمن ذلك أنه اقتصر على زوجة واحدة طوال حياته ، هي الملكة برنيقة (Borenice) ، ولم يعرف أنه اتخذ لنفسه محظيات كما فعل والده من قبل . وقد تجلى حبه للعلم والثقافة في أن الاسكندرية حافظت على مكانتها كأكبر مركز للعلم والثقافة وظل قصره مقصد الأدباء والعلماء من جميع أقطار العالم اليوناني .

ومن أشهر أعماله التي تدل على الاستنارة ، محاولته إصلاح التقويم للمصري . فالمعروف أن السنة المصرية التي استخدمها المصريون القدماء وظل

(١) هذه هي أول مرة في التاريخ يتمسكن جيش أجنبي من دخول أسبرطة . أما عن حياة كليوميليس ملك أسبرطة في مصر أنظر 'Poybius, V 38.

معمولا بها في العصر البطلي هي السنة الشمسية ، التي تتكون من ٣٦٥ يوما وكانت السنة تنقسم إلى اثني عشر شهراً في كل شهر ثلاثون يوما . أى أن مجموع الأشهر يعطينا ٣٦٠ يوما ، وكان يضاف إليه خمسة أيام نسيء في نهاية كل عام . على هذا النحو كانت السنة المصرية تنقص عن السنة الحقيقية ربع يوم أى يوماً كاملاً كل أربع سنوات . ولا شك أن الكهنة المصريين عرفوا هذا الفرق لأنه يؤدي على مدى مئات السنين إلى أن تدور الأشهر من فصل إلى آخر من فصول السنة ، فلا تقع دائماً في الوقت نفسه لذلك نبتت في عصر بطليموس الثالث فكرة إضافة يوم سادس إلى أيام النسيء الخمسة مرة كل أربع سنوات ورغم أن بيانا أقره الملك صدر عن الكهنة المصريين بشأن إصلاح التقويم^(١) إلا أن الإصلاح أهمل بعد بطليموس الثالث ولم يعمل به . وبقى التقويم كما كان حتى اتخذ يوليوس قيصر التقويم المصرى والإصلاح المقترح وطبقه في روما ثم أخذه الإمبراطور أغسطس وطبقه في مصر عندما فتحها سنة ٣٠ ق . م .

وهناك إصلاح آخر حاوله بطليموس الثالث يتعلق بالتقويم وهو تحديد تاريخ معين يبدأ منه التاريخ البطلي ، واقترح لذلك عام ٣١١ ق . م . وهي سنة وفاة الإسكندر الرابع ابن الإسكندر الأكبر لأن بموته انتهى آخر يمثل للسلطة الشرعية المركزية في الإمبراطورية واعتبر أن هذا التاريخ بدء دولة البطالمة المستقلة في مصر . معنى هذا الإصلاح أن عام ٣١١ ق . م . كان يعتبر العام الأول في التاريخ البطلي . ومع ذلك فلم يجر العمل بهذا التاريخ الجديد واستمر التاريخ بالطريقة التقليدية حسب سنن حكم كل ملك .

(١) وهو قرار كاثوب المهور الذى صدر من عجم الكهنة المصريين في كاثوب (أبي إيه حاليًا) سنة ٢٣٢ ق . م . والقرار منشور في
O. G. I. 56
وترجم له ترجمة إنجليزية في كتاب
Revan, op. cit., 208 ff.

وبما يذكر لهذا الملك من الأعمال الطيبة هو انتهاجه سياسة طابها العطف والتقرب من المصريين . وقد تجلّى ذلك في عملين ، الأول هو إعادته إلى المعابد المصرية تماثيل الآلهة المصرية التي كان الفرس قد أخذوها معهم قبل الاسكندر وأعادها بطلميوس الثالث عند رجوعه من حملته المغفرة في سوريا في أول حكمه والعمل الثانى هو اهتمامه البالغ بأمر الجماعة التي حدثت أثناء حملته والتي نصبت عن انخفاض منسوب النيل مما أساء إلى الزراعة كل الاساءة، فعاد الملك في الحال وأعلن تنازل الدولة عن الضرائب ونصيبها في المحاصيل، كما قام في الحال باستيراد القمح من الخارج مما رفع الضائقة عن الناس وجعلهم يلمحون بشكره وحمده ولعل من المناسب أن نورد هنا نص الفقرات التي وردت في قرار الكهنة المصريين في هذا الشأن في القرار المعروف بقرار كاتوب الصادر في مارس سنة ٢٣٨ ق . م .

« لقد أعاد الملك وأخته الملكة ، الالمان الخيران ٠٠٠ التماثيل المقدسة التي كان قد أخذها الفرس خارج البلاد ، وذلك أثناء حملة عسكرية قام بها الملك وأعاد كل تمثال لمعبده الذى أخذ منه . ولقد حفظ البلاد في سلام ، يذود عنها بسلاحه ضد كثير من الأمم والملوك . وقد أقاما حكومة صالحة بالنسبة لجميع السكان في مصر وللأجانب في الامبراطورية ، وحينما تخلف الدليل عن أن يرتفع بالقدر الكافى وشمل اليأس الجميع بسبب ما حدث ، فتذكروا الكوارث التي حدثت في عهد بعض الملوك السابقين ، حينما قاسى الأهالى بسبب عجز الفيضان شمل الملك والملكة بمحايتهم الجميع سواء أهل المعابد أو سائر السكان ، وأعلنا في عطف كبير ، تنازلها عن قدر غير قليل من الضرائب من أجل إقناذ الحياة واستورداً القمح للبلاد من سوريا وفينيقييا وقبرص وبلاد أخرى كثيرة باغلى الأثمان ، وهكذا أنقذا أهل مصر » ^(١) .

لغند عودة بطليموس الثالث من حملته في سوريا وقيامه بهذه الأعمال الجليلة التي سجلها له القرار الكانوبي ، أعلن الميك والملكة « إلهين خيرين » *Theoi Energetoi* ومن هنا كانت تسميته دائماً بيو إوجتيس . وهي إتياع لسنة إبتدأها بطليموس الثاني هو وأخته وزوجته أرسنوى . وهكذا أصبح هذا التقليد قاعدة اتبعها وسار على نهجها الملوك البطالمة من بعدهم ، فلهوا جميعاً مع زوجاتهم أثناء حياتهم ، تحت ألقاب ملكية تجمد .

ويمكن أن نضيف اتجاهًا آخر تميز به حكم يوجتيس وهو اهتمامه الكبير ببناء المعابد المصرية على نحو لم نعهده في الملوك السابقين . فقد أتم معبد الإله إيزيس الذي كان قد بدأه والده في جزيرة فيله . وهناك البيلون المشهور الذي أنشاه يوجتيس في الكرنك ، وكذلك بنى معبداً صغيراً في إسنا ، تهدم في القرن الماضي . ولكن ما من شك أن أعظم مبانيه هو معبد إدفو المشهور الذي يعتبر أكل المعابد التي بقيت من مصر القديمة . فقد أُنشئ هذا المعبد للإله حورس (الذي شبهه الاغريق بالاله أبولو) . وبدأ في تشييده في سنة ٢٣٧ ولكن هذا الملك لم يعيش ليتم البناء مما جعل إتمامه ، يستغرق مائة وثمانين سنة حتى حكم بطليموس الثاني عشر ^(١) .

د - بطليموس الرابع فيلوياتور (٢٢١ - ٢٠٥ ق م)

في فبراير سنة ٢٢١ توفي يوارجتيس وخلفه ابنه بطليموس الرابع في سن الثالثة والعشرين ، وحوالي التاريخ نفسه اعتلى العرش في سوريا ومقدونيا كذلك ملكان جديان في مستقبل العمر أيضاً ، وهما أتيوخس الثالث في سوريا وفيليب الخامس في مقدونيا . ولمصر هؤلاء الملوك الثلاثة أهمية خاصة في التاريخ لأنه شهد ظهور روما كقوة عالمية تتدخل تدريجياً في شئون الممالك الهلينستية الثلاث .

ومن حسن الحظ أن مصدراً تاريخياً هاماً يبدأ أيضاً بمصر هؤلاء الملوك هو تاريخ المؤرخ الكبير بوليبيوس . رغم أن بعض أجزاء تاريخ بوليبيوس قد فقدت أو وصلت ناقصة في شكل فقرات ومقتطفات عن طريق كتابات المؤرخين المتأخرين عنه ، ورغم تحمسه لروما وعدم تفاؤله بالنسبة للممالك الهلينستية في الشرق كما يبدو واضحاً في الصورة القائمة التي تبدو من كتاباته عن الملك بطليموس الرابع ، إلا أن كل ذلك لا يقلل من أهمية هذا المصدر العظيم الذي يمتاز بصدق النظرة التاريخية قبل كل شيء^(١)

كانت شخصية الملك البطلمي الجديد ، عكس شخصية والده : خاملاً ، ضعيف الأخلاق إلى درجة الانحلال ، قد سيطر عليه منذ البداية رجل خبيث من رجال العصر هو سوسيبوس Sosibius ومعه شخصيات ثلاث حفظ لها

(١) من أجل فهم للعوامل التي يثيرها أو يمرض لها بوليبيوس يحسن استخدام الدراسة التفسيرية الحديثة التي قام بها F. W. Walbank في كتابه .
A Historical Commentary on Polybius. (1957) Oxford.

التاريخ ذكرى من الفساد والاسفاف الأخلاق مما يبعث في النفس الشعور بالازدهار والاشمئزاز . بسيادة هذه العناصر الفاسدة في الدولة سيجد أن عصر بطليموس الرابع سيكون نقطة التحول في تاريخ الدولة البطلمية ، وتحولها من عصر الازدهار والإمبراطورية إلى عصر الإضمحلال وفقدان الامبراطورية . وكان سوسيبوس رجل مؤامرات داهية من الطراز الأول فابتدأ بالقضاء على العناصر الصالحة في القصر الملكي التي قد تقاوم سياسته . قتل كل من عم الملك وأخويه وأمه الملكة برنيقه ، وكذلك كليومنيس الملك الأسير على اللاجئ ، الذي بدأ يكون لنفسه اتباعا من الجنود في الاسكندرية . وهكذا خلا الجو لسوسيبوس وبطانته فسيطر على الملك وسيطر على الدولة .

الحروب السورية الرابعة :

ولكن كان على هذه العصابة أن تواجه امتحانا عصيبا في السنين الأولى من عصر بطليموس الرابع . ذلك أن أنتيوخس الثالث في سوريا كان عكس الملك المصري ، تسلم الدولة السلوقية مفككة ضعيفة ، فصمم على إعادة بنائها وتوطيد وحدتها ، وكان يمتاز بطبيعة وشخصية الجندى المزمع . وللملمة بحقيقة الوضع في القصر الملكي المصري ، رأى أن يقتنص لنفسه نصراً سريعاً باهراً بالاستيلاء على سوريا الجنوبية التي كان قد انتزعها بطليموس الأول وبقيت دائماً في أبدى أسرته رغم توالى الحروب بشأنها .

على هذا الأساس في العام الأول من حكم بطليموس الرابع سنة ٢٢١ ، نجح أنتيوخس الثالث يزحف بحيشه إلى سوريا الجنوبية ، ولكن القائد العام للجيش المصري هناك كان قائداً أغريقيا من ايتوليا على جانب كبير من التفوق والقدرة العسكرية ، فتمسك من إحكام الدفاع عن مدن فينيقيا وحصونها ، وفشل أنتيوخس في الاستيلاء عليها . وقبل أن يعاود

المعجوم اضطر الملك السليوق إلى العودة إلى دولته ، لمواجهة ثورة ضده في بابل . وكانت هذه فرصة نادرة للمهيمنين على القصر الملكي في الإسكندرية ، وكان على سوسيبيوس أن يظهر مقدرته ودهاءه في مواجهة الخطر السليوقي ، وفلا استطاع أن يثبت أنه رجل الموقف أيضاً فاستغل أوضاعاً وظروف عدم الاستقرار في الدول السلوقية وعمس على زيادة القلاقل والأضطرابات الداخلية ضد انتيوخس ، مستعينا على ذلك بالرشوة واللؤامرات . وحتى يكسب الوقت بحث يفاوض الملك السوري ويومه بإمكان الوصول إلى اتفاق في صالحه ، ثم يعاقل في هذه المفاوضات معتذراً بحمول الملك البطلمي ومعتمداً أيضاً على أن انتيوخس مشغول بالثورات الداخلية . وفي الوقت نفسه أخذ يعمل بهمة رجل المؤامرات المحنك على إعادة تنظيم الجيش المصري . فأحضر كثيراً من الجنود المرتزقة من بلاد اليونان . ولكن أهم خطوة لجأ إليها . مضطراً بطبيعة الحال ، هو تجنيد نحواً من عشرين ألف من الفلاحين المصريين ، الذين درّبهم بواسطة ضباط وجند مقدونيين وإغريق على الأساليب الحربية للمقدونية . كل هذه الأعمال أحيطت بسرية كبيرة مدى عامين تقريباً . كان انتيوخس في أثناءها قد فرغ من إخضاع جميع القلاقل في دولته ويأس من إمكان الوصول إلى اتفاق مع مصر ، فصار في عام ٢١٨ على رأس جيشه جنوباً إلى سوريا الجنوبية وكان الموقف منذ البداية في صالحه إذ نشأ خلاف بين القائد المصري ثيودوتوس وبين القصر في الإسكندرية ، فعمينوا قائداً آخر مكانه .

فما كان من ثيودوتوس إلا أن انضم إلى جانب انتيوخس ولم يتمكن سوسيبيوس من إرسال قوات كافية في الوقت المناسب ، فتقدم انتيوخس في سهولة إلى فينيقيا وأخذها وتقدم جنوباً حتى استولى على غزة دون مقاومة ذات بال . في هذه الأثناء كان القصر البطلمي قد أكل إستمداداته وقل جيوشه إلى أرض للمرة تحت قيادة الملك نفسه . ودارت المعركة بالقرب من

مدينة رفح في ٢٤ يونيو سنة ٢١٧ وكانت مراحل هذه المعركة والنتيجة التي انتهت إليها على غير المتوقع، فقد ابتدأت المعركة بمحكمة عنيفة من جانب أنطيوخس الذي قاد جناحه الأيمن من الفرسان واجتاح فرسان الجيش البطلمي في الميسرة التي كانت بقيادة الملك البطلمي نفسه حتى أن الملك لاذ بالفرار. ولكن المعركة لم تنته عند هذه الجولة الأولى، بل استمر قتال عنيف التعم فيه المشاة من الجلفيين وأمام عجب الجميع أثبت الجنود من الفلاحين المصريين الذين لم يمض على تجميعهم عام ونصف، جدارتهم في هذه المعركة الخطيرة رغم بعد عهدهم بالقتال. ولم تنته المعركة إلا وكان لهؤلاء الجنود المصريين الفضل الأكبر في كسبها للملك البطلمي. وهكذا احتفظت مصر هذه المرة أيضاً بسيادتها على سوريا الجنوبية بما فيها فينيقيا وفلسطين^(١).

عند هذه الحرب التي فرضت على بطليموس الرابع فرضاً لم تخرج الجيوش المصرية للحرب بعد ذلك طيلة حياته، ولم يعتمد نشاطه أو نشاط حاشيته في مجال السياسة الخارجية بعض الاتصالات الدبلوماسية ببعض المدن اليونانية، وإرسال بعض الهدايا الثمينة للمدن التي تظهر قرباً إلى مصر، وكانت المدن ترد على هذه الهدايا بكتابة النقوش يسجلون بها اعترافهم بالجميل للملك المصري.

في خلال حكم هذا الملك حدثت أخطر حرب في التاريخ القديم وهي الحرب اليونانية الثانية بين هانيبال القرطاجي وروما. ورغم أن بعض الدول اليونانية الأخرى قد تورطت أيضاً في هذه الحرب، فانحازت مقدونيا إلى جانب هانيبال بينما انحازت إيتوليا إلى جانب روما، فإن بطليموس الرابع التزم موقف الحياد التام حيال هذه الحرب كما سبق أن فعل جده بطليموس الثاني أثناء الحرب

(١) أنظر وصف بطليموس في معركة رفح لـ تاريخه. Polyb. V. 107.

البونية الأولى . وقد حاولت وفود عن الجانبين أثناء الحروب الهانيبالية أن
تكسب مصر إلى جانبها ولكن دون جدوى .

الحالة في الداخل :

إذا نظرنا بعد ذلك إلى جهود الملك وحاشيته في مجال السياسة الداخلية نجد
أن نشاطهم كان محدوداً أيضاً . بعد انتصار رفح عاد الملك إلى الإسكندرية
ليعلن زواجه من اخته ارسنوى (الثالثة) . وكانت فتاة حديثة السن على جانب
كبير من الحياء والأخلاق ، ولكنها ظلت مغلوطة على أمرها حيال البطانة
الفاسدة التي أحاطت بالملك . وفي مناسبة الزواج الملكي أعلن تأليه الملك
والملكة أيضاً تحت اسم فيلوباتور (أى الحب أو المحبة لوالدها) ولاشك أن
لاختيار مثل هذا القرب مغزى سياسى ، يعنى أن الوجهين للأمر في القصر
أرادوا استقلال حب الشعب للملكين الراحلين فخلعوا على بطليموس الرابع
لقب فيلوباتور تقرباً من الشعب وكسباً لمألفته ولكن دون جدوى ، فام
حدث داخلى في عهد الملك فيلوباتور هو قيام ثورة عامة بين المصريين
ضد الحكم والأسرة المقدونية . فبعد عودة الجنود المصريين منتصرين من رفح
اندلعت نار ثورة عامة بين الأهالى أولاً في الدلتا ثم في الصعيد ورغم أن التاريخ
(كايرويه بوليبيوس^(١)) لم يحفظ لنا مواقع أو مواقف حاسمة في هذه الثورة
غير أنها كانت طويلة الأمد ، وخاصة في أعلى الصعيد في مدينة طيبة حتى
استطاع الأهالى إعلان استقلالهم حتى عام ١٨٥ في حكم الملك بطليموس الخامس
ويبدو أن مقاطعة طيبة النائرة تلقت عوناً وتأيداً من الدولة الإثيوبية في
الجنوب ، حيث قامت في ذلك الوقت حكم أسرة قوية مستنيرة .

وما يدل على عمق جذور هذه الثورة في نفوس الأهالى في ذلك الوقت هو

ما تكشف عنه ردية ديموطيقية ترجع إلى هذا العصر ، وتحتوى على نبؤة يدعى كاتبها أنها ترجع إلى عصر الملك تاخوس (٣٦٦ - ٣٦٠ ق م) من ملوك الأسرة الثلاثين . أى قبل الفتح المقدوني . وموضوع الوثيقة ، التى تحتوى على نبؤة دينية وشرحها ، يتضمن تاريخ مصر منذ تاخوس ، وما تعرضت من غزو وحكم أجنبي على يد الفرس أولاً والإغريق بعد ذلك . ثم تنتهى النبؤة وشرحها يشير للمصريين بأن يوم الخلاص قريب وأنه سيظهر واحداً من أبناء إهناسية المدينة (التى سميت Ihds فى اللغة القبطية وأسماءها الإغريق والرومان) (Hieracleopolis) وسوف يحرر مصر ويطرد الأجانب والإ يونيين أى الإغريق .^(١) وما من شك أن فكرة النبؤة وقدمها التاريخي تلفيق قام به الدعاة للثورة حتى يصفوا على دعواهم صفة المراقبة والصدق الدينى ، وإنما الوثيقة فى واقع الأمر حديث التأليف قبل الثورة مباشرة .

هذا الملك الخامل الذى عبّز عن الحكم حاول أن ينسى مآسى عهده بالمجون أو الخمر أو الشعوذة الدينية أو التأليف المسرحى أحياناً) إذ عرف أنه كتب مسرحية ماجنة عن أدونيس) ، وكما كانت حياته مليئة بالمواقف الغريبة المريبة ، كذلك انتهت حياته فى غموض وريب سنة ٢٠٥ .

Cf. W. Spiegelberg, Die Sogenannte Demotische Chronik, (١)
p. 6, No. 1.

الفصل الثالث

التاريخ السياسى لمصر فى العصر البطلمى عصر الضعف

خلف بطليموس الرابع فيلوباتور^(١) على عرش مصر صبي لم يتجاوز الخامسة من عمره ولذلك كان لابد له من وصى . والوصى الطبيعى عليه هو أمه الملكة أرسنوى الثالثة . ولكن سوسيبيوس وأجاتو كليس كانا يعلمان أنهما قد لا يبقيان طويلا بعد ذلك إذا ما تمكنت الملكة من السيطرة فى القصر عن طريق الوصاية على ابنتها . ولمنع احتمال قيام مثل هذا الموقف كان لابد من التخلص من الملكة فى الحال . ولهذا لم يعلنوا وفاة الملك ، وانتظروا ربما دبراً مؤامرة أدت إلى قتل الملكة داخل القصر ، ثم زيفا وصية للملك يعينهما وصيين على الملك الطفل .

ويعرض علينا المؤرخ بوليبيوس صورة حية لما وقع عند ذلك . سار سوسيبيوس وأجاتو كليس نحو أتمام خططهما ، وفى يوم معين هجما الجنود رجال الحاشية والمواطنين أمام القصر الملكى وأعلنوا وفاة الملك والملكة معاً ثم قرئت الوصية المزيفة معلنة تعيينهما وصيين على الملك الطفل بطليموس الخامس الذى سيطلق عليه عند بلوغه سن الرشد اسم ايفانيس Epiphanes (أى الظاهر) وبطبيعة الحال لم تنطل التمثيلية على الحاضرين وصرت همسات الإستفكار بين الجميع . وحاول الأوصياء على الملك كسب تأييد الجنود الذين تعتمد عليهم

(١) هناك بعض الاختلاف حول تاريخ وفاة فيلوباتور وإعلان ابنه خلفاً له . أظن :

T. C. Skeel, The Reigns of the Ptolemies (1954) p. 32.

أقضى يقترح نوفمبر عام ٢٠٥ ق . م . هناك تاريخ آخر وهو عام ٢٠٢ ق . م . قدمه عدد من الفارسين . أظن . إبراهيم لصحى ، عصر البطالة ج ١ ص ١٥٢ .

السلطة ، فوزعوا راتب شهرين على الجنود الذين أقسموا بيمين الولاء المؤلف في مثل هذه المناسبات .^(١)

وفي الوقت نفسه عينوا أصدقاءهم في المناصب الرئيسية في الدولة . ولكن الشعور العام كان قد بلغ مداه في بغض وكرامية هذه الطغمة الفاسدة المتلاعبة بالقصر والدولة من أجل مصالحهم الشخصية . ومالبث هذا الشعور العام بالسخط أن وجد له زعياً يثق فيه ويلتف حوله وهو قائد حامية بلوزيوم المسمى أتليبوليموس Tlepolemos الذي أعلن الثورة في بلوزيوم أولاً ولما انضمت إليه حامية الإسكندرية سار إليها وسط ثورة الشعب وتأييده له . وفي هذه الثورة الباعجة ألقى القبض على أجاثوكليس وأخته وأمه وقتلوا جميعاً . أما سوسيبوس فكان قد مات من قبل . وبمسند ذلك أعلن أتليبوليموس وصياً على الملك العاقل .

مصر تفقد إمبراطورتها :

ولكن أتليبوليموس Tlepolemos لم يكن بالشخصية التي تصلح للأخذ بتقاليد الحكم في هذه الآونة العصيبة ، إذ لم يخل هو أيضاً من ضعف ، فقد كان به جنوح نحو الفرور وحب اللهو والمجون .

ولذلك مالبث أن عزل من مركزه بسبب اشتداد الخطر الخارجي ، وخلفه أرسطومينس Aritomenes .

كان من الطبيعي أن تستغل الدول الأجنبية الموقف في مصر وتنقض على ممتلكاتها الخارجية ، وفلا اتفق كل من انيقوخس الثالث ملك سوريا

السلوقية وفيليب الخامس ملك مقدونيا على أن يدع كل منهما الآخر يوسع دولته على حساب الإمبراطورية المصرية .

الحرب السورية الخامسة :

وفعلا استولى أنتيوخس الثالث على سوريا الجنوبية بما في ذلك فينيقيا وزحف جنوباً حتى سقطت في يده غزة (٢٠٢ — ٢٠١) . في هذه الأثناء كان أرسطومينس قد عين وصياً على الملك ، فغير القيادة على الحدود وعين أسكوباس Sosanes الذي بذل جهوداً عظيمة تثبت أنه ما زالت بالدولة بقية من طاقه عسكرية يعتمد عليها في الظروف العصيبة . وفعلا استطاع أسكوباس أن يسترد غزة وأن يطرد الجيش السوري من فلسطين . ولكن ما لبث أن حضر أنتيوخس بنفسه لمحاربة أسكوباس ، وكانت الموقعة الفاصلة بينهما عند بانايون panion في شمال فلسطين . وكتب للنصر لانتيوخس في هذه المعركة نحو إلى سنة ٢٠٠ ق . م وبذلك انتهت سيادة مصر على سوريا الجنوبية نهائياً .

روما :

في عام ٢٠٢ ق . م . كانت روما قد خرجت منتصرة من الحرب البونيقية الثانية ، وبدأت تتطلع إلى الشرق لتتعدد علاقاتها مع ممالكها المتصارعة . خاصة وأن في استطاعة هذه الممالك أن تكون خطراً على روما في بعض المواقف العصيبة ، كما حدث أن انحازت مقدونيا إلى جانب قرطاجة في الوقت الذي كانت فيه روما تواجه أعصب موقف وقفته في تاريخها حين حاصرها هانيبال ونصب خيمته على مسافة ثلاثة أميال من أسوارها . لذلك أرسلت روما مبعوثاً إلى الممالك الشرقية لتتعرف على حقيقة الموقف بها بمجرد انتهاء الحروب البونيقية الثانية .

فحصر وفد روماني إلى مصر برئاسة ماركوس ليبيدوس *Macrus Lepidus* ويبدو أن الموقف في مصر كان مزعرا إلى حد أنه أمكن ترويح إشاعة في بعض الدوائر الرومانية أن ايبيدوس عين وصيا على الملك المصري^(١).

قد يكون الغرض من ترويح مثل هذا النبأ هو إيجاد ضمان لحياه عرش الملك المصري وممتلكاته في الخارج من أن يتجهيف عليها ماوك سوريا ومقدونيا إلا أنه لم يكن له أى تأثير ، فالملك فيليب الخامس أخذ بفتنه الفرص لتوطيد مركزه في العالم اليوناني ، ومالئ ان امتولى على جميع ممتلكات مصر في هذه المنطقة دون ان تتمكن مصر من ان تحرك ساكنا^(٢).

في الوقت نفسه زحفت سوريا على البقية الباقية من الإمبراطورية البطلمية في آسيا الصغرى وقبرص فاستولت عليها جميعا . وبذلك لم يبق لمصر سوى إقليم برقة في ليبيا في الغرب . اما في الجنوب فكانت الدولة الأنثيوبية تنافس مصر المدا وتساعد الثوار المصريين في طيبة على الاستقلال عن سلطان الملك في الاسكندرية . وهكذا في أقل من عشر سنوات من وفاة فيلوپاتور فقدت مصر إمبراطوريتها . وحتى أثناء سراع روما مع كل من مقدونيا وسوريا لم تتمكن مصر من استرداد شيء من ممتلكاتها والتزمت أولا موقفا سلبيا أسمته الحياد ثم أغارت إلى روما في سلوك هو أشبه بالقبعية بعد أن تمير مستشار أرسطوميثس وخلفه پوليسكراتيس *polycrates* .

(١) أنظر تعليق بيتان على هذا النبأ *Bevan, Egypt, pp. 256-9.*

ذكر هذا النبأ في *J. tin. XXX. 3-5; Valer. Maximus, VI, 6. 1; Tacitus, Annales, II. 67.*

ولم يذكره بوليبيوس وليبيوس .

(٢) أنظر: *Jouquet, L'Impérialisme Macedonien, 292 f.*

الحالة الداخلية :

ونظرة سريعة إلى الحالة في الداخل تدل على أن نتائج الموقف الخارجى كانت صدى للتطورات في الداخل . فإن استمرار الثورات المصرية منذ عصر فيلوباتور زاد من ضعف السلطة المركزية واضطرها إلى أن تتخذ مزيداً من المظاهر المصرية كسباً لود الشعب، ولم يكن هذا السلوك يوحى من سياسة مقصودة وإنما كان نتيجة للضغط والكراهية التى أبداهها الشعب ضد الحكم الأجنبى . وكانت أول مظاهر اصطناع التمصير هى إعلان تقويج الملك حسب التقاليد الفرعونية في ممفيس وليس في الإسكندرية كما كان التقليد حتى ذلك الحين . وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٩٧ حين أعلن تميمين أرسطومينس مستشاراً للملك بدلاً من وصى .

ولكن هذه المحاولات للصطنمة لم يكن لها أى تأثير في كسب رضا المصريين واستمرت ثورتهم ، ولكن اضطروا إلى التسليم في صيف سنة ١٩٧ بسبب الفيضان المرتفع الذى أضعف من مركزهم كثيراً لأنه أعان جنود الملك على إحكام الحصار على الثوار . ومع ذلك فقد عاملهم الملك أو مستشاروه معاملة وحشية ونفذ فيهم الإعدام . ولكن سوء معاملتهم ، بعث مزيداً من المقاومة بين المصريين ونشبت ثورات أخرى . ولم يقض نهائياً على الثورات المصرية إلا في سنة ١٨٥ في الصعيد حيث كانت طيبة قد أعلنت استقلالها ، ثم في سنة ١٨٣ في الدلتا .

هذه الثورات لم تذهب هباءاً ، وإنما كان لها بعض التأثير على الوجهين للسياسة في القصر . فأنهت بعض الضرائب وخففت أخرى ، كما تنازلت الدولة عن بعض الديون المتأخرة التى للخزانة على الأفراد . كذلك صدر عفو شامل عن الجلود للمصريين الذين كانوا قد انضموا إلى الثورة . كما نلاحظ (٦٢ — الاسكندر)

زيادة ظهور المصريين في مناصب عليا في الدولة والجيش وزاد موقف القصر من الكهنة المصريين تساهلا . وتنازلوا لهم عن كثير من الإمتيازات . هذا التطور في العلاقة بين القصر والمصريين وازدياد مكانة العنصر المصرى ممثلا في الكهنة بالذات تكشفه لنا أشهر وثيقة خلفتها لنا مصر القديمة وهي حجر رشيد^(١) وهو يحتوى على قرار دينى أصدره مجمع الكهنة المصريين الذى عقد في ممفيس سنة ١٩٦ وكتب هذا القرار بالميروغليفية والديموطيقية واليونانية . وقد اكتشف هذا الحجر بواسطة الحملة الفرنسية أثناء وجود نابليون في مصر . ثم استقر أخيراً بالمتحف البريطانى في لندن . وعن طريق دراسة هذا النقش في الكتابات الثلاث استطاع شامبليون أن يحل رموز الحروف الميروغليفية لأول مرة في التاريخ . والقرار السهل على حجر رشيد من نوع القرار السكائونى الذى ذكرناه أثناء الكلام عن بطلميوس الثالث . ورغم أن طارق الزمن بين القرارين هو أربعون سنة فقط، إلا أن الفرق المعنوى بين القرارين كبير يدل على أن مركز الكهنة المصريين قد تغير تغيراً جوهرياً وأول ما يجب ملاحظته أنه بينما عقد المجمع الأول في مدينة كانوب (أبوقير بجوار الإسكندرية) غير أن المجمع الثانى عقد في ممفيس العاصمة المصرية القديمة والتي كان يتمصب لها المصريون ضد الإسكندرية ثم أن لهجة القرار وما به من محاولات الملك المتعصب إليهم واستمالة المصريين تكشف عن ضعف السلطة الملكية .

هذا الزحف المصرى على الحكم البطلمى كان نتيجة الصراع الطويل الذى قام به المصريون أثناء حكم بطلميوس الرابع والخامس . ومن أهم مظاهره ذات

II. Sottas and II. Gauthier, Un decret trilingue en l'honneur de Ptolémée IV (٧).

وتوجد ترجمة انجليزية و Bevan, Egypt Under Pt. Dyn. 263 ff.

الطابع الإدارى الرسمى، هو تغير الوضع الإدارى لنوموس طيبة فى جنوب مصر
والتي كانت من أهم مراكز الثوار للصريين ، فأصبح حاكم هذه المنطقة يشغل
منصب إبيستراتيجوس *Epistrategos* وله سلطان مطلق فى النوموس بمثابة
نائب الملك . وهذا يختلف عن النومات الأخرى التي كان يرأسها
إستراتيجوس (*Strategos*) .

حدث آخر له طرافته وأهميته يجب أن نذكره قبل أن نخرج من الحديث
عن هذا الملك حينما بلغ بطليموس الخامس إيفانوس من السادسة عشرة عام
١٩٣ — ١٩٢ ، فكر نعتاؤه فى أمر زواجه، ولما لم تكن له أخت من أبيه رأى
أهل الثورة فى القصر للملكى أن يجعلوا من زواجه صفقة سياسية يعوضون به
عجز الدولة فى مجال السياسة الخارجية . فاختاروا له كليوباترا ابنة أنتيوخس
الثالث الملك السليوقي فى سوريا ، لعلمهم بهذا يامنون شره فلا يهاجم مصر بعد
أن أصبحت ابنته تترج على عرشها باسم كليوباترا الأولى . ولهذا الزواج
أهمية ، لأنه ادخل على الأسرة المالكة البطلمية دما جديداً بعد طول زواج
الأخ والأخت . ولم تكن كليوباترا من أسرة جديدة فصعب ، بل لم تكن من
دم مقدونى محض ، لأن أمها كانت ابنة مثراداتيس ، (*Mithradates*)
ملك بنتوس (*Pontus*) فى شمال آسيا الصغرى . كما كانت جلتها الكبرى
من ناحية أبيها الأميرة الفارسية إپاما (*Apama*) زوجة سليوقس الأول
مؤسس الأسرة السليوقية . وعلى هذا الأساس ادخل على الأسرة البطلمية
المقدونية عنصر فارسى شرقى حملته معها للملكة كليوباترا الأولى التي سيقى
اسمها (ومعناه ذات الأب المجيد) فى مصر من بعدها ، تسمى به الملكات
حتى نهاية الأسرة على يد كليوباترا السابعة .

الفترة الأخيرة من حياة بطلميوس الخامس شغلها محاولات القضاء على الثورة المصرية في الداخل كما استمرت في الخارج سياسة الضعف والتردد بين الحياذ حيال المشاكل الخارجية أو التبعية لروما . إلى ان توفي إبيفانس فجأة في سنة ١٨٠ ق م . مسموما فيما يبدو، تاركاً وراءه ثلاثة أبناء صغار ، سيصبح أكبرهم بطلميوس السادس والأصغر بطلميوس الثامن .

ب- فترة المنازعات الأسرية (١٨٠-٥١ ق. م. :

من أخطر الأدواء التي تصيب الدول للسياسة ظاهرتان .

الأولى أن يلى العرش طفل قاصر فيتولى الأمر عنه أوصياؤه من رجال الحاشية للسياسة وما يصحب ذلك عادة من مؤامرات القصور المعروفة .

والظاهرة الثانية أن يتنازع العرش أو يدعيه أكثر من واحد من أفراد الأسرة المالكة . وكثيراً ما تتلازم الظاهرتان وتكونان حلقة مغلقة تؤدي الواحدة منهما للآخرى وهكذا . وقد حدث هذا في النصف الأخير من حياة الأسرة البطلمية فكثير أوصياء السوء على الملوك الأطفال الذين يؤول إليهم العرش بسبب موت الملك فجأة ، كما كثير تنازع الأبناء على العرش وما تبعه من مؤامرات مما أدى إلى اقتسام ولاء الجنود والشعب وقامت الحروب الأهلية أكثر من مرة بين أنصار أدياء العرش . وبسبب هذه الظروف ازدادت الدولة ضعفاً على ضعف فاستعصى الإصلاح رغم محاولته أحياناً . ومالبت الدولة أن أصبحت نهياً للطامع الخارجية وكان أهمها وأخطرهما في هذا الوقت هي دولة روما التي أصبحت بعد انتصارها على قرطاجنة في الحرب الهانيبالية سنة ٢٠٢ ق. م أقوى دولة في حوض البحر الأبيض المتوسط وبالتالي في العالم القديم بأسره .

ونظراً لعمق أحداث هذه الفترة وامتلائها بالمؤامرات الخبيثة مما لا يمكننا

(١) أنظر : Jouguet. L'Imper. Maced. pp. 292 ff.;

Bevan: Egypt under the Ptol. Dyn. pp. 283 ff.

وكذلك د . إبراهيم نصفي ص ١٥٧ وما بعدها .

التعرض لتفاصيل في هذا الجمل التاريخي ، فسوف نجمل القول فيها إجمالاً على نحو لا يخل بالصورة العامة لتاريخ مصر في هذه الفترة .

بطليموس السادس فيلوميتور :

رأينا كيف بدت مظاهر ضعف الدولة جلية منذ عهد بطليموس الخامس أيفانيس . وزاد الأمر سوءاً أنه عند وفاته فجأة سنة ١٨٠ ق . م . ترك من الأولاد ابين وبتكا . أكبرهم لم يعمد السابعة ، فسأل إليه العرش باسم بطليموس السادس الذي سيقلب فيما بعد فيلوميتور (أى المحب لأمه) وقد قامت على وصايتها أمه الملكة كليوباترا الأولى . ولكنها توفيت بعد ذلك بقليل وتولى أمر السياسة اثنان من عبيد القصر المحررين يولايوس وليناوس *Immaeus, Eleues* وما أن بلغ أشده حتى زوج من أخته كليوباترا الثانية وتزوج عام ١٧٢ ق . م . وهو لم يتجاوز الخامسة عشر .

انتيوخس يفز مصر :

خل هذا الملك الصغير مسلوب السلطة بوجهة اللوليان يولايوس وليناوس كهفما شاء . وقد حاول أن يظهر بمظهر السياسيين الحقيقيين ، فأخذاً بدبران خطة للاستيلاء على سوريا الجنوبية ولكن أنتيوخس الرابع ملك سوريا لم يمهلهما وبادرهما بالحرب سنة ١٧٠ ق . م . مستغلاً سوء الأحوال الداخلية في مصر . وزحف أنتيوخس من فلسطين إلى مصر التي أنهارت أمامه في الحال حتى أنه استولى على بلوزيوم ومفيس دون مقاومة تذكر . ويقال إنه تزوج في مفيس فرعوناً مصرياً حسب التقاليد المصرية .

في هذه الأثناء حدثت فجأة تطورات غريبة في الاسكندرية حاول الملك بطليموس السادس الفرار منها ولكنه وقع أسيراً يد الملك السورى وفي

الوقت نفسه قامت ثورة في الاسكندرية أطاحت بالموالى نصحاء الملك، وأعلنت أخاه الأصغر (الذى سيصبح بطليموس يوجرتيس الثانى) ملكا لهم وأخذت الاسكندرية تستعد للدفاع عن نفسها ضد أى محاولة قد يقوم بها أنطيوخس لغزوها، وحدث في هذا الوقت أيضاً أن حضر إلى الاسكندرية بعض سفراء المدن اليونانية فقاموا بدور الوساطة لدى أنطيوخس قبل أن ينسحب من مصر. بعد انسحابه بقيت للملكة منقسمة بين الأخوين الملك الشرعى بطليموس السادس يحكم في ممفيس وأخوه في الاسكندرية. ولكن أمكن الوصول إلى اتفاق بينهما على أن يصبح الأخوان ملكين بالاشتراك.

ولكن أنطيوخس لم يترك الحسكام في مصر يستقرون على هذا الاتفاق، ومالبت أن شن عليهم حرباً جديدة سنة ١٦٨ ق. م. فاستولى أولاً على قبرص ثم مضى إلى مصر واستولى عليها مرة ثانية وتمكن هذه المرة من محاصرة الاسكندرية ذاتها ولكن روما لم تقف مكتوفة الأيدي، فقد كانت على علم بحقيقة الموقف في الشرق وكانت تحرص على ألا تتغلب في الشرق دولة على دولة. ولهذا سارعت بإرسال مندوب عنها إلى معسكر أنطيوخس بالقرب من الاسكندرية وطلب إليه أن ينسحب من مصر في الحال. ويبدو أن روما كانت قد صممت على إجلاء أنطيوخس عن مصر. يفسر ذلك مسلك المندوب الرومانى الذى كان غاية في الجرأة، ضارباً بقواعد البروتوكول عرض الحائط فيقال إنه أبلغ أنطيوخس طلب روما في أن ينسحب من مصر في الحال، ولم يميل الملك السورى وقتاً للرد بل رسم حول الملك دائرة وقال له يجب أن يرد قبل أن يتحرك خارج هذه الدائرة كان أنطيوخس يعرف أنه لا يستطيع أن يعارض إرادة روما فقبل الانسحاب من مصر وقبرص معاً^(١).

Polyb. XXIX. 27.

(١)

انظر د. إبراهيم نصحي، مصر و مصر البطالة من ١٩٠ — خاتمة ٢ :

ثورة ديونيسيوس يتوسرايس المصرى (Dionysius Petosarapis):

ما كاد أنقيوخس ينسحب من مصر ، ويفادرها الوفد الرومانى حتى جددت أحداث غريبة كل الغرابة . ظهرت فى عالم السياسة فى الأسكندرية شخصية جديدة فجأة تعرف باسم ديونيسيوس يتوسرايس . وكما يبدو من اسمه اثنائى أنه كان من أصل مصرى ، ولا بد أنه تمكن من الوصول إلى مركز كبير فى القصر . وهذه هى أول مرة نرى مصرى يحتل مثل هذه المكانة فى الدولة البطلمية . كان يتوسرايس ذا شعبية كبيرة بين المصريين ، فحاول أن يستغل الأقسام الأسرى وان يضرب أحد الملكين بالآخر ثم يطيح بهما معا . فأنار فى الأسكندرية ثورة ضد الملك الأكبر بطليموس السادس ، مدعيا مناصرة الملك الأصغر ولكن انكشفت حيلته ، واتفق الملكان ضد حركته وامكن القضاء على ثورته فى الأسكندرية . ولكن الثورة كانت قد انتشرت فى الصعيد أيضا ، فضى إليها الملك بطليموس السادس بشخصه وقضى عاجها ولكن عند عودته منتصرا إلى الأسكندرية فى سنة ١٦٤ ، كان أخوه قد دبر ضده انقلابا ، حتى اضطر فيلوميتور ان يفر بمجهاته إلى روما .

يبين لجوء الملك البطلى إلى روما على هذا النحو مقدار الهوان الذى آلت إليه الأسرة البطلمية فى مصر ، ويبين ان هؤلاء الملوك قد فقدوا صفة الاستقلال السياسى ، ولم يعودوا سوى دى يحررهما مجلس السناتو (الشيوخ) فى روما . وقف فيلوميتور امام مجلس السناتو يريق ماء وجهه ، يستعطفه ويتوسل إليه . واهدى السناتو عطفه على الملك اللاجئ . إليه ، بأن ابدى موافقه على ان يتقاسم هو واخوه ممتلكات مصر ، بحيث تكون مصر وقبرص من نصيب فيلوميتور ، وبرقة من نصيب اخيه ولكن السناتو لم يسع لتنفيد رغبته بالقوة وعلى هذا اكتفى فيلوميتور بالذهاب إلى قبرص منتظرا الفرصة التى يعود فيها إلى الأسكندرية وسرعان ما صنعت الفرصة فى عام ١٦٣ حين قامت ثورة فى الأسكندرية ضد الأخ الأصغر تطالب بمودة فيلوميتور : وحضرت بعثة من روما اشرفت على عوده

فيلوميثور من قبرص ، وأخذت العهد على الأخوين أن ينفذا رأى روما في
تقسيم المملكة بينهما ، وأن يذهب الأخ الأصغر إلى برقة^(١).

وهكذا انفرد الملك بطليموس السادس فيلوميثور بمالك مصر مرة ثانية
وقد أصدر بهذه المناسبة عفوا عن جميع الجرائم التي كانت قد ارتكبت حتى
ذلك الوقت (أغسطس ١٦٣) . أما عن أعمال هذا الملك بعد ذلك ، فما وصلنا
عنها قليل . منها أنه جريا على سياسة البطالة للتأخرين ، أبدى اهتمامه بكسب
ود المصريين عن طريق بناء المعابد والتقرب إلى الكهنة . أما في مجال السياسة
الخارجية ، فقد حاول في آخر حياته أن يستغل فرصة النزاع الأسرى في الدولة
السليوقية ، وحاول استرداد سوريا الجنوبية لسلطان مصر . وفلا أعد جيشا
زحف به على سوريا واستولى عليها . ولكن مالبث أن دارت عليه الدائرة
وسقط قتيلًا في أرض المعركة سنة ١٤٥ في فلسطين .

بطليموس السابع وبطليموس الثامن يولرجتيس الثاني :

موت فيلوميثور فجأة ترك على عرش مصر للمرة الثالثة ابنا صغيرا تحت
وصاية أمه الملكة كليوباترا . هذا الطفل الذي عرف باسم بطليموس السابع
لم يبق على العرش سوى أشهر قليلة ريثما استطاع عمه بطليموس الذي كان في
برقة أن يعود إلى الاسكندرية وأن يستولى على العرش ، ويصبح الملك
بطليموس الثامن متخذا لقب يولرجتيس الثاني . بعد ذلك تزوج أخته الكبرى
كليوباترا أرملة أخيه فيلوميثور . وقتل ابنها بطليموس السابع . ولم يكف

(١) ومن برقة أخذ هذا الأخ الأصغر يتقرب ويتزلم إلى الرومان . وقد عثر على
نقش في برقة أوصى فيه لأول مملكتته إلى روما إذا تولى دون وريث . ورغم أن هذه
الوصية لم توضع موضع التنفيذ إلا أنها تدل على مدى اعتماد البطالة على روما . S. E. G. 7
IX. nn. 7 وتوجد ترجمة عربية لهذا النقش في كتاب الدكتور . د. الطيب أحمد على
مصر والامبراطورية الرومانية ، ص ١٠ .

بهذا القدر من إخراج كليوباترا الثانية، بل بلغ من استهتار هذا الملك وإباحيته أنه اغتصب ابنتها الصغيرة ثم تزوجها ولقبت كليوباترا الثالثة (قبل ١٤١ - ١٤٠ ق م).

لم يكن غريباً إذن أن قوبل هذا السلوك الشاذ بنضوب الأُممالي واستعظامهم في الاسكندرية أولاً . ثم في سائر مصر بعد ذلك . ولم يكن غريباً أن تحظى الملكة الوالدة كليوباترا الثانية بعطف الشعب ونصرته ضد يوجرتيس وظل الموقف يتأزم شيئاً فشيئاً نتيجة سياسة يوجرتيس الخرقاء في اضطهاد خصومه وخاصة بين المثقفين في الاسكندرية ، حتى انفجرت ضده ثورة عنيفة (١٣١ - ١٣٠) حاولت ان تحرق القصر الملكي ، فاضطر الملك إلى الفرار مع زوجته الصغيرة كليوباترا الثالثة إلى قبرص، بينما بقيت كليوباترا الثانية ملكة بمفردها في مصر . ولكن القيادة لم يسلس لها إذ شب في انحاء البلاد صراع عنيف بين انصارها وانصار الملك الهارب . وتعرف هذه الفترة من القوضى والحرب الأهلية باسم « امكسيا Amixia » وهو لفظ يعنى أن الدولة قد تقطعت أوصالها . في خلال عامين استطاع يوجرتيس على اى حال استعادة ملكه في الاسكندرية رغم ان الثورة في سائر انحاء البلاد وخاصة في طيبة ، حيث المصيبة المصرية قوية جداً^(١)، استمرت حتى سنة ١٢٧ . بعد ان استرد يوجرتيس سيطرته على البلاد، رأت أخته الملكة كليوباترا الثانية ان لا قرار لها في مصر، فتركتها إلى انطاكية في سوريا .

ومن المحتمل ان عودة يوجرتيس ، وانتصاره على هذا النحو كان بتأييد من روما . فكما رأينا من قبل كانت روما دائماً ترقب الموقف في الشرق الأوسط .

(١) من دلائل ازدياد النفوذ المصري الدولة أن مصر با تولى منصب استراتيجوس . وشبه

في عهد يوجرتيس الثاني (130 B. C) O.G.I.S. 132

وتتدخل عند الضرورة بما يكفل مصالحها . ولكن ماذا كانت مصالح روما في مصر في ذلك الوقت ؟ هل هو الحرص على أن تبقى مصر ضعيفة حتى لا تستطيع بسط سلطانها على سوريا ، فتقوم دولة قوية في الشرق تنازع سيطرة روما على البحر الأبيض ؟ لقد كانت هذه هي سياسة روما تجاه مقدونيا واليونان والدولة السلوقية في سوريا إلى حد كبير ، أما في مصر فقد كان الموقف أكثر تعقيداً من ذلك . فإن روما كانت تعتمد اعتماداً تاماً على استيراد القمح من شمال أفريقية وصقلية . ويبدو أنها اعتادت أيضاً استيراد القمح للمصري منذ عهد بطليموس الثاني في القرن الثالث ق.م . ويبدو أيضاً أنه خلال القرن الثاني ق م . بينما ازداد التقارب بين روما ومصر ، على نحو يكفل تدخل الأولى في شئون الثانية ، ازداد تبعاً لذلك اعتماد روما على استيراد القمح المصري . ومن أجل ذلك كانت روما تحرص دائماً على أن يستتب الأمن في مصر في ظل ملك صديق لها . وليس أدل على حرص الرومان على إنهاء حالة الحرب الأهلية في مصر بين يوليوس قيصر وكليوباترا الثانية مما قام به التجار^(١) الرومان المقيمون بالاسكندرية من التعبير عن سرورهم « بأخذ الملك بطليموس يوليوس قيصر للاسكندرية » في أكثر من نقش سجلوه في معبد أبولو في جزيرة ديلوس . مثل هذا الموقف له من غير شك دلالة في فهم سير الأحداث السياسية وعلاقتها بالمصالح التجارية الأجنبية .

ولاشك أن الحالة العامة في مصر بعد توالي المنازعات والحروب الأهلية قد بلغت حداً من الفوضى والتخلف والاضطراب يخشى منه على كيان الدولة ذاتها . فهذه الكوارث المتلاحقة أصابت الإدارة والاقتصاد بالتدمير التام ، ونحن نعرف أن مصر كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على تصدير القمح ، ليس

(١) F. Durrbaoh, Choix d'Inscriptions de Delos, nos 105-107

لروما فحسب ، التي كانت عميلاً جديداً ، ولكن للندن اليونانية العريقة في الحل الأول لهذا ، من أجل أن تستعيد مصر شيئاً من الاستقرار الداخلي والنشاط التجاري الخارجى ، كان لابد من القيام بإصلاحات جذرية في كل مجالات الإدارة والاقتصاد . ولكن . - كما ذكرنا من قبل - كانت الدولة البطلمية في ذلك الوقت عاجزة عن الإصلاح الحقيقي . ومع ذلك قد حفظت لنا أوراق البردى وثيقة بالغة الأهمية ، تعتبر أهم مصدر لدينا لدراسة الأحوال الإدارية والاجتماعية والاقتصادية للبلاد في العصر البطلمى المتأخر^(١) . هذه الوثيقة من نوع يسمى بوثائق العفو العام *philanthropa* ، وهو يصور لنا أن يورجيتيس الذى يصوره المؤرخون القدماء على أنه كأئن منحرف شهوانى غليظ سفاح ، يمكن أن يقدر مسئولية الحكم ، ويحاول الإصلاح بطريقة جديدة أيضاً . فتراه في هذا « العفو العام » يحاول إعادة الاستقرار للبلاد ، وأن يطمئن كل شخص على أرضه أو بيته وأسرته ، حتى يقبل على العمل والإنتاج في ظروف مطمئنة فهو يبدأ بإعلان عفو شامل عن جميع الجرائم التي ارتكبت حتى صدور الوثيقة في مارس سنة ١١٨ باستثناء جرائم القتل وسرقة المعابد . وبعد ذلك يعلن تنازل الدولة عن معظم الضرائب على المزارعين ، وبعض الضرائب والديون عموماً ، ويمنح للمزارعين الذين يستصاحبون الاراضى البور امتيازات كبيرة لمدة سنوات عديدة . كما نجد هناك محاولة صريحة لإرضاء المصريين برفع المظالم عنهم ، من ذلك تثبيت ملكية المصريين الذين آلت إليهم أراضى من إقطاعات الدولة العسكرية ، كما أعفى هؤلاء من بعض الخدمات الإجبارية ، كذلك ثبتت مالية المعابد المصرية حسب إراداتها الفعلية . وهناك بنود أخرى في هذا الإعلان التاريخى تحظر على الموظفين استغلال نفوذهم ، أو أن يأخذوا من الأهالى شيئاً بغير وجه حق ، ومنع استخدام وسائل العنف

والتعذيب التي كانت منتشرة في تقاضى حقوق الدولة من المزارعين والعمال .
هذه صورة مجملية عن أعظم عمل قام به يورجتييس الثانى ، ونحن لانشك
في صدق نية الملك أو مستشاريه في إصدار هذا الإعلان ، لأن الحالة العامة
كانت تفرض عليهم القيام بشئ من هذا القبيل لإيقاف تيار التدهور الشديد .
ولكن لسوء الحظ أن الإصلاح لا يتحقق بمجرد إصدار القوانين واللوائح مهما
كانت النية من خلفها صادقة مخلصه . وإنما الأساس في الإصلاح هو القدرة
عليه ، وهذه لا تتأتى إلا بعزيمة وجهد وعمل متصل إلى جانب كفاءة وإمكانات
لتحقيق الإصلاح المطلوب . ولكن شخصية يورجتييس الثانى كانت تعرفها كانت
عاجزة عن كل هذا . ومع ذلك فنحن لا ننكر أنه كان يمثل هذا الإعلان
من جانب الملك بعض الفائدة في علاج بعض المظالم ، ولكنه كان عاجزاً كل
العجز عن وقف التدهور وتوجيه الدولة نحو التقدم والإزدهار ، كما كانت
في عصر البطالة الأولين .

بعد هذه الحالة اليائسة من الملك أو مستشاريه بعامين ، توفى ثامن ملوك
البطالة في عام ١١٦ ق.م وهو في سن الخامسة والستين ، تاركاً من كليوباترا
الثالثة خمسة أطفال ، ولدين وثلاث بنات ، ثم ابناً آخر غير شرعى هو بطليموس
أبيون . ورغم أن يورجتييس الثانى نفسه قاسى بسبب المنازعات الأسرية
والحروب أهلية ، وعرف مقدار ما أصاب البلاد من جرائها ، فإنه لم يتعلم من
ذلك كله درساً ، ولم يحاول تجنبه في أولاده من بعده ، فالوصية التي أعلنت
عند وفاته ابتدأت فترة أخرى من المنازعات حول العرش استمرت ستة وثلاثين
عاماً . فقد أوصى بأن يعين ابنه غير الشرعى بطليموس أبيون حاكماً على برقة
وفي مصر لم يرمس لأحد من أبنائه بأن يخلفه على العرش ، بل ترك زوجته
كليوباترا الثالثة ، وترك لها حرية اختيار شريك لها من أحد الابنين كيفما
شاءت . ونظراً لأننا لا نستطيع أن نعرض هنا لتفاصيل الخلافات بين الأم

وأولادها، فسوف نحدد أولا تواريخ وتناوب الأبناء على العرش في الفترة ١١٦ — ٨٠ ق. م. تولى الابن الأكبر العرش مع والدته عقب وفاة والده في عام ١١٦، وأصبح الملك بطليموس التاسع الملقب بسوتير الثاني. وتزوج من أخته الكبرى كليو باترا الرابعة. ولما ضاقت للملكة الوالدة بهذه الإبنة أبعدها عن ابنها الملك. وزوجته من أخته الصغرى كليو باترا سيليني (أى القمر) التى أصبحت من بين من حملن هذا الاسم كليو باترا الخامسة. أما كليو باترا الرابعة فقد تركت مصر إلى قبرص ومنها إلى سوريا لتجتمع لها جيشا ولكن لقيت حتفها هناك.

على أى حال استمرت للملكة كليو باترا الثالثة فى الحكم ومعها ابنها سوتير الثانى وزوجته كليو باترا الخامسة حتى عام ١٠٧ حين ضاقت للملكة الوالدة بابنها الأكبر. فأثارت عليه الشعب فى الأسكندرية. ودمت ابنها الأصغر من قبرص ليتولى العرش معها وأصبح بطليموس العاشر الملقب باسكندر الأول واضطر سوتير الثانى أن يفر بنفسه ويستقر فى قبرص. وقد بقى بطليموس اسكندر شريكا لوالدته فى العرش حتى توفيت فى عام ١٠١ فانفرد هو بالملك حتى عام ٨٨، حين ثار ضد حكمه الفاسد الجيش والشعب فى الإسكندرية فهرب إلى سوريا وحاول العودة ثانيا فتمثل ثم لقي حتفه أثناء محاولة الذهاب إلى قبرص.

استدعى بطليموس سوتير مرة ثانية. بعد طرد أخيه فى عام ٨٨، وبقى على العرش فى مصر وقبرص معاً حتى وفاته فى عام ٨١.

هذه الفترة القلقة شغلها الأحقاد والمنافسات والمؤامرات. ولم تتميز بأى عمل جليل من جانب الملوك المختلفين. ومن أهم أحداث هذه الفترة التى تصم الأسرة البطلمية فى عهدها الأخير بالخرى والمار. أن حاكم برقة. بطليموس

أبيون أوصى في عام ٩٦ بأن تؤول مملكته إلى الشعب الروماني بعد وفاته .
فكانت هذه أول خطوة رسمية في تحول جزء من الدولة البطلمية إلى
التبعية الرومانية .

أما في مصر ذاتها فرغم اهتمام الملك سوتير الثاني بالمعابد ومبانيها فقد
ازداد المصريون بفضاً وضيقاً بالأسرة الحاكمة . فتجددت الثورات الوطنية ،
وكان أهم مراكزها إقليم طيبة حيث استمرت التمردات المستمرة ما يربو على ثلاث
سنوات .

وعدا ذلك فليس هناك ما يستحق التسجيل بشيء من الفخار للملك هذه
الفترة الضعيفة . بطليموس الثاني عشر الزمار . بموت بطليموس سوتير الثاني
تبدأ الرحلة الأخيرة من تاريخ البطالة التي تصبح فيها مصر جزءاً أساسياً من
عالم السياسة الرومانية وتتدخل روما في شئونها تدخلا صريحاً ليس بالأساليب
السياسية فحسب بل بجيوشها أيضاً .

بعد أن عاد سوتير إلى عرش مصر عام ٨٨ تزوج مرة ثالثة من برنيقة
الثالثة ، ولم ينجب منها أطفالاً ، ولهذا بقيت ملكة مفردة على عرش مصر بعد
موته سنة ٨١ . ولم يكن هناك وريث شرعي للملك السابق ليكون ملكاً
معه . ولكن وجد أن هناك ابناً للملك الأسبق بطليموس إسكندر
وكان موجوداً في روما ، فتبنت روما قضية هذا الإبن وأرسلته إلى مصر
ليتزوج الملكة برنيقة ويصبح الملك بطليموس الحادي عشر إسكندر الثاني ،
ولكن هذا الملك لم يلبث أن دبر مؤامرة للملكة وقتلها فثار عليه الشعب
وقتلوه سنة ٨٠ .

نحلاً العرش مرة ثانية في ظرف سنة واحدة . ولكن وجد أيضاً ابنان غير
شرعيين للملك سوتير الثاني فعين أحدهما ملكاً لقيصر والآخر ملكاً على

مصر سنة ٨٠ وأصبح بطليموس الثاني عشر الذى اشتهر بلقب الزمار Auletes غير أن لقبة الرسمى هو ديونيسيوس الصغير Neos Dionysios وقد تزوج من كليوباترا السادسة، ولعلها كانت أخته أيضاً . ولكن روما لم ترض عن تعيين بطليموس الزمار ملكاً لأنه تم بغور إرادتها فرفضت الاعتراف به . وفى الوقت نفسه أخذ الرومان يلوحون للملك الجديد أن لديهم وصية^(١) للملك السابق بطليموس اسكندر الثانى ، وأنه قد أوصى فيها بأن تؤول مصر بعد موته إلى الشعب الرومانى كما حدث فى السنين الأخيرة فى حالتى برقة ومملكة برغامة . ونحن لا نعرف مدى أصالة هذه الوثيقة ، إذ لعلها مزيفة ، أو كيف وصلت إلى روما دون أن يعلم أحد فى القصر الملكى بالأسكندرية بأمرها . . وعلى أى حال سواء أكانت الوصية صحيحة أم مزيفة فإن هذا لا يفيد شيئاً أمام سياسة القوة الرومانية . فقد كان فى استطاعة روما ان تثبت صحة هذه الوثيقة وتنفذها بقوة جيشها .

كان بطليموس الزمار من عينة الملوك البطالمة للتأخرين الضعاف الذين يميلون إلى اللذات الحسية والإغراق فيها ولهذا كانت قدرته السياسية محدودة جداً ، فهو لم يقتصر على السكوت أو اتخاذ موقف سلبى من دعوى روما بل نجده يتهالك فى خضوع وضموع شديدتين على روما وسياستها محاولاً شراء اعترافهم له بأى ثمن . ولم يكن من الصعب شراء أى شئ فى روما متى توفر الثمن ، كما يقول شاعرها الساخر جوفينال . وقد سلك بطليموس الزمار هذا السبيل .

(١) أنظر : G. I. Luzzatto, *Epigrafica giuridica greca e romana* (R. Università di Roma. Publ. del Inst di Diritto Romano, dei Diritti dell' Oriente Mediterraneo; o di Storia del Diritto, 19), Milano (1912) pp. 103-5.

وفي سنة ٥٩ كان يوليوس قيصر زعيم الحزب الشعبي قنصلا في روما، وعلم أن مسألة ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية كانت ضمن برنامجيه السياسي . وسعى بطليميوس الزمار لأن ينفى قيصر عن خطته نحو مصر ، ونجح في ذلك نظير ثمن باهظ جداً ، فبعد أن دفع لقيصر ٦٠٠٠ تالنتوم (وهو ما يعادل نصف دخل مصر) أعلن قيصر اعتراف روما ببطلميوس الزمار ملكاً على مصر ، كما أعلن عقد معاهدة معه على أنه حليف وصديق الشعب الروماني ، ولكن يبدو أن الثمن الذي تقاضاه قيصر نظير اعترافه لم يقتصر على هذا المبلغ الضخم ، بل تضمن أيضاً تنازل بطليميوس الزمار لروما عن قبرص . ورغم أن هذا التنازل لم يعلن رسمياً إلا أن روما أعلنت في العام التالي ٥٨ ق . م ضم قبرص إليها وتحويلها إلى ولاية رومانية . وقد تم ذلك دون أن يحرك بطليميوس الزمار ساكناً . رغم انتحار أخيه ملك قبرص وأمام هذا المسلك الغريب من الملك البطلمي ثار الشعب ضده في الاسكندرية . فهرب إلى روما . وبقى هناك حتى عام ٥٥ ق . م حين قرر ساسة روما إعادته إلى عرشه بمساعدة جيش روماني . عين لقيادته ضابط روماني شاب هو ماركوس أنطونيوس واستطاع هذا الجيش أن يقضى على أدعياء العرش الذين أقامهم الاسكندريون ملوكاً عليهم . وأن يثبت بطليميوس الزمار على عرشه . وقد بقي الجيش الروماني بالاسكندرية لحماية الملك ويقال أن أنطونيوس . رأى أثناء إقامته في القصر بالاسكندرية كهري بنات بطليميوس الزمار ، كليوباترا التي ستصبح ملكة مصر الشهيرة . وأنها أثارت عواطفه نحوها رغم أنها لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة .

لم يكتف لل ملك بطليميوس الزمار بهذا الهوان الذي جلبه على نفسه بل زاد الطين بلة . أنه أثناء التجائه في روما كان قد اقترض أموالاً ضخمة من شخص (٧٢ — الاسكندر)

— ٩٨ —

يسى رايريوس Raber i ، فلما عاد إلى مصر وأراد أن يسدد ديونه
لم يستطع لإفلاس الدولة ، فموضه بأن عيته وزيراً لماليته ، ليتصرف كيفما شاء
في خزائن مصر . فإكان من الشعب إلا أن تارضد هذا الوضع ، وكاد أن
يهلك رايريوس لولا أن الملك دير حيلة لهروبه . ولم يطل المعر بالملك طويلا
بعد ذلك وتولى في سنة ٥١ ق . م .

٢ - كليوباترا السابعة (٥١ - ٣٠ ق.م.)

يعتبر الفصل الأخير من تاريخ الدولة البطلمية في مصر من أغرب الفصول في تاريخ الإنسان . فلم يشهد التاريخ امرأة تستخدم أنوثتها بهذه القوة وهذه اللهارة كما استخدمتها ملكة مصر الجديدة كليوباترا . فحين اعتلت كليوباترا العرش بعد وفاة والدها ، كانت مصر دولة ضعيفة لاحتلها ولا قوة ، قد فقدت جميع ممتلكاتها لروما ، ولا يستقر لها ملك إلا باعتراف روما ووجود جيش روماني يستند في الأسكندرية ، ونظير أن تقبل روما هذا الخضوع من الملك البطلمي كانت تتقاضى أفحش الثمن كما رأينا من قبل ، من مركز هذا الموان الشديد خرجت كليوباترا إلى العالم كأميرة سافرة بغير جيش أو مال وتمتعهم معترك السياسة العالمية ، لتواجه بشخصها المجرد أقوى دولة في العالم .

وبدلاً من أن تنتظر قادة روما حتى يغزوا مصر ، عولت هي على غزو قلوبهم وتحويلهم إلى أدوات طيعة في يديها . واستطاعت عن هذا السبيل أن تمت نفوذها للملكي إلى آفاق أبعد كثيراً من آفاق مصر وتكاد تصبح إمبراطورة العالم القديم بأسره ممثلاً في الإمبراطورية الرومانية ذاتها^(١) .

(١) الكتب التي كتبت عن كليوباترا السابعة كثيرة جداً ، ومن أهمها :

A. Weigall, The Life and Times of Cleopatra, Queen of Egypt (1926);

O. von Worthheimer, Cleopatra a Royal Voluptuary (1931);

H. Volkmann, Cleopatra, A Study in Politics and Propaganda (1953).

ولقد صدر عنها أخيراً باللغة العربية ، كتاب شيق هو « كليوباترا ، - بيتها وحكم التاريخ عليها . » تأليف الأستاذ زكي علي .

(كليوباترا وأخوها) :

عند وفاة بطليموس الزمار في عام ١٠٥ كانت كليوباترا في سن السابعة عشرة وكان والدها قد أوصى بأن يؤول العرش لها ولأكبر أخويها الذي أصبح بطليموس الثالث عشر . ومن بين ما أوصى به الملك للتوفى أيضاً أن ترمى روما تنفيذ وصيته على هذا النحو ، على أي حال نفست وصيته في سهولة وبسر وأصبحت كليوباترا وأخوها شركاء في العرش تحت إشراف وتوجيه عصابة رجال القصر والحاشية ، يتصرفون في الدولة كيف يشاءون . ولكن لم يكد عام ٤٨ يأتي حتى كانت العلاقات بين كليوباترا ورجال القصر قد تأزمت . فرور ثلاث سنوات زاد كليوباترا نضجاً وخبرة بأمور القصر ، فأرادت بذلك أن تخلص شخصيتها الطاموح أن تكون هي المتصرف في السياسة والحكم . فأشارت عصابة الحاشية من محترفي مؤامرات القصر لإشاعة ضدها ، بأنها تسعى إلى قتل أخيها والتفرد بالعرش مخالفة بذلك إرادة ووصية والدها . ولما كان قائد الجيش من بين عصابة القصر فقد استطاعوا أن يثيروا عليها الجيش وشعب الإسكندرية مما حتى اضطرت كليوباترا إلى الفرار من المدينة ، ولجأت إلى الحدود الشرقية للدولة حيث جمعت لنفسها جيشاً تسترد به عرشها . وفي الوقت نفسه سار الجيش باسم أخيها الملك وحقوقه إلى بلوزيوم ليسد عليها طريق العودة .

(كليوباترا وقيصير) :

في هذه الأثناء كانت تدور على الشاطئ الآخر من البحر الأبيض المتوسط معركة أخرى ، هي معركة فارسالوس التي انتصر فيها قيصر على بومبي ، وفر الأخير إلى مصر ، آملاً أن يجد فيها ملجأً وعوناً ، خاصة وأنه صاحب الفضل في إعادة وتثبيت بطليموس الزمار على عرشه . وتوجه بومبي إلى بلوزيوم حيث معسكر

الملك ، ولكن حدثت خيانة ، إذ اغتاله أحد الجنود الرومان أثناء نزوله إلى الشاطئ .

بعد فارσαوس لم ينتظر قيصر طويلا ، بل تتبع يومى إلى مصر ، واتجه إلى الأسكندرية فدخلها ووجدها خالية من الملكة والملك ، وكان يعلم قصة الخلاف بينهما . فأعلن نفسه حكما في الخلاف ، منفذا لإرادة الملك الراحل والدعاء ، وطلب أن يمثل أمامه ، فحضر الملك من بلوزيوم ، أما الملكة فكانت جيوش الملك تقف حائلا بينها وبين دخول الأسكندرية . ويقال أنها انتحلت لذلك حيلة بارعة ، وهى أنها استقلت قارباً ودخلت المدينة عن طريق البحر يحملها رجل وهى مخبئة داخل سجادة ملفوفة ، ثم ذهب بها إلى قيصر ، فلما بسطت السجادة خرجت منها كليوباترا ذات حسن ودلال . هذه البداية للرحمة جعلت العلاقة بين قيصر وكليوباترا تقوم على أساس العلاقة بين رجل وامرأة لا بين دكتاتور روما وملكة مصر . وبطبيعة الحال أقر قيصر الملكة على عرشها على أن يشاركها أخوها .

ولكن ساسة القصر الذين أدر كوا أنجاه عواطف قيصر منذ اللحظة الأولى ، حاولوا عدم تنفيذ إرادة قيصر بالقوة ، فأرادوا أن يستغلوا ضعف مركز قيصر وقلة عدد جنوده بالنسبة لعدد جيوشهم الجرارة وأعلنوا الحرب باسم الدولة ضد الأخيل الأجنبي . ولعل من الطريف أن نورد هنا وصف يوليوس قيصر لجيش الدولة البطلمية الذى حاربه ، فهو يلقى ضوءاً على حالة الجيش والدولة معاً :

« إن جيش إخيلاس (القائد) لم يكن بالدرجة التى يستهان بها من ناحية الحجم ونوع رجاله وخبرتهم فى الحرب فقد كان لديه عشرون ألفاً تحت السلاح يتألفون من جنود جابينيوس ، الذين استمروا حياة الإنطلاق فى الأسكندرية ، قد نسوا النظام الرومانى ومعنى انسابهم لشعب روما ، واتخذوا لأنفسهم

زوجات ، وأنجب كثير منهم أطفالا . أضف إلى هؤلاء أعدادا من العصوص وقطاع الطرق في سوريا و كيليسيا والمناطق المجاورة ، وقد انضم إليهم كثيرون من الجرمين والمنفيين ، فكل من يفر من عبيدنا كان له ملجأ مأمون وحياة مطمئنة في الأسكندرية . ماداموا يسجلون أنفسهم في عداد الجنود . . . هؤلاء الجنود كانوا يطالبون بقتل أصدقاء الملوك ، وينهبون أملاك الأثرياء ويحاصرون قصر الملك من أجل المطالبة بزيادة رواتبهم ، ويطردون بعض الملوك من العرش ويمينون آخرين ، جريا في الواقع على عادة قديمة لجيش الأسكندرية . وكان هناك إلى جانب هؤلاء ألفان من الفرسان . هؤلاء الجنود كانوا قد شاخوافي حروب الأسكندرية المتعددة ، عندما أعادوا بطلميوس الوالد (الزمار) إلى عرشه ، وعندما قتلوا ابني بيبولوس ، وأثناء حروبهم ضد المصريين ، هكذا كانت خبرتهم الحربية .

هذه هي القوات التي وثق فيها أخيلاس ، محترقا جيش قيصر لقلة عدده ، وقام باحتلال الأسكندرية باستثناء ذلك الجزء من المدينة الذي احتله قيصر بمجنوده ^(١) .

هذا هو الجيش الذي تصدى لحرب قيصر وجيشه القليل فيما يعرف « بحرب الأسكندرية . » ولم تكن بالحرب السهلة فقد استطاع الجيش المصري أن يوقع قيصر في مواقف غاية في الحرج كاد في بعضها أن يفقد حياته هو . وقد حرص قيصر على أن يسيطر على منطقة القصر الملكي والميناء حتى يمكنه أن يتصل بقواته خارج مصر .

وقد كان الملك والملكة في القصر في يد قيصر . وحدث في أثناء هذه

Caeson, Bell. Civ, III 110—111.

(١)

مرسنا على إيراد هذا النص أنظر لفة قيصر المألوفة حتى عندما يصف خصومه .

الحرب أن احترق عدد من سفن قيصر في الميناء وامتدت النار إلى الأرسنة والمباني المجاورة . ويقال أن عدداً كبيراً من الكتب المهمة النار ، وليس من المؤكد إذا كانت هذه الكتب في الميناء معدة للتصدير أو جزءاً من مكتبة الاسكندرية الشهيرة .

وفي بعض مراحل هذه الحرب حاول قيصر أن يسيطر على الجسر الموصل بين جزيرة فاروس والمدينة ولكنه فشل وقصد أربعائة من جنوده وكاد هو أن يهلك معهم لولا أنه ألقي بنفسه إلى الماء وسبح إلى سفينته .

بعد هذه المواقف الحرجة وصلت إلى قيصر قوات من جيوشه عن طريق سوريا وحاصرت الاسكندرية واستطاع هو أن يتصل بها وأن يقضى على خصومه ويستولى على الاسكندرية . بعد الهزيمة حاول الملك البطلمي الصغير ، وكان قد انتقل إلى جانب جيشه ، أن يهرب إلى الشرق ولكنه غرق أثناء عبوره للنيل .

عندما دخل قيصر الاسكندرية مقتصراً في يناير سنة ٤٧ ق . م . ، أعلن كليوباترا من جديد ملكة لمصر وزوجها من أخيها الأصغر بطليموس الرابع عشر . وبعد ذلك قضى قيصر الشتاء في مصر في نزوة نيلية مع كليوباترا إلى الصعيد حتى الحدود الجنوبية ، وذلك رغم أن العالم الخارجي كان ينتظر عودته لمواجهة مشاكل السياسة والعرب . ولكن يبدو أن كليوباترا كان لها من القدرة بحيث تملأ على الرجل قلبه وعقله معاً ، حتى أن قيصر آثر أن يؤجل مباشرة الموقف في الإمبراطورية ريثما ينعم قليلاً بصحبة الملكة المصرية . ومن المحتمل أن قيصر قد تنازل لها في هذه المناسبة عن جزيرة قبرص . وفي ابريل غادر قيصر الاسكندرية ومصر إلى سوريا بعد أن ترك بها حامية رومانية لضمان استقرار الأحوال بها على النحو الذي رسمه . بعد ذلك في ٢٣ يونيو

سنة ٤٧ ق . م . وضعت كليوباترا طفلها من قيصر وأسمته قيصر كذلك ،
ولكن أهل الإسكندرية أسموه قيصرون (وهو تصغير قيصر) على سبيل
السخرية .

وعندما عاد قيصر إلى روما في سنة ٤٦ ق . م . ذهبت إليه كليوباترا
وأتخذت مقامها في حدائقه على ضفة نهر التيبر ، ورغم كراهية الرومان لها ،
باعتبارها عشيقة قيصر الذي كان له زوجته الشرعية ، إلا أن كثيرين من
عالية القوم في روما ترددوا على مجلسها . وفي الوقت نفسه أحاطها قيصر بكل
رعاية وتكريم ، فأعلن اعترافه رسميا ببنته ابنة من كليوباترا ، سماها لها
تمثالا من الذهب في معبده الجديد للالهة فينوس . في هذه الأثناء أخذت
تنتشر إشاعات حول أهداف قيصر السياسية وأنه يرمي إلى تحويل الإمبراطورية
إلى مملكة من نوع الممالك الهلينستية الشرقية ، يكون هو ملكها وكليوباترا
ملكها . ولكن رجال السناتو في روما من الحزب الجمهوري لم يصبروا
طويلا على هذه الحال ، وفي ١٥ مارس سنة ٤٤ ق . م . قاموا بؤامرة اغتيال
قيصر داخل مجلس السناتو ، مما ألقى بالإمبراطورية في أتون الفوضى والحرب
الأهلية من جديد . وأدركت كليوباترا أن روما لم تعد مستقرا لها بعد ذلك
فغادرتها خفية وعادت إلى مصر . وبعد عودتها توفى أخوها بطليموس الرابع
عشر في ظروف غامضة ، وأعلن ابنها قيصر شريكا لها في العرش الذي يطلق
عليه اسم بطليموس الخامس عشر قيصر .

كليوباترا وماركوس انطونيوس :

إذا كان مصرع يوليوس قيصر في منتصف مارس سنة ٤٤ قد قضى
أيضا على آمال كليوباترا العريضة في أن تصبح امبراطورة روما ، فإن الأقدار
سرعان ما أتت إليها بمغامرة ثانية بعثت آمالها من جديد ، فبعد أن انتهت

الحرب الأهلية التي أعقبت مصرع قيصر بانتصار أوكتافيان وماركس أنطونيوس سنة ٤٢ ، اقتسم القائدان المنتصران الإمبراطورية فيما بينهما ، فآلت الولايات الغربية لأوكتافيان والولايات الشرقية لماركس أنطونيوس . وكانت مصر في ذلك الوقت الدولة الوحيدة التي لم تزل مستقلة عن الإمبراطورية الرومانية في الشرق ، فكان لابد لأنطونيوس من أن يحدد علاقته معها ، فبعث إلى كليوباترا يدعوها لمقابلته في أفيوس . وأدركت كليوباترا في الحال أنه ربما كانت تلك دعوة إلى مغامرة أخرى تموضها عن فقد قيصر . فمضت إلى أنطونيوس تحمل معها سلاحين خطيرين هما ، انوثتها وعقلها اللامع . ومنذ اللقاء الأول كان لأسلحة كليوباترا النصر التام ، وأصبح أنطونيوس أسير غرامها لا يعض لها أمرا . وفي الشتاء التالي سنة ٤١ - ٤٠ حضر أنطونيوس إلى مصر وأطلق العنان لشهوته مع كليوباترا ، وفي الأعوام التالية توطلت العلاقة بين القائد الروماني والملكة المصرية وتعددت فترات اللقاء بينهما وطالت سواء في مصر أو في خارجها . وأنجبت كليوباترا من أنطونيوس أطفالا ثلاثة ، ولدين وبنتا ، حتى إذا كان عام ٣٥ ق . م . أعلن أنطونيوس طلاقه من زوجته أكتافيا أخت أوكتافيان ، كما أعلن شرعية علاقته بكليوباترا . وبعد ذلك حضر إلى مصر وأعلن تقسيم الولايات الشرقية بين أبنائها جميعا بينما أصبحت كليوباترا نفسها ملكة على الولايات الشرقية كلها ، وهو ما لم يجرؤ أحد من البطالمة من قبل على التفكير فيه إبان أعظم أيامهم .

ولسكن لابد لللائقار من دورة ، فما كاد أنطونيوس يعلن طلاقه من أكتافيا حتى شن ضده أخوها أوكتافيان ، الحاكم في روما وفي غرب الإمبراطورية حملة شعواء من الدعاية والتشهير به وبمسلكه مع كليوباترا . ثم اتخذ من أعمال أنطونيوس دليلا على أنه قد حول الولايات الشرقية إلى مملكة هو ملكها وكليوباترا ملكتها وأولادهما ورثتها ، وهو ما يعتبر بمثابة خيانة لشعب روما

والمثل الرومانية. وبذلك عبأ الرأي العام في روما ضد أنطونيوس ثم أعلن عليه الحرب باسم إقازد الإمبراطورية ؛ ودارت للمركة الفاصلة بينهما عند اكتيوم البحرية في غرب اليونان في سبتمبر سنة ٣١ . وكانت كليوباترا موجودة على رأس أسطولها إلى جانب أنطونيوس ، ولكن ما كاد يتضح تفوق أكتافيان في المركة حتى انسحبت كليوباترا إلى الأسكندرية ، وفي أثرها أنطونيوس . وبينما هما يحاولان خططا جديدة لمواجهة الموقف إذا بأكتافيان يفاجئهما من سوريا ويستولى على مصر بأسرها ثم يتجه إلى الأسكندرية ويدخلها في أول اغسطس سنة ٣٠ ق . م . فلم يجد أنطونيوس حيلة سوى الاتجار ، وبعده بقليل وجدت كليوباترا ميتة في قصرها سواء متحجرة كما هو شائع أو بفعل أكتافيان كما يشك بعض الكتاب . واعتقب أكتافيان ذلك بقتل ابن كليوباترا وقيصر ؛ بطليموش قيصر ، وأعلن ضم مصر إلى إمبراطورية روما وجعلها ولاية رومانية .

هكذا انتهت حياة هذه المرأة العربية التي قدر لها ان تكون خاتمتها خاتمة عصر بأسره في التاريخ المصري هو عصر الأسرة البطلمية ورغم ان نشاطها في مجال السياسة الداخلية كان محدوداً جداً^(١) إلا ان نشاطها في مجال السياسة الخارجية يستبر من اغرب منامرات التاريخ. فقد كان مصر في العصر الأخير من اسرة البطالمة في حالة من الضعف والحمول الشديدتين كاد يلبق الظلام عليها من كل جانب. ثم جاءت كليوباترا ورائها شهاب ألقى به في هذا الظلام فبث فيه برقاً يطفئ الأبصار ، ثم انطفأ الشهاب واستأفنت سحابة التاريخ سيرها ؛ وتحولت مصر من دولة مستقلة تحت حكم البطالمة إلى ولاية رومانية تتبع إمبراطور روما. ولكن كليوباترا بقيت اسطورة نرددها الألسن في كل مكان ويستلهمها الكتاب والشعراء على مر العصور .

الفصل الرابع

معالم النظم والحضارة المصرية في العصر البطلمي

عرضنا فيما سبق لمعالم التاريخ السياسى لمصر في عصر البطالة ، ونظراً لأن النظم الداخلية كانت تتكامل بالتدرج بمجهود الملوك المتعاقبين ، فقد رأينا أن نجعل الحديث عن هذه النظم في فصل مستقل بدلاً من تقسيمه وتوزيعه حسب الملوك ، حتى تتضح الصورة ويتكامل الموضوع . نستثنى من ذلك موضوع الحياة الدينية فقد عرضنا له أثناء الكلام عن الملوك الثلاثة الأول من العصر البطلمى . وذلك لأن الدين استخدم في هذه الفترة كسلاح من أسلحة السياسة فكان عماداً من عماد بناء الدولة الجديدة . ولذا لزم التعرض له في صدد العرض السياسى لمؤلاء الملوك .

(١) تكوين المجتمع^(١)

من الدراسات الجديدة التى اهتم بها المؤرخون في العصور الحديثة دراسة تكوين السكان وأحوالهم الاجتماعية . وذلك لعلاقتها الوثيقة بالحياة السياسية والاقتصادية للدولة . ويعتمد الذين يقومون بدراسة المجتمعات الحديثة على المعلومات التى يجمعونها بأنفسهم من البيئة التى يدرسونها . أو على الإحصاءات

M. Bostovzeff, Social and Economic History of the (١) Hellenistic World, I, pp. 261 — 267 and pp. 316 — 332; E. Bovan, History of Egypt under The Ptolemaic Dynasty pp. 79 ff.; Claire Préaux, Les Grecs En Egypte pp. 68—70.

والبيانات الرسمية التي تصدرها الحكومات الحديثة . ولكن الوضع يختلف بالنسبة لمن يتصدى لمثل هذه الدراسة في المجتمعات القديمة . فالتجربة الشخصية لاسبيل للحصول عليها ، والإحصاءات والبيانات الرسمية بهذا الشأن لا وجود لها في كثير من الأحيان . ومع ذلك فلم يحجم المؤرخون المحدثون عن دراسة المجتمعات القديمة دراسة اجتماعية ، وفي سبيل تحقيق ذلك لجأوا إلى ما يمكن أن يسمى بالدليل غير المباشر في معظم الأحيان لتعذر الدليل المباشر . وتقصّد بالدليل غير المباشر الإشارات العابرة التي قد ترد في كتابات المؤرخين أو الأدباء والشعراء التي تصور موقفاً اجتماعياً أو ما يمكن أن يستشف منها معلومات ذات قيمة اجتماعية . أما في حالة مصر اليونانية والرومانية فالوضع يختلف قليلاً نظراً للكثافة الوفيرة من أوراق البردي التي عثرنا عليها من هذه الفترة . وعدا أوراق البردي الأدبية يمكن تقسيم الوثائق البردية إلى نوعين عامة وخاصة . الوثائق العامة تشمل البيانات الرسمية والقوانين العامة والمراسلات الإدارية ، أما البرديات الخاصة فتشمل عادة الخطابات الشخصية . وكلا النوعين يلتقي ضوءاً هاماً على الأحوال الاجتماعية لمصر في هذه الفترة . وقد أمكن تكوين صورة لا بأس بها عن سكان مصر اليونانية والرومانية نتيجة استقصاء واستقراء المعلومات التي وردت في أوراق البردي بالإضافة إلى ما ورد في المصادر الأدبية الأخرى

من النادر ، وربما من المستحيل ، أن نجد مجتمعاً متعصراً -الياً من الأجانب في أى فترة من فترات تاريخه . فمصر الفرعونية عرفت الأجانب من شتى الجنسيات ، من إثموبيين وليبيين وأسيويين وفارسيين ويونانيين وغيرهم وكذلك كانت الحال في جميع عصور التاريخ المصري . ومع ذلك فالمصر البطلمي في مصر يختلف في هذا الشأن عن غيره من العصور لأن الحكام في هذا العصر كانوا من العنصر الفدوني اليوناني ، واعتمدوا في بناء دولتهم على

استيراد أعداد كبيرة من بنى جلدتهم، فكان المقدونيون والإغريق هم العنصر
الغالب في الجيش والإدارة. وفي ركب الإسكندر ومن بعده عندما شملت
الإمبراطورية المصرية سوريا وبرقة ومناطق في آسيا الصغرى وبحر إيجة حضرت
إلى مصر أعداداً أخرى غفيرة من هذه الجنسيات المختلفة سعياء وراء العمل والرزق الوفير
تحت سماء مصر ومن الجنسيات التي تقابلها في مصر البطلمية اليهود والسوريون
والفنيقيون واليبليون وجاعات من شعوب آسيا الصغرى. هذا هو الخليط العجيب
من الأجانب الذين حضروا إلى مصر وعاشوا جنباً إلى جنب مع الأغلبية الساحقة
من المصريين. ولسوء الحظ ليس لدينا إحصاءات نوعية عن كل عنصر من هذه
العناصر، يبين نسبة عدد بعضها إلى بعض، ولا النسبة العددية بينهم وبين المصريين
وكل ما لدينا من الإحصاءات هو رقم إجمالي عن عدد سكان مصر في ذكرك جوزيفوس
الذي عاش في بداية العصر الروماني أن عدد سكان مصر — عدا أهل
الإسكندرية الذين كان لهم سجل خاص بهم — هو سبعة ملايين ونصف
مليون^(١). ونحن نستطيع أن نثق في صحة هذا الرقم نظراً لأن الإدارة اليونانية
والرومانية كانت تحتفظ بإحصاءات دقيقة من عدد السكان، كما كانت تسجل
المواليد والوفيات بانتظام نظراً لارتباط ذلك بالضرائب التي كانت تجبي على
الأفراد ومن حسن الحظ أن لدينا رقماً آخر عن الإسكندرية يسد النقص في
رقم جوزيفوس، فيذكر ديودور الصقلي أن عدد سكان الإسكندرية من الأحرار
في العصر الأخير من الحكم البطلمي هو ثلثمائة ألف شخصاً^(٢) ونحن لا نعرف
على وجه التحديد ماذا يعني ديودور بلفظ «أحرار»، ولكن إذا افترضنا أنه
وجد بالإسكندرية مائتا ألف آخرون ممن لم يسجلوا ضمن «أحرار» ديودور
مثل العبيد وبعض الأهالي النازحين من الريف دون أن يكونوا مقيدين رسمياً

Josephus, Bell. Jud. II. 16, 4.

(١)

Diod. XVII. 52, 6

(٢)

ضمن أهالى الأسكندرية ، فإن مجموع سكان الأسكندرية يكون خمسمائة ألف شخص تقريباً . ورغم الاختلاف الزمنى بين الرقمين ، إلا أنه من المحتمل أنهما معاً يمثلان عدد سكان مصر بأسرها فى الظروف العادية فى التاريخ القديم . وعلى هذا الأساس نقتراح أن متوسط عدد سكان مصر فى المصريين اليونانى والرومانى هو ثمانية ملايين شخص .

هذا العدد الكبير من الأجناس المختلفة كان فى حاجة إلى تنظيم دقيق ليسهل الإشراف عليهم من ناحية والاستفادة منهم من ناحية أخرى . وقد حرص البطالمة على تنظيم الإغريق والجماعات للتأغربة من الأجانب حسب أسس خاصة . وقد تم ذلك عن طريق إدراج أعداد كبيرة من الإغريق فى عداد مواطنى المدن اليونانية فى مصر ، أو عن طريق ضمهم فى جماعات كل حسب موطنهم الأصلى تسمى يوليثيوما . أما سائر السكان من البقية من الإغريق والأجانب والأغلبية الساحقة من المصريين فكانوا ينظمسون حسب حرفهم وأعمالهم .

أما عن العضوية فى المدن اليونانية فى مصر فقد كانت قاصرة على الطبقات الممتازة من الإغريق . وذلك لأن البطالمة لم يقبلوا على إنشاء المدن المستقلة على النمط اليونانى فى مصر لأنها تتعارض مع نظامهم فى الحكم الملكى للعلى . ولذلك وجدنا البطالمة يكادون يقتصرون على المدن التى كانت موجودة قبل قيام دولتهم وهى قراطيس التى أنشئت فى شمال غرب الدلتا فى نهاية القرن السابع ق . م . ومدينة الأسكندرية التى أنشأها الإسكندر وأصبحت عاصمة مصر ولم ينشأ البطالمة سوى مدينة واحدة جديدة هى بطلمية التى أنشأها بطليموس الأول فى أعالي الصعيد . وما من شك أن هدف البطالمة الأساسى من نظام المدن

كان محاولة منهم لحفظ جماعات من المنصر الإغريق تقيّة دون أن تختلط بالأهالي من المصريين فتتفى فيهم بمرور الزمن . ويجب أن نذكر أن هذه النظرة كانت تختلف عن نظرة الإسكندر نحو إنشاء المدن . فالإسكندر كان يعتبر كل مدينة أنشأها بمثابة بوتقة يختلط فيها الإغريق مع الأهالي الأصليين . أما البطالمة فقد انحرفوا عن هذه السياسة ، وجعلوا مواطني المدن اليونانية في مصر بمثابة فئات ممتازة بين سائر السكان ، وسنوا لهم من القوانين ما يمنهم من التزاوج من المصريين حتى يبقى الدم الإغريق تقيّاً في عروقهم . ولم يكن جميع الإغريق الذين عاشوا في المدن اليونانية بمصر ، وخاصة في مدينة كبيرة مثل الإسكندرية ، مواطنين فيها ؛ بل كانت للوطنة قاصرة على العناصر الممتازة ، أما الإغريق الآخرون فلم يتمتعوا بحق اللوطنة وكانوا رعايا للملك مباشرة . ومع ذلك فقد وجد لهم نظام آخر يوضحهم عن جرمانهم من حياة للدينة السياسية ، وهو نظام البوليتيوما Politeuma^(١) . وهي عبارة عن رابطة تضم جميع أبناء للوطن الواحد من بعض الفئات الإغريقية أو للتأخرقة فوجدت بوليتيوما للمقدونيين وأخرى لليهود وثالثة للكريتيين ورابعة للبيوتيين وهكذا .

وكانت البوليتيوما هيئة مستقلة ذات نظام خاص يلب عليه الطابع العسكري ، ولكن كان لها أيضاً أوجه أخرى من النشاط الاجتماعي والديني . وما من شك أنها كانت خاضعة للملك مباشرة ، فمن المرجح أن السبب في إنشائها هو أن تضم جنود الجيش البطلمي في أثناء السلم حينما ينتشرون في الريف

(١) عن هذا النظام أنظر

Lesquier. *Institutions Militaires de L'Egypte sous les Lagides*, pp. 143—155; Rostovtzeff, *Social and Economic History of the Hellenistic world*, p. 324; Taubenschlag, *The Law of Greco-Roman Egypt*, p. 9; Lauroy, *Recherches sur les armées Hellenistiques*, II d. 1064.

ويستقرون على مزارعهم، ليسهل حصرهم واستدعائهم بسرعة عند الحاجة، وإذا كانت كل بوليتيما في أول الأمر قاصرة على أبناء جنس بعينه، فإنها فقدت هذه الصفة مع مرور الزمن، وأصبحت منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد تضم أفراداً من عناصر أخرى ومن أكبر الجاليات الأجنبية التي وجدت في مصر البطلمية الجالية اليهودية^(١) وما من شك أن وجود اليهود في مصر يرجع إلى ما قبل العصر البطلمي، فقد أقام الفرس حامية من اليهود في جزيرة إلفنتين على حدود مصر الجنوبية وقد عثر حديثاً في تلك الجزيرة على مجموعة من أوراق البردي، مكتوبة باللغة التي يتكلمها يهود هذه الحامية وهي الأرامية. وتثبت دراسة هذه البرديات أنه من الممكن التأريخ لهذه الحامية بصورة منتظمة في الفترة بين ٥٢٥-٤٠٧ ق. م.^(٢) ولكن منذ أن فتح الإسكندر مصر تقاطر اليهود إليها في أعداد كبيرة استقرت في موطن متفرقة وخاصة في الإسكندرية حيث كانوا لهم جالية كبيرة سكنت الحي الرابع المسمى دلتا من أحياء الإسكندرية الخمسة. على أن اليهود في مصر البطلمية سرعان ما تركوا اللغة الأرامية واتخذوا اللغة اليونانية بدلاً منها. وكان أكبر مظاهر لهذا التغيير هو ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية التي تمت في مصر في ذلك العصر. ونسب عادة بالترجمة السبعينية، نسبة إلى قصة أسطورية نسجت حول هذه الترجمة، وتروي هذه القصة أن الملك بطليموس الثاني استقدم إلى الإسكندرية اثنين وسبعين عالماً من يهود فلسطين، وكلفهم أن يقوم كل واحد منهم على أفراد

(١) خير مرجع لهذا الموضوع هو .

V. Tchirikov and A. Fuks, *Corpus papyrorum Judaicarum*, 2 vols, (1957 and 1960) بالجزم الأول مقدمة وافية

(٢) حول وجود اليهود في مصر الفرعونية انظر .

W. O. E. Oesterleq, *Egypt and Israel*, in *The Legacy of Egypt* (especially pp. 235-238) بشأن البرديات الأرامية من الفيلبين

بترجمة التوراة إلى اليونانية ، وبعد اثنين وسبعين يوماً فرغوا جميعاً من الترجمة ، ولما قورنت التراجم المختلفة وجد أنها مطابقة بعضها لبعض ، مما يعنى أن ترجمة الكتاب المقدس قد تمت بوحي من الإله حتى لا تختلف كلماته عند الترجمة ، وقد ثبت الآن أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة وأن الترجمة السبعينية قام بها يهود مصريون في فترات مختلفة من العصر البطلمي .

كان القيام بهذه الترجمة أمراً ضرورياً ، لأن كثيراً من اليهود كانوا قد تأغرقوا تماماً وأصبحت اليونانية هي لغتهم الوحيدة وبعد إتمام الترجمة نجد أن هذا الاتجاه يشتد وتصبح للرأسيم الدينية اليهودية تؤدي باللغة اليونانية ، وبالتدريج ، يفقد اليهود في مصر أى صفة مميزة لهم عن الإغريق ، فآخذوا الزى اليونانى وتسموا بأسماء إغريقية وتحدثوا اللغة اليونانية . حتى أن اللورخ اليونانى يوليبيوس حين حضر إلى الإسكندرية في منتصف القرن الثانى ق.م. لم يلحظ أى صفة مميزة لليهود هناك وعدم جميعاً إغريقاً .

ونظراً لكثرة اليهود العددية في مصر البطلمية وتميزهم الدينى الذى تسكوا به دائماً منعهم الملوك حتى تكونين پوليتيوما ، عن طريقها ينظمون شئونهم الخاصة ويمارسون دينهم الخاص فى حرية واستقلال . وقد بنوا فعلاً كثيراً من أماكن العبادة الخاصة بهم التى تعرف باسم « سيناجوج » Synagogue (ومعناها اللغوى جامع) . وكان لرابطة اليهود أو پوليتيوما رئيس يسمى إثنارخوس أو جينارفوس ، ومجلس شيوخ يسمى جيروزيا ، ودار خاصة لحفظ الوثائق . ويبدو أنه كان لليهود نوع من الحاكم اللبسة وأن رئيسهم بمساعدة مجلس الشيوخ كان المسئول عن الشئون الإدارية والقضائية للجمالية . ولكن لابد أن القضاء اليهودى كان قاصراً على النواحي ذات الصلة الدينية وأن سلطته لا تعدى سلطة التحكيم . لأن الحالات التى تمس القضاء للمدى (٨٢ — البطالة)

أو الجنائي كانت تأتي تحت طائلة قضاء الدولة^(١).

أما للمصريون فقد كانوا بطبيعة الحال هم الأغلبية الساحقة وعماد المجتمع. وكما كانوا رعايا فرعون قبل، أصبحوا الآن رعايا الملك البطلمي. وكان تنظيمهم الأساسي حسب حرفهم وأعمالهم كما كانوا في العصر الفرعوني. فيحدثنا هيرودوت أن المصريين كانوا ينقسمون إلى سبع طبقات حسب أعمالهم: الكهنة، الجند، رعاة البقر، رعاة الخنزير، التجار، المفلسون، ورجال القوارب^(٢). ونحن نسمع عن معظم هذه الفئات في العصر البطلمي. وما من شك أن هناك فئات أخرى مع المجتمع لم يذكرها هيرودوت وجدت في مصر الفرعونية كما وجدت عصر البطلمية أيضاً، وتقصّد بذلك طبقة الفلاحين وطبقة الصناع وطبقة الموظفين الإداريين: ويبدو من دراستنا للعصر البطلمي أن أفراد كل مهنة أو عمل كانوا منظمين تنظيماً دقيقاً، بحيث كان من اليسير تحديد إمكانات الدولة في مجالات النشاط المختلفة. فالنابية من الفلاحين والصناع كانوا يعملون في أرض الملك ومصانع الملك، ولذا كان من الضروري حصرهم وإحصاؤهم باستمرار. ونعرف أيضاً أن رجال القوارب الذين كانوا يقومون بمهمة نقل القمح من جميع نومات مصر وشعبته في النيل إلى مخازن الحكومة في الإسكندرية، إعداداً لتصديرها بعد ذلك، كانت تنظمهم جميعاً مؤسسة عامة أو نقابة عامة، وكانت أسماءهم وإمكاناتهم وأماكن إقامتهم مسجلة لدى رجال الإدارة، وكانت تصدر لهم التعليمات الدقيقة للقيام بعملية النقل في وقت معين ومن مكان معين.

(١) أنظر: E. R. Gooderough, *The Jurisprudence of the Jewish Courts in Egypt*, (1929); Cl. Préaux, *Lex Étrangère à l'Époque Hellenistique*, *Recueil de la Société Jean Bodin*, IX, *L'étranger* (Bruxelles, 1958) pp. 158—176.
(٢) Herodotus, II. 164.

وفيا يتعلق بوضع المصريين هموما في الدولة البطلمية بالنسبة لساير عناصر المجتمع ، فيجب أن نذكر أنهم كانوا في أول الأمر في مركز الخلوب على أمره وأن الوضع للمناز كان للإغريق ، سواء بين رجال الحاشية الملكية أو الإدارة أو الجيش أو ملكية الأرض . ففي كل هذه المجالات كان اليوناني هو الرئيس والمصرى هو المرءوس ، باستثناء طبقة واحدة وهي طبقة الكهنة . فقد ظلت طبقة الكهنة مصرية في تكوينها كما كانت أقوى وأخطر مظهر يمثل المصريين . وأدرك البطالمة ذلك منذ البداية فحاولوا الإضعاف من مركز الكهنة بسلب المعابد بعض ممتلكاتها وامتيازاتها . ولكن ما أن أخذت الدولة البطلمية تضئف تدريجياً ، حتى رأينا المصريين هموما والكهنة خاصة يسعون إلى تأكيد مركزهم في المجتمع واسترداد بعض حقوقهم . وقد بدأ ذلك واضعاً في قرار الكهنة المسجل على حجر رشيد كما سبق أن بينا . كذلك في مجالات النشاط الأخرى لم يستمر المصريون على حالة واحدة . وأكبر مثال على ذلك وضمهم في الجيش البطلمي . فمنذ البداية اعتمد البطالمة في بناء جيشهم على القذونيين واليونانيين ، ولم يعمل المصريون إلا في الأسطول كبحارة ومجدفين ، وإذا اشتركوا في الجيش فكان على نطاق محدود وبعيداً عن مراكز القيادة . حتى إذا كان عام ٢١٨ تعرضت مصر لهجوم عنيف من سوريا . وأمام القصر الكبير في أعداد الجند من القذونيين والإغريق اضطر الملك بطليموس الرابع إلى تجنيد عشرين ألفاً من المصريين كان لهم الفضل الأكبر في القضاء على الغزو السلوقي في معركة فاصلة عند رفح عام ٢١٧ .

انتصار المصريين في معركة رفح كان له نتائج هامة بالنسبة لمركزهم في الدولة فقد استرد المصريون في الحال الثقة بالنفس وشعروا أنهم ليسوا أقل كفاءة من الإغريق ، فطالبوا بمحتمهم في تولى جميع المناصب . وفعلوا وجدنا مصريين يشغلون مناصب قيادية في الجيش والقصر والإدارة . وقد صاحب تحسن مركز المصريين

وزيادة نفوذهم في الدولة كثرة الثورات التي قاموا بها ضد الأسرة الحاكمة في
الأسكندرية وشغلت فترات طويلة من النصف الثاني من العصر البطلمي .

سؤال أخير يجب أن نجيب عليه وهو ماهي لغة سكان مصر البطلمية . ؟
كانت اللغة الرسمية هي اللغة اليونانية وهي لغة الطبقة الحاكمة . أما المصريون
فقد استمروا يتحدثون اللغة المصرية القديمة ، ولكنها انقسمت إلى شعبتين :
ما يمكن أن يسمى باللغة الفصحى التي كان السكينة يكتبونها بالحروف
الميروغليفية ، واللغة العامية وكانت تكتب بالحروف الديموطيقية . وهذه اللغة
الأخيرة وحروفها دخلتها كثير من التأثيرات اليونانية . وكانت جميع مراسلات
الدولة تتم باللغة اليونانية ، أما المراسم الملكية والقوانين التي يقصد نشرها
بين جميع السكان فكانت تنشر عادة إما باللغات الثلاثة أو اليونانية والعامية
الديموطيقية .

وبما ساعد على انتشار اللغة اليونانية إلى حد ما أن جميع العناصر الأجنبية
استخدموها في الحال ، كما رأينا في حالة اليهود ، فهي لغة الإدارة وكل من
يريد الترقى تحت لواء البطلمية يجب أن يتقنها . من أجل هذا وجدنا أبناساً
كثيراً من المصريين الطموحين من سكان المدن يتعلمون اللغة اليونانية ،
ويصطبغون بالصبغة اليونانية بالتدريج . ومن مظاهر ذلك اتخاذهم أسماء يونانية
أيضاً : وقد ساعد على هذا الاتجاه إزدواج الزواج بين اليونانيين والمصريين .
بحيث أنه منذ منتصف القرن الثاني ق . م . لم يعد الاسم اليوناني في المصادر يدل
على أن صاحبه من عنصر يوناني إطلاقاً . إذ يمكن أن يكون صاحبه مصرياً
أو سورياً أو يهودياً أو يونانياً أو من أبوين مختلفي الجنس .

ب - نظام الحكم

لا زال نظام الحكومة البطلمية في مصر في حاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث . وليس هنا مجال الإفاضة في جزئيات هذا النظام ، لأنه ما زال هناك اختلاف كبير حول تعديلها . ولهذا سنتكلم باختصار عن الأقسام الرئيسية في الإدارة المصرية نظام حكم الممتلكات الخارجية ، والحكومة المركزية في الاسكندرية ، ونظام الإدارة المحلية .

وقبل أن نتعرض لهذه الأقسام يجب أن نذكر ما سبق أن قلناه عن بطليموس الأول ، وهو أن الملك البطلمي كان خليفة الملك في مصو القرعونية: احتل مكانته ومارس جميع سلطاته التي تتلخص في الحكم الملكي المطلق . فهو مصدر السلطة في الدولة وإرادته هي القانون . ويعتبر كل موظف أو قائم بعمل في الدولة خادماً للملك وممثلاً ، منه يستمد سلطته ومسؤول أمامه عن أداء عمله . وعلى هذا فإن النظام الإداري في الدولة يعتبر من الناحية النظرية تابعا من شخص الملك ومرتبطة بإرادته .

حكم الممتلكات الخارجية :

خلال القرن الثالث قبل الميلاد تمتعت مصر بامبراطورية خارجية شملت

(١) أنظر : E. Bevan, Egypt under The Ptolemaic Dynasty pp. 132 ff.; Cambridge Ancient History, Vol. VII, pp. 116 ff.
P. Jouguet: La Vie Municipale dans L'Egypte Romaine chop. 1.; idem. Imperialisme Maced., 232 ff.

برقه وسوريا الجنوبية (أى الجزء الجنوبي من سوريا وفينيقييا وفلسطين) ، وقبرص واجزاء من سواحل آسيا الصغرى الجنوبية والغربية ، وجزر الكيكلاديس ، وأحيانا شملت أيضاً جزراً أخرى ومناطق أخرى في بحر إيجه ولسوء الحظ أننا لا نعرف كثيراً عن النظام الذى طبقه البطالمة فى حكم هذه الملكات ، ولعلهم لم يطبقوا نظاماً موحداً فى جميع الأقاليم . ولكن مما لا شك فيه أنهم أقاموا حاميات عسكرية فى بعض المناطق ذات الأهمية العسكرية مثل ثيرا وكريت وديلوس وقبرص.

وكان قائد الحامية العسكرية عادة ذا نفوذ كبير حتى ليظن أنه شغل منصب نائب الملك فى المستعمرة كما هو الحال فى جزر الكيكلاديس حيث شغل هذا المنصب قائد الأسطول نافارخس (Navarcho) ؛ رغم أنه وجد إلى جانبه موظف كبير آخر يسمى حاكم الجزر (نيزيارخس Nemiarchos). عدا هذين الحاكمين كان يمين فى كل من منطقة تخضع للسلطان المصرى قائد عام يسمى إستراتيجوس Strategos وهو الذى يشرف على حكم الولاية وإداراتها ، وإلى جانب الإستراتيجوس وجد موظفون آخرون يشرفون على الخزانة والنواحى الإدارية الأخرى ولكن ليس لدينا معلومات كافية عن تحديد اختصاصاتهم أو علاقة الموظفين المدنيين بالقواد العسكريين .

وفىما يتعلق بالمدن اليونانية التى خضعت للبطالمة ، فإنها استمرت تتمتع بحريتها فى الحكم الذاتى . ولكن الملوك فرضوا عليها جزبة سنوية ، وأحياناً خفض الملوك هذه الجزبة . إذا ما عبرت هذه المدن عن ولائها للأسرة البطلمية بمساهمتها فى المهرجانات المرفوقة باسم « البطلميات » التى كانت تقام فى الاسكندرية منذ عام ٢٧٩ / ٢٧٨ تخليداً لذكرى بطليموس الأول سوتير . وفى سوريا انتهج البطالمة سياسة تختلف عن سياستهم فى مصر ، إذ اهتموا بإنشاء كثير من المدن

الجديدة أو تنمية المدن القديمة. على أن سيطرة مصر على إمبراطوريتها لم تستمر طويلا بعد القرن الثالث ، فلم يفته حكم بطليموس الخامس إيفانوس حتى كانت مصر قد فقدت معظم إمبراطوريتها باستثناء برقة وقبرص ، ومع ذلك فكثيراً ما أدى ضعف السلطة المركزية والنازعات الأسرية إلى أن يستقل بيرقة أو قبرص أحد أفراد الأسرة المالكة . ولما ظهرت روما على المسرح السياسى فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، أخذت تتحين القوس لانتزاع هذه الأجزاء من سلطان مصر . وتم ذلك أولاً فى عام ٩٦ ق . م . حينما توفى بطليموس أبيون الذى كان قد استقل بيرقة وأوصى بأن تؤول برقة إلى الشعب الرومانى وبعد ذلك بقليل استولت روما على قبرص فى سنة ٥٨ فى عهد بطليموس الثانى عشر الزمار .

ورغم أنه من المحتمل أن قيصر رد قبرص إلى كليوباترا ، إلا أن سيطرة مصر على الجزيرة فى هذه السنين الأخيرة كانت إسمية بمحة .

الحكومة المركزية فى الإسكندرية :

ما من شك أن البطالة حين حضروا إلى مصر وجدوا نظاماً إدارياً سارياً فى أنحاء البلاد منذ العصور القديمة ، وما من شك أنهم اعتمدوا على ذلك النظام الذى كان نتيجة تجربة آلاف السنين ، ولكن يجب أن نذكر أن ذلك النظام كان قد أصابه كثير من الضعف والتفكك والإهمال فى القرون الأخيرة قبل فتح الإسكندر بسبب الحكم الفارسمى وفترات الثورات المتأخرة منذ العصر الصاوى . ولم يتجه جهد البطالة إلى مجرد تجديد وتقوية نظام الإدارة المصرية ، بل كان أكبر هدف أمامهم هو أولاً أغرقة الجهاز الحكومى وثانياً تطويره بما يناسب الظروف الجديدة . وقد تم الشق الأول عن طريق نقل مركز الحكم إلى الإسكندرية وتعيين أعداد كبيرة من الإغريق فى القصر الملكى وفى أقسام

الإدارة الجديدة المختلفة . أما تطوير الإدارة المصرية وتطويرها للحكم الجديد فقد تم على أيدي خبراء إغريق ، من أشهرهم ديمتريوس القاليري في عصر سوتير وأبولونيوس الوزير المالئ في عصر فيلادلفوس . ويبدو أن هذين للملكين من ملوك البطالمة ومستشاريهم أولوا التنظيم الداخلي كثيراً من العناية ، فبذ نهاية عصر بطليموس الثالث نجد أن نظام الحكم في مصر قد استكمل معظم معالمه الأساسية ،

وأهم منصب في الحكومة المركزية هو وزير المالية المسمى ديوبيكيتيس *Diocetes* ؛ ورغم أن منصبه يعنى أنه المدير لمالية الدولة إلا أنه كان في الواقع هو المساعد الأمين للملك وله سلطان كبير على جميع مرافق الدولة . إليه ترفع التقارير والبيانات والإحصاءات والشكاوى من جميع أقطار الدولة . ومنه تصدر الأوامر والإشارات الإدارية والمذكرات التفسيرية للقوانين والوائح . ومن اليسير أن نتصور أن مركز هذا الموقف الخطير كان يختلف قوة وضعف حسب اختلاف شخصيات الملوك ووزرائهم بين القوة والضعف .

وكان للديوبيكيتيس مساعدون مباشرون يحمل كل واحد منهم لقب مساعد وزير لمالية *hypodioecetes* . ولعل هؤلاء كانوا بمثابة رؤساء للكاتب التي تنقسم إليها إدارة الوزير ، بحيث أن كل هيوبوديوبيكيتيس كان يختص بإقليم من أقاليم مصر . ومن كبار الموظفين أيضاً رئيس الحسابات *Eklogistes* . الذي كان يساعد الوزير في إعداد الإحصاءات وتقدير الضرائب كل سنة ، وكان يساعده عدد كبير من المحاسبين في أنحاء البلاد^(١) .

إلى جانب هؤلاء الموظفين كان للملك معاونون آخرون ملحقون بالقصر ،

للاشراف على ما يمكن أن يسمى بالديوان الملكي. من هؤلاء « كاتب رسائل الملك » (Epistolographos) وسكرتير خاص الملك Hypomnematographos . ومن الصعب التمييز بين اختصاصات هذين الموظفين وتحديد العلاقة بينهما ولكن يبدو أن الأول وهو كاتب الرسائل كان يتولى كتابة رسائل وردود الملك على الشكاوى والخطابات العديدة التي كان يرسلها الأهالي إلى الملك كل يوم . بينما كان الموظف الآخر يختص بتسجيل قرارات الملك وتوجيهاته وردوده التي ترسل إلى الموظفين في المصالح المختلفة .

أما فيما يتعلق بنظام القضاء في مصر البطلمية ، فقد كان يأتي على رأسه موظف كبير هو أشبه بوزير العدل ويسمى Archidicaetes أرخيديكاستيس وكان الجهاز الذي أشرف عليه على جانب كبير من التعقيد نظراً لأنه وجد في مصر أكثر من نوع من القوانين : القانون المصري القديم للمصريين وقانون خاص باليونانيين والأجانب وقانون ثالث خاص بالمدن اليونانية في مصر . وكانت لكل نوع من القوانين محاكم خاصة وقضاة يقومون بتطبيقه^(١) . ومن أهم الوثائق التي كشفت لنا المحاكم المصرية والمحاكم اليونانية اختصاصاتها فقرة في « العفو العام » الذي أصدره يوجنيوس الثاني عام ١١٨ ق . م .^(٢) . وتذكر هذه الفقرة أن الملك (والملكة) قد أمرا بشأن المصريين الذين يرفعون قضايا ضد يونانيين ، واليونانيين الذين يرفعون قضايا ضد مصريين . ومصريين ضد (مصريين) من كل الطبقات باستثناء المزارعين الذين يسلمون في الأرض الملكية ودافى الضرائب وكل من يتصل في عمله بإيرادات الدولة . وذلك في الحالات التي يتعاقد فيها المصريون مع اليونانيين بقود مكتوبة باللغة اليونانية .

(١) أنظر R Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt, pp. 1 ff

Papyri Tebtunis, 1. 5, lines 207-220.

(٢)

هؤلاء تعرض قضاياهم على القضاة اليونانيين (Chromatistae). أما في الحالات التي يتعاقد فيها اليونانيون بمقود مكتوبة باللغة المصرية . فهذه تعرض على القضاة المصريين (Laocritae) حسب القانون المحلي . أما قضايا المصريين ضد مصريين أيضا فهذه لا تعرض على القضاة اليونانيين . وإنما تنظر بواسطة القضاة المصريين حسب القانون المحلي (أى للمصرى) . هذه الفقرة تكشف لنا عن حقيقة هامة جداً ، وهى وجود محاكم مصرية ومحاكم يونانية . ولكل قانون خاص . ولكن من الطريف أن نلاحظ أن جنسية للتقاضين لم تكن تقرر نوع المحكمة التي تنظر قضاياهم ، ولكن لغة العقدهى التي تقرر نوع المحكمة . فالمقود للمصرية تعرض أمام القضاة المصريين ويطبق عليها القانون المصرى القديم مهما كانت جنسية المتعاقدين ، والمقود اليونانية تعرض أمام المحاكم اليونانية .

الإدارة المحلية :

كانت مصر منذ العصر الفرعونى تنقسم إلى مقاطعات تعرف كل واحدة منها باسم « هيسيو Hesepu » ، ولما جاء الإغريق إلى مصر حافظوا على هذا التقسيم ، وترجموا هيسيو بلفظ « نوموس Nomos » ومعناها مقاطعة . ونظراً للطابع الإصطلاحي الذى اصطبغ به هذا اللفظ في دراسة مصر اليونانية الرومانية سوف نستخدم في هذا للكتاب لفظ « نوموس » وتجمع على « نومات » .

وقد رأينا في زمن الإسكندر الأكبر أنه كان على رأس كل نوموس من هذه النومات حاكم مصرى يسمى نومارخس . ولكن في العصر البطلمى رأينا تطوراً أدخل على نظام الوظائف في الدوموس ، فأصبح يحكمها قائد ذو صبغة عسكرية يسمى إستراتيجوس strategos ، والذى كان الحاكم الفعلى للنوموس

فهو قائد الحامية العسكرية وهو المشرف على إدارتها وشئونها المالية وربما كانت له اختصاصات قضائية أيضاً . وكان الاستراتيجوس دائماً من الإغريق . ووجد إلى جانبه موظف يسمى نومارخس ولكنه يختلف عن الموظف الذى حمل لقب ذاته زمن الإسكندر . فالنومارخس البطلى موظف محدود السلطة والإختصاصات ومردوس للاستراتيجوس . وكان أهم اختصاصاته وهو الإشراف على الأعمال العامة وأرض الملك .

وكان يشغل هذا المنصب عادة أيضاً يونانيون وإن شغلها أحياناً مصريون . ومن أهم الموظفين الذين وجدوا فى النوموس إلى جانب الاستراتيجوس هو الكاتب الملكى « باسيليكوس جراماتيس basilikos grammateus » وهو بمثابة السكرتير العام للنوموس . وتكاد جميع أعمال النوموس تمر بين يديه فى طريقها إلى الاستراتيجوس أو من الاستراتيجوس إلى الموظفين الآخرين . ومن أهم اختصاصاته التقارير الإحصائية والسجلات وجميع الأعمال المتعلقة بالضرائب . عدا هؤلاء الموظفين وجد ثلاثة موظفين أغريق هم « إبيستاتيس النوموس » (أى المراقب) ومختص بشئون القضاء المحلى ، ورئيس الشرطة « إبيستاتيس الحراس » ، ومشرف مالى إبيميليقيس epimeletes يعاونه مدير مالى oenonomos .

كانت النوموس تنقسم بدورها إلى مناطق تسمى توبوس أو توبارخيا (Topos, toparchia) ، ثم تنقسم التوبوس إلى قرى كومي Komé . وكان لكل قسم من هذه الأقسام موظفوه . فكان توبارخس يرأس التوبوس ، ويرأس الكومي كومارخس . وكانت إدارة هذه الأقسام الإدارية تعتبر صورة مصغرة من إدارة النوموس . فقد وجد فى التوبوس كاتب أو سكرتير يسمى توبوجراماتيس (topogrammateus) وفى القرية كاتب القرية أو ساربرها

كوموجراماتيوس (Komogrammateus)، وكذلك مدير مالى (Oeconomos) ومراقب (epistates) فى كل من التوبوس والكومى^(١).

اللدن اليونانية فى مصر البطلمية^(٢):

يجب أن نذكر فى ختام هذا الفصل كلمة عن نظام اللدن اليونانية التى وجدت فى مصر. نظام المدينة (Polis) كما عرفه الإغريق يعنى أن يكون للمدينة كيان سياسى مستقل، وبعبارة أخرى تكون دولة صغيرة فى الإصطلاح الحديث. وقد ألف الإغريق القدماء هذا النظام بحيث أنهم لم يتصوروا وجوداً للمجتمع الإنسانى خيراً من نظام دولة المدينة، ولهذا أوجدوا لأنفسهم مدناً بهذا الشكل حيثما تجمع منهم عدد يكفى لإنشاء مدينة. هكذا فعلوا فى وطنهم الأصلى وهكذا فعلوا حين هاجروا خارج وطنهم واستقروا على سواحل البحرين الأبيض للتوسط والأسود بحثاً عن الرزق فى القرنين الثامن والسابع ق. م. وكانت ثيراطس أول مدينة أسسها الإغريق فى مصر فى الجزء الأخير من القرن السابع ق. م. ولما حضر الإسكندر إلى مصر أسس الإسكندرية فى عام ٣٣١. بعد ذلك زاد بطليموس الأول عليها مدينة ثالثة هى بطلمية فى أعلى الصعيد المصرى.

ووجدت مدينة رابعة عرفت باسم پريتونيوم (Paratonium) عند

(١) أنظر Bevan, Egypt, pp. 142 ff.

(٢) أنظر Jequier, La Vie Municipale dans L'Egypte Romaine, A.H.M. Jones- Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 302 ff.

ودكتور إبراهيم نصحي: مصر ومصر البطلمية، ص ٢٦٧ وما بعده.

M.A.H. el Abbadi The Alexandrian Citizenship, Journal of Egyptian Archaeology, 48 (1962) pp. 106—123.

موقع مدينة مرمى مطروح الحالية . ولكننا لا نكاد نعرف شيئاً عن نشأتها أو تاريخها في عصر البطالة ، ونسمع عنها لأول مرة في العصر الروماني باعتبارها مدينة يونانية معترفاً بها .

يتضح من ذلك أن البطالة لم يتوسعوا في سياسة إنشاء المدن اليونانية المستقلة في مصر ، ولم يكن في ذلك غرابة منذ أخذوا بمبدأ حكم مصر حكماً مطلقاً ، مما قد يتعارض مع وجود المدن المستقلة بكثرة . ومع ذلك فإن المدن الثلاث التي لدينا عنها بعض المعلومات تحت حكمهم لم تكن مستقلة بالمعنى الصحيح ، فرغم تبجته بمظاهر نظم الحكم المحلي حسب النثل اليونانية ، إلا أن الملوك البطالة مارسوا سلطاناً قوياً مكنهم أن يجعلوا هذه المدن تدير على نحو يتفق وسياسة البطالة في الحكم المركزي المطلق .

أما عن نظم هذه المدن ، فكان لكل منها هيئة من المواطنين يتمتعون بمواطنة المدينة (politeia) . وفي الأسكندرية وبطلمية انقسم مجموع المواطنين إلى قبائل وأحياء (Phylé, démos) حسب النظام الأثيني . كما كان لكل مدينة نظمها السياسية الخاصة يتمتع المواطنون فقط بحق ممارستها دون سائر الأهالي فكل مدينة هيئة من المواطنين أو الحكام ينتخبهم المواطنون من أنفسهم ، وإلى جانب الموظفين وجد مجلس لشيوخ يسمى *bonké* ، وجمعية تضم المواطنين جميعاً (نعرفها فقط في حالة بطلمية وسميت *Ecclesia*) . وعن طريق هؤلاء الموظفين وتلك المجالس التشريعية كانت كل مدينة تدير شئونها بنفسها . وأهم واجبات المستولين في المدينة هي التربية والتعليم والتموين . أما عن التربية والتعليم فقد وجد لها الجناز يوم وكان يشرف عليه اثنان من كبار الموظفين المنتخبين وهما رئيس الجناز يوم (جمناز بارخس) ومسجل الجناز يوم (كوزميتيس *Gosmaetes*) . وكذلك وجد موظفان للإشراف على التموين

وتنظيم الحياة الاقتصادية وهما المشرف على التكوين (Euthenarchos) و
والمشرف على السوق (أجورا نوموس : Agoranomus . أما الحياة الدينية
في المدينة فكان يشرف عليها موظف مختص سمي نيو كوروس Neocores . أما
رئيس المدينة أو محافظها فكان يسمى إكسجيتيس Ekegetes ، ومسئول عن
إدارة المدينة عموماً ويمثلها في المناسبات المختلفة .

وكان للمدينة اليونانية فوق ذلك قانونها ومحاكمها الخاصة بها ، وثبتت
وتمتلك القرن الثالث ق . م . أن مدينة الإسكندرية تمتعت بمثل هذا القانون
ونك الحكم^(١) ، ولا بد أن المدن الأخرى كان لها نظامها القضائي أيضاً ،
خاصة وأننا نعرف من العصر الروماني أنه لم يسمح لمواطني قرطاج وبريتوتيوم
بالزواج من المصريين ولكن يجب ألا ننظر أن هذه المدن كانت حرة في سن
قوانينها وتنظيم قضائها كما يترأى لها ، بل كانت هذه القوانين والنظم تصدر
عن الملك شخصياً وتبلى على المدن إماماً دون أن يكون لها أى اختيار .

وبما تمتعت به هذه المدن أيضاً . إن كل مدينة أقطعت بواسطة الملوك
مساحة من الأرض ألحقت بها . ويتمتع المواطنون بحق امتلاكها . وكانت هذه
الأرض أهم مصدر ليزانية المدينة .

هذه أهم مظاهر الحياة المدنية في عصر البطالة . ورغم سلطان الملوك القوي
والقيود الكثيرة التي فرضت على المدن بحيث جعلت فكرة المدينة اليونانية
ظاهرة قطعاً لا معنى لها في الواقع ؛ كان مواطنو هذه المدن شديدي الاعتزاز
بالانتماء إليها ، وكانوا يعتبرون ذلك شرفاً يفوق منزلة سائر أهالي مصر القديين
كانوا رعايا مبشرين للملك . وما من شك أن مدينة الإسكندرية كانت أهم هذه

— ١٢٧ —

للدن جميعاً ، وذلك للظروف المختلفة التي جعلت منها عاصمة الدولة وأكبر
مركز تجارى وصناعى فى العالم ، وزاد من أهميتها ومجدها وجود المكتبة
والموسيون بها . وقد اهتم الملوك بالإسكندرية وأسبغوا على مواطنيها
الكثير من الامتيازات حتى أصبحوا فى واقع الأمر أرقى وأغنى طبقة بين
سكان مصر جميعاً .

ج - النظم الاقتصادية

نظام الأراضي^(١) :

رغم جهود كبار العلماء الذين توفروا منذ نهاية القرن التاسع عشر على دراسة مصر في العصر البطلي فإن الصورة عن نظام الأراضي في تلك الحقبة لم تنضج بعد تماماً أمام أعيننا . ولا زالت دراسات البردي الحديثة تنقض الخطوط الأساسية التي كان قد توصل اليها من قبل . فمن ذلك أن المؤرخين قد درجوا في النصف الأول من القرن العشرين على تقسيم أرض مصر في عصر البطالة إلى قسمين أساسيين هما أرض الملك (*gr. basiliké*) وأرض موهوبة أو عطاء (*gr. en aphroei*) وتندرج تحت القسم الأخير أنواع مختلفة من الأرض مثل أرض المعابد والإقطاعات العسكرية والإقطاعات الكبيرة للموهوبة من الملك لكبار موظفيه . ولقد تناول بالبحث أخيراً يوهان هرمان موضوع أرض المعطاء *gr. en aphroei* وأثبت أن هذا النوع من الأرض ليس كما تصوره العلماء من قبل، وإنما هو اصطلاح *gr. en aphroei* يطلق على

(١) الدراسات الأساسية في هذا الموضوع هي :

Graefell, Hunt, and Smyly: *The Tebtunis Papyri* Vol. I, Appendix I, pp. 538-580; U. Wilcken, *Grundzüge*, Vol. I, Chapter VII, p. 271 ff. (1912); Cl. Préaux *L'Economie Royale des Lagides* (1939) esp pp. 459-513; Kestovtsoff, *Social and Economic History of the Hellenistic World*, (1953) esp. Vol. I, pp. 269-290 and Vol. II pp. 726-733. Johann Herrmann, *Zum Begriff gr. en aphroei*, *Chronique* (٢) d'Egypte, 30, (1955), pp. 95-106.

مساحات من أنواع مختلفة من الأرض (سواء من أرض للمعابد أو الإقطاعات أو الملكية الخاصة) ، وهو يعنى أن زراعة الأرض وما تُقَلِّه من محصول خاضع لإرادة الدولة ؛ ولا يجوز لصاحب الأرض أو مستغلها أن يحصر في المحصول إلا بعد أن تأخذ الدولة نصيبها ، ويكون الباقي من المحصول بحد ذلك بمثابة هبة (apheia) لصاحب الأرض ومستغلها أى أن هذا الإصطلاح يصيب محصول الأرض وليست الأرض ذاتها .

هذا مثال واحد يدل على مدى الأناة والهيطة التي يجب أن نأخذ بها أنفسنا في دراستنا لمصر في هذا العصر . ومع ذلك فيمكننا أن نحمل القول في موضوع نظام الأراضي فنقول أن سياسة البطالة في هذا المجال كان يوجهها عاملان : الأول هو العمل على بناء دولة قوية اقتصادياً تحت حكمهم للملك المطلق ؟ والثاني هو إقامة صدد كبير من الإغريق الذين حضروا إلى مصر وكانوا العنصر الأساسى في بناء جيشهم وإدارتهم للبلاد . وبطبيعة الحال نفذت هذه السياسة على نحو يتلاءم وظروف مصر وتقاليدها وعلى هذا الأساس تظهر لنا الوثائق أن هذه السياسة قد تم تطبيقها منذ منتصف القرن الثالث ق.م ، وأن أرض مصر كانت تنقسم إلى الأنواع التالية :

- ١ - أرض الملك .
- ٢ - أرض المعابد .
- ٣ - إقطاعات للوظفين .
- ٤ - إقطاعات العسكريين .
- ٥ - الملكية الشخصية .
- ٦ - أرض المدن .

ولذلك الآن كلمة مختصرة عن كل من هذه الأنواع :

١ — أرض الملك (ge basilike) :

لقد أخذ البطالة في مجال السياسة الاقتصادية صوماً مبدأ ملكية الدولة ممثلة في شخص الملك ولهذا كانت أرض الملك تحتل الرقعة الكبرى من الأرض الزراعية في مصر ، وقد تكونت أصلاً من أملاك القصر الملكي في العصر الفرعوني التي آلت إلى الملك البطلمي ، وكذلك من أراضي الأمراء المصريين السابقين . ويضاف إلى ملكية الملك جميع الأراضي التي هجرها أصحابها أو شقت عنها الملكية لأي سبب من الأسباب . مجموع هذه الأراضي كانت تتبع شخص الملك ويديرها موظفوه نيابة عنه ، ويقوم بزراعتها طبقة ضخمة من الزارعين يطلق عليهم اسم « فلاحو أو مزارعو الملك » *ge basilikoi* . وفي بعض الأحيان كانت أرض الملك تؤجر لهؤلاء المزارعين نظير إيجار عيني يؤخذ من محصول الأرض ، وذلك بموجب عقد يمدد لمدة محددة بين المزارع ومثل الملك من الموظفين . ونظراً لأن الشروط التي تضمنها هذه العقود كانت مجحفة بالزارعين ، فكثيراً ما عجزوا عن تنفيذ شروط العقد ولجأوا إلى الفرار من الأرض (*anachoreia*) . وأحياناً اتخذ هروبهم شكلاً اللجوء إلى المعابد بأن يهب الفرد نفسه لخدمه الإله ، وفي هذه الحالة لا تستطيع سلطة الدولة أن تناله بسوء ، احتراماً لحق المعابد في الحماية .

٢ -- أرض المعابد (en hiera) :

كان المعابد قديماً ، كما أصبح للتكنائس والمساجد فيما بعد ، أملاك خاصة وكانت المعابد المصرية الكبرى واسمة الثراء نتيجة لما تجمع لها من هبات الملوك وأوقاف الأفراد على مر القرون . وقد لاحظ كلهم مينيس وزير مالية الإسكندر في مصر ضخامة أملاك المعابد في مصر وحاول أن يضعف من مركزهم المالي . وما كان البطالة ليتروا صيداً ثميناً مثل هدادون الإفاضة منه . وقد لجأ البطالة إلى سلب الكهنة سلطة السيطرة على أملاك المعابد .

ووضعوا هذه الأملاك تحت إشراف الدولة المباشر . فكانت الدولة هي التي تقوم باستغلال الأراضي أو تأجيرها وتجيى عنها الإيجارات والدخول المختلفة بدلا من المعابد ، نظير أن تنفق هي على المعابد والكهنة . وفي هذا المجال أيضا كانت المعابد تجيى ضريبة خاصة من أصحاب مزارع الكروم والفواكه والخضروات تسمى *apsmouira* وتقدر بسدس المحصول مقابل خدماتهم الدينية . وفي عام ٢٦٤ ق م . قرر الملك بطليموس الثاني أن تحول حصيلة هذه الضريبة إلى حساب عبادة زوجته الملكة أرسنوى فيلادلفوس . ومنذ هذا التاريخ انتقلت حصيلة هذه الضريبة من أيدي الكهنة إلى خزينة الدولة أصبح للدولة حق التصرف فيها كما تشاء . ورغم أن الملك استمر يمنح المعابد هبات سنوية مختلطة ، فإن بعض وثائق البردي تثبت أن بعض إيرادات الدولة من هذه الضريبة كان ينفق بواسطة الدولة في أغراضها الخاصة وليس للأغراض الدينية^(١) . رغم هذه السياسة التي كان يطالبها التضييق المالي على المعابد ، فإن هبات الملوك السنوية كانت سخية عادة . كما أن المعابد وبعض الكهنة تمتعوا بإعفاءات مختلفة من الضرائب تثقل كاهل المصريين .

٣ — إقطاعات الموظفين (*gé on dorée*) لجأ البطالة في مسالة رجال الحكومة من الناحية المالية إلى عادة إقطاعهم مساحات من الأرض بدلا من منحهم مرتبات نقدية منتظمة . وكان لهذه السياسة فائدة مزدوجة ، فهي من ناحية توفر للدولة قدراً كبيراً من العملة الفضية ، ومن ناحية أخرى كانت وسيلة ناجحة في زيادة رقعة الأرض المزروعة في مصر ، لأن هذه الإقطاعات كانت تتكون عادة من أرض بور في حاجة إلى استصلاح . على هذا الأساس كان كبار رجال الحاشية والإدارة يمنحون قطعاً كبيرة من الأرض تسمى

P. Columbia, III. 57, II 9 — 10 (250 B. C.) ; cf. P. (١) Columbia Zenon, No. 120, p. 187.

doreno . هذه الإقطاعات كانت منحة من الملك للموظف ليستغلها فقط مادام في خدمة الملك . أى أن الموظف لا يصبح بحال مالك لإقطاعه . فللملك حق استردادها متى شاء .

ويبدو أن نظام الإقطاعات هذا كان إحدى وسائل البطالة الهامة في خطة إصلاح الأراضي وزيادة رقعة الأرض المزروعة في مصر ، ويتضح ذلك جلياً من إقطاع أبولو نيوس وزير مالية بطليموس الثانى . فن أم مجموعات البردى التي عثرنا عليها من مصر البطلمية المجموعة التي تتضمن أوراق زينون وكيل الوزير أبولو نيوس والمشراف على إقطاعه في القيوم . فأوراق زينون هذا تبين أن هذا الإقطاع كان يشتمل على عشرة آلاف أرورا ، وأن الجزء الأكبر منه كان أرضاً بوراً ثم استصلحت عن طريق مد الترعة والجسور ^(١) . وقد ظل أبولو نيوس يتمتع بهذا الإقطاع الكبير طالما كان في خدمة الملك ، ثم صودر عندما فصل أبولو نيوس من الخدمة . بعد ذلك آل هذا الإقطاع إلى موظف آخر ^(٢) . ويبدو أن عدداً كبيراً من كبار الموظفين تمتع بمثل هذه الإقطاعات منذ عصر مبكر في الدولة البطلمية ، يثبت ذلك بردية الدخل المشهورة من عصر بطليموس الثانى حيث ورد فيها ذكر doreno في أما كن متعددة .

(١) توجد خريطة لهذا الإقطاع وحده إصلاحها .

P. Lille, No. 1 (259/8 B. C.) :

P. Columbia Zenon, 54; P. Cairo
Zenon No. 59745, line 65; and No. 59788.

(٢) خيم دراسات لإقطاع أبو لوليوس وتاريخه ودور زينون المعروف عليه من
M Rostovtzeff, Large Estate in the Third Century B. C.
(1922).

C. C. Edgar, P. Michigan Zenon, Introduction. (1931). Cl.
Préaux, Les Grecs en Egypte d'après les Archives de
Zenon (1947). ويتولى هذا الكتاب الأخير بحثاً بجميع الموضوع

٤ — الإقطاعات العسكرية *ge klerouchiké* و *katoikiké* أتبع البطالة سياسة الإقطاعات أيضاً في مكافأتهم للأعداد القليلة من الإغريق والأجانب الذين خدموا في الجيش البطلي . هذه الإقطاعات العسكرية كانت عادة أصغر من الـ *dorea* ، وكان يطلق عليها اسم كليروس « *Kleros* » ويسمى الشخص الذى في حوزته الإقطاع « كليروخس » (*Kleronchos*) . وكذلك اختلفت مساحات هذه الإقطاعات العسكرية حسب مراتب الجنود والضباط ، فتحسن نسمح عن إقطاعات حجمها مائة أردرا وأخرى سبعون أردرا ، وغير ذلك أقل أو أكثر .

حتى إذا كان القرن الثانى ق.م . رأينا اصطلاحاً جديداً يظهر بين من في حوزتهم إقطاعات عسكرية ، وهى الفئة التى أطلق عليها فى المصادر لفظ المستوطنين (*Katoikoi*) وأرض المستوطنين (*katoikiké ge*) وقد يوحى الاصطلاح الجديد عند النظرة الأولى بظهور طبقة جديدة ، ولكن الذى حدث أنه منذ نهاية القرن الثالث ق.م . بدأ البطالة فى استخدام المصريين بأعداد كبيرة فى جيوشهم . وعومل هؤلاء الجنود المصريون معاملة شبيهة بالجنود الإغريق ، فتحصوا إقطاعات (*kleroi*) ولكن من مساحات أصغر (خمس أو سبع أردرات) ولهذا أطلق على أصحاب هذه الاقطاعات الصغيرة من المصريين *klerouchoi* ، بينما أطلق على قرنائهم من الإغريق لفظ المستوطنين *katoikoi* .

هذه الإقطاعات العسكرية عموماً شاركت الإقطاعات الكبرى للموظفين (*Doroi*) فى صنفين : الأولى : أنها من أرض بور على صاحبها القيام بمهمة إصلاحها ، والثانية أنها منحة من الملك للجندى مدى الحياة ، ويجوز للملك استردادها متى شاء لسبب أو لآخر ، مثل وفاة الجندى الذى فى حوزته الأرض أو إذا عجز عن دفع الضرائب المستحقة عن أرضه للدولة . ومع ذلك قد

تمحلت الإقطاعات العسكرية بمرور الزمن من كونها منحة مؤقتة من الملك إلى أن أصبحت في الواقع ملكية خاصة في نهاية القرن الثاني ق. م. وقد تم ذلك على مراحل ، ابتدأت بالسماح بتوريثها وانتهت بأن عولمت بواسطة أصحابها معاملة الملكية الخاصة بالبيع والتوريث والهبة . وقد صاحب هذا التطور في وضع الإقطاعات زيادة أراضى هذا النوع ، حتى لقد لوحظ أن مساحة الأرض التى تشغلها الإقطاعات العسكرية فى إحدى قرى الفيوم كانت ١٠٤ أردرا تقريباً فى سنة ٢٢٠ ق. م. وأصبحت ١٥٨١ أردرا تقريباً فى سنة ١٠٨ ق. م.^(١) هذه الزيادة كانت عادة على حساب أرض الملك ، وتنتهى فى كثير من الأحيان إلى أن تصبح ملكية شخصية كما أوضعنا^(٢).

٥ — أرض الملكية الشخصية (*gé idiukteta*). لازالت نشأة الملكية الشخصية للأرض فى العصر البطلمى موضع خلاف بين المؤرخين . فمنهم من يرى أنها نشأت ونمت تحت حكم البطالمة ومنهم من يرى أنها كانت موجودة من قبل منذ العصر الفرعونى. والأرجح فيما يبدو الآن أن الملكية الشخصية كانت موجودة عندما حضر البطالمة إلى مصر . واستمرت ونمت تحت حكمهم . وقد ساعد على نموها عاملان : الأول هو تحول الإقطاعات العسكرية إلى ملكية شخصية كما بينا سابقاً . رغم أن سياسة الدولة لم تهدف إلى ذلك أصلاً . أما العامل الثانى فكان نتيجة لبعض مشاريع إصلاح الأراضى البور التى انتهجها البطالمة. وهى التى تعرف بنظام *emphyteusis* . وبجمل هذا النظام^(٣) أن الدولة — تشجيعاً

A. Segré *Sul politeuma et l'opigoni in Egitto, Aegyptus*, (١) 3 (1932) p. 145, No. 1.

(٢) يجب الاحتياط فى تطبيق هذه النتيجة على سائر أجزاء مصر، لأن المثل الذى قدمناه مأخوذ من قرية كركبو زيريس فى الفيوم ، ومنطقة الفيوم لها وضع خاص ، لأنه يبدو أن الإقطاعات الجبلية كانت فى الفيوم أكثر من غيرها من مناطق مصر .

P. Tebtunis, 1, 5, lines 93—98 (118 B. C.) = Wilcken, (٢) Chrestomathie No. 339.

لاستثمار الأموال في الزراعة — كانت تعفى زراع الكروم والفاكهة في الأرض البور من الضرائب في الخمس سنوات الأولى ثم تجبي منهم ضرائب مخفضة في الثلاث سنوات التالية ، وبعد ذلك تجبي الضرائب كاملة ، وقد نص قانون خاص بهذا النظام على منح للمواطنين من أهل الإسكندرية إمتيازاً خاصاً وهو تتمتعهم بالضرائب الخفيفة ثلاث سنوات. زيادة على غيرهم من سائر السكان . والسبب في هذا الامتياز اقتصادى بحث ، لأن الإسكندرية كانت أكبر مركز للصناعة والتجارة ، وكان الإسكندريون تبعاً لذلك أقدر سكان مصر على بذل المال في إصلاح مثل هذه الأراضي .

نتيجة لمثل هذه اللشروعات التشجيعية ، وكذلك بسبب تحول الإقطاعات العسكرية بالتدريج إلى ملكية خاصة ، زادت أرض الملكية الخاصة في مصر كثيراً في نهاية القرن الثانى ق . م . ويبدو أن هذه الزيادة كانت تطورا طبيعياً لظروف القرنين الثالث والثانى ، ولم تكن سياسة مقصودة من قبل البطالمة . خلق طبقة من ملاك الأراضي ليستعمل أفرادها في القيام بالعمل الجبرى في الإجارة (*hecturgia*)^(١) بل على العكس من ذلك ، لعل نظام العمل الجبرى في الإدارة كان نتيجة ورد فعل لوجود طبقة كبيرة من أصحاب الأملاك .

٦ — أرض المدن (*gé-politiké*) تقضى تقاليد المدن اليونانية ، أن كل مدينة يجب أن يتبعها أيضاً مساحة من الأرض الزراعية . ولدينا من الأدلة ما يثبت أن للمدن اليونانية في مصر تمتعت بمثل هذا النظام . فكان لمدينة بطلمية التى أنشأها بطليموس الأول في صعيد مصر أرض خاصة سميت

(١) كما يذكر Rostovtzeff, *Kolonat*, p. 81 ; and *Social and Economic History of the Hellenistic World*, I, p. 290.

ويجب الدكتور إبراهيم نصحى هذا رأى أيضا و تاريخ الحضارة المصرية . الجزء الثانى ص ٥٤ .

(*ex politiké*)^(١)، أما في حالة الأسكندرية فسميت «أرض الأسكندريين» (*Alexandreon chora*)، ويبدو أنه الإسكندر الأكبر هو الذي منح الأسكندرية هذه الأرض^(٢). ومعلوماتنا عن أرض المدن تدل على أنها كانت ملكيات خاصة في أيدي الأفراد من مواطني المدن، وأنها في حالة الأسكندرية تمتعت بإعفاءات وامتيازات مختلفة فيما يتعلق بالضرائب^(٣).

. . .

تعليق على نظام الأراضي :

ليت لدينا الإحصاءات الكافية لنعتقد بمقارنة بين نسبة الأنواع المختلفة من الأرض ومجموع الأرض الزراعية في مصر، ثم نبين تطور كل نوع بالزيادة والنقصان، ودلالة ذلك من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ورغم أن ما وصل إلينا من معلومات لا تسمح لنا بالقيام بمثل هذه الدراسة، إلا أنه قد أمكن استخراج بعض الإحصاءات القيمة من وثيقتين برديتين من قرية في الفيوم تسمى كيركيور يريس في عام ١١٨ — ١١٩ ق. م. ونحن نورد فيما يلي هذه الإحصائية لأهميتها^(٤)، مدركين أنها لا تمثل سوى ظروف الأرض في زمام تلك القرية في ذلك التاريخ. وأنه لا يجوز التعميم من هذا المثال على ظروف مصر البطلمية عموماً إلا بعد توافر الأدلة على التشابه.

(١) P. Merton, 5 (149—135 B. C.).

(٢) أنظر وصف مساحة هذه الأرض.

(٣) أنظر : P. Columbia Zenon, 120 (229—8 B.C.); and

P. Tebtunis I, 5 lines 93—8 (118 B. C.)

(٤) هذه الإحصائية مستمدة من الدراسة للوجود في .

P. Tebtunis I, p. 538 based on nos 60—61. a.

نوع الأرض	المساحة
١ — أرض الملك	٢٤٢٧
٢ — أرض المعابد	٢٧١
٣ — الإقطاعات العسكرية	١٥٦٤
٤ — الملكية الخاصة. أرض القرية	٦٩
أرض حدائق	٢١

المجموع ٤٣٥٢

من هذا الإحصاء يتبين أن زمام تلك القرية شغلت أرض الملك أكثر من نصف مساحة الأرض بأسرها ، وأن الإقطاعات العسكرية شغلت نحواً من ثلث زمام القرية . تأتي بعد ذلك أرض المعابد ثم الملكية الخاصة التي كانت أقلها مساحة . ولكن يجب أن نذكر في ذلك التاريخ قدراً كبيراً من الإقطاعات العسكرية كان يعامل معاملة الأرض الخاصة بواسطة أصحابها .

الصناعة والتجارة .

معلوماتنا عن الصناعة والتجارة قليلة عادة ، وكثيراً ما يكتنفها الغموض والتناقض . ولقد زاد الأمر صعوبة نظام الاقتصاد الملكي الذي طبقت البطالة في مصر . فقد كان تطبيق هذا النظام يتم بدقة تامة في الخطة العامة والتفاصيل بحيث يصعب التعميم من مثال لآخر أو من الجزء إلى الكل ، لأن خطة الدولة لم تكن موحدة تجاه أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة . فرغم أن الأساس الذي قامت عليه ، سياسة البطالة هو سيطرة الدولة على اقتصاد البلاد ، فإن هذه السيطرة اختلفت درجتها بين الاختكار التام والإشراف الجزئي^(١) فمن بين

(١) آخر Cl. Préaux, l'Economie Royal des Lagides pp. 61 ff; Rostovtsoff Social and Economic History of the Hellenistic World, I, pp. 300 ff. and 381 ff.

الصناعات التي خضعت لاحتكار الدولة الكامل صناعتا أزيث والملح . وقد أمكننا أن نلم بتفاصيل نظام الاحتكار البطلمى مختلفا في صناعة الزيت عن طريق المعلومات الواردة في بردية هامة تعرف باسم « بردية قوانين الدخل للملك فيلادلفوس » (Revenue Laws of Ptolemy Philadelphus) . هذه الوثيقة تطلعنا على مدى تحكم الدولة الكامل في جميع مراحل إنتاج الزيت . فالدولة هي التي تحدد كل سنة مساحة الأرض التي يجب على كل « نوموس » (محافظة أو مديرية) أن تزرعها بالنباتات المنتجة للزيت . وكانت إدارة كل نوموس تقوم بتنفيذ أوامر السلطة المركزية حسب القرى وأحوال الأرض الزراعية بها أما عن الحبوب اللازمة لذلك فكانت الدولة تقوم بتسليمها للزراع الذين كانوا يعمدون بردها ، في نهاية الموسم من المحصول الجديد . وكانت الدولة تستولى على ربع المحصول مقابل الضريبة المستحقة لها ، أما باقى المحصول فكانت الدولة تشتريه من للزارعين بالسعر الذى يحدده الملك .

بعد ذلك تنقل المحاصيل المجموعة بواسطة ممثل الدولة إلى معاصر الحكومة المنتشرة في القرى والمدن ، علما بأن الدولة لم تسمح بوجود معاصر في ملكية خاصة ، باستثناء معاصر المعابد التي كانت تعمل في نطاق ضيق جدا وتمت إشراف دقيق من الحكومة . وعمال الزيت ، رغم أنهم كانوا عمالا أحرارا من الناحية القانونية أى ليسوا رقيقا ، إلا أنهم يتبعون الحكومة ومزموون بالعمل في معاصرها حسب الشروط التي تملها عليهم . بعد ذلك يخرج الزيت من المعاصر إلى جوانيت معينة في المدن والقرى مرخص لها ببيع الزيت بأسعار تحددها الدولة على نحو يحقق لها الربح الوفير .

لم يطلق البطالمة سياسة الاحتكار هذه على جميع الصناعات ، ففي أحيان أخرى اكتفت الدولة بأن يكون لها مصانعها ، وسجعت بوجود مصانع خاصة

تعمل تحت إشرافها فقط . نلاحظ تطبيق هذه السياسة في صناعة النسيج من الكتان والصوف . فصناعة المنسوجات الكتانية التي اشتهر بإنتاجها المصريون القدماء منذ العصر الفرعوني، واستمروا كذلك في العصر البطلمي . ورغم أن تفاصيل سياسة البطالة حيال هذه الصناعة تعوزنا ، فن الواضح أنه وجدت ثلاث شعب أو قطاعات لإنتاج الكتان : القطاع الأول هو النسيج الذي كان يتم نسجه في مصانع الحكومة ، والقطاع الثاني هو نسيج للعابد والقطاع الثالث هو نسيج الأفراد من أصحاب المصانع الخاصة والذي كان ينسج في المنازل . وسمح البطالة للقطاعات الثلاثة بالعمل ؛ وكان القطاع الحكومي يعمل على أسس شبيهة بأسس العمل في احتسار الزيت . وفوق ذلك كانت الحكومة تفرض على للعابد والأفراد أن يقدموا لها في كل عام كمية معينة من المنسوجات الكتانية المختلفة ، حسب مواصفات معينة . وعدا ذلك فكانت مصانع للعابد والأفراد حرة في إنتاجه وبيعه وتصديره أيضاً إلى خارج البلاد^(١) .

أما عن صناعة الصوف فقد ازدادت أهميتها في العصر البطلمي بسبب وجود الإغريق الذين اعتادوا لبس الصوف بمكس للصريين الذين ألفوا لبس الكتان ونحن لانعرف مدى تدخل الحكومة البطلمية في صناعة الصوف ، ولكن الأرجح أنها كانت أكثر حرية من صناعة الكتان، أي أن مصانع الحكومة لم تكن واسعة الانتشار ، وأن الإنتاج الخاص لم يكن خاضعاً لرقابة الدولة الشديدة^(٢) .

(١) أم وثيقة من الكتان .

P. Tebtunis, 111, 703 (Late Third century (B. C.).

(٢) من الوثائق الهامة التي تعلق بتجارة الصوف في العصر البطلمي .

P. Enteuxois, No. 2, Magdola (216-217 B C); and No. 3, also of Préaux, Économie Royale, pp. 96 ff.

ومن الصناعات الهامة التي كانت مصر مركزها الوحيد في العالم القديم صناعة الورق من نبات البردى . فقد كان للمصري القديم فضل سبق إلى اختراع الورق من البردى وإتقان صناعته ، وبقي المنتج الوحيد له حتى اختراع مادة الورق المستخدم الآن في بداية المصور الوسطى . لذلك كان لابد أن يستفيد البطالة من هذه السلعة ذات الأهمية العالمية . أما من حيث إنتاجه ، فيبدو أنه بقي إنتاجاً مختلطاً : فكانت مصانع الحكومة تنتج نوعاً من البردى يعرف باسم *basilika* والمعبود تنتج نوعاً آخر يسمى *hieratika* ، والأفراد ينتجون نوعاً أطلق عليه اسم « *idiotika* »^(١) . ورغم أن الدولة سمحت بالإنتاج الحر ، إلا أنها فرضت رقابة شديدة لحماية إنتاجها ، وكانت تفرض على الموزعين أن يقتصروا على الشراء من مصانع الحكومة ولا يستعملوا ما ينتجه الأفراد^(٢) . ومعنى هذا أن البطالة أقاموا احتكاراً جزئياً لإنتاج البردى وتوزيعه الداخلي في مصر . أما عن تصدير البردى للعالم الخارجى ، فيبدو أن بطليموس الثانى فيلادلفوس قد أخضعه لسيطرة الدولة التامة ، وأن الملوك من بعده اتبعوا سياسته^(٣) .

إلى جانب هذه الصناعات ازدهر في مصر البطالية عدد من الصناعات الأخرى مثل الزجاج والفخار والخمور والمطور والتوابل وصناعة الفنون الصغيرة ولكن المقام لا يسمح بالإفاضة في الحديث عنها هنا . كما أننا لازلنا في حاجة إلى مزيد من المعلومات عن موقف البطالة منها .

أما عن التجارة الخارجية فمعلوماتنا عن سياسة البطالة حيالها قليلة بحيث

(١) خبر دراسة عن صناعة البردى من كتاب :

N. Lewis, l'Industrie du Papyrus.

P. Tebtunis, III: 709 (159 B.C.)

(٢) أنظر :

G. Glotz, le prix de Papyrus, Bull. Soc. d'Arch. : أنظر :

d'Alexandrie (1930), ff.

ترك على ألسنتنا أسئلة كثيرة بغير جواب مقنع. فإذا كانت الأدلة قد أخضعت تصدير البردى لسيطرتها التامة، فنحن لانعرف مدى احتكار الدولة لأهم صادرات مصر وهو القمح، ولكن من المتوقع أن البطالة الأقوياء الأول تمحكوا في جزء كبير من تجارة القمح الخارجية نظراً لأنه كان السلعة الأساسية مع البردى التي كان البطالة يحصلون نظيرها على ما يحتاجون إليه من فضة وحديد وخشب ومع ذلك فهناك دلائل تكشف عن ازدياد نشاط الأفراد في تصدير القمح حينما ازداد ضعف الدولة في القرن الأخير من تاريخها^(١).

إذا كنا نناقش مدى تحكم الدولة في تجارة بعض السلع مثل القمح والبردى فإن هذا لا يعني أنه لم توجد تجارة خارجية حرة. فهناك من الأدلة الكافية ما يثبت وجود تجارة خارجية حرة تحت سيطرة البطالة قام بها أفراد من رعايا الدولة إلى جانب تجار أجانب. وأن هذه التجارة شملت البعيرين الأبيض المتوسط والأحمر.

ففي حوض البحر الأبيض المتوسط عثر على عدد من النقوش التي تثبت وجود علاقات تجارية حرة بين الأسكندرية وجزيرة ديلوس^(٢) التي خلفت جزيرة رودوس كأكبر مركز للتبادل التجاري في البحر الأبيض. وعما يدل على أهمية التجار الأجانب الذين حضروا للتجارة في مصر هذا البيان للملكي الذي أصدره نيلا دلفوس يأمر فيه جميع التجار الأجانب بوجوب استبدال ما يوجد معهم من عملة أجنبية ذهبية أو فضية بعملة فضية بطلمية جديدة ليستخدموها في

(١) أنظر Præaux, *Economie, Royale* 150; L. Casson, *Grain Trade of the Hellenistic World*, *Transaction of the American Philological Association*, 85 (1954) pp. 184 ff.

(٢) Durrbach, *Choix d'Inscriptions de Delos*, nos. 105— 6—7—8.

عقد صفقاتهم في الأسكندرية وداخل البلاد^(١). هذا البيان الملكي له أهمية مزدوجة : فهو يدل على وجود رقابة على النقد الأجنبي . كما يدل أيضاً على ان هؤلاء التجار الأجانب كانوا أحراراً في التنقل إلى داخل البلاد مما يؤكد أن الدولة لم تتدخل في تحديد نشاطهم التجاري. ولقد شملت تجارة مصر الخارجية معظم الدول المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان في الشرق وكذلك إيطاليا وشمال إفريقيا في الغرب . وكثيراً ما تكونت في الأسكندرية شركات دولية من تجار ذوى جنسيات مختلفة للقيام بتجارة عالمية. يوضح هذه الظاهرة عقد تجارى بحرى لاستيراد التوابل من شرق إفريقيا عن طريق البحر الأحمر . فأطراف هذا العقد ينتمون إلى أكثر من سبع جنسيات مختلفة . مساليا . تسالونيكا . اسبرطة ، إيليا قرطاجة روما . وآخرون يحملون أسماء إفريقية^(٢) هذا العقد البحري ينقلنا للحديث عن تجارة البحر الأحمر. هذه التجارة الشرقية كانت لها أهمية خاصة. لأنها كانت المصدر الوحيد لأنواع من السلع مثل التوابل والعاج. وكان للصريون يقومون باستيراد هذه السلع لصنعها في مصر أولاً ثم إعادة تصديرها بأسعار مرتفعة إلى مناطق حوض البحر الأبيض في الشمال. وكانت تدفع قيمة التجارة الشرقية عن طريق تصدير أنواع راقية من المنسوجات الكتانية . وقد أثبت نشاط هذه التجارة ما ذكره استرابون^(٣) من أن الأسكندرانيين كانوا يستعملون مالا يقل عن عشرين سفينة في نقل بضائهم في البحر الأحمر في العصر البطلمي. ويؤكد قول استرابون أيضاً عدد من النقوش التي عثر عليها في صعيد مصر ويثبت وجود تجارة نشطة مع الجنوب العربى . الذى كان بدوره نقطة الاتصال مع بلاد الهند

P Cairo Zenon; No. 59021 (258 b. C)

(١)

Sammelbuch, No. 7169 (II b. C.)

(٢)

Strabo, 2, 5, 12 (C. 118); and 17. 1. 13. (C. 798).

(٣)

الحياة الثقافية

من الصفحات للشرق في تاريخ الأسرة البطلمية اهتمامهم البالغ يجعل
الأسكندرية مركزاً ثقافياً عالمياً . ولقد نجحوا في تحقيق ذلك بسرعة وعلى
نحو أثار إعجاب المهتمين بتاريخ الحضارات قديماً وحديثاً . فقد عصر مبكر من
حكمهم وجدنا الأسكندرية تنتزع مركز القيادة الثقافية في العالم اليوناني من
أثينا . أما الخطوة التي انتهجها البطالمة في سبيل تحقيق هذه الغاية فهي إنشاء
دار خاصة للدراسة والبحث أطلقوا عليه اسم « اللوسيون » (Museion ،
ومعناها دار زبات الفنون) وألحقوا بها مكتبة كبيرة جهزوا فيها الكتب
بكيات هائلة وبدلوا في سبيل ذلك بسخاء^(١) .

ويرجع الفضل في تأسيس اللوسيون مكتبة الأسكندرية إلى بطليموس
الأول سونير الذي عهد إلى الفكر والسياسي الأثيني ديمتريوس الفاليري بمهمة
التصميم والتنفيذ .

ولم يأل الملوك البطالمة بعد ذلك جهداً في جلب العلماء إلى اللوسيون
والكتب والمخطوطات الأصلية من جميع أطراف العالم اليوناني . حتى يقال
إن عدد لفائف البردى التي دوت عليها الكتب قديماً بلغ ٧٠٠.٠٠٠ وهو
قدر لا يستهان به ، فلم تبلغه بعد مكتبات بعض جامعاتنا الحالية . ولم تقتصر هذه
المكتبة على المصنفات اليونانية بل شملت كثيراً من الكتب غير اليونانية مثل
المصرية والعبرية والآشورية والفينيقية وغيرها . وإذا كانت المكتبات الحديثة
الكبرى في العالم تقوم الآن بتصوير الكتب النادرة وترسلها لمن يشاء من

(١) انظر E.A. Parsons: The Alexandrian Library [1952].

العلماء ، فقد قامت مكتبة الإسكندرية بمهمة نسخ المخطوطات التي لديها وكانت تباعها للأفراد في مصر وتصدرها إلى مراكز الثقافة اليونانية المختلفة وكذلك إلى روما فيما بعد . وبعد بناء معبد السرايوم في العي للمصرى بالإسكندرية ألحقت به مكتبة أخرى .

وهكذا أصبح لدى علماء الموسييون مكتبتان حوتا معظم تراث الإنسانية حينئذ . وأفاد العلماء من هذه القرص الثقافية الماثلة ، فأقبلوا على الإسكندرية من كل موطن إما للانضمام إلى عضوية الموسييون أو للدراسة والإفادة من مكتباتها الفنية . وإذا بأشهر شعراء العصر يجتمعون في الإسكندرية من أمثال كاليماخس ونيوكراتوس وأبولونيوس الرودوسي ، وقامت بينهم المماركة الأدبية والتفدية المشهورة (بين القديم والجديد) . وأصبح لزائما على كل مثقف في العالم أن يلم بتطور الإنتاج الأدبي في الإسكندرية ، حتى أطلق على الأدب اليوناني بأسره في هذه الحقبة اسم الأدب الإسكندري ، وذلك لشدة تأثير مدرسة الإسكندرية على الإنتاج الأدبي في العالم في ذلك الوقت ، بما في ذلك أدباء اللانين في روما الذين كانوا يحاكون نماذج الأدب اليوناني في الإسكندرية .

ولا نبالغ في شيء إذا قلنا إن أسس المدرس الأدبي على أسس علمية قد أرسيت في الإسكندرية أيضا . فقد توفر علماء الموسييون والمكتبة على نماذج الأدب اليوناني الراقية درسا وبحثا ، يقارنون بين المخطوطات والقراءات المختلفة وكانت لهم جهود قيمة في تحقيق ونشر ملاحم هوميروس وتاريخ هيرودوت وأعمال شعراء أثينا الكبار .

ولم يقتصر نصيب الإسكندرية في بناء الحضارة الإنسانية في ذلك الوقت على الشعر والأدب بل قامت بها حركة علمية نشطة خلطت بلوم الرياضة

والمهندسة والفلك والطبيعة خطوات هائلة ، كانت أسس الحركة العلمية العربية في العصور الوسطى وأسس النهضة العلمية الاوربية الحديثة . ويكفى أن نذكر أن إقليدس العالم الرياضى والمهندس ، وأرشميدس صاحب قانون الطفو وإراتوستينس صاحب المحاولة الكبرى لقياس محيط الكرة الأرضية كانوا جميعاً من علماء الاسكندرية في العصر البطلمى .

مراجع العصر البطلمي

- H. I. Bell;— *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest* 1948.
- وتوجد ترجمتان باللغة العربية ، قام بالأولى الدكتور محمد عواد حسين والدكتور عبد الطيف أحمد علي . وقام بالثانية الأستاذ زكي علي .
- *Culte and Creeds in Greco—Roman Egypt*, 1953.
- E. Bevan : *A history of Egypt under the Ptolemaic Dynasty*, 1927.
- A. Bouché — Leclercq : *Histoire des Lagides*, 4 Vols, Paris 1903—1907.
- P. Cloché *la Dislocation d'un Empire (les premiers successeurs d'Alexandre le Grand)* 1959.
- R. M. Cook : *Amasis and the Greeks in Egypt*, *Journal of Hellenic Studies* (1936) p. 227 ff
- P. G. Elgood : *The ptolemies of Egypt*, 1938.
- P. Jouguet : *l'Egypte Ptolemaïque (dans G. Hanotaux, Histoire de la Nations Egyptienne, tome III)*
— *L'imperialisme de l'Orient (édition révisée)* 1961.
- Helene J. Kantor: *The Aegean and the Orient in the second Millennium B. C.* 1947.
- J. Lesquier : *Les Institution Militaires de l'Egypte sous les Lagides*, Paris, 1911.
- J. Mallet : *Les Rapports des Princes avec l'Egypte*.
- J. D. S. Pendlebury . *Aegyptiaca: A catalogue of Egyptian objects in the Aegean Area*, Cambridge 1930.
- Cl. Préaux , *L'Economie Royale des Lagides* 1939,

- M. Rostovtzeff : — Social and Economic History of the Hellenistic World 1963.
- Ptolemaic Egypt (in Cambridge Ancient History Vol VII.)
- W. W. Tarn. : Hellenistic civilisation (Third edition, by C.T. Gaiffitt) 1952.
- Alexander the Great 2 Vols. , 1949.

وتوجد ترجمة عربية للجزء الأول بقلم الاستاذ زكي على

- J. Vercoûtter : l'Egypte et le monde egeen prehellénique Etude critique des sources Egyptiennes (du debut de la XVIIIe à la fin de la XIXe Dynastie) leCaire, 1956.

دكتور إبراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالة ، جزءان ، طبعة ثانية

» . » : دراسات في تاريخ مصر البطالية .

» . » : حضارة مصر في العصر اليوناني (تاريخ الحضارة

المصرية — المجلد الثاني) .

الاستاذ زكي على . : كليوباترة ، سيرتها وحكم التاريخ عليها .

دكتور محمد عواد حسين (وآخرون) كفاحنا ضد الغزاة : عصر البطالة .

الباب الثاني مصرفي العصر الروماني

الفصل الأول

التاريخ السيامي لمصر في العصر الروماني

(١) القرنان الأول والثاني من الإمبراطورية الرومانية

أغسطس يفتح مصر :

من العبارات الجغرافية المشهورة أن البحر الأبيض المتوسط وسية وصل لا فصل . ورغم أن هذا القول صحيح في جميع عصور التاريخ ، إلا أنه يمكن أن يقال أن الإمبراطورية الرومانية هي التي جعلت هذه العبارة الجغرافية حقيقة تاريخية بكل معاني الكلمة . لأن الحضارات السابقة للصربية والأشورية والفارسية والإغريقية كانت تشمل عادة منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ، أما روما فقد أصبحت في أن تضم جميع أقطار هذا البحر في بناء سياسي وحضاري واحد استمر فترة من الزمن تربو على السبعائة سنة فيما يعرف بالإمبراطورية الرومانية . ورغم أن تجويل حوض البحر الأبيض المتوسط إلى إمبراطورية رومانية استغرق ما يزيد على القرنين ونصف ، كانت مصر آخر قطر سقط في أيدي الرومان من أقطار هذا البحر ، عقب موقعة أكتيوم ودخول أوكتافيان (أغسطس) مصر في أو أغسطس سنة ٣٠ ق . م . ومن الغريب أن هذا العام يؤرخ في التقليد الروماني نهاية العصر الجمهوري وبداية العصر الإمبراطوري الذي يرأس فيه الدولة « رئيس » *Principa* وليس قنصلا

(Consul وتعنى زميل) كما كان الأمر من قبل . ولكن هذا التوافق التاريخي بين فتح مصر وبداية الإمبراطورية لا يتعدى كونه مصادفة تاريخية ، فقد كان من الممكن أن تسقط مصر في أيدي الرومان من قبل ولا تقوم الإمبراطورية فقد كانت بداية النظام الإمبراطوري في روما مرهونة بتفرد أوكتافيان بالسلطان بعد القضاء على ماركوس أنطونيوس . وقد حدث أن اقترن مصير مصر البطلمية بمصير ماركوس أنطونيوس وكليوباترا ، كما سبق سبق أن بينا لأن تأخر سقوط مصر البطلمية في أيدي الرومان لم يكن راجعاً لقوتها ومنعتها بقدر ما كان راجعاً لظروف روما الداخلية وظروف النزاع الحزبي بين الساترو والشعبين . ويتضح مما ذكرناه في تاريخ الأسرة البطلمية مقدار الضعف الذي وصل إليها ملوكها المتأخرون ، وأنهم منذ منتصف القرن الثاني ق.م. وهم يقتربون ويتزلقون إلى روما بشكل متزايد حتى أصبح الملك البطلمي لا يكاد يستقر على عرشه دون رضا روما ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم في الإسكندرية .

ومع ذلك فلم يكن فتح مصر بالأمر المهيمن ، لأن مصر مهمة دائماً دون نظر إلى قوتها أو ضعفها . ولعل السبب في ذلك هو أن اسمها وتراثها القديم من ناحية وثروتها الزراعية الكبيرة من ناحية أخرى تضيف عليها مجداً وأهمية خاصة . ولم يفت الفاتح الروماني أن يستغل هذه الفرصة في أسباب الدعاية السياسية ، فأصدر عملة تذكارية خاصة بمناسبة ضم مصر لسلطان روما . وقد خرجت هذه العملة تحمل صورة التمساح — أشهر الحيوانات النيلية وأحد المعبودات المصرية — وقد كتب تحته عبارة « Aegyptio capta » (١) ومعناها « فتح مصر » .

ولكن ماذا كان يعنى فتح مصر أمعناه بالنسبة لمصر ذاتها أنها لم تعد دولة

H. Mattingly: British Museum Catalogue of Coins (١).
of the Roman Empire, Vol. I. N. 650.

مستقلة تحت حكم الأسرة البطلمية في الإسكندرية، وأصبحت ولاية تتبع سلطان روما. هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الأمر أكثر خطورة، لأن روما فرضت على مصر جزية مالية وضريبة نوعية من القمح والغلة يجب أن تشحن إلى روما في كل عام. أى أن جزءاً كبيراً من دخل المصريين وإنتاجهم الزراعى كان يذهب إلى روما دون مقابل. ومن أجل هذا للعنى الاقتصادية احتفل أغسطس بفتح مصر وأصدر تلك العملة التذكارية ليزف النبأ للرومان ويشهرم أنه قد سخر لبطونهم قمح مصر.

وما كان هذا بالأمر اليسير لأننا نعرف من تاريخ روما أن من يستطيع إطعام الرومان يحكمهم ومن يفشل في ذلك لا يبقى في الحكم يوماً واحداً^(١). ولما كانت روما قد أهملت زراعة القمح في إيطاليا واعتمدت اعتماداً تاماً على استيراده من الولايات، تعتبر السيطرة على مصر — أكبر بلاد منتج القمح في الإمبراطورية — أمراً بالغ الأهمية من الناحية السياسية. ويوضح هذه الحالة قول المؤرخ الرومانى تاسيتوس، على أن (إيطاليا) لم تصب الآن بالجلب، ولكننا نفضل استقلال (شمال) إفريقيا ومصر، وأصبحت حياة الشعب الرومانى رهناً بالسفن وأحداثها^(٢).

ونظراً لأهمية مصر على هذا النحو، واشتبارها بجنوح أهلها إلى الثورة — سواء من شعب الإسكندرية أو من أهالى مقاطعة طيبة في الصعيد — كما حدث مراراً في النصف الأخير من حكم البطالمة، قد اهتم الإمبراطور أغسطس بوضع نظام دقيق لما يكفل استقرار خضوعها للسلطة المركزية في روما. وبهنا أن نحدد هنا ثلاث نقاط وهى وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية، ثم السلطة.

(١) حول أهمية تمييز روما بالذلال. أنظر D. Van Berchem les dis, tributions de blé et d'argent à la plebe romaine sous L'empire, Lenero, 1939.

Tacitus Annales, XII. 43

(٢)

العليا في مصر الرومانية، وأخيرا الحامية العسكرية (سنتحدث عن سائر النظم الإدارية في فصل مستقل). ولإيضاح هذه النقاط الثلاث نورد بعض النصوص القديمة التي تصف وضع مصر الجديد كما عينه الإمبراطور أغسطس :
أولا : استرايون : وقد زار مصر عقب الفتح الروماني مباشرة وكتب في عهد الإمبراطور أغسطس نفسه يقول :

« لقد أصبحت مصر الآن « ولاية » (Eparhia) تدفع جزية ضخمة ، ويقوم على حكمها رجال حكماء ، وهم الولاة الذين يرسلون إليها تباعاً . ويحتل (الوالى) القى يرسل إليها مكان الملك . . . وهناك ثلاث فرق من الجنود . واحدة منها تقيم في المدينة (الأسكندرية) ، والأخريان في سائر القطر ، وإلى جانب هؤلاء توجد تسع سرايا رومانية ، ثلاث منها في المدينة (الأسكندرية)، وثلاث على الحدود الإثيوبية في أسوان- كحامية لتلك البقاع، وثلاث في سائر القطر. وهناك كذلك ثلاث وحدات من الفرسان معينة في مناطق الخطر أيضا»^(١)
ثانياً : تاكيثوس : أعظم مؤرخ روماني . امتدت حياته بين عام ٥٥ وعام ١١٥ ميلادية أو بعدها بقليل ، وتدرج في سلك الإدارة الرومانية حتى تولى منصب بروقنصل والياً على آسيا الصغرى . وبفضل حياته الإدارية كان مطلماً على الوثائق الرسمية ، ومن ثم أهمية كتاباته ، كما امتاز بدقة التعبير . والإيجاز إلى درجة ملفزة في بعض الأحيان . وقد وصف وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية بهذه العبارة :

« حكم مصر وقوات الاحتلال بها ، منذ زمن أغسطس للؤلّه ، أفراد من طبقة الفرسان الرومان ، شغلوا مكان اللوك . فقد رؤى أن من الأصلح أن يبقى للإمبراطور أمر ولاية (Provincia) يصعب الوصول إليها، وغنية في القمح»^(٢)

Strabo. 17. 1. 12.

(١)

Tacitus, Ann. 1. 11.

(٢)

ثالثاً : ديون كاسيوس : عاش في النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث ؛ وتدرج في تلك الوظائف الرومانية حتى تولى منصب القنصلية للمرة الثانية سنة ٢٢٩ : وكتب تاريخاً لروما احتمله من المصادر المعاصرة القديمة . وقد وصف النظام الذى فرضه أغسطس على مصر في هذه الفترة للشهورة :

« ومنذ ذلك الوقت جعل (أغسطس) مصر تدفع الجزية ، وعين عليها جالوس كورنيليوس . ونظراً لكثرة عدد السكان سواء في المدن أو في الريف ، ولسرعة وجدة طلباتهم ، وكذلك لوفرة غلاتها وثرائها ، يمنع أعضاء مجلس السناتو أن يدخلوا مصر لأى سبب كان أو الإقامة بها ، إلا بعد الحصول على إذن خاص منه . وزفص السماح لأفراد هذا الشعب (أى المصريين) أن يصبحوا أعضاء في مجلس السناتو في روما . وبعد ذلك تناول أموراً أخرى كلاً على حدة ، فظهر الأسكندرانيون أن يدبروا شئون مدينتهم دون مجلس تشريعى (*boulé*) ؛ فقد كان يعرف مدى جنوحهم إلى الثورة .

هكذا كانت النظم التى وضعت لهم ، وقد بقي محافظاً عليها الآن ، إلا أنه قد أصبح لهم مجلس تشريعى *boulé* في الأسكندرية منذ عهد الإمبراطور سيفيروس ؛ وبدأوا يسجلون للمضوية في مجلس السناتو في روما ، لأول مرة في عصر ابنه أنطونينوس^(١) .

هذه هى أهم المصادر التى تصف مصر ووضعها الجديد عند الفتح الرومانى ولنبداً الآن في تحديد النقطة الأولى ونهى وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية ، ولقد أثار للؤرخون المحدثون حول هذا الموضوع جدلاً كثيراً ، محوره هل أصبحت مصر ولاية رومانية ، أو أن أغسطس جعل لها وضعاً خاصاً أشبه ما يكون

بالمسكية الشخصية للإمبراطور^(١). وقد حاول أصحاب الرأي الأخير أن يجدوا مبرراً لوجهة نظرهم في أن أغسطس قسّم حين كتب في سجل أعماله للعروف باسم أثر أقره عن فتح مصر قال « لقد أضفت مصر لسلطان الشعب الروماني » (*Aegyptum imperio populi Romani adieci*)^(٢) وأنه لم يستخدم في وصفها لفظ ولاية (*Provincia*) . ونحن لا نريد أن نخوض في غمار هذه المشكلة الجدلالية ، لاعتقادنا أن الاختلاف مبالغ فيه وأن وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية لم يكن من الغرابة بالقدر الذي يذهب إليه بعض الباحثين وأن مصر من وجهة نظر القانون الروماني كانت ولاية رومانية .

ولتبيان ذلك نقول إنه بعد أن استتب الأمر لأغسطس تمت في عام ٢٧ ق . م . ٠ م . ٠ تسوية لتنظيم الإشراف على الإمبراطورية بينه وبين مجلس السنااتو . بناء على هذه التسوية قسمت ولايات الإمبراطورية بين أغسطس والسنااتو . ونلاحظ أن الإمبراطور قد وضع تحت سلطانه الشخصي الولايات التي تمثل جبهات الحرب الرئيسية للإمبراطورية والتي بها جيوش بخاربة وهي القناة (وبها قيادة الجبهة الشمالية) وإسبانيا (وبها قيادة الجبهة الغربية) وسوريا (وبها قيادة الجبهة الشرقية) ومصر وهي ولاية جديدة ضمها أغسطس للإمبراطورية وأقام بها حامية عسكرية (وبذلك تعتبر مقراً لقيادة الجبهة الجنوبية) وبهذه الطريقة ركز في يديه السلطة العسكرية العليا لكل الجيوش الرومانية تقريباً . وهذا هو جوهر الموقف كله ، قد حرص أغسطس على أن يسلط مجلس السنااتو سلطة القيادة العسكرية . والسبب في ذلك واضح ، وهو : أن أعضاء هذا المجلس

(١) أكتفى هنا بأن أحيل القارئ إلى العرض الوافي لجميع وجهات النظر الخاصة بهذه المسألة في كتاب الدكتور عبد العظيم أحمد علي : مصر . والإمبراطورية الرومانية ، ص ٤١ - ٥٧ ، ويوجد بالمواشئ بيان بجميع المراجع والمصادر .

Res Gestae Divi Augusti, 27, 1.

(٢)

هم الذين استغلوا سلطانهم العسكري وهددوا سلامة الدولة وكيانها بالحروب الأهلية من أمثال ماريوس وسلا وبومبي وقيصر وماركوس أنطونيوس ، وخاصة الأخير الذي شن على أغسطس حرباً من مصر ذاتها قبل أن تصبح ولاية رومانية .

فصر على هذا الأساس قد اعتبرت في نظر للشرع الروماني ولايترومانية عوملت في تسوية عام ٢٧ ق . م . معاملة الولايات الكبرى الأخرى . وما ينبغي استغلال عدم استخدام لفظ *Provincia* في أثر أثيرة على أن مصر لم تكن ولاية . فكل من يقرأ نص أثر أثيرة ويدرس أساليب تسميه يدرك أن هذا الاستنتاج غير صحيح ، لأن أغسطس يستخدم في وصفه لضم بانونيا وإليريا للإمبراطورية تسميها بشيخاً بشارته عن ضم مصر ؛ ولم يشك أحد أن بانونيا وإليريا كانتا ولايتين رومانيتين .

ولم يشك أحد من المعاصرين أيضاً أن مصر كانت ولاية رومانية وإلا لما غاب عن كل من استرايرون وتاكيوس ملاحظة ذلك وكلاهما يصف مصر بأنها ولاية (*operechia provincia*) كما ورد في النصين اللذين قدمنا ترجمتهما في أول هذا الفصل . ويمكن أن نضيف إلى هذين النصين التاريخيين نصاً قانونياً يرجع إلى نهاية القرن الثاني ولكنه يصف بعض مسئوليات والى مصر على

(١) أنظر حول أموية عام ٢٧ ق . م . وسلمان أغسطس :

R Syme. *The Roman Revolution*. (1952) ch. XXII, "Principes", pp. 313—330; *Cambridge Ancient History* X. p. 128.

(٢) *Res Gestae*, 30. 1, "Pannoniorum gentes, quas ante me principem populi Romani exersitas nunquam adit, devictas per Ti. Neronem, qui tum erat privignus et legatus meus, imperio populi Romani subieci, protulique fines Illyrici ad raram flum inis Danui".

الاسس التي عهدها الإمبراطور أغسطس . هذا القانون يصف مصر بلفظ ولاية provincia^(١) .

يضع من هذا العرض أن مصر — من حيث وضعها القانوني — كانت ولاية رومانية؛ وأنها حسب تسوية عام ٢٧ ق م . كانت إحدى الولايات التي تتبع الإمبراطور . ويجب أن نذكر أن أغسطس مارس سلطانا مطلقا على هذه الولايات التابعة له ، يختار حكامها على النحو الذي يراه هو ويقيمهم في مناصبهم حسب إرادته الشخصية ، فهم نوابه وممثلوه شخصيا ومستولون أمامه فقط ، كما كان يحق له أن يصدر ما يشاء من النظم والقوانين في تلك الولايات بما يتفق وظروف كل واحدة . ولم يقتصر أغسطس على ممارسة هذا السلطان في ولاياته فصعب ، بل نجده أحيانا يتدخل تدخلا مباشرا في شئون الولايات التي تتبع مجلس السناتو ، كما حدث في قوزينة (بركة) وقبرص^(٢) . ولذلك لا ينبغي أن ينظر لسلطان السيادة الذي مارسه أغسطس في شئون مصر على أنه استثناء خاص بها .

رأينا أن أغسطس في تسوية عام ٢٧ ق م . حاول أن يضعف من شأن مجلس السناتو ، وفي الواقع كان ذلك جزءا من سياسة مقصودة تهدف إلى إضباب طبقة النبلاء الذين يمثلهم مجلس السناتو . وتحقيقا لهذا الهدف أجه أغسطس إلى العمل على زيادة أهمية الطبقة المتوسطة للعروفة باسم طبقة الفرسان equites وذلك بزيادة الاعتماد عليها سياسيا ، فوجدناه يعين

Ulpianus apud Digest. I. 17. 1 : "De officio praefecti Augustalis Praefectus Aegypti non prae deponis praefecturam et imperium, quod ad similitudinem proconsulis legi sub Augusto ei datum est, quam Alexandriam ingressus sit successor eius, licet in "provinciam" venerit et ita mandatis eius continetur".

Cambridge Ancient Hist. X. pp. 212, 214

(٢)

حكاما من بين أفراد هذه الطبقة لولاياته الجديدة، وفي الولايات القديمة، خفت الضئيل
 للتبع حتى ذلك الوقت هو تعيين الولاية من أعضاء مجلس السناتو من القناصل
 والبريتورين السابقين، نجله لا يعمل إلى تعيين ولاية من فئة بروقتنصل (أى من
 القناصل السابقين) - وهى الفئة الأرق والأكثر أهمية من الناحية السياسية
 وأكثر خطورة من الناحية العسكرية - وبمعين حتى في الولايات الكبرى مثل
 الغالة وأسبانيا وسوريا نواباً عنه من فئة البروبريتور (*legati pro praetore*)
 الأقل أهمية ومن الأمر الضعيفة^(١). وفي حالة مصر، طبق نظامه للتبع في
 الولايات الجديدة، فميين ولايتها (*praefectus*) من طبقة الفرسان (كما يتضح
 من نص المؤرخ تاكلتوس السالف ذكره: (*Ann. 1. 11*) ولكن لما كان
 لا يجوز لأفراد طبقة الفرسان - حسب التقاليد الدستورية الرومانية - أن يتولوا
 قياد جيوش مكونة من الفرق العسكرية الرومانية (*Legiones*)، والتي كان
 أمر قيادتها قاصراً على أفراد من طبقة السناتو (يحق للفرسان قيادة وحدات
 الإمدادات العسكرية *auxilia*)، فقد اتخذ أغسطس إجراء استثنائياً في حالة
 مصر فقط، بأن منح والى مصر من طبقة الفرسان سلطة الامبيرورم (*Imperium*)^(٢)
 التي تفعله حق قيادة جيوش مكونة من فرق رومانية. والنسب في اتخاذ
 هذا الإجراء غير العادى في حالة مصر هو عدم ثقة أغسطس في ولاء طبقة
 السناتو له: لقد تأمروا من قبل بقتل مصر وقتلوه، كما امتحن أغسطس نفسه
 بتجربة قاسية على يدى أنطونيوس وحليفته كليوباترا، حتى كادت من
 جرائها تتصلع الإمبراطورية بأعرجها.

ولما كانت مصر ولاية بعيدة يصعب الوصول إليها بسبب ظروف الملاحة.

(١) أنظر: R. Syme, *The Roman Revolution*, p. 326; and Cambridge Ancient History, X, p. 215.

(٢) Digest 1 47 1. وقد سبق أن أوردنا هذا نص القانون.

قديمًا وارتباطها بمواسم الرياح ، لذلك كان أغسطس يخشى أن يتمكن أحد أعضاء طبقة السناتو من اكتساب ولاء الجنود لشخصه - بحكم حقهم التقليدي في قيادة الجيوش - ويستقل بمصر^(١) ، فيحرم روما من مصدر هام للقمح ، مما قد يكون له عواقب خطيرة . من أجل هذا كان الإجراء الاستثنائي الوحيد الذى طبقه أغسطس في مصر يتعلق بإقصاء هذه الطبقة عنها . ففتح والى مصر من طبقة الفرسان سلطان الامبيريوم لقيادة الجيوش ، كما منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة في روما من دخول مصر إلا بإذن خاص من الإمبراطور شخصياً . ويوضح هذه السياسة عبارة المؤرخ تاكيوس للمعروفة التى يقول فيها : « إن من بين أصرار توطيد حكم أغسطس أنه أمّن مصر عن طريق منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة من الفرسان الرومان من دخولها إلا بإذنه ، وذلك حتى لا يصيب أحد إيطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية ، فيصمد بقوة مهما كانت صغيرة أمام جيوش عظيمة^(٢) » .

. . .

ننتقل الآن إلى النقطة الثانية في النظام الذى وضعه أغسطس لحكم مصر وهى السلطة العليا في الولاية . بالنسبة للمصريين احتل أغسطس مكان اللوك

(١) لعل من المناسب أن نذكر هنا أن لللك بطليموس الزمار كان قد أعيد إلى مرجه بمساعدة فرقة من الجيش الرومانى من رجال يومين ، وكان قائدهما هو أحد رجاله المسمى جابينيوس . ولقد بقيت هذه الفرقة في الأسكندرية . ولعل هذا هو السبب في أن يومين حاول القرار لمصر بالقات بعد هزيمة فارسالوس . ولقد حارب جنود جابينيوس ضد قيصر في حرب الأسكندرية . ولا بد أن أنطونيوس قد ترك في مصر جنوداً آخرين ، لئلا يترددون في الثورة ضد أغسطس إذا ما وجدوا لهم قائداً مناسباً . كما أن المصريين وأهل الأسكندرية لم يكونوا راضين عن الحكم الرومانى الجديد .

(٢) لاحظ أنه يستخدم هنا أيضاً لفظ *provincia* Tacitus, Ann. II. 59,

حول هذا الإجراء أنظر أيضاً : Dio Cassius 51, 17

البطالة ، أى أن الإمبراطور الرومانى أصبح ملك البلاد الرسمى ، يمثل فى شخصه كل ما تمثل فى شخص فرعون من قداسة وتأليه ، وكانت تخلف عليه الألقاب الفرعونية المألوفة . هذا من الناحية الرسمية البحتة بما يفتق وتقاليد الفكر السياسى والدينى والاجتماعى للعبرى .

أما من حيث إدارة الولاية وتولى السلطة العليا فيها فقد عين أغسطس ذلك موظفاً من طبقة الفرسان ، كما سبق أن بينا ، وهو الذى يحمل لقب بريفكتوس *prae-fectus* أى والى ، ثم منح هذا الوالى سلطاناً على مصر (*imperium*) يكافئ سلطان البروقنصل على ولايته (*imperium quod ad similitudinem proconsulis*) لهذا كان (*Iogo sub Augusto et datum est*)^(١) والى مصر يعتبر أم والى من طبقة الفرسان فى الإمبراطورية بأسرها .

وقد منح والى مصر بفضل هذا الإمبريوم سلطاناً مطلقاً فى الولاية ، حتى لم يكن أن يقال إنه مارس معظم ما كان لذلك البطلى من سلطان^(٢) ، بحيث أن جميع ما يقرره كان له قوة القانون فى مصر . ولا يحد سلطانه سوى إرادة الإمبراطور وما وضعه من نظم عامة للولاية . فقد كان من سلطة الوالى مثلاً أن يحرق العبيد ، ولكن لم يكن فى سلطانه أن يمنح أحداً حق المواطنة فى مدينة الإسكندرية ، لأن ذلك كان من سلطة الإمبراطور نفسه . وإذا عرض للوالى أمر لا يشمله ما منح من سلطان كان يرجع الى الإمبراطور شخصياً ليفور الأمر أولاً . وعدا ذلك كان له سلطة قيادة الحامية الرومانية فى مصر وأن

(١) Digest, 1. 17.1 . ويبدو أن مرادهم منح الوالى هذا السلطان الاستثنائى أن تقرر الجمعية التشريعية لروما *Comitia* ، انظر : Jones *Legacy of Egypt*, p. 288 .

(٢) أنظر : Tacitus, Ann. 1. 11, Strabo. 17, 1. 12 .
(م ١١ — إسكندر)

يستخدمها مباشرة لمواجهة أى ظرف حسب ما يترأى له ، كما كان له سلطة تعيين الموظفين وعزلهم ومحاسبتهم (عدا كبار الموظفين للعينين من قبل الإمبراطور). ومن الناحية القضائية يعتبر الوالى القاضى الأول للولاية وأحكامه نهائية . وكانت له دورة قضائية ، ليعقد محكمته فى أنحاء مختلفة من مصر فى أوقات مختلفة حتى لا يضطر الأهالى إلى أن يحضروا إلى الأبيكنندرية بأنفسهم . ومن الناحية الديفية كان يتمتع بمنزلة كبيرة واحترام عظيم من الكهنة ، وعند زيارته للمعابد يعامل معاملة تقرب من معاملة للوك . وبعبارة أخرى كان الوالى هو الرئيسى للبائس للإدارة فى مصر بكل ما فى كلمة الرياسة من معنى ، لأن الإدارة الرومانية فى مصر كما أرادها أغسطس كان تابعها للركزية إلى أقصى حد^(١) .

بقى أن نذكر كلمة أخيرة عن الحامية العسكرية الرومانية فى مصر : سبق أن بينا أن أهمية مصر الأساسية بالنسبة لروما ترجع إلى القمح والمال الذى كان يرسل سنويا إلى روما على سبيل الجزية . وإذا أضفنا إلى ذلك ما اشتهر به المصريون فى ذلك الوقت من كثرة ثورتهم وخاصة فى الجزء الأخير من حكم الأسرة البطلمية بسبب ضعف ملوكهم ؛ لذلك وجدنا أغسطس يقيم فى مصر حامية احتلال كبيرة نسبيا إذا قورنت بالحاميات الرومانية فى كثير من الولايات الرومانية الأخرى ويذكر استرابون أن هذه الحامية تكونت من ثلاث فرق وتسع سرايا وثلاث وحدات من الفرسان^(٢) . وتقدر قوة هذه الحامية بعدد ٢٢,٨٠٠

(١) خبر دراستين عن الوالى الرومانى فى مصر : O. W. Reinmub, The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletian (193d) ; and A. Stein, Die Praefekten von Egypten in der Römischen Kaiserzeit (1950).

ولمصرى مختصرا : Milne, Egypt Under The Roman Rule, pp. 122

Strabo 17: 1. 21. (٢)

جندى فى عصر أغسطس. وكانت هذه الفرق والوحدات موزعة بين الأسكندرية وسائر أنحاء القطر حسب المواقع الاستراتيجية فى البلاد، وخاصة عند الحدود الجنوبية فى أسوان. ولكن ما إن استتب الأمر للحكم الرومانى الجديد وقضى على الثورة الأولى فى عصر أغسطس حتى رأى خليفته الإمبراطور تيرىوس أن الأمر لا يحتاج إلى بقاء كل هذه الحامية الضخمة فى مصر، وقرر فى عام ٢٣^(١) سحب فرقة بأسرها، وبذلك انخفض العدد إلى ١٦٧٠٠ جندى؛ بعد ذلك فى القرن الثانى خففت هذه القوة مرة ثانية وأصبحت ١١١٠٠ جندى فقط، ومنذ تيرىوس أصبحت الأسكندرية هى المقر الرئيسى للحامية الرومانية ومن هناك كانت تصدر الأوامر للوحدات بالتحرك إلى أى منطقة فى مصر حسب الحاجة، ولم تقتصر مهمة هذا الجيش على الأعمال العسكرية بل كثيراً ما كلف أفرادها بأعمال الأمن والشرطة والإدارة وخاصة للمساعدة فى جمع الضرائب^(٢).

. . .

أما عن تاريخ مصر السياسى تحت الحكم الرومانى فهو مختلف تمام الاختلاف عن تاريخها فى عصر البطالة. فقد كانت مصر فى العصر البطلمى دولة مستقلة تسيطر على إمبراطورية، ومن ثم كان لها سياسة وتاريخ مستقل، أما فى العصر الرومانى

(١) جميع التواريخ فى هذا الفصل بلبه ملادية، ما لم ينس على غير ذلك.

(٢) أهم دراسة تمت عن الجيش الرومانى فى مصر عموماً لا زالت: J. Lesquier, L'Armée Romaine d'Egypte d'Auguste à Dioclétien. Le Caire, 1918.

ويوجد عرض مختصر جيد، J. G. Milne 'Egypt Under Roman Rule', pp. 101—114; and Bell in Camb. Anc Hist. X, p. 286—7. من المؤلفات الجديدة المهمة Abdullatif Ahmed Ali, New Light on the Roman Army in Egypt, Annals of the Faculty of Arts, Ahi. Shams University, III (1955) pp. 113—146.

فالأمم مختلف ، إذ أصبحت مصر ولاية تتبع الإمبراطور في روما ، تصدر لها التوجيهات المختلفة من روما ، ومن ثم لم يكن لمصر سياسة أو تاريخ مستقل . ومع ذلك كان لمصر تاريخ سياسى فى العصر الرومانى ، ولكن أحداثه كانت بمثابة رد فعل للسياسة الرومانية فى مصر أو بسبب اهتمام الساسة حول الحكم فى روما . ومن أهم معالم السياسة الرومانية فى مصر التى كانت من أسباب إثاره مشاعر المصريين :

أولاً موقف أغسطس وخلفاءه من الأسكندريين واليهود . فمن بين وسائل أغسطس فى إخضاع مصر القضاء على أى نشاط سياسى منظم بها ، ولذلك لم يسمح للأسكندريين أن يكون لهم مجلس تشريعى (*boule*)^(١) وذلك حتى لا يمكن لتيارات سياسية أن تظهر بينهم . وفى الوقت ذاته اتخذ من اليهود موقفاً متساهلاً ليستميلهم إليه ، فأعترف بجميع امتيازات اليهود فى مصر . وضمن لهم استمرار جميع نظمهم الخاصة التى كانت تشمل على مجلس للشيوخ (*gerousia*) يدير ويشرف على شئون الجالية اليهودية فى مصر . ولقد أوغرت هذه السياسة صدور الأسكندريين والإغريق فى مصر على الرومان واليهود معاً^(٢) . ومن ناحية أخرى فرض أغسطس على سكان مصر ضريبة رأس جديدة تعرف باسم *laographia* . هذه الضريبة فرضت على جميع المصريين باستثناء مواطنى الأسكندرية — على سبيل الاعتراف لهم بوضع ممتاز على قمة الهرم الطبقي فى الولاية . ولكن هذه الضريبة لم تفرض على الجميع بنفس القيمة ، فبينما كان الفلاحون من أهل القرى يدفعون أربعين دراهمة ، كان أهل عواصم النومات (*metropoles*) يدفعون اثني عشر دراهمة فقط . هذه الضريبة لم

(١) Dio Cassius, 51, 17.

Josephus, Jud. Ant. XIV. 7 et XIX. 5.2, and Philo, (٢)

ed. Gaius, 10.

تميز من حيث البد بين الإغريق والمصريين ، مما جعل الإغريق الذين اعتادوا للعامة للمنازة زمن البطالة ، يضيعون بها ، أما المصريون فقد كانت بالنسبة لأكثرهم باهظة جداً ، وكانت بالإضافة إلى ضريبة القمح (Annona) من أكبر أسباب إرهابهم^(١) .

وما كاد أغسطس يفاد مصر وبدأ للوظفون يجمعون الضريبة الجديدة حتى اشتعلت نيران الثورة عام ٢٩ ق.م. في أنحاء مختلفة من البلاد . في شرقنا والأسكندرية وطيبة بأعلى الصعيد. وفي الحال قام أول والى روماني على مصر كورنيليوس جالوس بإخماد الثورة في شيء من السرعة والعنف ، مما أشعر للمصريين بأن الحاكم الجديد يختلف عن الملوك للتأخرين من البطالة ، وأنه لن يضمف أمام ثورتهم. وقد اتبهن والى الجديد فرصة تأمين طيبة ليؤكد سلطان روما على الحدود الجنوبية مع جيران مصر هناك من الإثيوبيون. وبعد مفاوضات مريعة مع ممثلى هذا الإقليم ، تم الاتفاق على أن تصبح المنطقة إلى جنوب أسوان تحت الحماية الرومانية . هذا النجاح السريع جعل القروى يلعب برأس والى الروماني . فسجل أعماله في نقش مشهور عن عليه في جزيرة فيله^(٢) Philae ، وأمر بأن تقام له تماثيل على سبيل التكريم. غضب الإمبراطور أغسطس لسلك جالوس ، فعزله وأمره بالثول بين يديه ، ولكن جالوس خشى سوء العاقبة فانتحر في الحال .

(١) عن ضريبة الرأس Loographia في العصر الروماني أنظر : Wallace
Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian, (1938) pp. 116 ff.
Emanberr-Jones, = O.G.I.S. 654 = C.I.L. 14147, = (١)
I.L.S. 8995 Documents illustrating the Reigns of Augustus
and Tiberius, 2nd ed. No 24.
وتوجد ترجمة عربية للنقل كتاب دكتور عبد المنيف أحمد على : مصر والإمبراطورية
الرومانية ص ٥٩ .

بعد استتباب الأمن في مصر قام الروالي التالي بحملة إلى منطقة البحر الأحمر حتى منطقة اليمن لإخضاع القبائل العربية التي كانت متعكة في قتل التجارة بين الهند وشرق أفريقيا ومصر . ورغم أن نجاح هذه الحملة لم يكن باهراً إلا أن من نتائجها أن تحولت بعد ذلك معظم تجارة البحر الأحمر إلى شاطئه الغربي إلى ميوس هورموس (Myos Hormos) ومنها إلى ققط وبعد ذلك عن طريق النيل إلى الأسكندرية . ولكن يبدو أن انشغال الحامية الرومانية في مصر بحملة البحر الأحمر أغرت الإثيوبيين بشق عصا الطاعة ومحاولة التخلص من الحماية الرومانية . وفي عام ٢٥ ق م . عين والي جديد على مصر يسمى بترونيوس ، فقاد حملة إلى حدود مصر الجنوبية أمنت للمنطقة الإثيوبية دون عناء كبير ، وانتهت بمفاوضات مباشرة بين رسل ملكة إثيوبيا والإمبراطور أغسطس شخصياً . وقد أدت هذه المفاوضات إلى ترضية الإثيوبيين على نحو ضمن مسألتهم لروما لأمد طويل (١) .

بعد ذلك تفرغ بترونيوس لتنفيذ خطة أغسطس في إصلاح الأحوال في مصر ، فاهتم بأعمال الري اهتماماً بالغاً . فسل على شق الترع وتنظيف القنوات القديمة التي كانت قد سدت أثناء عهود الفوضى تحت حكم البطالمة المتأخرين . ولكن تعتبر من أهم أعماله نقل ملكية المأيد إلى ملكية الدولة واعتبارها جزءاً من أملاك الإمبراطور ، يشرف عليها ويديرها رئيس الإدارة المالية ويشرف أيضاً على أملاك الإمبراطور وهو اللووظف المعروف باسم إديوس لوجوس Idiologos والذي كان يحمل بين ألقابه لقب كبير كهنة مصر والأسكندرية رغم أن منصبه إداري بحت . وكان الهدف الرئيسي لهذه السياسة هو إضعاف

(١) يوجد عرض وافٍ لهذه الأحداث ومصادرها في كتاب «مصر والإمبراطورية الرومانية» للدكتور عبد الحاميد أحمد علي ص ٦٣ - ٦٩ .

طبقة السكينة المصريين الذين يمثلون القيادة المنظمة الوحيدة للأهالى^(١) .

تيريوس : هذه هى أم الأحداث التى حدثت فى الأعوام الأولى بعد فتح مصر زمن الامبراطور أغسطس . ولما خلفه الإمبراطور تيريوس بعث أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية البارزين المعروف باسم جرمانيكوس حاكم عام للولايات الشرقية فى آسيا ، واتهمز جرمانيكوس فرصة وجوده فى الشرق وقام بزيارة مصر فى سنة ١٩ . وكان يقصد من القيام بهذه الزيارة التعرف على آثار مصر ، ولو أنه ادعى الحرص على مصلحة الولاية سبباً له . ولكن جرمانيكوس حين ذهب إلى مصر لم يستأذن من الإمبراطور ، حسب قرار أغسطس بدم السماح لأعضاء مجلس السناتو بدخول هذه الولاية دون إذن الإمبراطور . وزيادة على ذلك وصلت الأخبار للإمبراطور أن جرمانيكوس أثناء زيارته للأسكندرية لم يحافظ على المظهر الرسمى للحكام الرومان ، بل سار بين الناس بنير حرس خاص مرتدياً للملابس الإغريقية ومنتعلاً صندلاً ، كما فتح صوامع الغلال وخفض أسعار القمح ، لأنه صادف أن كانت مصر تعاني من قلة القمح ، وارتفاع أسعاره بسبب انخفاض الفيضان فى ذلك العام . كل ذلك قرب به إلى قلوب الناس ، وجعلهم يخلعون عليه من مظاهر التعظيم والتعجب مما يليق بشخص الإمبراطور فقط ، حتى اضطر جرمانيكوس إلى إصدار أوامره ينهاهم عن ذلك .

ويبدو أن الإمبراطور تيريوس لم يرض عن هذه الزيارة وجميع ملاحظاتهما ، ولعله ضاق بأعمال جرمانيكوس ومسلكه الذى زاد من شعبيته بين الأهالى ويبدو أن ثورة تيريوس لهذه الزيارة كانت شديدة ، حتى أنه أثار موضوعها فى الحال فى مجلس السناتو وهاجم جرمانيكوس ، ولامه نوعاً ما

(١) أنظر : *Milno, Egypt, p. 11*; and *Carb. Vno. Hist. X, 290*

لسلكه من حيث اتخاذه الزى الإغريق وإهماله للمظهر الرومانى ، ولكنه
أخذ من عدم استاذلته ذريعة لترجييه أغنف النقد له لأنه قد خالف قاعدة من
قواعد الحكم التى وضعها أغسطس^(١).

اشتهر تiberius عامة بالحزم فى الإدارة والعناية بشئون الولايات خاصة ،
ومن ذلك ما يروى أن والى مصر فى عهده بالغ فى جمع الجزية حتى زادت على
المبلغ المقرر سنويا ، فلامه على ذلك ، وقال له كلمته المشهورة « إنما أرسلتك
لتعجز وبر الأغنام لا لتساخنها »^(٢). وهناك من الدلائل ما يبين أن مصر قد
بدأت تدخل فى عهده مرحلة الانتظار والاستقرار الاقتصادى وأن جهود
أغسطس لإنعاش اقتصاد البلاد قد بدأت تؤتى ثمارها . وأهم دليل على هذا
الاتجاه هو إصدار عملة جديدة فى مصر . ذلك أن أغسطس منع إصدار عملة
فضية فى مصر ، واكتفى بأن تصدر دار السكة فى الأسكندرية دراهمات برنزية
فقط. وفى الوقت نفسه حدد قيمة العملة البرنزية بالنسبة للدينار الرومانى الذى على
أساسه تقدر الجزية السنوية . أدرك تiberius التعقيد الذى ينجم عن نظام
العملة فى مصر ، ولذلك قرر إصدار عملة فضية جديدة من فئة الأربع دراهمات ،
(ويبدو أن هذه العملة كانت خليطاً من الفضة والبرنز) ، وكان لهذه العملة
الجديدة قيمة الدينار الرومانى^(٣) ذاته .

(١) أهم مصدر عن زيارته جرمانيكوس لمصر هو Tacitus, Ann. II. 59.
(يوجد ترجمة عربية للنص اللاتينى فى كتاب مصر والإمبراطورية الرومانية الدكتور
عبد العظيم أحمد على ص ٧٢ - ٧٥) ، وتوجد إشارات متعددة أخرى لهذه الزيارة فى .
Pliny, Nat. Hist; VIII. 185; Josephus, Contra Apion, II. 68;
Suetonius, Tiberius, 52, 2; S. B. 3924; f p. OX. XXV. 2535,
early 1st. cent. A. D. (?)

Dio Cassius, 57, 10. 5,

(٢)

(٣) نظير دراسة نظام العملة المصرية فى العصر الرومانى من أعقد الدراسات ويكتفى

كثير من المؤلفين حول سياسة أغسطس وتiberius فى هذا الصدد أنظر :
L. C. Went : and A. C. Johnson, Currency in Roman and Byzantine Egypt
(1944) Chaps 1—II; Johnson, Roman Egypt, pp. 424 ff; and
id : Egypt and the Roman Empire (1991) pp. 170.

ويعتبر إصدار هذه العملة أهم عمل قام به تيريوس في مصر وخاصة من ناحية تنظيم علاقة مصر الاقتصادية بالإمبراطورية الرومانية . فهو من ناحية نظم أمر تحديد الجزية السنوية ويسر طريقة تقديرها وجمعها، ومن ناحية أخرى وضع أساساً ثابتاً للتبادل التجاري بين مصر والإمبراطورية ، مما يسر عملية الدفع بالدينار أو تحويل الدينار إلى عملة مصرية جديدة مباشرة أو بالعكس . وقد ظهر أثر هذا جلياً في مدى الانتشار العالمي الذي أصابته تجارة الإسكندرية في العصر الروماني .

فتنة عام ٣٨ بين الأسكندرنيين واليهود :

ذكرنا من قبل أن الرومان نظروا إلى اليهود في مصر على أنهم جالية أجنبية يمكن اصطناعها إلى جانبهم ، فهي تختلف عن المصريين أصحاب البلاد الأصليين ، وعن الإغريق الذين أكرمهم الفتح اللقذوني والسلطان البطلي حقا وقوة تشمرانهم بانتمائهم إلى البلاد . لذلك عامل الرومان اليهود معاملة فيها كثير من المحاباة ، وابتدأ هذه السياسة أغسطس بأن أقر جميع حقوق اليهود وامتيازاتهم ، ومن بينها مجلس شيوخهم للسي جيروزيا (gerousia) . في حين أن الأسكندرنيين - أرقى فئة بين الإغريق - لم يعاملوا مثل هذه المعاملة وسلبوا مجلسهم التشريعي للسي بولي (boule) . وفي الوقت نفسه كان الأسكندرليون يضيّقون بالحكم الروماني أشد الضيق ، لأنه سلب مدينتهم مجدها السياسي ، فأصبحت عاصمة لولاية رومانية بعد أن كانت عاصمة إمبراطورية مستقلة . ويبدو أن اليهود لم يفتنوا بما كان عليه حالهم ، وحاولوا أن يزيدوا من امتيازاتهم ، فادعوا لأنفسهم مواطنة الأسكندرية ، وراحوا يترددون على جنازيروم للدينة ويقمعون أنفسهم في مبارياته وتدريباته . ويبدو أن خلافاً عنيقاً نشأ بين الأسكندرنيين واليهود حول مواطنة الأسكندرية ، وحق اليهود

فيها . وراح كل فريق يفتدأ سائدا الجانب الآخر . وقد وصلتنا في هذا الصدد كتابات يوسفوس للتورخ اليهودى الذى تولى أمر الدفاع عن وجهة النظر اليهودية . ولم يقتصر في دفاعه على محاولة إثبات حق اليهود في مواطنة الأسكندرية بشتى الأساليب فحسب ، بل لجأ إلى مهاجمة قادة الأسكندريين واتهامهم بزيغ اتسابهم إلى الأسكندرية ، كإفعل في هجومه على أبيون في كتابه *Contra Apionem* ولكن لا ينبغي أن نأخذ ما يقال في هذه الاتهامات مأخذ الجدد ، فهى لاتعدو أن تكون نوعاً من للمهارات السياسية التى تكثر أيام المحن والأزمات السياسية .

لم يكن مستغرباً إذن أن يضيق الأسكندريون بموقف اليهود ومحاباة الرومان لهم ، فأتخذوم هدفاً للتنقيث عن سنخطهم على الحكم الجديد . وأخذت بوادر النزاع بين اليهود والأسكندريين تظهر جلية منذ نهاية حكم الإمبراطور الثانى تيبيريوس ، حين اضطر الوالى على مصر ويسمى فلاكوس أن يقوم بحملة لجمع الأسلحة من الأهالى . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، وما إن تولى العرش الإمبراطور الثالث جايوس للقب كاليجولا حتى نشب صراع مسلح بين اليهود والأسكندريين ، فيما يعرف بفتنة عام ٢٨ . وذلك عندما مر بالأسكندرية أجريبيا (Agrippa) الملك اليهودى أثناء عودته من روما بعد أن ولاء كاليجولا ملكاً على إيتوريا ، وهى إمارة صغيرة إلى الشمال الشرقى من يهوذا (أى فلسطين) .

وكان هذا الملك معروفاً من قبل لدى الأسكندريين بأنه ربيب القصر الإمبراطورى فى روما ، حيث توطدت العلاقات بينه وبين الإمبراطور الجديد كاليجولا ؛ وأنه كان مبنزراً متغلافاً إلى درجة الإفلاس : فضعفوا . إذ رأوه يصبح ملكاً فجأة ، فاطلقوا عليه ألسنتهم الحداد بالمعترية والتعجيب . ولما

كان أجريبا صديقا لكاليجولا ، خشا أن يغضب الإمبراطور لما أحاب
صديقه من إهانات . فراحوا يتلمسون علة يبررون بها . منليكهم ، ووجدوها
في إعراض اليهود عن عبارة الإمبراطور ورفضهم إقامة التماثيل له في دور
عبادتهم . فهاجم الأسكندريون اليهود واقتصموا دور عبادتهم محاولين إقامة
تماثيل الإمبراطور بها . وبذلك أخرجوا الوالى فلاكوس أشد الإحراج . وقد
سبق أن اضطهد هذا الوالى الأسكندريين وأغلق أنديةهم ومنعهم من حمل
السلح . فإذا حاول هذه المرة قمع الأسكندريين ، فربما يفسر ذلك بأنه علم
ولاء من جانبه للإمبراطور . وبذلك نجح الأسكندريون في استالة فلاكوس
إلى جانبهم ، ولعلمهم تمكنوا من رشوته ، أيضا^(١) ، فسلط على الحى اليهودى
جنود الجيش الرومانى يماونهم الأسكندريون بالقتل والسلب والهب والتدمير .
أمام هذه المحنة سعى اليهود إلى أجريبا ليتوسط لدى صديقه الإمبراطور وفعلا
نجح للسعى وبعث الإمبراطور قوة عسكرية إلى الأسكندرية ، دخلتها ليلا
وألقت القبض على فلاكوس وأخذته إلى روما حيث جؤم ونفى ثم قتل
في منفاه . عند ذلك أرسل كل من اليهود والأسكندريين . وفودا تمثلهم إلى
الإمبراطور وتبرىء ساحتهم من التهم اللوجية إليهم . وقد يق لنا وصف لهذه
السفارات في كتاب « سفارة إلى جايوس » لافيلسوف فيلون ، رئيس الوفد
اليهودى ، ومنه نعرف أن هذه السفارات لم تبفر عن نتيجة ذات بال ، لأن
الإمبراطور شغل . عنها . ببعض شؤونه الخاصة^(٢) .

(١) كما قد توحى P. OX., 1089. 57 = Muanrillo acts if the
Pagan Martiris, No. II.
(٢) وردت أخبار هذه الفتنة في كتابى الفيلسوف اليهودى فيلون
ed by Legatio ed Gaium: Box

الإمبراطور كلوديوس

استمر النزاع بعد ذلك بين الأسكندريين واليهود. ، بينما اجتهد الوالى الرومانى فى مصر قمع بشتى الوسائل ، حتى تولى كلوديوس عرش روما عقب اغتيال جايوس كاليجولا. فى ٢٤ يناير عام ٤١ . فانتهر الجانبان فرصة تولى إمبراطور جديد العرش وأرسل كل منهم بعوثا يهتبه للحكم وتعرض عليه القضية برمتها .

ومن حسن الحظ أنه قد عثر حديثا على بردية يونانية . تحتوى على الرد الكامل لـ كلوديوس . وهو عبارة عن رسالة من الإمبراطور . موجهة إلى الأسكندريين ^(١) . وكل عبارة فيها تنطق بما اتصف به هذا الإمبراطور من الاتزان وسمة الحيلة . فهو فى هذه الرسالة يتناول مطالب الأسكندريين واليهود جميعا ويرد عليها واحداً واحداً ، على نحو يضع الأمور فى نصابها ويرى كلا من الأسكندريين واليهود موقف الإمبراطور النهائى . .

ومن دراسة هذه الرسالة نعرف كثيراً من الأوضاع الداخلية فى الأسكندرية وبعض ما كان يعاني منه كل من الأسكندريين واليهود وما كانوا يسمعون للحصول عليه ، فالإمبراطور كلوديوس يقسم رسالة إلى ثلاثة أقسام رئيسية (عدا الخطاب وللقدمة والخاتمة) : الأول للرد على ما رفعه إليه الأسكندريون من آيات الولاء والتعجيد ، والثانى للرد على مطالب الأسكندريين ، والثالث خاص بمسألة اليهود فى الأسكندرية . .

فى القسم الأول من الرسالة يعلن كلوديوس قبوله لبعض اقتراحات الأسكندريين بتكريمه وتمجيده ، عن طريق الاحتفال بعيد ميلاده وإقامة عدة تماثيل له ولأفراد أسرته فى أنحاء مختلفة من مصر ، وإطلاق اسمه على إحدى

H. I. Bell, *Jews and Christians in Egypt*, P. Lond. 1912. (١)

قبائل مدينة الأسكندرية ، ولكنه يرفض رفضاً تاماً اقتراحهم بتعيين كاهن خاص لعبادته وإقامة معابد خاصة لثلاث، وينبههم إلى أن مثل هذه الفكرة تمس مشاعر معاصريه ، لأن الناس جميعاً ألقوا أن يكون الكهنة وللمايد للآلهة فقط . وهذا الموقف من كلوديوس يبين لنا مدى انزائه . وأنه لا يضعف أمام الملك والمديح .

وفي القسم الثاني يتناول كلوديوس أموراً أكثر أهمية تتعلق بنظم مدينة الأسكندرية . فن ذلك مثلاً ما يتعلق بمواطنة الأسكندرية، التي كانت تتمتع صاحبها امتيازات جمة مثل الإعفاء من ضريبة الرأس وإمكان الحصول على المواطنة الرومانية مباشرة فضلاً عن المركز الأدبي الممتاز الذي كان يتمتع به الأسكندريون . من أجل ذلك حرص كثير من فئات السكان المختلفة على إحكام أنفسهم ضمن مواطني الأسكندرية دون وجه حق . ويبدو أن هذه المشكلة قد أصبحت مصدر قلق شديد للشرفيين على أمور المدينة^(١) ، حتى أنهم اضطروا آخر الأمر إلى رفعها إلى الإمبراطور شخصياً . وكان رد كلوديوس هو تثبيت المواطنة وامتيازاتها على كل المواطنين في عهده ، باستثناء من كان من نسل جارية . وكذلك يوافق كلوديوس على اقتراحات الأسكندريين بأن يكون اختيار كاهن المعبد الإمبراطوري في المدينة يتم بطريق الاقتراع ، وأن يكون مدة تولي الوظائف المدنية ثلاث سنوات . ويضيف الإمبراطور إلى ذلك قوله « سوف يتم صرف الموظفون على نحو أكثر حذراً واعتدالاً . حينما يحسون بقرب تقديم الحساب من أي إساءة ارتكبوها وهم في الوظيفة » . ونفهم من إدخال نظام الاقتراع على وظيفة الكاهن أن تولي الوظائف الأخرى كان يتم بطريق آخر ولعله الانتخاب ؛ كما نفيهم من تعليق الإمبراطور على تحديد مدة

(١) ورد ذكر هذه المشكلة أيضاً في البردية المشهورة P. S 1, 1160 (early ompiirro).

الوظائف بثلاث سنوات أنها كانت قبل ذلك غير محددة أو أطول من ثلاث سنوات على أى حال .

وفي ختام هذه الفقرة يتناول الإمبراطور مطلباً عزيزاً على الأسكندرانيين طالبا سوا للحصول عليه منذ عهد الإمبراطور أغسطس نفسه ، ألا وهو إنشاء مجلس تشريعى المدينة ، وهنا يجب على كلوديوس أن يكون على حذر فيما يقول ، فهو يعرف مدى حرص الأسكندرانيين على تحقيق هذا المطلب ، ولكنه يعرف أيضاً أن الإمبراطور أغسطس قد سبق أن رفض لإجابتهم إلى رغبتهم ، إن لم يكن هو الذى سلبهم مجلسهم التشريعى ، وكل ما صدر عن أغسطس من نظم وتسريعات لا يمرؤ كلوديوس أن يتناولها بالنقض أو التغيير . ولهذا وجدناه يرد على طلب الأسكندرانيين بأنه سوف يتصل بواليه على مصر ليمسح له الأمر ، وفي الواقع كان معنى هذا الرد هو تأجيل النظر فى المسألة إلى أجل غير مسمى كما قول الآن .

بعد ذلك ينتقل كلوديوس إلى القسم الثالث من رسالته الخاص بالمسألة اليهودية ، وهنا تتبدل لهجته فى الحديث كل التبدل ، فبدلاً من أسلوب الجمالة والسياسة نجده يصطنع الصرامة والحزم ، وينذر كلاماً من الأسكندرانيين اليهود ، أنه لن يسكت على استمرار مثلثهم ، فبينما ينصح الأسكندرانيين بحسن معاملة اليهود ، ينبه اليهود إلى حقيقة وضعهم فى المدينة ، لأنها ليست وطنهم الأصلي وليست مدينتهم ، وأن عليهم أن يعموا بما أتيح لهم فيها من رغد العيش وألا يسعوا إلى نيل أكثر مما لهم (ولهذا يقصد مواطنة الأسكندرية) ، وألا يثيروا القلاقل بإحضار مزيد من اليهود إلى المدينة من خارجها سواء من مصر أو من سوريا .

هذه هى رسالة الإمبراطور كلوديوس إلى الأسكندرانيين ، وتعتبر من أهم

الوثائق التي وصلتنا عن مصر في العصر الروماني ونحن لا نعرف مدى ما أحدثته هذه الرسالة الحكيمة من تأثير الخلاف بين اليهود والإغريق في الأسكندرية فأحدى برديات المجموعة المعروفة باسم أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين تبين أن في عام ٥٣ على أغلب الاحتمالات قدم إزیدور ولا ميسون من زعماء الأسكندريين للمحاكمة أمام الإمبراطور كلوديوس في روما ، وكان الطرف الآخر في القضية أجربيا الملك اليهودي وصديق الإمبراطور^(١) . والبرديات التي تحتوي على أخبار هذه المحاكمة ناقصة ومبتورة في أكثر من موضع بحيث لا يمكننا معرفة حقيقة التهمة التي من أجلها حوكم إزیدور ولا ميسون ، ومع ذلك فلهذه الوثيقة أهميتها الخاصة لأنها تعطينا مثالا من أمثلة ذلك الأدب السياسي الذي روج له الأسكندريون في جهادهم ضد الحكم الروماني وهو الذي يطلق عليه اصطلاحاً « أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين » للتشابه بينه وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » فيما بعد . وأدب الشهداء الوثنيين يمثل زعماء الأسكندرية وهم يحاكمون ويستشهدون دفاعاً عن مدينتهم ، مظهرين في ذلك ألواناً من الجرأة والبطولة مما يضمنهم في مصاف شهداء أصحاب اللبادة . فننسخ النسخ المختلفة التي وصلتنا عن محاكمة إزیدور نجد هذه اللواقف الكثيرة :

إزیدور : مولاي قيصر ، أرجوك أن تسمع مني قصة مآسي وطني .

الإمبراطور : سأهيك هذا اليوم .

وهنا وافق على ذلك جميع أعضاء السناتو الحاضرين كمساعدين للإمبراطور لهم من هو إزیدور .

كلوديوس قيصر : لا تقل شيئاً ضد صديقي (أى أجربيا) . لقد سبق أن .

Munatillo. acts of the Pagan Martyrs (acts (١)
Alexandrinorum), No, IV. act Isidori.

قضيت على اثنين من أصدقائي ، ثيون رئيس المدينة (الكسيجهيتيس) .
لامبسون لإيزيدور : لقد رأيت الموت بعيني ...

كلوديوس قيصر : إيزيدور ، لقد قتلت كثيرين من أصدقائي .

إيزيدور : كنت أطيع أوامر الإمبراطور حينئذ وكذلك بالنسبة لك ،
فأنا مستعد لإدانة أى شخص تشاء .

كلوديوس قيصر : أحقاً أنت ابن راقصة يا إيزيدور ؟

إيزيدور : أنا لست غيبداً ولا ابناً لراقصة ، وإنما جتنازيارخس لمدينة
الإسكندرية العظيمة . ولكن أنت ابن منبوذ لسالوم اليهودية ، ولذلك ..

لامبسون لإيزيدور : قد لا نملك سوى الإذعان لإرادة ملك مجنون (بعد
ذلك يتحدث كلوديوس ، ونفهم أن الحكم قد صدر بإعدام إيزيدور ولامبسون) .

وفي نسخة أخرى من المحاكاة ذاتها ، يهاجم إيزيدور الملك أجريبا ؛
وذلك عندما يدافع عنه الإمبراطور ، فيقول إيزيدور : « مولاي قيصر ، ماذا
يمنحك من أمر أجريبا ، وهو يهودى لا يساوى شروى تقيير » كلوديوس
قيصر : ماذا تقول ؟ إنك لأوضح الناس جميعاً ..

هذا مثال من الأدب السياسى الذى استمد الأسكندريون مادته من مواقف
حقيقية في تاريخ صراعهم ضد السيطرة الرومانية .. وهذا هو سر أهمية ذلك
الأدب بالنسبة للمؤرخ ، فرغم اللباقة التى تدبصطنعها الكاتب في وصف الموقف
إلا أنه يعتمد في أغلب الأحيان على معلومات حقيقية ، ولهذا فنحن لانشك
أن هذه المحاكاة حدثت في عهد الإمبراطور كلوديوس وأن إيزيدور ولامبسون

لقيا حثفهما نتيجة للمعاكسة ، تؤيد ذلك بردية أخرى من القرن الثاني^(١) .

نيرون (٥٤ — ٦٨) :

بعد كلوديوس الحازم للعتل تولى حكم روما نيرون الذى تمتاز شخصيته بالتطرف وعدم الإتران فى معظم ما يصدر عنه . ورغم كثرة جرائمه فى روما ، فيبدو أن ميله المحموم نحو الفن قد جملة يكن لمصر كثيراً من الإعجاب بها . ورغبة قوية لزيارة آثارها . ويقال أنه أراد أن يصيب عضفونين بحجر واحد ، فاعتزم القيام بحملة عسكرية إلى إثيوبيا وراء حدود مصر الجنوبية ، وفى الوقت نفسه يزور مصر ويشاهد آثارها العجيبة^(٢) . وبذلك يكون قد أدى واجبه كحاكم من ناحية ، وكذلك أراضى رغبته الشخصية من ناحية أخرى . ورغم الشروع فى تنفيذ هذه الخطة المائلة ، إلا أن شيئاً منها لا يتحقق نظراً لقيام ثورة يهودية كبيرة فى فلسطين ، شملت الإمبراطور وجيوشه ، وجملة يحول استمداداته من إثيوبيا إلى فلسطين . وما كان من الممكن أن تحدث مثل تلك الثورة فى فلسطين ولا يكون لها صدى فى مصر ، حيث العلاقات بين الإغريق واليهود دائمة التوتر . فضلاً عن نشبت فتنة بين الفريقين فى الإسكندرية وكان نيرون فى عام ٦٦ قد عين والياً على مصر تبيرىوس يوليوس إسكندر ، وهو من حيث النشأة يهودى مصرى من الإسكندرية ، ولكنه ارتد عن دينه واكتسب للمواطنة الرومانية وأمكنه التدرج فى سلك الوظائف الرومانية . وقد حاول تبيرىوس إسكندر أن ينصح رؤساء الجالية اليهودية بالتزام الحكمة ولكن دون جدوى ، فاضطر إلى أن ينزل قوات الجيش الرومانى المسلحة فى معسكر نيفوبوليس (مصطفى كامل برمل الإسكندرية) وأن يوجهها إلى مصدر الثورة

Musurillo, acts, No. XI. 78—80.

(١)

Anderson. in Camb' and; Hist. Vol. X' انظر هذه الجاهة

pp. 880 ff.

في منطقة اليهود ، حتى يقال إن خمسين ألفاً منهم هلكوا في تلك الفتنة .
ويبدو مع هذا كله أن مصر لم تقرب عن فكر نيرون ، فحينئذ سمع بثورة
الجنود ضده واختيارهم جالبا Galba إمبراطوراً ، فكر في أن يعتزل في مصر أو
أن يطلب أن يعين واليا عليها .

فسبسيان (٦٩ — ٧٩) :

كان العام الذي أعقب مقتل نيرون (٦٨ — ٦٩) عام فتن وفوضى في
روما ، تعاقب فيه على العرش أربعة أباطرة ، جالبا أوتو وفيتليوس وفسبسيان
وقد عرف لهذا السبب بعام الأباطرة الأربعة . فلم يكن الإمبراطور يستقر
على عرشه سوى أسابيع أو أشهر قليلة وذلك بسبب تدخل الجيوش الرومانية
في الغرب في شئون السياسة والحكم . فكان الجنود يعينون ويعزلون الأباطرة
حسب أهوائهم للتفرقة . ولم تتدخل الجيوش في الولايات الشرقية في عملية
تعيين الأباطرة وعزلهم في أول الأمر . حتى إذا كان عام ٦٩ أعلن فاسبسيان .
قائد الجيوش في سوريا نفسه إمبراطوراً . وقد بقي مركزه غير مؤكد حتى أول
يوليو حين أعلن والي مصر مناصرته له وأخذ له يمين الولاء من الجيش
الروماني في الإسكندرية . وكان لا يزال في روما إمبراطوراً آخر له ولاء الجيوش
الغربية . عند ذلك اتجه فاسبسيان نحو الإسكندرية ليحارب الإمبراطور القائم
في روما وهو فيتليوس من هناك . عن طريق منع إرسال قبح مصر إلى روما .
ولكنه لم يضطر إلى تنفيذ تلك الخطة لأن الجنود في الولايات الغربية وفي روما
أعلنوا ولاءهم لفسبسيان بسرعة لم تكن متوقعة . هذه الحادثة تدل على مدى
خطورة مصر بالنسبة لروما . وليس أحل على ذلك من أن فاسبسيان اعتبر تاريخ بدء
حكمه منذ أول يوليو عام ٦٩ وهو تاريخ إعلان والي مصر ولاءه له . رغم أن
الإمبراطور فيتليوس بقي متربهاً على عرش روما حتى ٢١ ديسمبر من العام نفسه .

. وقبل أن يذهب فسبسيان إلى روما حضر إلى مصر لأخذ البيعة بنفسه . فاستقبله الناس في الأسكندرية استقبالا رائعا . وعاملوه معاملة الإله . وسرعان ما ظهرت لهم معجزات فأبرأ ضريرا . ورد ذا عاهة سلبا معاق . ولكن بعد أيام الثشوة والفرح الأولى باستقبال أول إمبراطور يحضر إلى مصر شخصيا منذ أغسطس . سرعان ما تبين الأهالي أن إمبراطورهم للؤلؤ ليس سوى رجل أهمل دقيقة . يعرف صالح خزائنه قبل كل شيء . فزاد الضرائب وتشدد في جبايتها . إلى آخر درهم . وهنا أطلق الأسكندريون عليه الستم الحداد بالخرية . وأطلقوا عليه من الأسماء كل ما هو ساخر لاذع حسب ما توحى للناس . من ذلك أنه طالب أحد الأفراد بمبلغ ستة أويل (وهو مبلغ زهيد لا تزيد قيمته على ثلاثة قروش) . فأطلق عليه أهل الأسكندرية لقب « أبوستة أويل » فانتقم منهم فسبسيان بأن فرض على مواطني مدينة الأسكندرية ضريبة الرأس بنفس القدر وهو ستة أويل . وهو مبلغ ثافه . ولكن مجرد إخضاع الأسكندريين لضريبة الرأس ، كان يعتبر إهانة ومساسا بكرامتهم ، نظرا لأنهم كانوا مقيمين منها وكانوا يعتزون بهذا الامتياز كل الاعتزاز . على أي حال يقال إن تيتوس ابن الإمبراطور شفع للأسكندريين وألغيت الضريبة ^(١) .

ومن مصر أرسل فسبسيان ابنه تيتوس مع جيوش من مصر ليتولى أمر حصار بيت المقدس . وقد انتهى هذا الحصار بسقوط بيت المقدس وتدمير المدينة نهائيا سنة ٧٠م الذي يعتبر تاريخ نهاية دولة بين اسرائيل في فلسطين . ويبدو أن بعض عناصر من يهود فلسطين فرت إلى مصر وحاولت تأليب اليهود بها لثورة ضد الرومان . ولكنهم لم يصيبوا نجاحا كبيرا . وبعد عودة تيتوس إلى مصر . أظهر كثير من التودد والمطاف نحو الأهالي . كما شهد حلة تكريس

(١) من فسبسيان في مصر انظر . *Milae, Egypt under Roman Rule, 28 ff.*

عجل أييس إلهاً ، مما زاد من تعلق المصريين وحبهم له .

ويبدو أن مظاهرة الإجلال التي أبداها تيتوس نحو الآلهة المصرية تمثل اتجاهاً جديداً في السياسة الرومانية نحو الحياة المصرية . لأن الإمبراطور دوميتيان من بعده (٨١ — ٩٦) أنشأ معابد في روما ذاتها لكل من إيزيس وسرايس . ورغم أن هذه الآلهة — وخاصة إيزيس — كانت معروفة ومعبودة من قبل في روما وإيطاليا ، إلا أن إنشاء الإمبراطور معابد خاصة لها في روما كان بمثابة اعتراف رسمي بهذه الآلهة ، بعد أن استمرت تعبد هناك بصورة غير رسمية .

تراجان (٩٨ — ١١٧) .

تنشط الحياة السياسية من جديد بصورة عنيفة في عهد الإمبراطور تراجان وتألف عدة عوامل لإثارة الشعور العام وبث روح الثورة ، من ذلك سوء إدارة وسلوك الوالي الروماني في ذلك الوقت . ولكن أخطر من ذلك حدوث مجاعة بسبب انخفاض النيل . وأخيراً تجدد الصراع بين اليهود والإغريق على نحو لم يسبق له مثيل .

ويندأ تاريخ مصر في عصر تراجان بالحادثة الأولى الخاصة بالوالي الروماني إذ قد وصلتنا عنها بردية على جانب كبير من الأهمية . هذه البردية هي إحدى وثائق أعمال الشهداء الوثنيين ^(١) . وهي تصف محاكمة الوالي لمصر أمام الإمبراطور في روما ؛ ويقول أمر مهاجمته للمتحدث باسم وفد الأسكندريين للأهل أمام الإمبراطور لهذه المناسبة . وما تحتويه هذه البردية نعرف أن التهم الموجهة إلى الوالي إليهم ، ويسمى فينيوس ما كسيموس . متعددة متشعبة . وهي الإبتزاز والربا واستغلال السلطة والتعسف مع مخالفة القانون إلى جانب

الفساد الأخلاقي والانحراف الخلقى. ويدل للتحديث بأقواله فى قوة وثبات، وفى كل مرة يأتى بالأدلة التى تدل على الوالى، ويقف وقفة طويلة عند موضوع الفساد الخلقى ويصف هيام الوالى بسلام وظهورهما مما بمنظر يسيء الى الشعور العام. ورغم أن التهمة الأصلية هى تهمة الابتزاز، فإن إيراد للسائل الأخلاقية كان المقصود منه إثارة الإمبراطور ضد الوالى وكسبه الى جانب الأسكندرانيين، ولا يبعد أن كاتب البردية قد أسهم فى اللبالة أيضاً بمض الشئ ليزيد من العنصر الروائى للمحاكمة، مما يتفق وطابع أدب الشهداء الوثنيين خاصة وأن الهدف الأساسى من حفظها ونشرها هو الدعاية ضد الحكم الرومانى فى مصر، وبما لا شك فيه أن هذه التهم والشكاوى أنهت ولاية ما كسيموس على مصر فى شئ كثير من الخرزى، حتى أن اسمه أزيل من ثلاثة نقوش عثر عليها^(١) ولعل ما سمعه تراجان من سوء الحكم فى مصر حفزه على الاهتمام بأحوال هذه الولاية، فأن ألت بمصر الحاجة بسبب انخفاض فيضان النيل أهم تراجان بالأمر كل الاهتمام، فأرسل الى مصر أسطولا بحملا بالانلال مما كان محفوظا لحاجة روما، وبذلك خفف من ضائقة البلاد^(٢).

ولكن سحائب اضطراب جديد أخذت تتجمع فى أنحاء البلاد، إذ أخذ النزاع التقليدى بين اليهود والإغريق يظهر من جديد، ولكن يبدو أنها كانت حركة قصد اليهود من وراءها إخراج الحكومة الرومانية صموما. بدأت من الأسكندرية ثم أخذت هناك (١١٠ أو ١١٣)، وأرسل بعض زعماء اليهود والأسكندرانيين للمحاكمة أمام الإمبراطور الرومانى كما توضح احدى برديات أعمال الشهداء الوثنيين المعروفه باسم "Acta Hermaioi"^(٣).

I. G. R. 1148: 1175: 1357 = C. I. L. 14148.

(١)

Pliny Jun. Paneg. 31—32.

(٢)

Musurillo' Acts, No. VIII.

(٣)

ومن هذه البردية نعرف أن أفلوطينا، زوجة الإمبراطور ، كانت مقيسة إلى جانب اليهود ، وأنها سعت للتأثير على تراجان ليكون في جانب اليهود . ويدرك هرميسكوس هذه الظاهرة . ويثيرها في حديثه إلى الإمبراطور ، إذ يقول له إن مجلسه غاص باليهود . فينضب الإمبراطور ولكن هرميسكوس يستمر مخاطبها الإمبراطور في ثبات تام « أيزعجك إذن أن أذكر اليهود ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فأولى بك أن تساعد بني قومك وأن لا تتصدى للدفاع عن اليهود الملعدين » .

وتنتهى البردية بعد ذلك دون أن تذكر نتيجة المحاكمة ولكنها تذكر أن معجزة حدثت حينئذ ، وهى أن تمثال الإله سرايه ، الذى كان يحمله الوفد الأسكندري تصيب عرقاً فجأة ؛ فدهش الإمبراطور وتصايح الناس في روما وهرعوا إلى الجبال خشية نذر الإله .

ويبدو أن الاضطرابات تجددت في الأسكندرية بعد ذلك في عام ١١٤ ثم أخذت في الحال . ثم انتهز اليهود فرصة انشغال الإمبراطور في الحرب ضد البارثيين في الشرق حتى أشعلوا نار ثورة جامعة في أنحاء مختلفة من مصر وبرقة ؛ واستطاعوا أن يسيطروا على البلاد بعض الوقت . وعجزت الجيوش الرومانية القليلة الموجودة في مصر عن مواجهة الموقف ، فاضطر الوالى أن يلجأ إلى تجنيد الأهالى في فرق محلية في كل نوموس أو مقاطعة تحت قيادة الحاكم المحلي (Stiologos) ومن حسن الحظ أن لدينا مجموعة كبيرة من أوراق البردى خاصة بأبولونيوس^(١) استراتيجوس إحدى مقاطعات الصعيد وتلقى ضوءاً على ظروف

(١) وقد نشرت هذه الأوراق في مجموعة P. Gissen (=Griechische Papyri im Museum des oberhessischen Geschichtsvereins Zu Gissen' 1910—1912); Die Bremen Papyri' ed. U. Wilcken, (1936).

هذه « الحرب ضد اليهود » كما أسماها الأهالي. ونعرف من أوراق أبولونيوس أنه لم تحدث معركة قاصلة بين الجانبين ، وقام استراتيجوس كل نوموس بمعاونة الأهالي للسلحين لتأمين منطقته وتصيد الثوار المارقين من اليهود حتى قضى عليهم تماما .

ومن الإجراءات العسكرية التي تمت على عهد تراجان في مصر إدخال بعض التعديل في الحامية الرومانية ، وإقامة حصن جديد عند رأس الفلتا وهو المعروف باسم حصن بابليون ، ومنذ هذا التاريخ بقي هذا الحصن من أهم قلاع الدفاع عن مصر .

هادريان (١١٧ — ١٣٨) :

وفي عهده شهدت مصر ثالث زيارة من امبراطور روماني، إذ حضر هادريان إلى مصر في شتاء عام ١٣٠ عن طريق فلسطين والفرما إلى رأس الفلتا ثم صعد في جنوب مصر إلى طيبة ثم عاد إلى الأسكندرية . وما من شك أن الهدف الرسمي للرحلة هو التفتيش على ولايات الإمبراطورية الشرقية ، ولكن هذه الزيارات في مصر تأخذ عادة طابع الرحلات السياحية فقد اهتم هادريان أثناء وجوده في الصعيد بدراسة أحوال البلاد وقد رما اهتم بزيارة معالم آثار مصر الشهيرة وكان من أحبها إلى نفوس الزوار حينئذ زيارة تمثال ممون الذين كان يخرج منهما صوت جمل عند مشرق الشمس بفضل تبحر الندى وهبوب نسيم الصباح.

ومن أهم أعمال هادريان في مصر هو إنشاء مدينة يونانية جديدة ، وهي مدينة أثينوبوليس ، فكانت أول مدينة يونانية ينشئها الرومان في مصر إلى جانب المدن الأربع السابقة . وقيل إن هادريان أنشأ هذه المدينة تخليداً لأحد أفراد حاشيته المقربين إليه الذي يسمى أنتينوس Antinous والذي توفي أثناء الرحلة المصرية. ونظراً لميل هادريان القوي إلى العصارة اليونانية فقد أراد أن

تكون هذه المدينة بمثابة مركز جديد لنشر الحضارة الإغريقية في صعيد مصر ولهذا جعل مواطنيها من الإغريق في مصر ، الذين نقلهم من مدينة بطلمية ومن الجالية الإغريقية في الفيوم المعروفة باسم « ٦٤٧٥ » إغريقيا المستقرين في مقاطعة أرسنوى « وقد تمتع مواطنو هذه المدينة بجميع النظم للألوف في المدن اليونانية كما كانت في مدينة قراطس القديمة بما في ذلك مجلس تشريعي الذي كانوا يعتزون به كل الاعتراز ومن بين ما تميز به مواطنو أنتينوبوليس أيضاً هو تمتعهم بحق الزواج من مصريات ، وهو ما لم تتمتع به المدن اليونانية الأخرى في مصر ^(١) . ولعل هادريان أراد من وراء ذلك محاولة إيجاد جيل يجرى في عروقه الدم المصري ومتقن ثقافة يونانية. ولكي ييسر للمدينة الجديدة سبيل الازدهار الاقتصادي مد طريقاً بينها وبين برنيقة على البحر الأحمر ، وزود هذا الطريق بمحطات للبراسة والمياه ^(٢) . وهو مشروع عاد على المدينة بالتغير العميم ، لأن تجارة مصر الشرقية كانت في ذلك الوقت قد بلغت ذروة من القوة والنشاط وشملت الهند . وبذلك استطاع هادريان أن يربط مدينته الجديدة منذ نشأتها بمجلة الاقتصاد للمصرى .

بعد رحلة الصعيد ذهب هادريان إلى الأسكندرية حيث أعلن حاجته للمكتبة واللوحيون ، وجلس مع العلماء وتحدث إليهم ، كما زاد عددهم بإضافة عدد من العلماء المتنقلين إلى سجل علماء اللوحيون ^(٣) .

وكان لاهتمام هادريان بالثقافة اليونانية في مصر أثر واضح في بحث نشاط فني ذي طابع يوناني مصري تجلى في الرسوم الجميلة لوجوه الأفراد التي وجدت

(١) حول مدينه أنتينوبوليس انظر E. Kuhn, Antinoopolis (1913);
H. I. Bell, Antinoopolis, a Hadrian Foundation, Journal of Roman Studies, 30 (1940) pp. 130 ff.

I. G. R., No. 1142.

(٢)

Historia Augusta. Hadrianus. 20.

(٣)

على عدد من اللوميات المحنطة والتي عثر عليها في منطقة الفيوم ، وبلغت أوجها
الغنى في منتصف القرن الثانى ^(١) .

أنطونينوس التانى (١٣٨ — ١٦١) Antonini Plus

رغم طول مدة حكمه فإن تاريخ مصر السياسى فى عهده يكاد يكون خاليا
إلا من ثورة جامعة فى الأسكندرية نجعل أسبابها ، ولكن نعلم أن الوالى الرومانى
ذهب ضحيتها (سنة ١٥٣) . وقد قاست الأسكندرية كثيرا أجزاء ثورتها ،
ولكن الإمبراطور بعد ذلك حضر لزيارة المدينة وأقام بها بعض المنشآت مثل
ميدان للسباق وباب الشمس فى الشرق وباب القمر فى الغرب .

ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) Marcus Aurelius

فى عهد هذا الإمبراطور الحكيم الفيلسوف بدأت الإدارة الرومانية فى
مصر تكشف عن عيوبها الحقيقية . فثورة المصريين ضد جباة الضرائب
الرومان فى عصر الإمبراطور أغسطس لم يشترك المصريون من أهل الريف
اشتراكا إجباريا فى حركة ضد الحكم الرومانى وظلت الفتن والثورات قاصرة
على أهل الأسكندرية واليهود . أما منذ منتصف القرن الثانى لم يستطع المصريون
احتمال شدة وطأة الحكم الرومانى ونظام الضرائب للرهبى وضروب مختلفة من
أنواع الخدمة والعمل الإجبارية بجانب ضريبة القمح وضريبة الرأس وضريبة للملح
وضرائب الأرض للمعددة وضرائب التجارة والصناعة النوعية والغذوية ، كان
على الأهالى أن يقوموا بأعمال إجبارية مجانية تتدرج من تولى وظائف مختلفة فى
الإدارة المحلية إلى تسخير ما يمتلكه الأفراد من دواب وفى سبيل قتل الغلال من
القرى إلى الأسكندرية لتسحق بعد ذلك فى السفن إلى روما . ويأتى فى المرح الأسفل

Edgar Cairo Catalogue, 'Graeco—Egyptian Coffins' (٢)

p. XIV; Hilde Zaluscor, Potrats aus dem Wustan—Sand, (1961)

من هذه الخدمات الأعمال اليدوية مثل بناء السدود والبحور وتقوية ضفاف النيل وقت الفيضان حتى لا تفيض مياهه فتغرق القرى والمدن . وكانت هذه الأعمال تفرض على الأهالي كرهاً دون أجر ، كل حسب منزلته وأملاكه . فالعمل الأرقى للأحرار كثر مالا والعمل الأحرار كثر فقرا ولكن جهود الأباطرة الأولية في شق الترع والعمل على إصلاح الأراضي وتحسين الحالة الاقتصادية صوما إلى جانب وجود الجيش الروماني الذي أشرف على تنفيذ رغبات الإدارة الرومانية ، كل ذلك كان كفيلا باستمرار سير العمل ومنع المصريين من التعقيد في القيام بمشروعاتهم نحو الإدارة الرومانية . ولكن حين أهملت الترع والمصارف وتعاقبت بعض الفتن والثورات مثل ثورة اليهود في عهد الإمبراطور تراجان ساءت ظروف الزراعة كثيرا ولم يقبل الأهالي على العناية بأرضهم لعلهم يعلم جدوى جهودهم وأن ثمر أعمالهم ستذهب إلى رومادون أن يبقى لهم منها شيء . يذكر .

وليس أدل على خطورة الأحوال الزراعية من أن كثيرين من أصحاب الأرض لجأوا إلى الفرار من أرضهم ليجزوا عن دفع الضرائب ، وكانوا يلجأون إلى المدن الكبرى وخاصة الإسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء والعثور على عمل في خضم حياتها التجارية والصناعية والنشطة فإذا تعذرت أمامهم سبل الحياة في الإسكندرية لجأوا إلى أحراش شمال الدلتا ومستنقعاتها ليحيوا حياة تشرد فطري .

هذه هي الحالة التي واجهتها الإدارة الرومانية في مصر في الجزء الأخير من القرن الثاني ، وكانت أول نتيجة لهذه الحالة السيئة أن انتهز المصريون إرسال الجيوش الرومانية للحرب في منطقة الدانوب ، قاموا بثورة عنيفة تحت زعامة أحد الكهنة يدعى ازيدور سنة ١٧٢ ، وكان مركز الثورة هو منطقة شمال الدلتا . ويبدو أن حركة ازيدور كانت من القوة بحيث أن القوات الرومانية

الموجوده في البلاد عجزت عن مواجهتهم حتى كادت الأسكندرية ذاتها تسقط في أيدي الثوار . ولإقاز الموقف في مصر اضطرت روما إلى إرسال قوات من سوريا يقودها الحاكم هناك المسمى أفيدوس كاسيوس (Avidius Cassius) ، وبدلاً من أن يقابل الثوار في معركة فاصلة ، لجأ كاسيوس إلى الحيلة والكيدة وإحداث الفرقة بين صفوف الثوار، حتى نجح في استمالة بعضهم ، ثم تعقب من تبقى منهم في شكل جماعات صغيرة حتى قضى على الثورة .

ولكن ما إن أخذت ثورة المصريين حتى واجهت روما في مصر فتنة أخرى أشد خطورة ، صاحبها ومديرها هو القائد الروماني للتصحر نفسه أفيدوس كاسيوس . ويقال إن كاسيوس تأمر مع الإمبراطورة فوستينا على اغتصاف الحكم بعد موت ماركوس أوريليوس ، ولما بلغه نبأ كاذب بموت الإمبراطور ، اندفع كاسيوس في الكشف عن مؤامراته وإعلان نفسه إمبراطوراً وأخذ البيعة من الجنود في عام ١٧٥ . ولم تتردد مصر كثيراً وعلى رأسها مدينة الأسكندرية في مناصرته ، لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يؤيدون كل انشقاق أو فتنة ضد السلطة المركزية في روما ، وليس ذلك عن حب في الثائر أو المنشق ولكن كرها للسلطان الروماني عموماً . ويبدو أن مثل هذا الشعور كان شائعاً أيضاً في الولايات الشرقية . إذصرمان ما اعترف به السوريون وغيرهم في الولايات الشرقية . ولكن ثورة كاسيوس فشلت بنفس السرعة التي قامت بها ، إذ اغتاله أحد ضباطه بعد مضي ثلاثة أشهر من قيام ثورته .

وفي العام التالي (١٧٦) زار ماركوس أوريليوس الولايات الشرقية بما فيها مصر ، وبدلاً من أن ينتقم منهم لمناصرتهم ثورة كاسيوس عفا عنهم وأظهر

من ضروب الرحمة والشفقة ما يتفق وما اشتهر به هذا الإمبراطور من الحكمة والفلسفة . فقد اكتفى بعزل الوالى وفيه وكذلك أفراد أسرة كاسيوس ذاته وكان للتوقع أن يصدر عليهم جميعاً الجزاء التقايدى للثوار وللشقيين وهو الإعدام^(١).

كومودوس (١٧٦ — ١٩٢) Commodus :

لم تستمر طويلاً سياسات السالمة وروح العطف والتسامح التى اتبعها ماركوس أوريليوس ، إذ كان ابنه وخليفته كومودوس على النقيض من ذلك ، ميالاً إلى العنف والانتقام . فأثار الأحقاد القديمة وصمم على تعقب أسرة أفنديوس كاسيوس وقضى عليهم جميعاً ، كما انتقم من الأسكندرانيين فجاءهم وقتل كثيرين منهم . وقد وصلت بنا بردية من عهد الإمبراطور كومودوس تعتبر مثلاً متأخراً من مجموعة أعمال الشهداء الوثنيين . وتحتوى هذه البردية على أجزاء من محضر محاكمة هليودوروس (ابن كاسيوس ؟) وأبيانوس رئيس جمنازيوم الأسكندرية . ويبين الحوار الذى دار بين أبيانوس والإمبراطور مدى الكراهية التى احتفظ بها أهل الأسكندرية ومصر عامة تجاه الحكم الرومانى ، كما تكشف عن جوانب من سوء الحكم وكذلك عن شخصية كومودوس نفسه . ولعل من المناسب أن نورد ترجمة الفقرات الهامة من هذه الوثيقة :

أبيانوس : . . . الذين يرسلون القمح إلى للدن الأخرى ، فيبيعونه بأربعة أضعاف ثمنه ، حتى تموضوا ما أنفقوا .

الإمبراطور : ومن الذى يأخذ هذه الأموال !

(١) عن ثورة كاسيوس وملاك أوريليوس الملم حينها انظر :

Historia Augusta' Marcus Aurélius Antoninus, 25—19; and ibid, Avidius Cassius' VII.

أبيانوس : أنت

الإمبراطور : أوافق أنت من ذلك ا

أبيانوس : كلا ، ولكن سمعنا ذلك .

الإمبراطور : ما كان ينبغي أن تنشر هذه الدعوى قبل أن تستيقن من
النبا . (إلى) بالجلاد ا

وفي موضع آخر ، حينما يؤخذ أبيانوس إلى ساحة الإعدام يرى هليودوروس
فيقول له :

أليس لديك ماتقوله عنى يا هليودوروس بينما أنا أساق إلى اللوت .

هليودوروس : لن يمكننا أن نكلم ، إذا لم يكن هناك من يستمع إلينا .
فامض يا بني إلى اللوت ، ذلك الجهد ، إذ أنك تموت من أجل وطنك الجليل ،
فلا تبغض .

عند ذلك يستدعى الإمبراطور أبيانوس مرة ثانية ويقول له :

ألا تعرف إلى من تتحدث الآن ؟

أبيانوس : (أجل) أبيانوس يتحدث إلى طاغية .

الإمبراطور : لا ، بل إلى ملك .

أبيانوس . لا تقل أنت هذا . كان يحق لوالدك أنطونينوس للزلة أن
يكون إمبراطوراً . ولتعلم أنه كان أولا فيلسوفاً ، وثانياً زاهداً ، وثالثاً خيراً
أما أنت فلك عكس هذه الصفات . طاغية وشرير وفاسد الأخلاق .

فأمر قيصر بأن يساق أبيانوس إلى الإعدام . وبينما كان أبيانوس
يؤخذ بعيداً قال :

امنعني شيئاً واحداً ، يا مولاي قيصر ا

الإمبراطور . ماذا ؟

أبيانوس : امنحنى أن أعدم وأنا أرتدى شاربات الشرف الخاصة بى .

الإمبراطور : لك ماسألت^(١) .

هذه فقرات من هذه المحاكمة الهامة ، لما اشتملت عليه من إشارات لما دلالتها التاريخية . من ذلك ما يتهم به أببيانوس الإمبراطور من أن الرومان كانوا يمارسون تجارة خبيثة وهى أخذ القمح من مصر ويبيعه فى الخارج بأربعة أضعاف ثمنه الأصلي . كما تكشف كلمات أببيانوس عن مدى التقدير والحب الذى احتفظ به أهل الإسكندرية لذكرى الإمبراطور أوريليوس ؛ فوصف بالفلسفة والزهدين والخير . وهو الموصوف بها إمبراطور روماني آخر فى جميع أعمال الشهداء والوثنيين التى يغلب عليها . كما سبق أن ذكرنا - ملابح مهاجرة الرومان عمومًا ويتضح من هذه المحاكمة أيضًا : التى حدثت حوالى عام ١٩٠ أنه بعد أكثر من مائتى سنة من الحكم الرومانى أن جذوة المقاومة لازالت متقدة فى نفوس المصريين ، بل تلمح فى هذه المحاكمة أن الموقف ازداد صراحة إذ غاب عنصر النزاع مع اليهود وأصبح الصراع ضد الرومان وجها لوجه . ولعل الوجهين للسياسة فى روما قد بدأوا يمحشون من ازدياد تفاقم الأحوال فى مصر . وخاصة بعد ثورة الرعاة فى شمال الدلتا وثورة كاسيوس بعد ذلك ومناصرة المصريين له . فقام كومودوس ببناء أسطول جديد لنقل الغلال من شمال إفريقيا إلى روما . لإمكان مواجهة الموقف إذا تأخر قبح مصر^(٢) . هذه الخطوة الهامة لم يقدم عليها الرومان إلا فى نهاية القرن الثانى مما يدل على أن الأحوال فى مصر لم تعد تبعث على الأطمئنان الكامل .

Musurillo, Acts, No. XI "Acta Appiani".

(١)

Historia Augusta, Commoque, ٤7. 7.

(٢)

ب - مصر في فترة المحنة الكبرى للإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث

يُعتبر القرن الثالث الميلادي من أخطر فترات التاريخ لأنه يمثل مرحلة الانتقال الكبرى - من الحضارة القديمة إلى حضارة العصور الوسطى .
وكما يحدث في فترات الانتقال الكبرى تكثر الأزمات المختلفة في المجتمع من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، وذلك لأن النظم القديمة تتكشف عن عيوبها وقصورها أمام الظروف الجديدة فتضار ، بينما تأخذ نظم جديدة أو متطورة عن النظم القديمة في الظهور . وهذا هو ما حدث في القرن الثالث في الإمبراطورية الرومانية . ولكن ليس هنا مجال الحديث عن أوضاع الإمبراطورية عامة ، وإنما سنكتفي من ذلك بما يخص مصر فقط .

ومن أبرز معالم التاريخ السياسي لهذه الفترة كثرة الانقسامات السياسية والتنازع حول العرش وتدخل الجيش في هذه المنازعات السياسية ، يميزون الأباطرة ويمزقونهم أو يقتلونهم حسب انقسام ولائهم وتوزع أهوائهم . ونلاحظ أنه كان للمصريين موقف يكاد يكون موحداً في أثناء ذلك كله ، وهو مناصرة كل دعي للعرش أو تأثير على السلطة المركزية في روما . وكان السبب الأساسي لهذا الموقف من المصريين هو كراهيتهم الشديدة للحكم الروماني . وقد رأينا مثالا من ذلك في ثورة أفينديوس كاسيوس ضد الإمبراطور الحكيم ماركوس أوريليوس . وسوف نتكرر الأمثلة بعد ذلك في خلال هذا القرن .

سبتيميوس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١) :

بعد موت كومودوس تولى العرش برتيناكس (Portinax) في أول يناير

سنة ١٩٣ ، ولكنه لم يبق في الحكم سوى ثلاثة أشهر حتى لقي مصرعه على أيدي بعض فرق البعش في ٢٨ مارس سنة ١٩٣ بعد ذلك تنازع الحكم عدد من الأدعياء رشحهم الجيوش المختلفة هم سبتيوس سيفيروس بانونيا (منطقة الدانوب) وألبينوس في شمال الغالة ونيجير في سوريا . وقد تاصرت مصر حاكم سوريا فصدرت باسمه العملة كما استخدم اسمه في تأريخ الوثائق أيضاً . ولكن سرعان ما تمكن سيفيروس من القضاء على منافسيه الواحد بعد الآخر ودانت له الإمبراطورية بأسرها .

وفي شتاء ١٩٩ — ٢٠٠ زار سيفيروس مصر وقام بالجولة للألوفة للسائح الروماني في ذلك الوقت وهي زيارة بعض معالم الآثار المصرية ومنها تمثال عمون بطبيعة الحال . ويقال إن سيفيروس أصلح رأس أحد التماثيل ، ولكن نتيج عن هذا الإصلاح توقف صدور الصوت الذي كان ينبعث منهما عند شروق الشمس . ولكن زيارة سيفيروس لمصر لم تكن مجرد النزهة أو السياحة والترفيه عن النفس ، بل كان لها هدف ونتائج على جانب كبير من الأهمية . فلابد أن سيفيروس كان على علم تام بسوء ما وصلت إليه الأحوال في مصر ، قدسات الحالة الزراعية كثيراً في الجزء الأخير من القرن الثاني ، وأصيب الجهاز الإداري بعجز بين تبعاً لذلك ، إذ تعذر وجود عدد كاف من أصحاب الأراضي لتولي جميع مناصب الإدارة المحلية في النومات المختلفة . وكان لابد من القيام بإصلاح أساسي لتدارك الحالة قبل أن ينهار النظام الإداري في الولاية تماماً ، ولهذا أقدم سيفيروس على إدخال أول إصلاح جذري على النظام الذي وضعه أغسطس لمصر منذ أكثر من قرنين من الزمان . ويتلخص إصلاح سيفيروس في أنه قرر إنشاء مجلس تشريعي (بولي Boule) في الأسكندرية وفي مراكز النومات (متروبوليس وجميعها متروبولات) . وسوف نقاوم أهمية هذا الإصلاح في معرض الحديث عن الإدارة ، ولكن يكفي هنا أن نقول إن الهدف الأساسي

من هذا الإصلاح لم يكن العمل على قوية النظم السياسية الحرة في المدن ، بل جعل هذه الجمعيات التشريعية الجديدة مسئولة عن ملء الوظائف الإدارية في النوموس ، وبعبارة أخرى ألقي عبء الإدارة المحلية على كاهل أعضاء هذا المجلس التشريعي بدلا من سلطات الإدارة المركزية ^(١) ، ويجب أن نذكر هنا أن المدن في الولايات الرومانية الأخرى كانت تتمتع من قبل بنظام المجالس التشريعية ، وكانت مصر استثناء من هذه القاعدة. ولهذا يعتبر إنشاء المجالس التشريعية في مدن مصر محاولة لتوحيد نظم الإدارة والحكم بين مصر وسائر ولايات الإمبراطورية.

كارا كلا Caracalla (٢١١ — ٢١٧) :

كان تشريع سيفيروس الخطوة الأولى في محاولات إصلاح النظم الرومانية وقد أعقبها خطوة ثانية على جانب كبير من الأهمية . ذلك أن ابنه وخليفته الإمبراطور كارا كلا أصدر في عام ٢١٢ تشريعا هاما فحواه منح للواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية من الأحرار . ويقوم من المصادر الأدبية والقانونية القديمة — كما ورد عند ديون كاسيوس وأدليان — أن هذا للنح كان عاما شاملا ^(٢) . ولكن عثر حديثا على بردية تحتوي على نص

(١) المصادر الأدبية تجعل منح المجلس التشريعي قاصرا على الأسكندرية : (Dio Cassius, 75, 13 : Historia Augusta, Severus, 17) ولكن ثبت من الوثائق البردية أن هذه المجالس ألغيت وجميع مراكز النومات منفل من سيفيروس ولجميع المصادر البردية ودرست بواسطة : P. Jouguet, La Vie Municipale, pp. 334 ff; id., Les Bouleaux à la fin du IIIe Siècle, Revue d'Egypte, N. S. I. p. 73; A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces. p. 329 and notes; E. P. Wegener, in Symbolae van Oven, pp. 160 ff; and in Mnemosyne (1948) pp. 15 — 42; 115 — 132; 297 — 326.

Dio Cassius. 77: Ulpian, Digest I. 5. 17 : "In orbe (٢)

Romano qui sunt ex constitutione imperatoris Antonini O. o. Caracalla) cives Romani effecti. sup".

(١٣٢ — الاسكندر)

قانون كارا كلا^(١)، ونظراً لأن هذه البردية مشوهة وناقصة في أكثر من موضع صعب تفهيم عبارة وردت بها توحى بأن منح للواطنة الرومانية لم يكن شاملاً وأن هناك استثناء معيناً ينص على عدم تمتع الطبقة للسماة «بالخاضعين» (dediticii) بمنحة هذا القانون. ورغم أن المقصود بلفظ «الخاضعين» dediticii «م الأعداء الذين حملوا السلاح وحاربوا الشعب الروماني ولما هزموا خضعوا»^(٢) قد اختلف المؤرخون المحدثون فيما إذا كان قانون كارا كلا (المعروف اصطلاحاً باسم Constitutio Antoniniana) يشمل المصريين أو أنهم كانوا ضمن طبقة الـ dediticii ولذلك ظلوا خارج المواطنة الرومانية، وأن قانون كارا كلا طبق في مصر على أهل المـلـكـن وعواصم النومات (مديريات) فقط. ورغم استمرار الاختلاف بين العلماء حول هذه المشكلة إلى الآن، إلا أن الدراسات الحديثة المعتمدة على الوثائق البردية بصفة خاصة قد أثبتت أن تطبيق قانون كارا كلا في مصر كان عاماً شاملاً للمصريين جميعاً سواء من أهل المدن أو الريف^(٣). (ونكتفي الآن بهذا القدر عن قانون كارا كلا، وسوف نعود للحديث عنه وعن نتائجه في مصر في فصل الإدارة).

في عام ٢١٥ زار الإمبراطور كارا كلا مصر، أي بعد ثلاثة أعوام من صدور قانون المواطنة الرومانية، ولعله كان ينتظر أن يستقبله الأهالي بالخطوة

P. Gissen, 40.

(١)

Gaio, Inst I, 14, "Vocantur autem peregrini deditici (٢)

hi qui quondam adversus populum Romanum gravis suscepiant pugnaverunt, deinde victi se dediderunt.

(٣) أعمال دراسة حديثة لموضوع قانون كارا كلا هو كتاب: Christoph Sasien,

Die Constitutio Antoniniana (1958) ولا ينبغي أن يخلط به في النص أنظر:

E. Bickermann, Das Edict des Kaisers Caracalla in P. Giss. 40 (Berlin, 1926); H. W. Beranio, The Deditici of the Constitutio Antoniniana, in Transactions of the American Philological Association, 85 (1954) pp. 188 — 196.

والإكبار ، شكراً وتقديراً لقانونه ، ولكن يبدو أن الأسكندر لم يحفظوا
بهذا القانون ولم يسعدوا بصدوره — كما سنرى فيما بعد ، ولذلك سخرنا من
الإمبراطور الذي شبه نفسه بالإسكندر الأكبر ، وألحقوا فيما أطلقوا عليه من
أسماء أنه قاتل أخيه جيتا ، الذي كان شريكه في الحكم . فلم يحتمل كارا كلا
هذه السخرية وانتقم من الأسكندريين شر انتقام ، فاجتمع بهم في الجنازيوم
وخطبهم بلهجة قاسية وأمر بأن يحنّد شبان الجنازيوم ثم قتلهم ثم أرسل جيشه
في المدينة بالقتل والسلب والتدمير^(١) . كما أمر بإخراج جميع للصريين الذين
ازدهروا في الأسكندرية فارين من قراهم ، حتى يتجنبوا دفع الضرائب أو
القيام بالخدمات الإجبارية . ولم يستثن سوى بعض للصريين الذين لهم عمل
أساسي في المدينة^(٢) .



الجزء الأكبر من القرن الثالث بعد ذلك بين كارا كلا ودقلديانوس
يعتبر من أعصب فترات التاريخ ، كثرت فيها الحن واللؤامرات والانقسامات
السياسية والحروب الأهلية في معظم أجزاء الإمبراطورية الرومانية . وكان من
الطبيعي أن تضعف السلطة المركزية في روما نتيجة لذلك ، فكثرت أدياء
العرش ، كما كثرت محاولات الاستقلال في الولايات ، قام بها زعماء محليون تارة
أو قواد الجيوش الرومانية ذاتها تارة أخرى ولم يشذ تاريخ مصر في تلك الفترة
عن هذه الصورة العامة للإمبراطورية . وسوف نحاول الإيجاز قدر استطاع في
تناول تاريخ هذه الفترة ، نظراً لأن أي إفاضة في حراستها ستدخلنا في تاريخ
روما ذاتها ونخرجنا عن حدود موضوعنا وهو مصر في العصر الروماني . ولهذا

Dio Cassius 77, 22—23; Historia Augusta, Caracalia. 6. (١)

P. Giss, 40.

(٢)

ستقتصر على الإشارة إلى أحداث الامبراطورية التي شملت مصر، فتأثرت بها أو أثرت فيها .

فن بين الأحداث التي ابتدأت بها محنة الصراع من أجل السلطة اختلاف الذى نشأ بين مارقينوس (Marcirus) الذى خلف كارا كلا مباشرة سنة ٢١٧ وإيلاجبالوس (Elagabalus) الذى ادعى أنه ابن كارا كلا ، وانحاز الأسكندريون إلى جانب مارقينوس ضد ابن كارا كلا خصمهم القديم، بينما اتخذ الجيش جانب إيلاجبالوس ، وتعرضت الأسكندرية نتيجة لذلك لمعركة بين الفريقين قاست المدينة من جرائها أهوالا كثيرة . ويذكر أن مارقينوس عين قائدا لجيش مصر من بين أعضاء السناتو ، مخالفاً بذلك لأول مرة قاعدة وضعها أغسطس منذ حوالى قرنين ونصف قرن ^(١) . ولكن يجب ألا نبالغ في أهمية هذه الحادثة ودلالاتها ، فإن نظام أغسطس لحكم مصر قد نهض في أركانه الأساسية بحيث فقد صفاته وملائحه الأصلية ، وخاصة على يدى سيفيروس وكارا كلا .

ومن المحتمل أن الامبراطور سيفيروس اسكندر زار مصر في عام ٢٢٨/٢٢٩ وحاول التخفيف عن الولاية بالتنازل عن بعض الضرائب . ولكن أباطرة تلك الأيام كانوا تحت سيطرة الجنود ، وكان سيفيروس اسكندر من هذا النوع من الأباطرة ، ورغم طيب طويته لم يتمكن من أن يمنع الجنود من القضاء على اثنين من خيرة رجال هذا العصر وهما أولبيانوس الفقيه القانونى الشهير ، وديون كاسيوس آخر مؤرخى روما الكبار . وأخيراً راح سيفيروس اسكندر نفسه ضحية مؤامرات الجند وقتل في عام ٢٣٥ .

وتلاحت على مصر أخبار الأباطرة وأحياناً تضاربت هذه الأخبار، دون

أن تشترك مصر في صنع هذه الأخبار ، ولم يزد تأثير هذه الأحداث في مصر على تغيير اسم الامبراطور في كتابة تواريخ الوثائق . وكثيراً ما سقطت أسماء بعض الأباطرة من هذه التواريخ لشدة قصر الفترة التي قضوها على العرش في روما . حتى إذا كان منتصف القرن الثالث ترجع على عرش روما الامبراطور دقيوس ، وكان المسيحيون قد بدأوا يظهرن كقوة يحسب لها حساب في الحياة العامة ، فقرر هذا الامبراطور القيام بحملة شاملة للقضاء على جميع أتباع الدين الجديد قضاء تاماً في الامبراطورية . وكانت خطته هي أن يفرض على جميع الأهالي أن يعلنوا تمسكهم بعتيدته في الآلهة القديمة عن طريق العبادة والتضحية لها ، وأن يتم ذلك أمام الموظفين المسئولين ، وعلى كل فرد أن يحصل على شهادة من هؤلاء الموظفين باستيفاء هذا الاختبار ، ومن يرفض القيام بهذا الاختبار كان جزاؤه الموت . وكانت فترة حكم هذا الامبراطور (٢٤٩ — ٢٥١) محنة كبرى للمسيحيين عموماً ، وقد وجدنا نماذج من هذه الشهادات على بعض البرديات التي ترجع إلى هذا التاريخ ^(١) .

وقد بلغت الفوضى السياسية والعسكرية في القرنين الثالث وأوجها في الفترة التالية (٢٥٢ — ٢٦٨) حين كثرت التطاحن بين أدعياء العرش وانقسم ولاء الجنود واشتد ضعف السلطة المركزية في روما ، مما أدى إلى إعلان كثير من الولايات استقلالها عن روما ، بما في ذلك مصر فن الواضح أن مصر في سنة ٢٦٠ اعترفت بمرقيانوس وكويتوس الأباطرة في سوريا ، وكلها بعد ذلك أعلنت الوالي إميليانوس إمبراطوراً بها ، حتى تمكن أحد ممثلي السلطة المركزية في روما من القضاء على هذه الفتن المحلية ، وألقى القبض على إميليانوس ورد مصر إلى حظيرة الامبراطورية الرومانية . ويبدو أن كثيراً من القتلى راحوا ضحية

Eusebius, Hist. Eccles VI. 41; Boll. Galls and Creeds, (١)

هذه الأحداث حتى لقد قيل إن الإسكندرية قدلت نحواً من ثلثي أهلها^(١).

زنبوبيا ملكة تدمر تبسط سلطانها على مصر :

في أثناء القرون الثلاثة الأولى من الامبراطورية ازدهرت في الشرق إمارة تدمر (Palmyra) الواقعة في الصحراء التي تفصل بين سوريا ودولة بابل. وكان محور نشاطها ومصدر روثها الأساسي هو نقل التجارة بين الشرق الأقصى وبابل من ناحية وسواحل سوريا من ناحية أخرى. كما مدت نفوذها التجاري جنوباً وناقت الإسكندرية في تجارة البحر الأحمر، ومنذ القرن الثاني كثيراً ما تعاون تجار تدمر مع تجار الإسكندرية في العمل معاً في التجارة الشرقية ، ويشهد على ذلك عدد من النقوش التي تثبت وجود تجار تدمريين مستقرين في مدينة قفط في صعيد مصر ، ومركز النقل التجاري من البحر الأحمر إلى الإسكندرية^(٢).

هذه الجمهورية التجارية في الشرق دخلت سلطان الامبراطورية الرومانية منذ عصر مبكر ، ولعله يرجع إلى زمن الامبراطور تيبيريوس^(٣) ، ولكنها عوملت معاملة ودية وتمتعت بنوع من الاستقلال الداخلي ، واستطاعت أن تفيد كثيراً من ظروف النشاط التجاري في الامبراطورية التي تزعمته الإسكندرية في القرنين الأول والثاني ، مما مكنتها من أن تلعب دوراً سياسياً إيجابياً في القرن الثالث . منذ استطاع أحد حكامها . . أوديناث . . Odenathus أن يستنظم ثروة مدينته في تكوين جيش قوى ساعد به الامبراطور الروماني جالينوس (Gallinus) ، حتى أن هذا الامبراطور عينه قائداً عاماً على

Eusebius, Hist. Eccles. VII. 21.

(١)

A. J. Reinach, Rapport sur Les Fouilles de Coptos. (٢)

p. 17, C. 15, II. 3. 3910, O. G. L. S. 639: SEG. VIII. 703

(٣) ينصكر جـوحيه أن تدمر أضيفت إلى الإمبراطورية زمن تراجان

(Precis de l'Histoire d'Égypte' p. 398) ولكن جوتز يبين أن ضمها إلى

الإمبراطورية كان ألد من ذلك كثيراً Jones, Cities, 267 and notes.

ولايات الشرق . ولا توفي أودينبات خلفه ابنه الطفـل « وهب اللات »
 (Thus) (Vaballa) الذى سيطرت عليه وعلى الدولة معا والدته للـلكة الطنـوح
 المعروفة باسم زينوبيا . هذه للـلكة لم تقنع بالمركز للممتاز والثراء العريض الذين
 كانت تتمتع بهما تدمر وإنما أرادت أن تكون لها إمبراطورية ، وبدأت
 تبسط سلطانها على الولايات الشرقية ، بما فيها مصر ، فأرسلت إلى مصر جيشاً
 ضخماً عام ٢٦٩ واحتلتها ، بناء على اتفاق سابق مع بعض الزعماء المحليين للـسى
 تيا جينيس (Timagenos) ورغم مقاومة الحامية الرومانية فى عصر وصمودها
 ضد جيوش زينوبيا فى أكثر من موقع إلا أنها فشلت فى الاحتفاظ بمصر من
 أيديهم . حتى إذا تولى عرش روما الامبراطور أوربليانوس عام ٢٧٠ ،
 لجأ إلى أعمال السياسة فى مواجهة الخطر التدمرى فأعترف أولاً بوهب اللات
 ابن زينوبيا شريكاً له فى الحكم ، وصدرت العملة فى الأسكندرية تحمل صورة
 الامبراطورين على الوجهين . ولكن بعد مرور عام واحد رفض وهب اللات
 الاستمرار فى هذا الحكم المشترك وقرر الاستقلال وأعلن نفسه امبراطوراً ،
 مما أدى إلى قيام الحرب بين روما وتدمر . وصدرت العملة فى الأسكندرية
 تحمل صورة وهب اللات وزينوبيا فقط ، مما يكشف عن مدى نفوذ هذه للـلكة
 فى توجيه السياسة فى تلك الأيام . على أى حال فى الحرب التى نشبت بين تدمر
 وروما ، هاجم الامبراطور بنفسه من الشمال فى آسيا الصغرى ، بينما أرسل
 القائد بروبيوس (Probus) إلى مصر ، وسرعان ما سقطت مصر فى أيدي
 الرومان من جديد فى عام ٢٧١ . ورغم انتصار الامبراطور أدربليانوس على
 تدمر أيضاً وأخذ زينوبيا أسيرة فى موكب نصره إلى روما ، فإن قياد هذه
 الولايات الشرقية لم يسلس له تماماً ، وسرعان ما قامت ثورة فى كل من تدمر
 والأسكندرية عام ٢٧٢ . وكان قائد الثورة فى الأسكندرية أحد كبار تجارها
 يسمى فيرموس (Firmus) الذى يقال إنه جمع ثروة طائلة من تجارة البردى

والصنع العربي ، واستطاع أن يجمع جيشاً من ماله الخاص . إن قيام تاجر مثل فيرموس بثورة الأسكندرية يوحى بأنه كان على علاقة مع ثوار تدمر أيضاً . أمام هاتين الثورتين في وقت واحد ، اتجه الامبراطور أدريليانوس إلى تدمر أولاً ، وقضى على الثورة هناك ، ثم تحول إلى مصر حيث اقتصر على فيرموس وحاصر الثوار في حى البروخيون في الأسكندرية ، حتى اضطروا إلى التسليم ولكن بعد أن دمر هذا الحى تماماً وكان مركزاً لأهم مباني المدينة ^(١) .

بعد ذلك غادر أدريليانوس مصر وتركها في أيدي قائده برويوس (Probus) لإخضاع قبائل البليبي في الجنوب ، الذين استغلوا فرصة الثورات للتتالية وتوغلوا في مصر الجنوبية . وبينما كان برويوس يعمل على إخضاع مصر العليا توفي أدريليانوس ، فانتفض الجيش في مصر هذه الفرصة وأعلنوا قائدهم إمبراطوراً . وقد استطاع برويوس أن يفرض نفسه على الإمبراطورية بأسرها وأن يبقى في الحكم مدة خمسة أعوام (٢٨٦ — ٢٨٢) ، قضاهما في نشاط جم في حروب ومواقع مستمرة على حدود الإمبراطورية المختلفة . ولكنه قتل في عام ٢٨٢ بواسطة الجنود ، الذين قتلوا ثلاثة من الأباطرة أيضاً في العامين التاليين حتى تولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس الذى سيتولى مهمة بناء الإمبراطورية من جديد على أسس جديدة تعتبر قاتمة طور جديد من أطوار الإمبراطورية الرومانية .

(١) عن مصادر هذه الفترة أنظر :

Jouguet, *Precis de l'Hist. d'Egypte*, I. p. 404.

Histotia Augusta, Firmas.

وأم مصدر عن فيرموس وثورة .

الفصل الثاني

معالم النظم والحضارة في مصر في العصر الروماني

أ - تكوين المجتمع

يذكر المؤرخ جوزيفوس في نهاية القرن الأول أن عدد سكان مصر - باستثناء سكان الاسكندرية - كان سبعة ملايين ونصف مليون^(١) . فإذا قدرنا للاسكندرية نصف مليون من السكان^(٢) ، أصبح المجموع ثمانية ملايين نسمة تقريباً . وهو رقم تقريبي ويجب أن نكون على حذر من تطبيقه على مصر في جميع عصورها القديمة ، فنحن نعرف ما يصيب السكان من الزيادة والنقصان حسب ظروف الرخاء أو ظروف الأوبئة والتفحط والحروب . أما من حيث تكوين هذه الملايين الثمانية ، فهي لم تختلف كثيراً عن تكوينها في عصر الأسرة البطلمية ، فلا زالوا غالبية من المصريين وأقليات متفاوتة الحجم من الإغريق واليهود وجماعات مختلفة من السوريين والفينيقيين والليبيين وغيرهم . ولكن أهم تغير طرأ على المجتمع المصري هو وجود عنصر جديد هام ، وهم المواطنون الرومان الذين جاءوا مع الحكم الجديد سواء ممن جاءوا للعمل كوظفين في إدارة الولاية أو جنود في الجيش الروماني ، أو من رجال الأعمال والتجار وكثير

Josephus. Bell Jud, II. 16. 4.

(١)

(٢) يذكر ديودور الصقلي (٦٠٠ - ٥٤٧ ق م) أن عدد الرجال الأحرار في الاسكندرية في عام ٦٠ ق م . يزيد على ٣٠٠ و ٠٠٠ رجل . فلذا أضفنا إلى هؤلاء النساء والأطفال والعبيد . فإن اقترح نصف مليون سكان الاسكندرية - في المتوسط - يكون رقماً معانظاً لا مبالغ فيه .

من هؤلاء استقر في مصر وكونوا بمرور الزمن جالية رومانية وجدت في مناطق مختلفة من مصر بعد ذلك .

ومن وجهة النظر القانونية الرومانية قسم سكان مصر إلى قسمين أساسيين رومان ومصريين ، ثم اعتبر الأسكندريون طبقة ممتازة من المصريين أحيطت بكثير من الامتيازات الخاصة. ومن ثم أصبح لفظ المصريين يطلق اصطلاحاً على جميع سكان مصر عدا الأسكندريين ، من إغريق ويهود ومصريين وغيرهم^(١) . ومقياس هذا التقسيم هو ضريبة الرأس Laographia التي فرضت على المصريين ولهذا فهي لا تقع على المواطنين الرومان في مصر ، أما الأسكندريون فقد «أعفوا» منها^(٢) ، أما سائر السكان فكانوا يدفعون ضريبة الرأس . ومع ذلك فقد حرص الرومان على إبقاء المجتمع المصري مقسماً تقسيمها طبقياً . فميز بين فئات «المصريين» في العمالة ، فتفاوت مقدار ضريبة الرأس بالنسبة للعناصر الإغريقية أو المتأخرة من سكان عواصم النومات (للثربوليتوس Metropolitos وبالنسبة للمصريين الفلاحين من أهل القرى والريف^(٣) .

ولنبداً بالحديث عن الطبقة الجديدة في المجتمع المصري وهي طبقة الرومان ، أرقى طبقة في مصر في ذلك الوقت وتمتعت بأكبر قدر من الامتيازات . من حيث تكوينها ، نجدها تتكون أساساً من الموظفين الرومان الذين عينهم الإمبراطور في المناصب الكبرى بالإدارة المصرية ، ومن رجال الأعمال الرومان

(١) E. Bickermann, in Archiv of Papyrologie, (1927) p. 239; (1428) pp. 40 ff.

(٢) أهم إلى هذا الاعتقاد أكثر من مرة في المصادر القديمة = P. S. I. 1160 Musurillo, No. 1; and No. IV, col. ii, 25—30; Dio Cassius, 66, 8. 5; of Wallace, Taxation, pp. 118 ff.

(٣) بشأن الضريبة التي فوضها لسيان عليهم .

Wallace, Taxation, pp. 121 ff.

(١)

الذين حضروا إلى مصر من أجل عقد صفقات تجارية في الإسكندرية ، ومن جنود الحامية الرومانية . وما من شك أن الحامية الرومانية كانت أم مصدر لإحضار الأجانب إلى مصر ، ذلك أنها كانت تضم أصلاً أفراداً من جميع أنحاء الإمبراطورية في أعداد كبيرة. وعند تسريحهم كانوا يمنحون الجنسية الرومانية ، وكثيراً ما آثروا البقاء في مصر بعد ذلك لأسباب مختلفة. ولكن نعرف مقدار ما أسهم به الجيش الروماني في تكوين الطبقة الجديدة يجب أن نذكر أولاً أن عدد ذلك الجيش في عصر الإمبراطور أغسطس كان ٢٢ر٨٠٠ جندي ، ثم خفض إلى ١٦ر٧٠٠ جندي في عصر الإمبراطور تiberius ، ثم خفض أخيراً في القرن الثاني إلى ١١ر١٠٠ جندي^(١). ورغم أن الجيش الروماني كان يسمح لمواطني المدن اليونانية في مصر بالانخراط في سلكه ، إلا أن العدد الأكبر من أفرادهم كان يؤخذ عادة من مواطن الولايات الرومانية الأخرى ، وخاصة في أثناء المائة وخمسين عاماً الأولى من الحكم الروماني، وبعد ذلك ازداد عدد من الجنود محلياً في مصر حتى أصبحوا الغالبية في جيش مصر البيزنطية^(٢) .

ولم يبق جنود الحامية الرومانية معزولين عن الأهالي داخل معسكراتهم ، لا يظهرون أمام الناس إلا وقت الثورات والحج. بل على العكس من ذلك ، فإن ثورات المصريين في ذلك الوقت كانت في معظم الأحيان في قترات متباعدة

J. Lesquier, *L'Armée Romaine d'Égypte*, esp. pp. (١)
101-114.

(٢) المصادر الأساسية الخاصة بالجيش الروماني في مصر هي : G. I. L. III 6627 (Early first century) ; Musée d'Alexandrie, Inv. No. 2577; (157 A. D.). ed by Abdullatif Aly, in *Annals of the Faculty of arts*, Ain Shams University, (1955) pp. 113—146; G. I. I. III. 5680 (194 A. D.). وتوجد إشارة إلى كثير من المعلومات الجزئية الأخرى الواردة في البردي والنقوش في كتاب : G. Forni : *Il Re crutamento delle Legioni ed Augusto a Dio Clezioano* (1953) in *Appendice*, B. Tab. I. p. 167, Tab III, p. 185 Tab IV, p. 204, and p. 95.

وكثيراً ما طالت فترات الهدوء والاستقرار . فكان من الطبيعي أن يبحث الجنود لأنفسهم عن مجالات أخرى لنشاطهم ، خاصة وأن فترة الجندية في الجيش الروماني كانت تمتد عادة إلى خمسة وعشرين عاماً ، وهي سنوات شباب ونضج الإنسان . ولذلك لم يكن مستغرباً أن يخرج من معسكراتهم وأن يتصلوا بالأهالي في مختلف وجوه الحياة اجتماعياً واقتصادياً ، رغم مخالفة ذلك لقوانين الجيش الروماني . فن الناحية القانونية مثلاً ، كان محظوراً على الجندي أن يتزوج طوال مدة خدمته العسكرية ، ولكن في الواقع كثيراً ما أنشأ الجنود علاقات خاصة مع النساء من أهل البلد وخاصة في الأسكندرية ، وأنجبوا منهم أطفالاً غير شرعيين . وكان من السهل أن تقف السلطات الرومانية في مصر من هذه الحالات موقفاً متزمتاً ، وإنما أغضت أعينها عما كان جارياً ، وعند تسريح الجنود كان يعترف بزواجهم (*Epigamia*) الذي تم بصورة غير قانونية أثناء الخدمة ، وكان الجنود وزوجاتهم وأبنائهم يمنحون للمواطنة الرومانية ^(١) .

وتبين لنا أوراق البردي كيف كان هؤلاء الجنود يعقدون هذه الزيجات أثناء الخدمة العسكرية . ففي إحدى البرديات نجد خطاباً موجهاً من شخص في الأسكندرية إلى والده يذكر فيه أن جندياً قد طلب الزواج من أخته وهو يستشير والده في الأمر ^(٢) . ولكن مادام مثل هذا الزواج معتبراً غير قانوني فإن عقد زواج حقيقي لا يمكن تسجيله . ولذلك لجأ الطرفان إلى حيلة قانونية تجعل الاتفاق بين الجندي والمرأة في صورة عقد يكفل للزوجة ضماناً كافياً ،

(١) كان يتم ذلك على الأقل بالنسبة للوحدات المروفة باسم *auxilia* وغير مثال على

ذلك هو البرية المشهورة .

B. G. U. 113 (140 A. D.) = Wilcken, Chrest. No. 458.

بأن زواج الجنود أُنظر : Lasquier, L'armée Romaine. pp. 268—179.

G. L. Chessman, The Auxilio of the Roman Army. (1914) pp. 119 ff.

P. S. I., VIII, 967 (1st or 2 Century A. D.)

(٢)

وذلك عن طريق اعتبار «المهر» الذى كانت تقلمه الزوجة عادة عند زواجها بمثابة وديعة لدى الزوج، ووقع الطرفان عقد وديعة. وقد وصلتنا على أوراق البردى إحدى هذه العقود الذى تم بين جندى فى الجيش الرومانى يسمى جايوس يوليوس أبوليناريوس وامرأة تسمى بترونيا. وفى هذا العقد يعترف الجندى أنه استلم من بترونيا ملابس نسائية قيمتها ثلاثمائة دراختة إلى جانب حلى من الذهب «للمشغول»^(١). ورغم أن جميع الشروط الواردة فى هذا العقد تشبه تماماً شروط عقد الوديعة، إلا أن الأشياء المودعة تكشف وجه التحايل على القانون، إذ من المستبعد والمستغرب أن تودع امرأة ملابس نسائية لدى جندى يقيم داخل معسكراته. خاصة وأن هذه الأشياء المودعة هى نفس الأشياء التى يرد ذكرها عادة فى وصف مهر المرأة فى عقود الزواج العادية^(٢).

. ويبدو أن مثل هذا الزواج عُمر وتكونت منه أسر لما أبناء وعبيد أيضاً، ولدينا أدلة كثيرة تثبت أن هؤلاء الجنود كانوا يرعون أبنائهم من زوجاتهم غير الشرعيات رعاية جميع الآباء لأبنائهم فى عدد من الوثائق البردية نجد جنوداً يعتاقدون مع مرضعات لأطفالهم وأطفال عبيد أيضاً^(٣). كما أن أبناء هؤلاء الجنود كانوا يجنّدون عادة فى فرق الحامية الرومانية، وكان يذكّر رسمياً أمام أسمائهم أنهم من مواليد للعسكرات (Kastrosion) باليونانية و *ex castro* باللاتينية^(٤).

لم يقتصر نشاط جنود الجيش الرومانى فى مصر على الزواج وتكوين

B. C. U III.729 (144 A D.) (١)

B. G. U. IV. 1050—2 (Augustan Age). (٢) مثل

B. G. U. IV Nos 1105 ; 1107 ; 1107 : 1108 ; 1109 (٣)

(Augustan age).

(٤) أنظر مثلاً: C. I. L. III. 6627; and 5680؛ والجداول الواردة فى نهاية

كتاب Fornj, II Recrntamento, Appendico B

الأسر ، بل كثيرا ما قابلهم في وثائقنا في مجالات مختلفة من النشاط المالي والاقتصادي ، وخاصة كملاك للأراضي^(١) ومولين ، بقروض المال نظير فوائد مجزية . وهي تجارة مربحة مارسها كثير من الأثرياء في مصر الرومانية^(٢) .

يتضح من هذا العرض أن جنود الحامية الرومانية في مصر لم يهبوا الحياة العسكرية كل وقتهم ، وأنهم بالتدريج امتزجوا بالحياة في البيئة حولهم اجتماعيا واقتصاديا . ولعل الواجب العسكري لم يحتل المكان الأول من اهتمامهم . ويبدو أن هذه الحال لم تكن قاصرة على الجيش الروماني في مصر ، فإن ظروفه السلام والاستقرار النسبي التي سادت الجزء الأكبر من تاريخ الإمبراطورية في القرنين الأولين شجعت الجنود الرومان في الولايات المختلفة على الانغماس في أوجه النشاط السلمي في البيئات التي وجدوا بها^(٣) ولعل خير ما يصور هذه الحقيقة هو الوصف الذي يورده المؤرخ تاسيتوس لجنود الحامية الرومانية في سوريا في عصر الإمبراطور نيرون ، عندما عهد إلى كوربولا (Corbula) أن يقودهم ضد البارثيين : « قد وجد تحول جنوده أشد خطرا عليه من مكيدة أعدائه ، إذ أن جيشه كان يتكون من فرق أتت من سوريا ، كسالى من جراء

(١) الاعتماد السائد أن أغسطس منح إطلاعات عسكرية Colonia للجنود الرومان في مصر . أنظر : Rostovtzeff, L'Armée romaine p. 328; Soc. & Ec. Hist. of the Roman Empire, 2nd ed; p. 287, وقد ورد ذكر الإطلاعات العسكرية P. Giss. : مثل البردية الوثائقية في Colonia 60. Col iii, 6 (119 A. D.); Wilcken, Chreit. 461, 26 (beginning of 3rd. cent. A. D.); of also P. Pyl. II. 202 (late 1st cent A. D.) and the remarks of Rostovtzeff. op cit' vol. II, p. 669, note 44 P. Bomb. No. 1 (57 A. D.); P. Lond II, 142. p. 203 (65 A. D.) (٢) B' G. U. III, 741 (193—4 A. D.); p. Found, 45 (153 A. D. (٣) في شمال إفريقيا مثلا نجد أن نحواً من نصف المجندين لفرقة الرومانية Legio III Augusta يذكرون أنهم من مواليد المعسكرات (Castris).

السلام الذى استمر طويلاً ، لا يكادون يهتمون حياة المسكرات . وكان من بين هذا الجيش أيضاً جنود لم يقوموا بالحراسة أو للملاحظة ، فكانوا ينظرون إلى الأسوار والخنادق على أنها نوع من غرائب الوجود ليس لديهم خوذات أو دروع، وإنما هم رجال أعمال مترهلون قضوا خدمتهم العسكرية داخل للدن^(١).

هذه كلمة مختصرة عن أفراد الجيش الرومانى كعنصر من عناصر المجتمع للصرى أثرت فيه، وتأثرت به ثم اندججت في صفوفه آخر الأمر . لأن هؤلاء الجنود ، بعد أن ارتبطوا بالبيئة المصرية اجتماعياً عن طريق الزواج واقتصادياً عن طريق ملكية الأرض والمعاملات المالية الأخرى ، لم يتأدروا مصر بعد أن قضوا بها مدة خمسة وعشرين عاماً تحت اسم الخدمة العسكرية، واستقروا بالبلاد نهائياً أصبحوا الأساس الذى تكونت منه الجالية الرومانية في مصر . ويمكن أن نضيف إليهم ، كما سبق أن ذكرنا بعض الموظفين الذين حضروا من روما للعمل في إدارة الولاية ، وكذلك بعض من حضروا من أجل الاستفادة من عمليات التبادل التجارى . ولكن هؤلاء كانوا أقله بالنسبة لأعداد الجنود الذين استقروا في مصر . على أن الجالية الرومانية لم تبق قاصرة على هؤلاء، وإنما انضم إليهم عدد كبير من أبناء الطبقات الممتازة في مصر الذين سمح لهم بالخدمة العسكرية في الجيش الرومانى واكتسبوا الجنسية الرومانية عن هذا الطريق، وكذلك عدد من طبقة الأسكندرانيين الأرستقراطية الذين استطاعوا الحصول على المواطنة الرومانية . وقد زاد عدد الجالية الرومانية في مصر كثيراً من هذا السبيل فوجدنا كثيراً من الرومان يحملون أسماء مختلفة، الجزء الأول عن الاسم - رومانى - وهو عادة اسم الإمبراطور الذى اكتسب المواطن في عهد المواطنة الرومانية - والجزء الأخير من الاسم يونانى ، مما يكشف عن أصله من بين

صفوف الإغريق في مصر وخاصة من مواطني الأسكندرية^(١).

هؤلاء اللواتيون الرومان — مهما كان أصلهم والطريقة التي حصلوا بها على اللواتنة الرومانية — كانوا يمثلون الطبقة العليا في مجتمع مصر الرومانية. فكان يختار منهم كبار موظفي الإدارة، كما كانوا يتمتعون بامتيازات كثيرة مثل الإعفاء من بعض الضرائب أو دفع ضرائب مخفضة، والإعفاء من القيام بالخدمة الإجبارية وتولي الوظائف المحلية — في بداية العصر الروماني على الأقل^(٢). وحيثما وجد الرومان في مصر في أعدادا كبيرة كونوا لأنفسهم رابطة تجمعهم (Conventus Civium Romanorum)، وساهموا كمجموعة مستقلة في حياة المدينة أو البلدة التي هم بها. ومن ذلك ما تكشف عنه بردية من (البنيسا) في صعيد مصر، إذ تتحدث عن اجتماع عام لأهل مدينة أو كسرينخوس (البنيسا)، وتذكر أنه اشترك في هذا الاجتماع موظفو المدينة وشعبها واللواتيون الرومان والأسكندريون المستقرون بها^(٣).

وقد بقي للواتيون الرومان في مصر متمتعين بهذا الوضع للمناز حتى بداية القرن الثالث عند صدر قانون كاراكالا بمنح اللواتنة الرومانية لجميع سكان الامبراطورية.



إذا ما نظرنا إلى عناصر المجتمع الأخرى التي كانت موجودة من قبل،

(١) مثل أسماء Sabina Apollonarian, Marcus Antonius Heliodorus, and Marcus Antonius Aper in P. S. I. No. 1325 (176—180 A. D) B. G. U. 180 A, D) Wilcken: (٢) مصادر الناحية بهذه الامتيازات هي: Wilcken Chrest 396 Wilcken Chrest 463, i, 10—20 (87—9) Wilcken, Grundz, p. 339 ff.; Oertel, Liturgie, p. 387 ff. Johnsen, Roman Egypt, p. 609 ff. P. Ox. III. 73 (138—160 A. D.)=Wilcken, Chrest, No. 33. (٣)

نجد على قمة الهرم الطبقي المصرى طبقة الأسكندريين ، وقد بقيت محتلة هذه للكانة أيضا وتلى الرومان مباشرة . فجزا على عادة الرومان في حكم الولايات من اصطناع أقلية أرستقراطية في الولاية ، يمنحونها امتيازات خاصة ، لذلك فعلا في مصر وحافظوا على وضع الأسكندريين الممتاز . بل يمكن أن يقال إن الوضع القانوني لرواطني الأسكندرية اكتسب أهمية خاصة في العصر الروماني فمدا بعض الامتيازات التي تمتعوا بها مثل الإعفاء من ضريبة الرأس التي فرضت على جميع المصريين ، وحق الالتحاق بالجيش الروماني جعل للرومان حق اكتساب للمواطنة الرومانية مباشرة (وليس عن طريق الخدمة العسكرية) قاصرا على الأسكندريين ، بحيث أن أى مصري آخر كان عليه أن ينال مواطنة الأسكندرية أولا حتى يسمح له باكتساب المواطنة الرومانية ^(١) . وقد انعكس هذا الوضع الممتاز للأسكندريين بالنسبة لسائر سكان مصر في لغة الوثائق الرسمية الخاصة بالضرائب وقوائم أصحاب الأملاك فنجد هذه الوثائق في بداية العصر الروماني تقسم للملاك إلى فئتين هما « الأسكندريين » و « المحليين » ^(٢) (وللقصود بالفئة الأخيرة هم سائر الملاك من أهل المنطقة التي بها الأرض) . هذه للقبالة بين الأسكندريين وسائر الأهالي في وثائق الضرائب تبين قوة الأسكندريين كطبقة اقتصادية ؛ وفي الواقع بسبب تحكمهم في وسائل الإثراء عن طريق التجارة المالية أصبحوا أثري طبقة في مصر وأكبر ملاك للأراضي .

ولكن الأسكندريين لم يفتنوا بكل هذه الامتيازات ، ولعلمهم كانوا يضيئون بوجود طبقة أخرى أرق منهم رسمياً داخل البلاد وهي طبقة للرواطين

Pliny, Epist. X: 6—7

(١)

P. Lond. II, 192, p. 222, l. 83 ff Augustus or Tiberius, (٢)

and in the edict of the Prefect Tiberius Julius Alexander, O. G. I. S. II 669=S B. V, No, 8444.

(م ١٤ — إسكندر)

الرومان؛ فعملوا على الدخول في دائرة اللواتين على أوسع نطاق ممكن. وقد تمكنوا من تحقيق ذلك بفضل بعض الامتيازات القانونية التي منحت لهم، أولاً عن طريق السماح لهم بالالتحاق بالجيش الروماني. وثانياً بحمل حق اكتساب المواطنة الرومانية مباشرة قاصراً عليهم في مصر. وسرعان ما أصبح عدد كبير من المواطنين الرومان في مصر أسكندريين أصلاً. وإذا بهذا التطور ينمكس أيضاً في لغة الوثائق الرسمية، وأصبحت قوائم الضرائب تقسم أصحاب الأراضي إلى فئتين، هما « فئة الرومان والأسكندريين » و« فئة المحليين ». ظهر هذا الربط بين الرومان والأسكندريين في الوثائق لأول مرة بعد منتصف القرن الأول بقليل، واستمر استخدامه خلال القرن الثاني، مما يبين أن الرومان والأسكندريين كانوا في نظر الإدارة المركزية يكونون طبقة اقتصادية واحدة^(١). ويوضح ظاهرة هذا الترابط الطبقي ويؤكد وضعهم الممتاز وثيقة بردية ترجع إلى عام ١٣٩ وتحتوي على خطاب من إستراتيجوس فقط إلى الوالي، ويشكو إليه أن للمواطنين الرومان والأسكندريين والجنود القدماء المستقرين في نوموس فقط والمكلفين بجمع الضرائب قد عصوا وأمره، ويدعون أنهم لا يخضعون لسلطان الإستراتيجوس مثل جامعي الضرائب المحليين (enchorioi) ومن الغريب أن رد الوالي على هذا الخطاب يأتي مؤيداً لموقف الرومان والأسكندريين والجنود القدماء؛ إذ يأمر الوالي بأن يرفع الإستراتيجوس هذه المسألة إلى موظف أرقى منه مرتبة وهو الإيستراتييجوس (epistrategos)، الذي كان من اختصاصه الإشراف على عدد من النومات مما^(٢). هذه الوثيقة الهامة توضح مدى ما تمتصوا به من امتيازات إلى درجة عدم خضوعهم للموظفين المحليين.

P, Merton, II. 63. 7 ff. (58 A. D): Stud Pal. p. 62 ff., (١)

i, 331 f. (72—3 A. D.): B. G. U. IX 1894 (158 A. D.)

B. G. U. III. 747 (129 A. D.)

(٢)

غير أن الإصلاحات التي تمت في خلال القرن الثالث من نشر نظام الحكم المحلي في النومات ومنح للوامة الرومانية للجميع في أول هذا القرن تم إلغاء امتيازات الأقليات وتطبيق اللامركزية تطبيقاً مطلقاً على يد دقلديانوس في نهاية القرن نفسه، قضى على امتيازات الأسكندريين والرومان معا، إذ أصبح الجميع مواطنين روماناً، يدفعون الضرائب على قدر سواء ويتعاملون نصيبهم كاملاً في الحكم المحلي، كل حسب قدرته المالية .

. . .

عدا الرومان والأسكندريين يأتي سائر السكان الذين كانوا اصطلاحاً يسمون « مصريين » ^(١) . وليس معنى هذا أنهم جميعاً كانوا يكونون طبقة واحدة، فقد كانوا ينقسمون بدورهم إلى طبقات وفئات مختلفة الميزة والمكانة. ولكن للصفة المميزة لهم جميعاً هي خضوعهم لضريبة الرأس، ومع ذلك لم يعاملوا كلهم بخصوص هذه الضريبة معاملة سواء . فوجدنا الفئات الأكثر رقياً وأكثر ثراء مثل الإغريق والمتأخرين من أهل اللتربولات يدفعون ضريبة الرأس منخفضة إلى اثني عشر دراهمة أو ثمانية عشر دراهمة، حسب منزلهم الاجتماعية . أما النالية الكبرى من قراء الفلاحين للمصريين فكانوا يدفعون الضريبة كاملة وهي أربعون دراهمة ^(٢) .

وقد حرص الرومان منذ البداية على هذا التقسيم الاجتماعي والفرقة الطبقة ^(٣) فظهرت في مناطق مختلفة جماعات عرفت باسم الهييليين وخاصة

(١) يوضح هذا التقسيم بين أسكندريين ومصريين أيضاً في P. Columbia, 123 التي نشرت في Apokrimata, Decisions of Septimiusseverus on Legal Matters, ed by W. L. Westermann and A. A. Schiller, New-York, (1954).

Wallace, Taxation, pp. (٢)

(٣) خريطة تظهر هذه الحالة في مذكرة اللواين المالية للادبوس لوجوس B. G. U. A. ٨٠١ وتوجد ترجمة إنجليزية لهذه البردية في كتاب Johnaux, Roman Egypt. No. 444

في الدلتا والفيوم ، وكان أرق مظهر لهم جماعة مواطني مدينة ألتينو بوليس التي أنشأها هادريان ، وكانوا يسمون « الهيلينيين الجدد »^(١) ، وقد كان هادريان شديد العطف على مدينته الجديدة ومنح مواطنيها كثيرا من الامتيازات ، كما سبق أن ذكرنا في حديثنا عن هادريان ومن هذه الامتيازات أنه أعفى مواطني هذه المدينة من القيام بتولى الوظائف خارج مدينتهم^(٢) ، ومن المحتمل أنهم أعفوا أيضا من ضريبة الرأس ولو أننا لامتلك نصا صريحا في هذا الصدد .

ووجد في كل نوموس بعد ذلك طبقة ممتازة من أهل عاصمتها المتروبوليس ، وعرفوا باسم المتروبولين (metropolitai) ، وكان الطابع الغالب على هؤلاء هو الطابع الإغريقي سواء في اللغة أو أسلوب الحياة ، رغم أن كثيرين منهم كانوا مصريين متأخرين^(٣) . ويبدو أنه وجدت بين هؤلاء المتربوليين طبقة ضيقة ممتازة تعرف باسم أبناء الجمناسيوم (apo tou gymnasium)^(٤) وهم المواطنون الذين تعلموا وتخرجوا في معهد المدينة وكان أبناء الجمناسيوم يكونون ما يشبه بطبقة أرستقراطية محلية في الريف وكان منهم موظفو الحكم المحلي .

أما خارج المتروبوليس وجد ملايين الفلاحين وصغار المزارعين من المصريين المنتشرين في القرى والكفور . وكانوا أكثر الطبقات فقرا وأكثرها أعباء ، يدفعون ضريبة الرأس كاملة (أربعين دراهمة) ، ويؤدون جميع الضرائب الأخرى ، كما كانوا ينضمون لأعمال السخرة ، مثل بناء الجسور وترميمها وشق الترع وحفر المصارف ، إلى غير ذلك من أعمال الحراسة والنقل .

(١) ورد ذكر الهيلينيين في الدلتا وطيبة وألتينو بوليس في O. G. I S. 709 وفي الفيوم (أرسنوى) P. M. Meyer, Jun. Pap., No. 48; and P. Tebt. 11. 566 (131—2 A. D.).

(٢) B. G. U. IV. 1022 (196 A. D) = Wilcoxon, Cluost. 29

(٣) أنظر (1928) Bickerman, in Archiv für Papyrusforschung p. 356.

Ibid. p. 376.

(٤)

وقد استمر هؤلاء المصريون على أسلوب حياتهم القديمة التي ألفوها منذ آلاف السنين . يتحدثون اللغة المصرية الشعبية ، (التي وصلت إلينا في حروفها الديموطيقية) ويعبدون الآلهة المصرية القديمة ، ويقومون بالواجبات نفسها نحو الأرض ومحو سادة الأرض . ولكن لما اشتدت وطأة الحكم الروماني على البلاد وكثرت أعباء التزامات طبقة الفلاحين وصغار المزارعين مع تأخر الأحوال الاقتصادية ، ضاق أفراد هذه الطبقة بالحال ولجأوا إلى الفرار من أراضيهم ، باحثين عن مخبأ في مستنقعات الدلتا الشمالية وأحرشاها ، أو ملجأ في مدينة كبيرة مثل الإسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء في زحمة سكانها وربما وجدوا بها عملا يقيمون به أودم^(١) . وليس أدل على خطورة الفرار من الوطن الأصلي على هذا النحو من الثورة المعروفة باسم ثورة الرعاة عام ١٧٢ في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس . وكان السبب الرئيسي للفرار من الأرض هو شدة وطأة الضرائب التي عجز كثير من الزراع عن دفعها ، وخشوا وحشية معاملة جامعي الضرائب فآثروا الفرار دون أن يخبروا أحدا . ولكن جامعي الضرائب كانوا يذيقون أهل المزارعين الفارين أسوأ أنواع العذاب ليعرفوا منهم مكان مخبأهم أو ليأخذوا منهم الضريبة . وقد وصلتنا بردية من القرن الثاني تحتوي على خطاب من صهي علم باعتزام والده الفرار سرا ، فكتب إلى أحد أقاربه يطلب منه أن يحصل له من والده على مبلغ من المال يمكنه هو أيضا من الفرار إلى الإسكندرية خشية أن يقتص موظفو الإدارة منه بعد اختفاء والده^(٢) .

P. Princ. 1, 9; III, 8, 16 (31 A. D.); and 14, III, 20, V, (١)

21 (23—40 A. D.); p. graux, nos. 1 (45 A. D.) 2 (55—9

A D.); and 3 (51 A. D.); P. Uppsala, 7 (163 A. D.;

P. Philadelphie No. 33 (2nd cent. A. D.) (٢)

وقد عرض المؤلف لهذه البردية في الفصل الذي كتبه عن « الإسكندرية في العصر الروماني » في كتاب « تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور » الذي قامت بلمسه عاظمة الإسكندرية (١٩٦٣) ص ٨١ .

ويبدو أن حالات الفرار هذه كانت كثيرة ومتكررة بحيث أنها كانت تصيب الحياة في الريف بضرر شديد لقلّة الأيدي العاملة ، بقدر ما كانت تقسد الحياة في المدن الكبرى حين تكتظ بالمعطلين . ولهذا وجدنا الولاة يصدرون بيانات خاصة بهذا الشأن ، يطلبون فيه من كل شخص أن يعود إلى موطنه وعمله الأصلي . وقد وصلنا بيانان من العصر الروماني بهذا الشأن ، الأول أصدره الوالى فيبيوس ما كسيموس عام ١٠٤ ، يعلن فيه أنه بمناسبة الإعداد لإجراء إحصاء عام للسكان يجب على كل من ترك موطنه لأي سبب من الأسباب أن يعود ثانية وأن يستأنف عمله في زراعة الأرض . ومع ذلك يتضمن البيان إستثناء واحدا بشأن الذين تحتاج مدينة الإسكندرية إلى علمهم ، وهؤلاء كانوا معروفين ومسجلين لدى السلطات الرسمية^(١) . أما البيان الثانى فهو بيان الإمبراطور كارا كلا الذى أصدره عند زيارته لمصر سنة ٢١٥ ، وصاحبها اضطرابات عنيفة في الإسكندرية ، أدت إلى قتل الكثيرين من أهلها . وسواء أكان لعددور هذا البيان علاقة باضطرابات الإسكندرية أو أنه محاولة لإقارار الناس على موطنهم الأصلي ولإنعاش الريف ، وخاصة بعد تصميم للوامة الرومانية وإلغاء التفرقة بين فئات المجتمع المختلفة من الناحية القانونية ، فقد أمر كارا كلا بأن يطرد من الإسكندرية المصريين ، واستثنى من ذلك فئات معينة ، مثل تجار الخنزير ، ورجال القوارب النيلية وجالو الخطب لوقود الحمامات . ولعل هذه هي الفئات التى استثنىها بيان ما كسيموس السابق ، لأن الوقود والخبز (ومن بينها وأهمها للمدينة لحم الخنزير) كان للواد الأساسية التى كانت تجلب إلى الإسكندرية من داخل البلاد؛ ورجال القوارب هم الذين يقومون بالواصلات بشق صنوفها بين الريف والماصمة . ويتعلق هذا البيان

(١) لدينا من العصر البطلمى للنو العام الذى أصدره الملك يورجنس الثانى .

(٢) Wilcken, Chrest. 202. (١04 a D.) p. London, 904

بطبيعة الحال بالمصريين الذين لم يكن مكرم الأصلي الإسكندرية، أى المصريون الغريباء بها، الفارين من الريف لسبب أو لآخر. فقد كان من بين سكان الإسكندرية الاصليين كثير من المصريين، وهؤلاء لا يشملهم قرار الطرد. وينبه إلى ذلك الجزء الأخير من البيان حيث يقول: من اليسير التمييز بين عمال النسيج المصريين (من أهل المدينة) وبين الفلاحين المصريين (الفارين من الريف) عن طريق لغتهم ومظهرهم وعاداتهم^(١). وهو يبين ماسبق أن ذكرناه من أن المصريين وخاصة من أهل الريف ظلوا محافظين على أساليب حياتهم ولغتهم وتقاليدهم ولم يتأثروا كثيراً بالأجانب الذين حكموا مصر في المصريين البطلي والرومانى.

. . .

جالية أخيرة يجب أن نتحدث عنها وهى جالية اليهود فى مصر الرومانية. عرفنا فى دراستنا للسكان فى العصر البطلي أن اليهود كانوا من أقدم الجاليات الأجنبية فى مصر وأكثرهم عدداً، ولاشك أنهم استمروا كذلك فى العصر الرومانى. فمن حيث كبر حجم هذه الجالية يذكر فيلون أن عدد اليهود فى مصر فى بداية العصر الرومانى بلغ المليون^(٢). ورغم أننا لا نستطيع تحقيق هذا الدباء، إلا أن ذكر فيلون لمثل هذا الرقم يدل على ضخامة الجالية اليهودية فى مصر فى ذلك العصر، بل لعل عددهم زاد فى الإسكندرية فأصبحوا يشغلون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة الخمس، بعد أن كانوا يقطنون حياً واحداً وهو المعروف باسم «دلنا»^(٣).

(١) عثر على بيان كارا كلامنا فى الردية للشهيرة : P. Giss: 40, lines 16 ff. = Wilcken Chrest 22.

Philo, in Flaccum, 6, 43

(٢)

Poilo, in Flacc. 55: and Trogatio, 20, 132; Joseph. Bell. (٣)

Ju. II. 487; Apion, No. 33.

وقد وجد الرومان في اليهود فئة أجنبية عن البلاد يمكن استئصالها واستخدامها لصالحهم ، ولقلق سارع الإمبراطور أغسطس إلى الاعتراف بجميع الامتيازات والنظم التي تمتع بها اليهود في العصر البطلمي^(١). فأقر جريتهم الدينية وسمح لهم بالمحافظة على رابطتهم العنصرية المعروفة باسم بوليتيوما (politeuma) ، بما لها من رئيس (elhvarch) ومجلس شيوخ (gerusia) ، وهو أمر اعتزوا به كل الاعتزاز نظراً لأن أغسطس رفض السماح للأسكندريين بممارسة حياة سياسية عن طريق مجلس تشريعي . وكان وضع اليهود المتميز وعطف الرومان عليهم ، مصدر إثارة لقلوب الأسكندريين عليهم ، مما أدى إلى كثير من حوادث الفتن والاضطراب بين الفريقين في الأسكندرية في العصر الروماني ، كما سبق أن بينا في الفصل الخامس بالتاريخ السياسي .

ويبدو أن اليهود لم يقنعوا بما نالوه من عطف ورعاية الرومان ، فأخذوا يدعون لأنفسهم مزيداً من الحقوق والامتيازات . فمن ذلك أنهم ادعوا أن يهود الأسكندرية كانوا مواطنين أسكندريين ، متمتعين بمواطنة المدينة كاملة . وقد انقسم العلماء قديماً وحديثاً بشأن هذه القضية أشد الانقسام ، وليس هنا مجال العرض التفصيلي لجميع جوانب هذه المشكلة التاريخية ، وإنما سنكتفي بالعرض لما باختصار ، خاصة وأن حدة الخلاف قد هدأت في الأعوام الأخيرة وأن الرأي السائد الآن هو عدم صحة دعوى اليهود القديمة وأنهم لم يكونوا مواطنين أسكندريين .^(٢)

(١) عن ساملة أغسطس لليهود انظر : Joseph. Antiq XIV. 7. 2: XIX.

5, 2; P. Lond. 1922, 85 ff. in "Jews and Christians". by Bell; Strabo, 17, 1; Philo, Legatio, 10.

(٢) الدراسات الأساسية لهذا الموضوع في : Schubart, in Archiv Pap :

V (1909) — 1918 pp. 118—120. Bell, Jews and Christians. pp. 10—21. esp. p. 18 note 1; Corpus Papyrorum Judaicarum 1, Introduction by Toherikover, pp. XIII.; Cl. Préaux, Les Étrangers à l'Époque Hellenistique, Société Jean Bodin IX. (1958) pp. 157 ff.

(ب) نظم الإدارة

كانت السياسة الرومانية في مصر محافظة إلى حد بعيد ، ولم تدخل النظام الإداري المصري من التعديلات إلا ما كان ضرورياً جداً وفي أضيق الحدود في بادئ الأمر . فيمكن أن يقال إن التعديل الأساسي الذي أدخله أغسطس في نظام مصر هو إقامة موظفين جدد ليقوموا بهام منصب الملك البطلمي السابق، أما سائر الموظفين والنظم فتدبى كما هو ، حتى أن الأسماء والاصطلاحات الرسمية بقيت دون تغيير هام في معظم الأحيان^(١) .

فيما يتعلق بمنصب الملك، فقد أصبح الإمبراطور الروماني هو الملك الشرعي وفرعن مصر، فتل على المابد، كما كان البطالة يمثلون من قبل ، في زى الفراعين المصريين . وفوق رأسه التاج للزوج لمصر العليا والمقل ، وأمامه اسمه محفوراً داخل « خرطوشة » بالحروف الهيروغليفية . ولكن كان ذلك كله ضرورة من ضرورات الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية للمصرية ، التي لا تستقيم إلا بوجود فرعون على رأسها ، ولو كان مجرد رمز بعيد، كما كان الإمبراطور الروماني .

أما من الناحية العملية فقد أقام أغسطس موظفاً جديداً لممارسة جميع سلطات الملك السابقة، سمي Praefectus أو والى وكان اسمه الرسمي والى مصر

(١) قام عدد من العلماء بدراسة النظام الإداري لمصر الرومانية مثل :

Jouguet, La Vie Municipale; Oertel, Die Liturgie; U.

Chapot, L'Egypte Romaine, pp. 271 ff. Milne. Egypt Under The Romans Rule, pp. 120 ff; A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 311 ff.

يهودى من الأسكندرية .^(١) ثم يذكر هيلينوس بعد ذلك أن والده مواطن أسكندري Alexandrous . من هذه المعلومات القليلة يمكن استنتاج بعض الحقائق الهامة :

أولاً: أن هناك فرقاً قنياً بين الصفتين «مواطن اسكندري» (Alexandrous) و «يهودى من مدينة الأسكندرية» (Joudaios the apo Alexandrias) ، وإلا لما لزم تصحيح التعبير من الواحدة إلى الأخرى ، لأن المواطن مواطن مهما كان عنصره^(٢) .

ثانياً : أن من الممكن لليهودى أن يصبح مواطناً أسكندرياً ، كما ثبت لقب والد هيلينوس الرسمى . ولكن لما لم يكن الابن هيلينوس نفسه مواطناً ، اقترح جوجيه أنه حينما منح اليهودى مواطنة الأسكندرية كانت المنحة شخصية إلى درجة أنه لم يستطع توريثها لأبنائه .^(٣) ولكن ليس لدينا ما يثبت صحة هذا الاقتراح ، لأن مواطنة الأسكندرية كانت وراثية ولعل تفسير اختلاف الصفة الرسمية بين الابن والوالد ، هو أن الابن ولد قبل أن يحصل والده على المواطنة ولهذا اكتسب الوضع الاجتماعى لوالده الذى ولد فيه ، ولما حصل الوالد على المواطنة فيما بعد لم يكتسبها هيلينوس لهذا السبب .

ثالثاً : من أهم سمات المواطن الأسكندري أنه كان معفى من ضريبة الرأس ، ومن الواضح من هذه البردية أن يهود الأسكندرية وبالتالى يهود مصر جميعاً كانوا يدفعون هذه الضريبة .

من هذا يتضح أن اليهود فى مصر الرومانية استمروا فى الوضع الاجتماعى نفسه الذى كان لهم فى العصر البطلمى . وأن أغسطس والأباطرة الرومان من

Boll, Jews and Christians. p. 14 ;
Jouguet, La Vie Municipale , p. 21.

(١) أنظر

(٢)

بعده أقروا لهم الامتيازات التي منحها لهم الملوك البطالة . فكانت لهم حرية العبادة الدينية ورابطة خاصة بهم تسمى بوليتيوما ، ومجلس شيوخ ، ورئيس جالية ، وأن هذا الرئيس ومجلس الشيوخ كانوا يكونون محكمة خاصة باليهود تفصل في القضايا التي تتعلق بالشئون الدينية ، كما كان لهم مكتب خاص لتسجيل الوثائق المتعلقة بهم . ورغم العطف الذي ناله يهود الاسكندرية على أيدي الرومان إلا أنهم لم يصبحوا جزءاً من جماعة مواطني الاسكندرية وظلوا من الناحية القانونية في نظر الإدارة الرومانية بعض « المصريين » يدفعون ضريبة الرأس^(١) ، كما كان يدفعها سائر سكان مصر علما المواطنين الرومان والاسكندرانيين .

عرضنا فيما سبق للعناصر الأساسية الكبرى التي تكون منها المجتمع المصري في ذلك الوقت، وقد وجدت أيضاً فئات أخرى من الأجانب من بلاد آسيوية مختلفة أو بلاد إفريقية مجاورة أو من الولايات الرومانية المختلفة . منهم من كان يقيم في مصر أو في الاسكندرية إقامة مؤقتة من أجل التجارة أو أى سبب آخر، ومنهم من كان يقيم إقامة مستديمة . هذه الأقليات الأجنبية التي استوطنت مصر لم تبق طويلاً محتفظة بشخصيتها القومية ومصرعان ما تأغرقت واصطبغت بالطابع الإغريقي في اللغة والمظهر والمعادن وأصبحوا ضمن الفئة المصرية اليونانية

(١) هناك بردية أخرى تتعلق أيضاً بدفع اليهود ضريبة الرأس هي *Acta Isidori* من أعمال الشهداء البولنيين (*Muscatillo, Vita. IV*) وفيها إشارة غير واضحة من جانب ليزيدوروس إلى أن اليهود كانوا مثل المصريين . ومساوئ لفافس الضريبة . فريد أجريا ملك اليهود « لا » إن الحكام فرضوا الضريبة على المصريين . أما (اليهود) فلم يفرضها عليهم أحد . وقد نتج من هذا التماس الظاهر والنس انقسام بين العلماء . ولكن يبدو لي أن التفسير الصحيح هو ما يقترحه روبرتز (*G. H. Roberts*) وهو أن أجريا يتحدث عن اليهود كأمة خارج مصر وأن ضريبة الرأس لم تفرض عليهم . أما اليهود في مصر فيدفعونها لأن هذه الضريبة قد فرضت في مصر (انظر الاقتراح الذي ورد في

الذين سكنوا عواصم النومات ، وكانوا يمثلون الطبقة البورجوازية في الريف المصري .

وأخيراً يجب أن نعلق هنا على اصطلاح وجد في وثائق مصر اليونانية الرومانية وكثيراً ما أسىء فهمه ، وهو لقب « فارسي من السلالة » (*Paras les epigones*) معلوماتنا عن أصل هذا الاصطلاح قليلة جداً ، ولانكاد نعرف الظروف التي نشأ واستعمل فيها بادية ذي بدء وأول ما قد يتبادر إلى الذهن أنه لقب لأفراد من سلالة الجالية الفارسية كانت موجودة بمصر في عصر السيادة الفارسية قبل الفتح المقدوني . وسواء أكان هذا هو المعنى الأول لهذا الاصطلاح أو لم يكن ، فالوثائق البردية التي نشرت حديثاً تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن لقب « فارسي من السلالة » لم يكن منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد قومية أو جنساً أو طبقة اجتماعية ، كما ظن بعض الدارسين^(١) ، وأن استخدامه ، اقتصر في نهاية العصر البطلمي والمصر الروماني على كونه تعبير قانوني يستعمل اختياراً في العقود بواسطة الأفراد الذين يقع عليهم الإلزام المادي ، وخاصة في حالة المدين . ولقد أمكن إثبات هذا التفسير عندما لاحظنا في عقود الديون أن أفراداً من طبقات وجنسيات مختلفة يستخدمون هذا التعبير عندما يكونون مدينين فقط وأهمية استخدام هذا الاصطلاح في العقد ، أنه بمثابة ضمان إضافي للدائن ، إذ يصبح له شخصياً حق اعتقال المدين في الحال أي (*agogimos*) إذا ما أخل بشروط العقد .

(١) أنظر مثلاً : R. Taubenschlag, The Law of Greco - Roma

Egypt, pp. 7—8; Sequebart, in Archiv Pap. V, p. 412 ff.

(٢) صاحب هذا التفسير هو T. G. Vait, in Archiv Pap. VII. p. 18.

والمصادر الأساسية هي : P. Ryl. IV. 25 (105 B. C.); P. Ryl. IV. 588 (84 — 78 B. C.) esp. Introduction to it by Turner; P.

Hamb 1. 2 (59 A. D.).

(٣) دول دلالة اصطلاح *agogimos* أنظر : 407' 4 Taubenschlag, Law, p.

١ — الأسماء والألقاب :

من وسائل التنظيم الاجتماعى فى أى دولة ضبط أسماء المواطنين حتى لا تضطرب الحقوق. وقد كان هذا التنظيم ممارساً فى مصر القديمة ، فكان كل فرد يسجل عند ميلاده ووفاته . وفى العصرين اليونانى والرومانى ازداد الاهتمام بهذه الناحية اهتماماً كبيراً نظراً لوجود جنسيات متباينة تتمتع بعضها بامتيازات خاصة، كما وجدت للدن اليونانية التى تتمتع مواطنوها بقوانين وحقوق خاصة. وفى العصر الرومانى ازداد الأمر تعقيداً نظراً لأن حق الانضمام إلى الجيش الرومانى كان قاصراً على مواطنى اللدن اليونانية ، كما أن ضريبة الرأس التى فرضت على السكان طبقت بنسب مختلفة للفئات والطبقات المختلفة كأعفى منها الأسكندريون نهائياً . لذلك كله كان ضبط السلم الاجتماعى والطبقى أمراً بالغ الأهمية من الناحية المالية بالذات بالنسبة للقائمين على الإدارة والحكم . فوضعت قواعد دقيقة جداً لمراعاة كتابة الاسم واللقب والوضع الاجتماعى بطريقة وافية . وأى محاولة لتزوير بتغيير الاسم أو الوصف الاجتماعى كانت تجازى بأشد العقاب^(١) .

وفما يتعلق بأسماء الأفراد، كان هناك ميل متزايد بين المصريين نحو اتخاذ أسماء إنغريقية. فلو تركت هذه الظاهرة دون تنظيم فلا بد أنها ستنتهى إلى حالة من الفوضى ، لهذا عهد رئيس الإدارة المالية فى العصر الرومانى المعروف باسم «إديوس لوجوس» للإشراف على مسألة تسجيل الأسماء ، وكان على كل من يرغب فى تغيير اسمه أن يتقدم إليه بطلبه^(٢) ولعل الأسماء المختلطة التى تقابلها فى الوثائق (مصرية ويونانية) تبين أن أصحابها قد اكتسبوا أسماء

(١) يتضح من مرسوم ملكى أنه فى العصر البطلمى أن فى بعض حالات التزوير قد نزل العقوبة إلى حكم الإعدام B. G. U. ٨٤. 1250 (I B. G.)
(٢) Wilcken' Chrest. 52 (194 A. D.); of Suetonius, Claudius, 25.

يونانية مؤخرًا، فاستخدموا أسماءهم المصرية القديمة إلى جانب أسمائهم اليونانية الجديدة للدلالة على شخصياتهم. من هذا يتضح مدى اهتمام البطالمة أولاً والرومان من بعدهم بضبط الأسماء واللقاب، ولا غرو فالاسم واللقب يعينان الوضع الاجتماعي للفرد في البنا. الطبق للمجتمع والوضع الاجتماعي يعين مسئولية الفرد والطريقة التي يعامل بها فيما يتعلق ببعض الأحوال والضرائب وخاصة ضريبة الرأس. فيما يتعلق باختلاط الدم بين عناصر المجتمع المختلفة، فما لا شك فيه أن ذلك تم عن طريق الزواج بينهم^(١). فلا بد أن الدم الذي جرى في عروق فئة التروبوليين من أهل عواصم النومات كان مختلطاً أشد الاختلاط، من إغريق ومصريين وأسمويين وغيرهم، إذ لم يمنع القانون زواج هذه العناصر بعضها من بعض. وحتى مؤسسة هادريان الهيلينية في مصر مدينة انتنوبوليس، متح لمواطنيها «الهيلينيين الجدد» امتياز حق الزواج من اللصريات. أما المدن اليونانية الأخرى في مصر فقد حظرت على مواطنيها الزواج من اللصريات، ومع ذلك فنقص بعض مواد قانون الايديوس لوجوس بأنه إذا حدث زواج بين مواطني الاسكندرية المصريين، «على جهل منهم بحقيقة الامر»، فإن الدولة كانت تعترف بالأمر الواقع وتمنح أبناءها مواطنة الاسكندرية^(٢). أما الزواج بين الرومان والمصريين، فيبدو أنه منع من حيث المبدأ^(٣).

يتضح من ذلك على أي حال أن العناصر الأجنبية اختلطت بالمصريين، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاتجاه بمرور الزمن هو زيادة تمصير الإغريق وغيرهم بالتدريج، حتى إذا العصر البيزنطي بعد ذلك غلب الطابع المصري في كثير من أوجه النشاط في الدولة، وخاصة في المجال للذهبي الديني.

Wilcken, Grunds., 23.

(١)

P. Gnomon, articles, 45—47,

(٢)

P. Gnomon, article, 52.

(٣)

ظهرت هذه المشكلة في بداية العصر الروماني ، ولعل السبب هو في
الوطنة الأسكندرية اكتسبت في ذلك الوقت امتيازين جديدين ، وهما
الوطنة الأسكندرية أصبحت الطريق المؤدى إلى الحصول على المواطنة الرومانية
بالنسبة للمصريين (ويهود مصر كانوا مصريين من وجهة النظر الرسمية) ،
ناحية أخرى تمتع مواطنو الأسكندرية بامتياز هام آخر وهو إعفاؤهم من ضريبة
الرأس التي زحفت على المصريين جميعاً . فأراد اليهود أن يتنهبوا فرصة عطف
الرومان عليهم واكتساب هذه الامتيازات عن طريق اعتبارهم مواطنين
أسكندريين . وراح زعماء اليهود وكتابهم قديماً من أمثال جوزيفوس يثبتون
صدق هذه الدعوى ويدللون عليها بشتى الحجج والأساليب ، وأن تمتعهم بهذا
الحق قديم قدم المدينة ذاتها .^(١) وفي الوقت نفسه انبرى زعماء الأسكندريين
يفندون حجج اليهود ويدحضون دعواهم .^(٢) وبذلك غاب وجه الحق في هذه
المشكلة ، واتسم العلماء المحدثون بشأنها انقسام القدماء ، ولم يخل انقسامهم من
ميل إلى نزعة عنصرية أو دينية أحياناً . وظل الأمر كذلك حتى مطلع القرن
العشرين حين نشرت بردية على جانب كبير من الأهمية .^(٣) وبالرغم من أن
البردية مشتملة في بعض أجزائها ، إلا أن ما بقى منها واضح المعنى وله أهمية كبيرة .
فالبردية تحتوى على شكوى مقدمة إلى والى مصر من شخص يهودى من مدينة
الاسكندرية يسمى هيلينوس ، ويطلب أن يعفى من دفع ضريبة الرأس نظر
لبلوغه سن الستين . وأهمية هذه البردية ترجع إلى الطريقة التي وصف بها
هيلينوس وضعه الرسمي في المجتمع ، فوصف نفسه أولاً بأنه مواطن أسكندري
(Alexandren) ، ولكن موظفاً رسمياً فيما يبدو أصلح هذا الوصف وجعله

oseph. C. Apion, I, 189; II, 37; Bell. Jud. II. 487; (١)

Antiq. XIV. 188; XIX, 281; Phio, In Elaso. 8. 53.

oseph. C. Apron, II. 38. (٢) نجد رأى أبون الأسكندري ن :

JB. G. U. IV 1140 (Angustan agr); of Archiv Pap. V. (٣)

pp. 118-120.

(*praefectus Aegypti*) وأحيانا سمي والى الأسكندرية ومصر (*praefectus Alexandreae et Aegypti*)^(١) . وكما سبق أن ذكرنا ، كان والى مصر مختار عاذا من طبقة الفرسان الرومان ، ولكنه منح سلطانا برو قنصليا^(٢) . بصقة استثنائية ليتولى قيادة الجيش الرومانى فى مصر . فقد كان هذا الوالى هو الحاكم الفعلى للبلاد ، هو الرئيس الإدارى ، وقائد الحامية الرومانية ، والقاضى الأعلى لجميع أنواع القضايا . وهو يستمد هذا السلطان من الإمبراطور شخصيا . الذى يعينه ، وبذلك يصبح الوالى يمثل الإمبراطور فى الولاية . وعدا كبار الموظفين الذين كانوا يعينون بواسطة الإمبراطور ، كان الوالى يعين سائر الموظفين فى جميع المستويات الإدارية . ويبدو أنه كان له حق تعيين حكام المدن اليونانية فى مصر بعلأن يتم ترشيحهم واختيارهم بواسطة المواطنين . ومن حيث سلطته القضائية ، فقد كان من حق الأفراد والجماعات أن يرفعوا شكاياتهم وقضاياهم إلى الوالى ، سواء فى الأسكندرية ، أو فى أثناء الدورة القضائية التى كان يقوم بها مع هيئة محكمة فى مرا كز الولاية الرئيسية (الأسكندرية فى منتصف الصيف ، يناير فى القرما ، وأول الربيع فى ممفيس) . عدا هذه المسئوليات الإدارية والقضائية والمسكرية ، كان من أهم واجباته الإشراف على الناحية المالية للولاية ، وخاصة جمع الضرائب وإرسالها إلى روما ، سواء من القمح أو قنأ بالعملة^(٣) ولا يخفى أن الوالى كان فى حاجة إلى معاونة مجموعة من كبار الموظفين تساعد على إنجاز مسئولياته المتعددة . ويأتى على رأس هذه الجماعة من المساعدين الرئيس القضائى

(١) كما ن نقش جالوس أول والى رومانى فى مصر O. G. I. S. 654 =
د . عبد العليف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ، ص ٥٩ (مع ترجمة عربية) .
Ulpianus in Digest, I. 17. 1.

(٢) O. W. Reinmuth, The
Prefect : of Egypt from Augustus to Diocletian (1935) ; and
Stein, Die Praefekten Von Aegypten in der römischen Kaiserzeit
(1950).

أو وزير العدل (*juridicus* أو *dicaiodites*) الذى يعتبر مع الوالى أهم تجديد أدخله الرومان على نظام الموظفين فى مصر. ورغم قلة ما لدينا من المعلومات عن منصب الرئيس القضائى (*juridicus*) واختصاصاته ، إلا أن الهدف الأساسى من إنشاء هذه الوظيفة الجديدة هو تزويد الإدارة الرومانية فى مصر « بـ قانونى » ، نظراً لأن الوالى من طبقة الفرسان التى يشغل أفرادها عادة بالقضاء والقانون فى روما، وإنما كان معظمهم من رجال الجيش أو السلك الإدارى أو الأعمال التجارية والمالية ، ممن لم تكن لديهم خبرة خاصة بالقانون الرومانى . ولهذا أنشأ أغسطس وظيفة الرئيس القضائى ليكون بمثابة مستشار قانونى ورفيق فى نفس الوقت على تصرفات الوالى حتى لا تتعارض أحكامه وإجراءاته مع مبادئ القانون العام فى روما. وفى كثير من الأحيان كان الوالى يستشير فى الأحكام قبل إصدارها أو أن يفتيه عن نفسه فى النظر فى القضايا الكثيرة التى كانت ترفع إليه الرئيس القضائى (*juridicus*) على هذا النحو فقام فى بعض اختصاصاته بمهام قاضى القضاة (*archidicantes*) فى العصر البطلى .

عدا هذين للنصيين الجديدين بقى النظام الإدارى لمصر فى أساسه دون تغيير هام ، ولو أن اختصاصات بعض الموظفين أصابها شئ من الزيادة أو النقصان حسب اتجاهات الحكم الجدد. ففما يتعلق بالإدارة المالية للبلاد استمر يشرف عليها للشرف المالى (*Dioicoetes*) ورئيس الحساب الخاص أو الإديوس لوجوس (*idion logou*) ولكن الأول (*dioicoetes*) فقد كثيراً من أهميته السابقة فى العصر البطلى، وأصبح الآن مجرد موظف إدارى يساعد الوالى فى الجانب الاعتيادى من المالية ، وهو تقدير الضرائب سنوياً وجمعها. وذلك لأن الوالى أصبح المسئول الأول عن مالية البلاد . أما الإديوس لوجوس فقد زادت أهميته كثيراً ، وأصبح هو الشرف على الجانب غير الاعتيادى من المالية ونظراً لاضطرار الحياة الاقتصادية للبلاد فى نهاية العصر البطلى ومحاولة الرومان (م ١٥ - الإسكندر)

إصلاحها على أسس جديدة فقد عهد إلى الإديوس لوجوس بمهمة تنفيذ القوانين الجديدة ومن أم واجباته الإشراف على إدارة الأراضى والممتلكات التى قرر القانون مصادرتها باسم الدولة سواء لأن أصحابها قد هجروها أو تأخروا فى دفع الضرائب المستحقة عليها أو لأنهم ارتكبوا مخالفة قانونية جزاؤها استيلاء الدولة على أملاكهم أو جزء منها^(١). ثم زيد فى مهام هذا الموظف مرة أخرى حين استولت الدولة على ممتلكات العابد وجعلت الإديوس لوجوس الكاهن الأكبر للمعابد والمشرف للمالى على مالياتها وممتلكاتها^(٢).

فما يتعلق بالإدارة للمالية للبلاد عين عدد من الموظفين يحملون لقب *procurator* أو *epitiopos* للإشراف على إدارات فرعية معينة. ومن أم هؤلاء الموظفين بروكورانوس مخازن اللؤلؤ فى الأسكندرية (وعرف الحى الذى وجدت فيه هذه المخازن باسم نيا بوليس *Neapolis* ومن اختصاصاته الإشراف على جمع اللؤلؤ ونقلها إلى الأسكندرية حيث كانت تخزن استعداداً لشحنها إلى روما. وهناك موظف آخر من هذه الطبقة وهو المشرف على أملاك الإمبراطور الخاصة (*Procurator usiacus*) وكانت هذه الأملاك تشتمل على مساحات كبيرة من الأرض الزراعية، وكان للإشراف عليها أهمية خاصة للإمبراطور شخصياً^(٣). وكان هذان الموظفان يعينان عادة من بين عبيد الإمبراطور المحررين، وهى فئة استخدمها أغسطس وخلفاؤه فى كثير من مرافق الإدارة فى شتى أنحاء الإمبراطورية ؟ وذلك نظراً للولاء الذى يربط عبد الإمبراطور المحرر بشخص الإمبراطور.

(١) اختصاصات الأديوس لوجوس للمالية مذكورة فى مصدرين رئيسيين :

Strabo 17. 1. 13 (c. 797); P. Gnomon, in B. G. U. Vol. V.

P. Tebt. II 302 (71-2 A. D.) = Wilcken, Cl. rest. (٢)

368, of Wilcken, Grundz. pp: 158-9, 300 ff, and Jones. Cities, p. 816.

of Milne, Egypt, p. 125.

(٣)

علا هؤلاء الموظفين الكبار في الإدارة للركزية في الأسكندرية والذين كانوا يختارون بواسطة الإمبراطور شخصياً من المواطنين الرومان من طبقة الفرسان عادة، وجد موظفان نعرفهما من العصر البطلمي أيضاً وهما قاضى القضاة (archidicastes) والسكرتير العام (hypomnematographos) يبدو أن هذين الموظفين كانا يعملان كمساعدين للوالى، يستشيرهما في الشئون القانونية والإدارية المصرية المحلية، ويمكن أن يفيهما في تحرير بعض الأمور. ولكن يبدو أن وظيفة قاضى القضاة (archidicastes) قد طرأ على طبيعتها بعض التغيير، إذ استولى الرئيس القضائى الرومانى الجديد (juridicus) على اختصاصاته القضائية، وأصبحت وظيفة قاضى القضاة إدارية قبل كل شيء، وهى رئاسة دار المحفوظات الرسمية التى تحتفظ بها نسخ من جميع الوثائق والعهود التى تمقد فى أنحاء مصر جميعاً، وكان مقر عمله هو الأسكندرية، وترفع إليه الوثائق من جميع الأهالى من النومات المختلفة وكانت وظيفته قاضى القضاة (archidicastes) والسكرتير العام (hypomnematographos) يمثلان أرق منصب يستطيع أن يشغله مواطن فى مصر، ويبدو أنه كان يعين فيهما عادة مواطنون من مدينة الأسكندرية^(١).

وظيفة أخيرة أصبح يتولاها مواطنون رومانيون من طبقة الفرسان وهى وظيفة الإيستراتيجوس (epistrategos)، وهى تعتبر حلقة الوصل بين الإدارة للركزية فى الأسكندرية والإدارة المحلية فى سائر البلاد. ذلك أن مصر كانت مقسمة إلى ثلاث أجزاء إدارية كبرى هى الدلتا ومصر الوسطى (Heptakomia) ومنطقة طيبة فى

(١) كما اقترح تيرنر Turner و طيبة على P. Ox. XXII. 2349 فبا يتلاقى
بوظيفة archidicastes أظهر قائمة بأسماء من شغلوا هذه الوظيفة و A. Calaki
Aegyptus, 32, (1952). pp. 408 ff.

الجنوب (Thebaid) ويشرف على إدارة كل إقليم موظف كبير هو الإيستراتيجوس. ومن الثابت أن هذا التقسيم وهذه الوظيفة ترجع إلى العصر البطلمي^(١)، وأن الجديد في نظامها الروماني هو أن من تولوها كانوا من المواطنين الرومانيين، وفي حين أن إيستراتيجوس طيبة في العصر البطلمي كانت له سلطة عسكرية وإدارية فإن هذا للوظف في العصر الروماني أصبح موظفاً إدارياً فقط. فالإيستراتيجوس كان الرئيس الإداري لعدد من النومات تنقسم إليها منطقته، وكان مؤدسه للباشر هو لإستراتيجوس، رئيس النوموس، ولكن يبدو أن الإيستراتيجوس لم يكن يقيم في منطقة إدارته، بل في العاصمة بالاسكندرية، وكان يكتفى بالقيام بجولات إدارية وتفتيشية في النومات التي تتبع إدارته؛ كما كانت ترفع له التقارير أو للظالم في مقرة العاصمة بانتظام، أما عن طبيعة وظيفته فهي الإشراف على حسن سير العمل في منطقة اختصاصه من الناحية الإدارية، والقيام بأى تحقيقات إدارية، إلى جانب رفع ترشيحات الموظفين في الإدارة المحلية ل يتم تعيينهم بواسطة الوالى. وقد بقيت هذه الوظيفة حتى نهاية القرن الثالث حين ألغىها الإمبراطور دقلديانوس^(٢).

هذا من حيث الوظائف الرئيسية في الإدارة المركزية في العاصمة والتي تولوها عادة مواطنون رومانيون أو مواطنون أسكندريون في الوظائف الأقل أهمية؛ أما عن الإدارة المحلية بدرجاتها المختلفة في الريف فيمكن قسمها إلى طبقات ثلاث. الأولى هي إدارة المدن اليونانية والتي بقيت متمتعة بنوع من

(١) كان هناك خلاف حول نفاذ هذه الوظيفة وتاريخها وإن P. Tobtonis. (1788. e.) No 778 قد أثبت أنها ترجع على الأقل إلى بداية القرن الثاني م. ق في مصر الوسطى أيضاً.

(٢) حول هذه الوظيفة انظر: V. Martin, Les Epistrategos, Geneva (1911).

الحكم المحلى المستقل كما كانت في العصر البطلمى . والثانية هى إدارة النومات التى كانت تنقسم إليها البلاد إدارياً ؛ والثالثة هى إدارة القرى التى كانت تنقسم إليها كل نوموس بدورها .

ولنتناول أولاً إدارة النوموس التى كانت أساساً جزءاً من الإدارة المركزية العامة . ويمكن تقسيم إدارة النوموس إلى نوعين من الوظائف، النوع الأول يشمل وظائف تمثل الإدارة المركزية العامة فى البلاد ، وأهمها وظيفة الإستراتيجوس (strategus) والسكاتب الملكى (Basilico- grammateus) . والإستراتيجوس هو الرئيس الفعلى لإدارة النوموس وممثل الوالى فيه ، ويشمل إشرافه جميع النواحى الإدارية والمالية . فهو الذى يصدر تقديرات الضرائب السنوية على الأراضى والأفراد حسب الإحصاءات التى يجمعها بمعاونة مرؤوسيه من الموظفين المختلفين كما كان مسئولاً عن نظام الشرطة فى النوموس ، ولكن لم تكن له سلطة النظر فى القضايا وإصدار الأحكام إلا بناء عن تفويض رسمى من الوالى أو أحد كبار الموظفين القانونيين فى الإدارة المركزية فى العاصمة . ولكن كان يجوز له أن يقوم بتحقيق أولى فيما يرفع له من مظالم أو يقع من خلاف فى منطقة اختصاصه ثم يرفع الأمر إلى الوالى ليفصل فيه فى الأسكندرية أو أثناء القيام بجولاته القضائية فى الأقاليم . وكان لكل نوموس إستراتيجوس واحد، باستثناء القيوم فوجد بها اثنان ، وذلك أنها قسمت إلى ثلاث مناطق ، فتولى إدارة منطقتين منها إستراتيجوس ، وآخر للمنطقة الثالثة . وكان الإستراتيجوس تختار من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية من أهل عاصمة النوموس (متروبوليس Metropolis) وكان يراعى ألا يمين الإستراتيجوس فى النوموس التى ينتمى إليها .

وكان التعيين لهذه الوظيفة يصدر من الوالى بناء على ترشيح الإستراتيجوس ويستمر لمدة ثلاث سنوات عادة . كما كان شاغلها يتقاضى راتباً سنوياً ولو أننا

لا نعرف مقدار هذا الراتب^(١).

أما عن الكاتب للملكى (*basilicogrammateus*) فهو الساعد الأيمن للاستراتيجوس، وقد احتفظت وظيفته بالاسم البطلى رغم زوال الملكية. ويعتبر الكاتب للملكى من أهم من يمثل البيروقراطية المصرية في ذلك العصر، فجميع الإحصاءات والتقديرات والتقارير التى كانت تكتب عن النوموتس وترفع إلى الإستراتيجوس كانت تخرج من مكتب هذا الموظف. ومن ثم تظهر أهميته الإدارية وخاصة في مسألة الضرائب وتقديرها، ومسألة الترشيع للوظائف الأخرى والأعمال الإجبارية، لأن الكاتب للملكى كان الموظف المختص بعمل قوائم للرشحين المناسبين للأعمال المختلفة، كل حسب ما يمتلك من عقار. ونظراً لأهمية هذا الموظف فقد كان له راتب سنوى، وكان يختار مثل الإستراتيجوس من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية في اللتروبوليس. وكان يوجد في كل متروبوليس دار لحفظ الوثائق والأوراق الرسمية يشرف عليها موظف أرشيف كما نقول الآن، ولقبه الرسمى *bibliophylakes* ويعتبر المساعد المباشر للكاتب للملكى^(٢).

إلى جانب هذه الوظائف التى تمثل السلطة المركزية في النوموس وجدت منذ بداية العصر الرومانى وظائف أخرى ذات صبغة محلية في عاصمة النوموس (اللتروبوليس *metropolis*)^(٣).

الفرض الأساسى من وجود هذه الوظائف هو أن مهم مواطنو كل

(١) أخر: V. Martin, *Strateges et Basilicogrammates* : du nome Arsinoites à l'époque romaine, *Archiv Pap*, VI, (1920) pp. 137 ff., of. Milne, *Egypt Under Roman Rule*, pp. 126 ff.

(٢) انظر للرجع السابق.

(٣) أخر: Jones. *Cities of the Eastern Roman Provinces*, p. 319

متروبوليس بشئون مدينتهم الخاصة، مثل الإشراف على الجنازيوم أو تموين المدينة بمواد الغذاء الأساسية من القمح والزيت مثلاً، أو الإشراف على سوق المدينة ومراقبة عمليات البيع والشراء حتى لا يحدث تلاعب. هذه الوظائف لم تكن مأجورة إنما اعتبرت تشريفاً لمن يقولها، ومن هنا سمي أصحابها «حكاماً» (archontes) واشتملت على رئيس الجنازيوم أو جننازيارخس ورئيس هيئة الموظفين، ومسجل الجنازيوم أو كوزيتيس، والموثق أو المشرف على السوق (ageronomos) والمشرف على التموين (euthensarches) وأخير آرئيس السكينة الرسمي للمدينة (archieus). كما يتضح من ألقاب هؤلاء الحكام هي نفس الوظائف التي عرقها المدن اليونانية من قبل في نظام حكمها المحلي، ولعلها اقتبست من مدينة الإسكندرية، التي كانت المثل الأعلى للمدن في مصر. ولكن يجب أن نذكر أن للتروبوليس في مصر لم تعرف هذه الوظائف جميعاً دفعة واحدة، لأن الغرض الأول من نشر نظام هذه الوظائف المحلية في عواصم الريف كان للتخفيف عن الإدارة المركزية ولم يسميا وراء تطبيق نظام الحكم المحلي فيها. ويمكن أن يقال إن الإدارة الرومانية لم تشرع في تطبيق نظام الحكم المحلي في التروبولات إلا تحت ضغط الظروف الاقتصادية والإدارية السيئة في الولاية كما سنبين عند الكلام عن إصلاحات الإمبراطور سيفيروس والقرن الثالث.

المرحلة الأخيرة في نظام الإدارة الرومانية في مصر هي إدارة القرية، إذ كانت كل نوموس تنقسم إدارياً إلى قرى. وهنا أيضاً نجد النظام الإداري للزدوج ممثلاً أيضاً، فالادارة المركزية ممثلة في شخص كاتب القرية (Komogrammateus)، وهو الموظف المسئول عن إمداد الادارة المركزية بالمعلومات الضرورية عن القرية فيما يتعلق بالضرائب أو الخدمة الاجبارية. فهو

للسئول عن عمل قوائم بأهل القرية وعدد الرجال البالغين بها ، ومقدار ملكية كل شخص وما يقع عليه من ضرائب أو القيام بالخدمات الاجبارية مثل بناء الجسور وحفر الترع وتنظيف القنوات وغير ذلك . وهو الذى يرفع التقارير السنوية عن حالة الأرض فى القرية وهل روتها مياه الفيضان أو لم تروها ونوع المحصول الذى تنتجه كل أرض وهكذا ، حتى يمكن تقدير الضرائب السنوية تقديراً صحيحاً . أما عن مسئولية الأهالى فى الاشراف على شئون قريتهم فكانت ممثلة فى لجنة من « شيوخ القرية » ، اختلف عددهم حسب ظروف كل قرية . ومهمتهم الرئيسية هى قيامهم بدور الوسيط بين الدولة والأهالى فى مسألة جمع الضرائب وإمداد الدولة بالمال للأغراض المختلفة عند الضرورة ويبدو أن العضوية فى لجنة شيوخ القرية كانت من ضمن الأعمال الاجبارية (*leitugia*) التى كانت تقع على طبقة ملاك الأراضى من الأهالى ، وتستمر العضوية لمدة سنة واحدة على الأرجح .

اللدن الاغريقية :

لم تكن الادارة الرومانية أكثر حرصاً من الحكومة البطلمية على نحو نظام المدن اليونانية فى مصر ، ولهذا اكتفت بأن تركت للندن الأربع التى كانت موجودة زمن البطالة ، ولم تقدم على زيادة عددها إلا بعد مضى ما يزيد على مائه وخمسين عاماً على حكمهم ، أى فى سنة ١٢٠ حين أنشأ هادريان مدينة أثينوبوليس فى الصعيد . ورغم ندرة معلوماتنا عن ثلاثة من المدن الأربع القديمة وهى نوقراطس وبطلميس وبريقونيوم ، إلا أن ما لدينا من دليل يكفى لاثبات أنها جميعاً احتفظت بنظام اللدنة اليونانية ، فكان لها أحكام منتجون

(archontes) ومجلس تشريعى (boulé) ولكل مدينة مواطنها (politai) الخاصة بمواطنيها^(١).

أما عن مدينة الإسكندرية فقد أصاب نظامها ووضعها بعض التغير. لقد سبق أن أوضحنا فى العصر البطلمى أن الإسكندرية تمتعت منذ البداية بنظام للمدينة اليونانية كاملاً، بما فى ذلك المجلس التشريعى (boulé) أم أركان ذلك النظام ومن سوء الحظ أن معلوماتنا عن تاريخ هذا المجلس قليلة جداً فى العصر البطلمى إجمالاً، ومنعدمة فى الجزء الأخير منه، مما دعى بعض العلماء إلى إنكار وجود مجلس تشريعى فى الإسكندرية وخاصة فى الجزء الأخير من العصر البطلمى^(٢). ولكن كل من عانى دراسة التاريخ يعلم خطورة استنتاج حقائق التاريخ بطريق الاستدلال من صمت المصادر، فلا بد من وجود دليل قاطع للاطمئنان إلى صحة الاستنتاج التاريخى. ولذا فنحن أميل إلى الاعتقاد بأن المجلس التشريعى استمر فى الإسكندرية طوال العصر البطلمى، وأنه ألقى فى بداية العصر الرومانى^(٣). فالمصادر الأدبية والوثائق البردية المعاصرة تذكر فى غير موارد أن الإمبراطور أغسطس أمر الإسكندريين بتدبير الحياة العامة فى المدينة دون مجلس تشريعى، وأن الأباطرة من رفضوا إجابة مطلب الإسكندريين بإقامة المجلس

(١) خير مرجع عن المدن اليونانية فى هذا العصر هو: Jouguet. La Vie

Municipale, pp. 115 ff., and Jones, Cities, pp. 311 f. Bell. The Problem of the Alexandrian Senate, Aegyptus, (٧)

12, (1932) 172 ff., Norsa and Vitelli, in Bulletin de la Société d'Archéologie d'Alexandrie, Supp. Fasc. 25 (1930) pp. 9 ff., and Ibid 27 (1932) pp. 1—17, Mommsen, Roman Hist., Provinces, Transl. W. P. Dickson, II, p. 236 ff, and Tarn, Hellenistic Civilization (1950) p. 161.

Milno, Egypt, pp. 282 ff.

(٢) من هذا رأى أيضاً:

لأن أغسطس أقر نظام المدينة بدون مجلس تشريعي (boulé)^(١). هذا الإجراء من جانب أغسطس يعتبر طعنة لكبرياء الأسكندر به ، ولعل العرض الحقيقي منها هو إشعار مواطنيها بتبعيتهم الجديدة لروما. ومع ذلك فقد بقيت الأسكندرية للمدينة الأولى في مصر والمثال الذي تقاس به وتمتذيده سائر المدن ، فن ناحية أخرى اكتسبت مواطنة الأسكندرية أهمية خاصة في العصر الروماني - كما سبق أن ذكرنا - لأن مواطني الأسكندرية أعفوا من ضريبة الرأس ، كما أصبح لزاما على كل مصري أن يحصل على مواطنة الأسكندرية قبل أن يجوز له أن يحصل على المواطنة الرومانية. هذان الامتيازان جعلوا مواطني الأسكندرية يكونون رسمياً طبقة أرستقراطية بين سكان مصر جميعاً .

أما عن نظام حكم مدينة الأسكندرية وإدارتها ، فقد كان مبدأ الازدواج الإداري ممثلاً فيها أيضاً : موظفون مدنيون يمثلون للمواطنين ، وموظفون معينون يمثلون السلطة المركزية . ولعل الأسكندرية في ذلك كانت المثال الذي اتخذ في نظام التروبوليس^(٢) . فقد وجدت في الأسكندرية جميع الوظائف المدنية التي وجدت في التروبولات وهي : الأكسيجيتيس (exegetes) وجمنازيارخس (gymnasiarchos) وكوسميتيس (cosmotes) وأجورانوموس (koranomos) والكاهن (neocoros) . كانوا في مجموعهم يكونون لجنة تسمى (prytan is) تحت رئاسة الأكسيجيتيس ، وكان يضاف إليهم أعضاء آخرون معينون من قبل الإمبراطور شخصياً . وكانوا عادة من عبيده المحررين (Kaisarioi) . أما عن طريقة تولي هذه المناصب ، فنعلم من خطاب الإمبراطور كلوديوس للشهور أنه قد وافق على جعل وظيفة الكاهن فقط بالاقتراع بين المتقدمين ، مما يدل على أن سائر المناصب تم بطريقة أخرى وهي الانتخاب بواسطة المواطنين

(١) Dio cassius, 51, 17, P. S. I 1160, P. Lond. No. 1912

in Bell, Jews and Christians.

Jouguet, loc. cit, and Jones, loc. cit.

(٢) أنظر

ومما يؤيد هذا الاعتقاد أن رئيس الجنازيوم أو الجنازارخس كان يقوم دائماً في العصر الروماني بدور الزعيم الشعبي ضد الحكم الروماني ، كما يتضح من مجموعة أعمال الشهداء الوثنيين . وفيما يتعلق بمدة تولي المناصب فإن كلوديوس في الخطاب ذاته يقر جعلها مدة ثلاث سنوات فقط .

ورغم وجود هذه الوظائف المدنية فيجب ألا نظن أن الرومان كانوا أرحب صدرًا فيما يتعلق بحرية المدن واستقلالها ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان للسلطة المركزية موظفين في المدينة يشرفون ويتدخلون في كثير من شئونها وقد رأينا رجال الإمبراطور معينين في لجنةحكام المدينة ، وفوق ذلك وجد أيضاً حاكم للمدينة (Shatezos) وقائد للبوليس . ويبدو أخيراً أن النظام القضائي قد تعرض لتغير جذري ، فلم نعد نسمع عن محاكم المدينة ، وجميع القضاة أصبح الآن بيد السلطة المركزية أو من يمثلها فقط ^(١) . وحتى منح مواطنة المدينة لتغير أبناء الأسكندريين كانت في يد الإمبراطور ^(٢) . ومحاكمة من أقصموا أنفسهم في سجل المدينة بغير وجه حق من سلطه الوالي ^(٣) .

أما عن المدينة الإغريقية الجديدة التي أنشأها الرومان في مصر وهي أنفينوبوليس ، فقد أسسها هادريان في عام ١٣٠ على موقع مدينة مصرية قديماً تخليداً لأحد أصفياه الذي غرق في مياه النيل . ويعتبر تأسيس هذه المدينة من دلائل اهتمام هادريان بالحضارة الإغريقية ، فقد منحها نظام المدن اليونانية المستقلة وأنها نظمت على مثال أقدم مدينة يونانية في مصر وهي نوقراطس ، فكان

(١) أم مصبرين ها : P. Loud. 1912. in Bell.

ولكن أنظر نقداً اس. اس. ج. في كتاب (Jouguet, op. cit. pp. 167 ff.

Strabo. 17. 1. 12 Jews and Christians.

Pliny. Epist. X. 7. (٢)

P. Gnomon 40. (٣)

لها نظام الحكم المحلى عن طريق الموقطين المدنيين المنتخبين ومجلس تشريعى (Boule) وهو ما قد حرمت منه الأسكندرية ذاتها فضلا عن سائر المتروبولات أما مواطنو هذه المدينة الجديدة فقد جلب بهم من إغريق مدينة بطليسة فى منطقة طيبة ومن إغريق منطقة الفيوم الذين عرفوا باسم « ال ٦٤٧٥٠ إغريقيا فى نوموس أرسنوى » ، وكذلك من الجنود المشرحين من الجيش الرومانى. وقد منج مواطنو أتينيوبوليس امتيازاً خاصاً لم يمنح للمدن اليونانية الأخرى وهو حق الزواج من المصريين. وقد قسم المواطنون إلى قبائل وأحياء (phylai , demoi) ، كما كان الأمر فى الأسكندرية وأثينا أيضاً. هذه هى أم معالم المدينة الجديدة ومنها يتضح أنها قد ولدت من حيث النظام مدينة يونانية كاملة ، وقد ساعد على ازدهارها المادى أول الأمر ، ذلك الطريق التجارى الذى بناه هادريان ليصل مدينته الجديدة بالبحر ، فى فترة بلغت فيها تجارة مصر الشرقية مرحلة من أزهى مراحل نشاطها^(١).

إصلاحات القرن الثالث :

هذه هى المعالم الرئيسية لنظام الحكم فى مصر فى القرنين الأولين من الحكم الرومانى. وقد أمكن العمل بهذا النظام بنجاح خلال القرن الأول وأكثر من نصف القرن الثانى، ولكن فى النصف الثانى من القرن أخذ يتكشف عن قصور وعميوب مختلفة أذرت فى نهاية القرن بفشله وسقوطه. وكان من الطبيعى أن يتعرض مثل هذا النظام للفشل بعدمضى بعض الوقت، لأن كل نظام إدارى أو سياسى مرتبط بضرورة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد. ولتوضيح ذلك نقول أن سكان

(١) خير مرجع عن مدينة أنتينووبوليس ما :

E. Kuhn, Antinoopolis (1913) Bell, Antinoopolis. A. Hadrianic Foundation in Egypt, J. R. S. 30 (1940), 133-147.

كل نوموس في الريف المصرى كانوا في القرنين الأولين ينقسمون أساساً إلى فئات أو طبقات ثلاث :

أولاً : أقلبيات من الرومان والأسكندريين تتمتع بامتيازات مختلفة .

ثانياً : أهل عواصم النومات الأصليون (متربوليون) وهم من أصل إغريق أو مصريون متأغرقون . ويمثلون الطبقة الوسطى في المجتمع المصرى .

ثالثاً : أهل القرى والريف من صغار المزارعين والفلاحين . ويمثلون الطبقة الدنيا في المجتمع المصرى .

وقد رأينا عند وصف النظام الإدارى في مصر الرومانية أنه كان ينقسم إلى قسمين أساسيين : الأول مأجور أى يتقاضى الموظف فيه راتباً سنوياً ، وهذا القسم يشمل المناصب الكبرى في سلك الإدارة المركزية مثل وظائف الإستراتيجوس والكتاب الملكى . والقسم الآخر غير مأجور ويشمل في درجاته العليا مناصب الحكم المحلى في المتروبولات التى كانت تعتبر تشريعاً لمن يتولاها ، وفي درجاته السفلى وظائف الاعمال والخدمات الاجبارية (*leiturgia*) بما فيها كاتب القرية أو العضوية في لجنة شيوخ القرية وما دون ذلك من أعمال الحراسة والنقل والحفر ، مما كانت الدولة تفرضه فرضاً على الاهالى حسب قدراتهم المادية .

فإذا ما بحثنا عن نصيب كل طبقة من الطبقات الثلاث من هذه المسؤوليات الادارية بأنواعها المختلفة ، سهل علينا تبيان وجه الخلط في النظام بأسره خلال القرنين الأولين كثيراً ما تولى الرومان والأسكندريون المقيمون في الريف المناصب الهامة في الادارة المركزية في النومات مثل مناصب الاستراتيجوس والكتاب الملكى ، ولكنهم قلما تولوا الوظائف المدنية الأخرى غير للأجرة أو وظائف الخدمة الاجبارية ، مع استثناء القيام بعملية الضرائب بطريق

الالتزام ، التي كثيراً ما كانت تذر عليهم الريح الوفير . فيبدو أن للرومانيين والرومانيين والأسكندريين لجأوا إلى كل وسيلة ممكنة للتهرب من تحمل أى أعباء إدارية في الريف^(١) : ولا شك أن مواطنهم ساعدتهم على إثبات أنهم لا يمتثلون إلى الترتيبات ، ولهذا لا يجوز أن يتحملوا تبعات وظائفها — لأن للبدأ الأساسي في تولي الوظائف للدنية هو المواطن (orgio)^(٢) ، أى أن كل شخص في موطنه. لهذا السبب وقع عبء الإدارة في الريف على كاهل الفئتين الثانية والثالثة فكانت: وظائف الحكم المحلي في الترتيبات تقع على المتروبوليين ، بينما تحمل المتروبوليون الأعمال اليدوية والوظائف القروية من الخدمات الإجبارية العامة. ومن تتبع الحياة العامة في الريف المصري في القرن الثاني يتبين أن الأعباء التي أقيمت على كاهل هاتين الطبقتين الأخيرتين كانت أكثر من أن تتحملها طاقتهن المادية . فكثير من أهل القرى فروا من قراهم إلى المدن الكبيرة أو إلى مجاهل شمال الدلتا ، هرباً من الضرائب والخدمات الإجبارية ، بينما تحولت الوظائف الإدارية المختلفة في الترتيبات إلى خدمات إجبارية تفرض على القادرين من الأهالي فرضاً دون اعتراف بأى نظام من نظم الاختيار الشخصي. ونظراً لكثرة تكاليف هذه المناصب ، فقد عانى المتروبوليون كثيراً من جرائها ، حتى أصبح من المعتاد في نهاية القرن الثاني العثور على عدد كاف من الأفراد ممن تتوفر فيهم الشروط اللازمة لشغل جميع الوظائف حتى أو شك النظام الإداري بأسره على الانهيار^(٣) .

زار مصر في ذلك الوقت الإمبراطور سيثميون سيفيروس (١٩٩-٢٠٠)

(١) وحتى القيام بالتزامهم بالضرائب كانوا يتهربون منه عند الضرورة كما يوضح من :

B. G. U. 747 (137 A. D.) = Wilcken, Chrest 35.

(٢) حول الوطن (origo) أنظر : Jouguet, Le Vie Mun. 91 ff.

(٣) يوجد وصف وافٍ لآثار هذا الانهيار في كتاب Jones, Cities, pp. 319 ff.

ومنح مدينة الإسكندرية وعواصم النومات (متروبولات) نظام المجلس التشريعى (boulé) ، وهى محاولة لتوحيد النظام الإدارى فى مصر وسائر ولايات الإمبراطورية الرومانية . ولكن هدف سيفيروس الحقيقى من وراء هذا الإصلاح لم يكن تعميم نظام الحكم المحلى وتميز الحريات السياسية ، بقدر ما كان من محاولة لائقاء مسئولية الادارة على الأهالى بدلا من السلطة المركزية . فبذلك التاريخ أصبحت طبقة أصحاب الأملاك فى كل متروپوليس مسئولة بأجمعها فى هيئة مجلس عن شغل وتمويل المناصب العامة^(١) . من أهم نتائج هذا الإصلاح فى مصر على أى حال هو الزيادة من أهمية المتروبولات بعد أن سواها بالعاصمة الإسكندرية وأصبحوا جميعا يتمتعون بمجلس تشريعى . ويبدو من قاحية أخرى أنه لم يسمح للفئات الممتازة من الرومان والاسكندريين المقيمين فى الريف بالتهرب من تحمل نصيبها فى الادارة المحلية فى ظل نظام المسئولية الجماعية الجديد . فلعلهم من الطريف أن أول عضو فى المجلس التشريعى الجديد فى مدينة أو كسير نخوس (البهنا) فى سنة ٢٠١ كان مواطنا أسكندريا^(٢) .

ومن الإصلاحات الخطيرة أيضا التى جاءت فى أعقاب تشريع سيفيروس قانون الامبراطور كازا كلا الذى صدر فى سنة ٢١٢ بمنح المواطنة الرومانية لجميع السكان الاحرار فى الاميراطورية باستثناء طبقة الخاضعين (deditici) فى مصر ، على أى حال ، شمل هذا القانون المصريين جميعا ، وكانت له النتائج التالية :

- (١) أنظر : Jones' Cities. 329 f.; and E. P. Wegerer, The Boulentai of the Metropoleis, in Symbolae Van Oven, P. 160 6.; and in Mnemosene (1947) pp. 15—42, 115 — 132, end 297 — 326.
- (٢) P. S. I. (٢) وأنظر 13 (1951) R. Calderini. Bouleutika Aegyptus XII. No. 1228 (201 A. D.)

أولاً من الناحية القانونية، أصبح جميع السكان قانوناً مواطنين رومانيين، رغم أنه استمر تطبيق القانون المصري الاغريقي^(١). ثانياً من الناحية السياسية لم يعد هناك تمييز رسمى بين المواطنين الرومانيين والاسكندريين من الناحية والمثروبولين من ناحية أخرى. القاعدة الجديدة لتحديد مسئولية الأفراد هي الموطن (arigo)، والذي كان وراثياً، حتى أن الاسكندريين المقيمين في الريف الذين كان يحق لهم أن يدعوا أن موطنهم الاصلى هو الاسكندرية، لم يجدوا فائدة تجنى من تمسكهم بكبرياتهم القديمة، وكثيرون منهم تدريجياً اتخذوا مكان إقامتهم في الريف بمثابة موطن لهم (arigo)^(٢). يتضح من هذا أن نتيجة هامة لقانون كارا كلا من وجهة النظر السياسية أنه قد تمت عملية تسوية هابطة في اتجاهها بين الفئات القديمة الممتازة من الرومان والاسكندريين وفئة المثروبولين أى أن قانون كارا كلا ألغى جميع الامتيازات المحلية. ويبدو أن هذه التغييرات لم تكن قاصرة على مصر وحدها، بل كانت عامة في ولايات الامبراطورية المختلفة نتيجة لتطبيق قانون كارا كلا^(٣).

ثالثاً من الناحية الادارية : نتيجة أخيرة وثيقة الصلة بالنتيجة السالفة هي أن الرومان والاسكندريين المقيمين في المثروبولات أصبحوا ملزمين بالدخول في عضوية المجالس التشريعية المحلية الجديدة وفي تولي مناصب الحكم المحلى، شأنهم في ذلك شأن المثروبولين سواء بسواء. ولم تقتصر هذه المسئولية على أولئك الذين

V. Arangio - Ruiz, L'Application du droit Romain en (١)
Egypte après la Constitution Antoninienne, Bull. la It.
d'Egypt, 29 (1948) pp. 83 ff.

S. B 178 (III A. D.); P. Ox VIII, 1115 (237 A. D.); (٢) أنظر مثلاً:
P. S. I., XII, 1249 (255 A. D.), P. S. I. No. 203 (III A. D.).
P. For. 50 (III A. D.).

Jones, A. H. M.: Studies to Roman Government and (٣) أنظر
Law (1960) pp. 136 ff.

أخذوا من التروبوليس موطننا لهم، ولكن شملت الأفراد الذين كانوا مقيمين
قط في للتروبوليس وكانوا يمتلكون النصاب المالى اللازم لتولى الوظائف .
وذلك لأن الرومان والأسكندريين - كما سبق أن ذكرنا - لم يعودوا يكونون
قوات ممتازة ذوى مواطنة خاصة ، ولذلك لم يكن هناك من سبيل إلى الهرب من
تحمل نصيبهم في الإدارة المحلية^(١) . ولا نجد استثناء من هذه القاعدة إلا مواطنى
مدينة أنطينوبوليس الذين كانوا يتمتعون بامتياز قديم كان قد منح لهم وهو
إعفاؤهم من تولى مناصب الحكم المحلى والخدمات الإجبارية خارج مدينتهم .
ويبدو أنهم ظلوا يتمتعون بهذا الامتياز حتى عام ٢٥٤^(٢) ، ثم ألغى بعد ذلك
مباشرة ، وطبق عليهم للبدأ العام من إمكان تولى المناصب فى أكثر من
مكان عند توفر الشروط اللازمة^(٣) .

وفيا يتعلق بطلقة القرويين والفلاحين التي شملها أيضاً قانون كرا كلا ،
 قد كان يحدث أحيانا أن يطالب أفراد منهم بتولى الوظائف في التريولات ،

(١) اند وردت مسألة تولي الوظائف المدنية في الوطن أو في عمل الإقامة والتس القانوني :
 "Digest 50. l. 17. 4" - Sed eodem tempore non sunt honores
 in duabus civitatibus ab eodem gerendi : cum simul igitur
 utraque deferantur, potior est originis causa. - يعني أنه
 لا يجوز أن يتولى الشخص الواحد مناصب الحكم المحلي المدنية (honores) في مدينتين
 في الوقت ذاته. ولكن عند حدوثهما في مكانين في وقت واحد ، فإن للوطن الأصلي (origo)
 أولي بمخدرات مواطنيه . لذلك من هذا التس أنه عند معالجة مواطن مقيم في غير موطنه
 الأصلي يتولى المنصب في مكانين (الوطن وعمل الإقامة) في وقت واحد ، فلهذا للمواطن أن
 يختار بينهما ، ولو أن القانون يفضل الموطن . ولكن يبدو أيضا أن القانون يبيح للفرد أن
 يتولى الوظائف في مكانين عطفين إذا حدث ذلك في أوقات مختلفة .

P. Ox. 1119, (253-4 A. D)=Wilcken, Chrest 397. ان(ر)

P. Ox. 2130 (267 A. D); **P. Flor.** I. 95 (365—376 أندر (٢) A. D.); and **P. Vindob. Gr. Inv.** 25—945 (242 A. D.) in Wagoner, *The Bouleutai of, Symbola van Dyck.* pp. 181 — 182.

(م ۱۶ - اسکتور)

إلا أن القاعدة العامة أنهم لم يتولوا هذه المناصب إما لفقرهم صوماً أو لأنه كان من حقهم أن يتمسكوا بالخدمة في موطنهم الأصلي (origo) فقط وهي القرية حيث كانوا يقيمون^(١). وعلى ذلك فيمكن أن يقال إن أهم نتيجة إدارية لقانون كارا كلا أن عدداً لا بأس به من أفراد الطبقات الثرية من الرومان والأحكندريين وغيرهم المقيمين في الريف قد أدمجوا نهائياً في طبقة أهل عواصم النواحي من التربوليين .

S . B. 7696 (250 A. D.); of. Wegener, *Moemmosene*, (1947) (١)
pp 115 ff.

(ح) الحياة الاقتصادية

نظام الأراضي :

لم يكن الإمبراطور أغسطس ولوعاً بالظهور بمظهر التأثير المثير ، بل لعله كان أكثر ولعاً بالإصلاح . دون أن يصبغه بالصبغة الثورية ، فكان حريصاً على أن يضيف على أعماله مظهراً تقليدياً ، بعيداً في الظاهر عن مظهر الثورة والتبديل ، رغم أن أعماله كثيراً ما كانت ثورية في واقع الأمر ، جذرية في آثارها في عصره ومن بعده إلى زمن بعيد . وتتضح هذه السياسة بجملاء في الخطة التي اختطها أغسطس بشأن نظام الأراضي في مصر . فن حين المظهر تبدو وكأنها استمرار لنظام الأراضي البطلمي ، إذ أبقى على تقسيم الأرض بأنواعها البطلمية مستخدماً نفس المصطلحات البطلمية في أغلب الأحيان . فبقيت أرض مصر تنقسم أساساً إلى نوعين من الأرض : العامة التي تمتلكها الدولة ، والخاصة التي يمتلكها الأفراد . هذا من حيث المظهر فقط ، أما من حيث الواقع فإن أغسطس أسس سياسة تختلف تماماً مع سياسة البطالة الرسمية . فبقدر ما كان البطالة يأخذون مبدأ ملكية الدولة ممثلة في شخص الملك ، اتجهت السياسة الرومانية الجديدة نحو تشجيع الملكية الخاصة والاستثمارات الشخصية بأنواعها المختلفة . هـ .

هي نقطة التحول في الاقتصاد المصري بين العصر البطلمي والروماني . فبالرغم من أن الملكية الخاصة وجدت ونمت في العصر البطلمي إلا أنها كانت ظاهرة تسير في عكس اتجاه السياسة الرسمية للدولة ، أما في العصر الروماني فإن السياسة العامة كانت تدفع نظام الملكية الخاصة دفماً إلى الانتشار والنماء .

في ظل هذه السياسة العامة يمكننا أن نتحدث عن كل نوع من أنواع

الأرض ونبين ما أصاب كل واحد منها من تطور في العصر الروماني .^(١) ونبدأ بالأرض التي كانت تمتلكها الدولة وكانت تسمى عمومًا الأرض العامة (*gē demosia*) ، وكانت تتكون أساسًا من الأرض الملكية (*gē basilikē*) للمروفة منذ العصر البطلمي . وظل هذا النوع من الأرض كما كان من قبل يؤجر في شكل قطع صغيرة إلى الفلاحين للزراعين للملكيين مقابل إيجار معلوم يقدر بنسبة معينة من المحصول السنوي للأرض .

وفي نطاق أراضي الدولة نرى نوع من الأرض عرف باسم الأرض العامة أيضًا (*gē demosia*) ولكن معناه لم يتحدد بعد ، ولعل هذا النوع المعين من الأرض كان يضم قطعًا صغيرة من الأرض مثل شواطئ النهر أو الزيادة التي تطرأ على مساحة الجزر النهرية ، والتي لم يتم وضعها ضمن قسم معين من أقسام الأرض الأخرى^(٢) .

أما عن أرض المعابد (*gē hierētikē*) التي كانت ضمن أقسام الأرض الرئيسية في العصر البطلمي ؛ فلم يسمح أغسطس باستمرارها وصادرها وألحقها بملكية الدولة . ورغم أن الإصلاح القديم يظهر أيضًا في وثائق العصر الروماني ، فإن ذلك خطأ كان يرتكب عمدا بواسطة المؤرخين الذين اعتادوا استخدام هذه الاصطلاحات في أوراقهم ، واستعملوا إطلاق الأسماء القديمة على الأرض بعد أن تغيرت صفتها الرسمية . أما عن طريقة إدارة أرض المعابد بعد استيلاء الدولة عليها ، فقد أضيفت هذه المسئولية إلى الموظف المالي المعروف باسم الإيديوس لوجوس ، الذي تولى أيضًا منصب رئيس الكهنة في مصر . وهي أكبر

(١) نفا بطلق بنظام الأراضي في مصر الرومانية أنظر : Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. of Roman Empire, 2nd. ed., pp. 281 ff. and notes; Wilcken, Grunzage Vol. 1, ch. VII. pp. 287 ff; and Johnson, Roman, Egypt, pp. 25 ff.

Johnson, Roman Egypt, p. 25.

(٢)

خطوة اتخذها أغسطس للسيطرة على المعابد والكهنة ماديا وسياسيا^(١).

ولم يكتف أغسطس بالاستيلاء على أرض المعابد، بل استولى على أراضي أخرى وضمها إلى ملكية الدولة، مثل الأراضي الخاصة أو التي كانت هبة من الملك البطلمي ثم أهلها أصحابها أو هجروها أو قصروا في دفع ما كان مستحقا عليهم من الضرائب فكان من حق السلطة المركزية الاستيلاء على هذه الأراضي وضمها إلى أملاك الدولة، وكان يشرف عليها أيضاً الإيديوس لوجوس^(٢).

هذه هي الأقسام الرئيسية التي كانت تشملها الأرض العامة، وقد وجدت أنواع أخرى ولكنها كانت أقل أهمية من الناحية الاقتصادية، وليس هنا مجال الإفاضة عنها. وقد يتبادر إلى الذهن بعد ذكر هذه المصادر المختلفة أن سياسة أغسطس لم تختلف كثيراً عن سياسة البطالمة من حيث الحرص على جعل الملكية العامة هي أساس الاقتصاد المصري في مجال الزراعة. ولكن في الواقع لم تكن هذه المصادر إلا إجراءات أولية، الفرض الأساسي منها هو ضبط الاقتصاد المصري في أول الأمر ومنعه من التدهور الشديد كما كانت الحال في الجزء الأخير من العصر البطلمي. لأن كل الدلائل تثبت أنه بالرغم من أن ملكية الدولة ظلت تتحكم في قطاع هام من الأرض الزراعية، فإن الرومان اهتموا بسياسة جديدة أكيدة تهدف نحو تشجيع الملكية الخاصة بشكل لم يسبق له نظير. وكانت هذه السياسة جزءاً من سياسة أغسطس العامة في سبيل استعادة اقتصاد البلاد. ومن أجل تنفيذ هذه السياسة لجأ إلى أساليب مختلفة، من ذلك أنه اعتبر الإقطاعات العسكرية البطلمية Kleroi ملكية خاصة لأصحابها بعد أن

P. Tebt. II. 302 (71-2 A. D.)=Wilcken, Chrest. No. (١)

368; cf. also Wilcken, Grundz., pp. 300 ff,

Strabo, 17. 12 (c. 797. 12); P. Ox. IV. 721 (13-14 (٢)

A. D.)=Wilcken, Chrest. 369.

كانت من الناحية الرسمية على الأقل هبة مؤقتة، كما سبق أن بينا^(١). وبذلك يمكن أن يقال إن الاتجاه العام الذى ظل ينمو فى العصر البطلمى نحو خروج هذه الإقطاعات من ملكية الدولة لتحقيق نهائياً فى العصر الرومانى، وعلى هذا النحو زادت الملكية الخاصة (*gé idiotiké*) سيادة كبيرة .

بعد أن أتم أغسطس فتح مصر مباشرة، يبدو أنه منح جنوده الذين استقروا فى البلاد إقطاعات عسكرية لتكون ملكاً لهم، ولكن التقليد الذى اتبع بعد ذلك هو منح الجنود مكافآت مالية وتشجيعهم على شراء الأرض من الدولة بأسعار إسمية^(٢). ولم يكن بيع هذه الأرضى التابعة للدولة قاصراً على الجنود، بل كان مباحاً للجميع، لأن الهدف الرئيسى هو تشجيع شتى الطبقات على استثمار أموالهم فى الزراعة من أجل النهوض بحالة البلاد اقتصادياً. فقد كانت أسعار الأرضى للبيع مشجعة للغاية حتى بالنسبة لسعر الأرضى البور التى كان يتكون منها معظم هذا النوع من الأرض. ولضرب على سبيل المثال بعض الأسعار التى أمكن جمعها من الوثائق البردية : ١٢ دراخمة للأورورا فى أوكير نخوس^(٣)، ٢٠ دراخمة للأورورا فى هرموبوليس^(٤)، ٢٨ دراخمة للأورورا فى تبتونس وكذلك فى كرانس (وكلاهما فى الفيوم)^(٥). وفى بردية أخرى من هرموبوليس نجد أن قطعة أرض صادرتها الدولة وباعتها بالمزاد المائى، قد زاد سعرها قليلاً إلى ٤٠ دراخمة للأورورا^(٦). ولكى يتضح مدى

Wilcken, Grundz., pp. 303—396. (١)

Rostovtzeff, Soc. Ec. Hist. Rom. Emp., pp. 147 f.; (٢)

Lesquier, L'Armée romaine d'Egypt, p. 328.

P. Ox. 721 (14 A. D.); P. S. I. 320 (18 A. D.). (٣)

P. Amb. 68 (60 A. D.). (٤)

S. B. V. 7599 (95 A. D.); B. G. U. 422 (140 A. D.). (٥)

S. B. 5675 (147 A. D.). (٦)

انخفاض هذه الأسعار عموماً نذكر أن متوسط سعر الأرورا من الأرض الزراعية كان ١٨٥ دراخمة في القرن الأول ، و ٣٢٤ دراخمة في القرن الثاني. هذه الإجراءات التشجيعية قفزت بالملكية الشخصية في الأرض قفزة كبرى منذ بداية العصر الروماني ،^(١) ولكن نوعاً معيناً من الملكية الخاصة يستحق مزيداً من الإفاضة هنا نظراً لأهميتها الاقتصادية ، وهى الملكية الكبيرة التى عرفت باسم *ousia* (أو الوسية في الاستعمال الدارج الآن). والسبب في نشأتها أن الإمبراطور أغسطس ، من أجل الإسراع بعملية استصلاح الأراضى على نطاق كبير — لجأ إلى أسلوب شبيه بأسلوب الملك فيلادلفوس ، وإن اختلفت وسيلة التطبيق في الحالين . فبدلاً من منح إقطاعات كبيرة من الأرض (*dorene*) إلى أصفياؤه وكبار موظفيه ، دعا أغسطس أفراد الطبقة الأرستقراطية في كل من روما والألكندرية إلى أن يستثمروا أموالهم في زراعة مساحات كبيرة من الأرض في مصر . الإقطاعات أو الملكيات الكبيرة من الأرض هى التى عرفت في العصر الروماني الأول باسم « وسية » *ousia* ، وكانت تمنح أو تباع للأفراد من الأراضى الكثيرة التى صادرتها الدولة في بداية العصر الروماني . ولقد أثبتت تجربة الوسية هذه نجاحها ، كما فعلت سابقها إقطاعات البطالة (*dorene*) في القرن الثالث قبل الميلاد ، ويبدو أن «وسيات» العصر الروماني لعبت دوراً كبيراً في إنعاش الحياة الاقتصادية للبلاد على أسس رأسمالية في القرن الأول للميلادى .

ويكفى النظر إلى قوائم أسماء أصحاب الوسيات لتبين أهمية هذه الطبقة ، فجميعهم أفراد ذوو ثروة وسلطان . أباطرة أو أفراد العائلة الإمبراطورية أو أصفياء الإمبراطور أو وزراء رومان أو المحررون من عبيد الإمبراطور ، أو

رؤساء المجتمع الأسكندري. وبفضل أموالهم الطائلة تمكنوا من تحويل كثير من الأراضى البور إلى أراضى زراعية تنتج ما كانت تنتجه قديماً من محاصيل. كانت الوسية من الناحية القانونية ملكية خاصة لصاحبها ، أما من حيث الضرائب فلم تكن هناك قاعدة محدودة ، ولكن تمتع أصحاب الوسيات صوماً بامتيازات مختلفة ، تدرجت بين الإعفاء من الضرائب ودفع ضرائب مخفضة^(١) .

ولدينا بردية تلقى ضوءاً عن كيفية حصول أحد أفراد الأرستقراطية فى الأسكندرية على أرض وسميته، وهو جايوس يوليوس ثيون الذى شغل مناصب كبيرة فى الدولة وإبنته بالاسم ذاته. ويبدو من الوثيقة أن جايوس يوليوس ثيون الكبير تقدم أصلاً بطلب شراء أرض من الدولة، وأن الوالى تورانيوس (سنة ٧ — ٤ ق. م) صرح له بشراء أرض من أملاك الإمبراطور على أن يسدد جميع استحقاقات الدولة. ولكن لسبب غير معلوم لم يتم تعيين الأرض وتسجيلها ولم يدفع المبلغ المستحق عليها . على أى حال بعد ذلك بقليل تقدم ابن الطالب الأول بطلب جديد فى عام ١١/١٠ م. وعين له الوالى أكويلا فى نوموس أو كسير فخور أرضاً كانت تنتمى أصلاً إلى معبد إيزيس. ونعلم من البردية أن مجموع استحقاقات الدولة من ثيون الصغير زاد على التلتين^(٢)، أى ما يساوى ١٢٠٠ دراخمة . فإذا ما فرضنا أن السعر الذى دفعه ثيون هو متوسط السعر الذى كان يدفع لأرض الدولة المباعة فى ذلك الوقت وهو عشرون دراخمة للأوراء، فإن مساحة الأرض التى اشتراها تزيد على الستمائة أوراء. هذا مع العلم أن من

(١) خير عرض لموضوع الوسية فى بداية العصر الرومانى هو : Rostovtzeff, Soc. & Ec. Hist. of Rom. Emp, 2nd ed., pp. 292 ff., esp. notes 45 and 46. See also P. Philad. No. 19 (I—II cent. A. D.) P. Ox. XII. 1434, lines 6—17 (7—4 B. c.—11 A. D.) (٢)

المحتمل أن السر كان أقل من ذلك بسبب كبر حجم الأرض - وكانت هذه الوسيات الكبيرة تعتبر وحدات اقتصادية هامة في الريف المصري ، وكان يديرها وكلاء عن أصحابها الذين كانوا يقيمون عادة بعيداً عن أرضهم في الأسكندرية أو روما. وكثيراً ما عنت على الوسية حركة صناعة نشطة تعتمد على منتجات الأرض ، مثل صناعة الزيوت ، والمحور من الزيتون والأعشاب التي تنتجها الوسية .

على أن هذه الموجة من ملكية الوسية لم تستمر كثيراً بنفس هذه القوة ، إذ سرعان ما تغيرت النظرة الرومانية الرسمية نحو الملكيات الكبيرة التي يمتلكها أفراد لا يقيمون في البلاد ، واتجهت السياسة نحو قصر تملك الأرض على سكان البلاد . ولذلك لم ينته القرن الأول الميلادي إلا وكانت معظم وسيات أعضاء الأسرة الإمبراطورية والأرستقراطية الرومانية قد آلت إلى ملكية الإمبراطور الشخصية إما عن طريق وراثتها أو مصادرتها حين يموت صاحب الأرض أو لأي سبب آخر . مجموع هذه الأراضي التي استولى عليها الإمبراطور أصبحت تكون قطاعاً جديداً من قطاعات الأرض في مصر الرومانية يعرف باسم *pfousinké* (رغم أن الأراضي استمرت تحمل أسماء أصحابها الأصليين) .

ولكن يجب ألا نستنتج أن موجة مصادرة الوسية في نهاية القرن الأول قضت على ظاهرة الملكيات الكبيرة في مصر^(١) ، فوثائق القرن الثاني الميلادي تثبت أن كثيراً من الملكيات الكبيرة استمرت موجودة من القرن الأول ؛ مما يدل على أن أثر ياء الأسر في الأسكندرية والريف المصري ظلوا محافظين على

(١) كما ذهب كل من : Roslovitzeff Soc. Ec. Hist. Rom. Emp. : 294-5, and Johnson and West, Byzantine Egypt, p. 39 f.

ملكياتهم الكبيرة التي حصلوا عليها في بداية العصر الروماني^(١). نتيجة لذلك كله نستنتج أن سياسة روما الجديدة في مصر وهي بيع الأراضي للمصادرة سواء في مساحة كبيرة أو صغيرة أدت في النهاية إلى زيادة الملكية الخاصة وزيادة لم يسبق لها مثيل .

أما عن أرض المدن الإغريقية ، فقد استمرت أيضاً في العصر الروماني ، وزادت أيضاً عن ذي قبل بسبب زيادة هذه المدن ، أولاً بإنشاء مدينة أتينوبوليس سنة ١٣٠ ؛ ثم بعد ذلك حين أصبحت عواصم النومات (للترابوليات) مدناً ، لها نظام المدن الإغريقية ، بفضل إصلاح ميثميوس سفيروس في بداية القرن الثالث . فجميع هذه المدن مزجت قطعاً من الأرض خاصة بها وأصبحت تسمى بالأرض المدنية *Politikē* . ١٠

من سوء الحظ أننا لا نمتلك من العصر الروماني وثيقة توضح مدى انتشار الأنواع المختلفة في الأرض في مصر ، ولكن دراسة حديثة لمجموع وثائق هذه الفترة تبين أن نسبة الأرض الخاصة للأرض العامة كانت ٥٠ : ٥٠ خلال القرنين الأولين ؛ مع ازدياد نقصان مساحة الأرض العامة بصورة مضطردة حتى تختفي تماماً في القرن الرابع^(٢) .

وتبين دراسة أحوال الأرض في القرن الثالث كيف حدث هذا التطور . فإن ظروف الاستقرار والرخاء التي عمت الإمبراطورية الرومانية في أثناء القرن الثاني لم تستمر إلى القرن الثالث حين تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأزمات

(١) أمثلة من الملكيات الكبيرة توجد : P. Strassb. I. no. 3; 24; 74-5; 78 (c. 118 A. D.); P. R. Univ. Milan. No. ٢8 (162 — 3 A. D.); P. S. I., I, 31 (164 A. D.), and B.G. U. I. 603-4. (167-8 A. D.); B. G. U. III. 959 (148 A. D.) and P. Berl. Leibg. No. 18 (163 A. D.).

(٢) أنظر A. Segré: The Byzantine Colanate, in *Traditio*, 5: (1947) pp. 103-133, esp. pp. 130-131.

سياسية متتالية أخذت بالأحوال الاقتصادية كل الضرر مما جمل للزورخين يطلقون على هذا القرن اسم فترة المحنة الكبرى. ولم تسلم مصر من آثار تلك الأحداث العامة في الإمبراطورية ، وبدا ذلك واضحاً منذ الجزء الأخير من القرن الثاني حين بدأ النظام الإداري في مصر يتكشف عن عيوبه. ونحول نظام تولى الوظائف العامة من الاختيار إلى الإلزام ، وطبق نظام الخدمة الجبرية على معظم الوظائف في الإدارة المحلية. وقد شرحنا في فصل سابق كيف أصبح من المتعذر أن يقدم عدد كاف من أصحاب الأملاك على تولى الوظائف في التروبولات بدافع من رغبتهم الشخصية، حتى اضطر الإمبراطور سيفيروس في أول القرن الثالث إلى أن يقوم بإصلاحه المشهور وهو تميم نظام المجالس *boulac* في الأسكندرية والتروبولات ، وإلقاء تبعه شغل وتمويل الوظائف المحلية على أعضاء هذه المجالس ، على أنهم مسئولون مسئولية جماعية .

ولما كانت الملكية الخاصة هي الضمان الأساسي لتولى الوظائف، ازدادت نتيجة لذلك أهمية الملكية الشخصية، فزاد حرص طبقة ملاك الأراضي على زيادة أملاكهم ليتمكنوا من القيام بالمسؤوليات الإدارية التي أصبحت تفرض عليهم فرضاً. فزادت للملكيات الكبيرة بشكل ملحوظ ، وأصبحت « الوسية » من مظاهر الأرض المألوفة في هذا القرن^(١). وقد ساعدت ظروف مختلفة من تمكين الأثرياء من شراء الأراضي على نطاق كبير من بين تلك الأسباب أن القانون يقضى بأن الشخص الذي يرشح لتولى أحد المناصب ويرفض توليها كان يفقد ثلثي ممتلكاته للدولة ، التي كانت تستولى عليها ، وتبيعها بالزاد العلى . ونظراً لاضطراب الأحوال الاقتصادية العامة قد كثير من متوسطى وصغار الملاك أرضهم عن هذا السبيل . ومن الطبيعي أن يتمكن الأفراد الأكثر ثراء

(١) انظر: Rostovtzeff, Soc. Ec. Hist. R. Emp. pp.489 ff and notes.

من شراء الأرض التي نستولى عليها الدولة وتبيعها بالمراد العلى^(١). وأحيانا أخرى تورط متوسط وصغار الملاك في ديون اقترضوها من كبار الملاك، فإذا ما عجز هؤلاء المدينون عن سداد ديونهم - وكثيراً ما حدث هذا - استولى الدائنون على بعض أملاكهم التي يقدمها المدينون هنا، ضماناً لديونهم^(٢).

ولقد وجدت كذلك السهل العادية للحصول على الأملاك عن طريق الشراء والميراث، ولكن كثرة تكرار الظروف التي يضطر فيها الأفراد إلى التغلّي عن أملاكهم هي التي تكشف عن عدم الاستقرار في المجتمع. ففي مثل هذه الظروف يتمكن الأفراد الطموحون من أصحاب الثروة من زيادة ملكياتهم على حساب صغار الملاك، وهو ما حدث في القرن الثالث الميلادي، حتى إذا ما جاء القرن الرابع رأينا أن للملكية الكبيرة هي الطابع المميز للحياة الزراعية في مصر.

الصناعة والتجارة :

لئن كان الاحتلال الروماني قد قضى على كل سيادة سياسية لمصر، فإنه لم يصب اقتصادها بنفس الأمر، بل على العكس من ذلك بذل الرومان جهوداً كبيرة في سبيل إنعاش البلاد اقتصادياً، لأن جزءاً كبيراً من فوائد ازدهار الحياة الاقتصادية في مصر، كان يذهب إلى روما ذاتها سواء عن طريق الضرائب أو عن طريق أرباح كبار المستثمرين من الرومان، وكما شجعت الإدارة الرومانية الملكية الخاصة في المجال الزراعي، كذلك شجعت سياسة الاقتصاد الحر في كثير من أوجه الصناعة والتجارة، ولو أننا لا نعرف معرفة يقينية مدى تطبيقهم لهذه

(١) خرمنلا: XX.2269 (269 A.D.); and P. Ox III. 513 (184 A.D.);

P. Apokrimata, lines 16 ff.; P. Giss. 34 (265/6 A.D.); P. S. I. (٢)

XIII. 1328 (201 A. D.); P. Lips. I. 10 (240 A. D.); P.

Flor. I. 56 (234 A. D.); P. Lips. 9 (233 A. D.).

السياسة الجديدة. فبينما بقيت المناجم مثلاً محتكرة بواسطة الدولة، تركت صناعة الزيت حرة في أيدي الأفراد؛ في حين أن الإدارة الرومانية مارست درجات مختلفة من التحكم والإشراف على صناعات أخرى مثل النسيج، والبردى والطوب والجمعة^(١) ويبدو أن سياسة الرومان من ناحية وظروف الإمبراطورية العامة التي انتشر فيها السلام مدى قرنين من الزمان وموقع مصر للتوسط بين الولايات ثم موقعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب، كل ذلك ساعد على ازدهار الصناعة والتجارة بها على نحو لم تبلغه مصر من قبل. ويكفي أن نقول أن الأسكندرية أصبحت أكبر مركز للصناعة والتجارة في الإمبراطورية الرومانية بأسرها. ولدينا نص يصف الحياة الصناعية في الأسكندرية بهذه العبارات: «إنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء، ولا يوجد بها عاطل عن العمل، فالبعض يعمل في صناعة الزجاج، وآخرون يعملون في صناعة أوراق البردى وكثيرون يعملون إما في صناعة النسيج أو في أية حرفة أو صناعة أخرى، حتى أصحاب العاهات من المعجزة والخصيان والعميان كل له عمله، حتى من قد دوا أيديهم لا يقضون حياتهم عاطلين هناك. الجميع يعبد إلهاً واحداً هو المال، هذا الإله يعبد المسيحيون واليهود وكل طائفة أخرى في الواقع^(٢)» إن البيئة الصناعية التي تصفها هذه العبارة ذات أهمية بالنسبة لدراستنا، نذكر لأنها تذكر الصناعات الرئيسية التي عرفت بها مصر وليست الأسكندرية فقط، وهي صناعات الزجاج والبردى والنسيج. فنحن نعرف أن المصريين القدماء تخصصوا في صناعة الزجاج منذ

(١) خير عرض لصناعة مصر في العصر الروماني هو: Johnson, Roman Egypt, pp. 325 ff

(٢) ينسب هذا النص إلى الإمبراطور هادريان في مجموعة سير الأباطرة الرومان للروفة باسم 7—5, *Historia Augusta, Saturninus*, ولكن من الثابت أن هذه اللبسة غير صحيحة وأنه من وصم أحد مؤلفي المجموعة. ومع ذلك فلها النص أهمية لأنه يلقى ضوءاً على الحياة الصناعية في الأسكندرية.

أقدم المصور، وأنهم ارتقوا بصناعته إلى درجة عالية من الإتقان حتى أنه كان يصدر إلى مناطق مختلفة من البحر الأبيض. ويبدو أن مصر تمكنت من المحافظة على تفوقها في هذه الصناعة في العصر اليوناني والروماني^(١)؛ فهذا استرابون الجغرافي الذي زار مصر في بداية العصر الروماني يذكر أن صنّاع الزجاج في الأسكندرية كانت لهم أسرار خاصة بصناعتهم، وأن تربة مصر كانت تحوى مادة معينة تصلح لصناعة الزجاج المتعدد الألوان^(٢). ومن كتاب القرن الثاني يذكر أينيائوس أن صنّاع الزجاج في الأسكندرية ارتقوا كثيراً بصناعتهم ليحافظوا على مكانتهم في الأسواق الخارجية أمام المنافسة الأجنبية، ومن ذلك أنهم صنعوا الزجاج على أشكال مختلفة محاكين في ذلك أشكال الأواني الفخارية التي كانت ترد إليهم من الخارج^(٣).

أما صناعة ورق البردي وتصديره إلى الخارج فقد ظل احتكاراً لمصر دون أن تخشى أى منافسة أجنبية في هذا المجال. ولقد أدرك البطالمة من قبل مركز مصر الفريد ذلك وتمسكوا من التحكم في أسعار البردي في الأسواق العالمية عن طريق احتكار إنتاجه في الداخل وتصديره إلى الخارج. ولكن الرأي اتسم بين العلماء حول سياسة الإدارة الرومانية في مصر من هذه السلعة والسبب في ذلك هو أن مصادرنا الأدبية لم تكن واضحة فيما يتعلق بهذه النقطة. فالكتاب الروماني بليينيوس الكبير^(٤) رغم الوصف المفصل الذي يورده عن صناعة البردي في مصر - لا يذكر شيئاً عن سياسة الحكومة. وأما الجغرافي استرابون فله جملة تختلف في معناها، وهي قوله «هناك فئة ممن يريدون زيادة دخولهم...»

(١) انظر : Johnson, Roman Egypt, pp. 336—7, and note 3

Strabo, 16, 2, 25. (٢)

Athenaeus, XI. 784. C. (٣)

Pliny, Natura Historia, 13, 11—12 (٤)

ولقد لا يسمعون بنمو البردى في مواضع كثيرة، مما يؤدي إلى ندرته التي ينتج عنها ارتفاع أسعاره ، وبذلك تزداد دخولهم ، بينما هم يسيثون إلى الصالح العام^(١) ، ومن العلماء من يفسر هذه العبارة على أنها تصف سياسة المسؤولين الرسميين، ومنهم من رأى أنها تصف كبار الرأسماليين للتجعين للبردى . والفرق الأساسي بين وجهتي النظر أن أصحاب الرأى الأول يذهبون إلى أن الرومان أقاموا احتكارا حكوميا لإنتاج البردى^(٢) ، أما أصحاب الرأى الأخير فيذهبون إلى أن إنتاج البردى في العصر الروماني كان حرا دون أن يخضع لاحتكار حكومي^(٣) . ولقد جاءت اكتشافات الوثائق البردية الحديثة مؤيدة لهذا الرأى الأخير وأن زراعة البردى وصناعته كانت حرة على الأقل في بداية العصر الروماني . ويبدو أن الإدارة الرومانية بدلا من أن تتدخل في إنتاج البردى وتجارته تدخلا مباشرا ، اقتصرت فيما بعد على أن تفرض ضريبة مالية على البردى (chartera)^(٤) وضريبة نوعية أخرى منه (annabolica species)^(٥) كنجي سنويا وترسل إلى روما ولعلها كانت من الحجم بحيث تكفي حاجة العاصمة .

الصناعة الكبرى الثالثة هي صناعة النسيج وكانت من أكثر الصناعات انتشارا في مصر، ولما خلى منزل من منسج لنسيج حاجة الأسرة إلى الملابس.

Strabo, 17. 1. 15. (١)

Wilcken, Grundz. pp. 55—6; Walbank, Decline of (٢) the Roman Empire, p. 12.

Lewis, L'Industrie du Papyrus, 101 ff., Johnson, Rom. (٣) Eg. 329.

B. G. U. IV. 1121. and 1146 (augustan ago). (٤)

S. B. 5636 (2nd cent. A. D.). P. Mich. II. 123 (45 A. D.) (٥)

P. Strassb. I. 59 (228 A. D.).

ولكن إلى جانب الصناعة المنزلية وجدت مصانع تخصصت في إنتاج أنواع راقية من المنسوجات التيلية التي اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور . ويخبرنا بلينيوس الكبير عن تقدم هذه الصناعة في مصر أن الأسكندرية اشتهرت بنوع التيل للزينة بالرسوم والذي كان يصنع بنسج عدد من الخيوط المتعددة الألوان معاً ويسمى لذلك «polimita»^(١) . ونحن نعرف أن المنسوجات المصرية كانت واسعة الانتشار في الخارج وأنها كانت تصدر بكميات كبيرة إلى الأسواق الشرقية في بلاد العرب والهند وكذلك إلى مواطن متعددة في البحر الأبيض المتوسط . ولم تكن صناعة النسيج من أجل التصدير مركزاً في الأسكندرية فحسب، بل يبدو أنها وجدت في مراكز أخرى من مصر على قدر عظيم من النشاط والتقدم وكانت منطقة الفيوم إحدى كميات هذه المراكز التي تخصصت في تصدير إنتاجها إلى الأسواق الشرقية في بلاد العرب والهند . وبقدر ازدياد التجارة الشرقية في النشاط في العصر الروماني ازدادت صناعة النسيج المصرية قوة وإنتاجاً ، حتى أن الكاتب بلينيوس الكبير اعتقد أن مصر دفعت قيمة وارداتها من الهند وبلاد العرب عن طريق تصدير المنسوجات التيلية^(٢) .

ولكن ترى ماذا كان موقف الحكومة الرومانية من هذه الصناعة الهامة، هل احتكوتها أو تركتها حرة في أيدي الأفراد . نحن نعرف أن هذه الصناعة لها أهمية خاصة بالنسبة للرومان، لحاجتهم المستمرة إلى كميات كبيرة من اللباس لأفراد الجيش ، ولذلك من صالحها التحكم في إنتاج النسيج . ومع ذلك فلم تلجأ إلى سياسة الاحتكار الكامل بل لجأت انتهاز سياسة محكمة تحقق الإشراف الكامل عليها . وتتلخص هذه السياسة أولاً في امتلاك المصانع الخاصة

Historia Augusta, Aureliani, 45. 1. (١)

Plinius, Natura Historia, XIX. 7. The Periplus, 8 (٢)

(See translation of W.H Schaff). P. Hawara, 208.

بها. ^(١) أما سائر المشتغلين بالنسيج في مصر فقد أخضعهم الإدارة لإشرافها التام ، عن طريق جميع النساخين — مثل غيرهم من العمال والصناع — قابات خاصة بهم حسب كل مدينة أو قرية ^(٢) ، وبعد ذلك عاملتهم معاملة خاصة فيها شيء من الامتياز عن كثير من فئات العمال الآخرين ، وهو إعفاء النساخين من القيام بالأعمال الإجبارية ، (*liturgia*) ، وذلك نظراً لثقتهم بالنسبة للخزانة. ^(٣) ولم يكن الهدف من ذلك التنظيم هو حماية النساخين ولكن للاستفادة منهم حسب حاجة الدولة . ولذلك فرضت عليهم ضرائب مالية ونوعية يدفعها النساجون وأصحاب الصناع للدولة ^(٤) ، وحين لانتفي هذه الضرائب بحاجة الدولة ، كانت تفرض عليهم كميات إضافية أخرى ^(٥) .

هذه هي الصناعات الكبرى التي كانت تقوم عليها تجارة مصر الخارجية، ولكن وجدت إلى جانبها صناعات أخرى ذات أهمية تجارية وازدهرت بصفة خاصة في العصر الروماني وهي صناعات التوابل والعطور وكذلك الصناعات الفنية الصغيرة . فيما يتعلق بصناعة العطور فلصغر شهرة قديمة فيها وكثيرا ما صدرت العطور والروائح معبأة في زجاجات صغيرة في العصر الفرعوني . أما التوابل فإن التجارة الشرقية جلبت الكثير منها إلى مصر حيث تم تصنيعها ثم أعيد تصديرها إلى روما وسائر ولايات الإمبراطورية .

Johnson, *Roman Egypt*, pp. 333. (١)

A. E. R. Boak, *The Organisation of Guilds in Graeco* (٢)
Roman Egypt T. A. P. A., 98 (1937) 212—220; Johnson,
Roman Egypt, pp. 392 ff. and nos 247—255.

P, Ox, XXII, 2340, lines 8—10, (٣)

P, S, I., IX. 1060 (201 A, D.); *Historia Augusta* (٤)

Aurelianus, 45, 1,

P. Ox, XIX. 2230 (119 A, D.) ; B, G, U, VII, 1572, (٥)

أما الصناعات الفنية الصغيرة مثل صناعة التماثيل والاعب والآلات الموسيقية فهي قديمة ولكن في العصر اليوناني والروماني اكتسبت أهمية خاصة وصنعت للانتاج الكبير من أجل التصدير للأسواق الخارجية وفي ظل الحكم الروماني حينما قُدت الفنون حماية وتشجيع القصر للكي وللمابد ، وجدت تعويضاً عن ذلك من الناحية المالية في زيادة الطلب من الخارج للأعمال الفنية . ولقد كشفت الحفائر الأثرية في ممفيس عن التوصل في هذا العصر إلى استخدام أساليب صناعية جديدة من أجل الإنتاج الكبير (mass production) عن طريق استخدام القوالب في صنع أعداد كبيرة من التماثيل البرنزية والجيرية من مختلف الأحجام. ^(١) وثبتت الحفائر الحديثة عن سعة انتشار هذه للصنوعات الفنية وما يماثلها بين أفراد الطبقة البورجوازية في أنحاء الإمبراطورية. ^(٢) لم تقتصر الحياة الصناعية في مصر الرومانية على الإنتاج من أجل التصدير ولكن وجدت كذلك صناعات قديمة أخرى مثل الأخشاب والمطاحن والزيت والخبور والمعادن ، وهي صناعات ضرورية للاستهلاك المحلي الداخلي وهو استهلاك كبير . ونحن نعرف مثلاً مدى الاهتمام الذي أبداه البطالمة في تطبيق احتكاك صناعة وتجارة الزيت داخلياً ، هذه الصناعة استمرت أيضاً في العصر الروماني ولكن على أسس جديدة ، وهي تركها في أيدي الأفراد بعبداً عن احتكار الدولة ، التي اكتفت بفرض الضرائب على مثل هذه الصناعات . أما صناعة الخمر فكانت دقيقة الاتصال بانتشار باتين الفواكه والكروم

(١) أنظر الدراسات الأساسية

C, C, Edgar, Greek Moulds; and id, greek Bronzes Northy Kent Hill, An Egyptiae Sculptural Type and (٢)

Mass Production of Bronze Statuettes, Hesperia, 27 (1958) 311 ff.; of, Sir Mortimer Wheeler, Rome Beyond the Imperial Frontiers, 200—201 (Penguin ed, 1955).

التي أقبل الإغريق على زراعتها إقبالا كبيرا منذ أن حضر وإلى مصر . وبلغ من وفرة إنتاج الخور في هذا العصر وخاصة بواسطة أصحاب الملكيات الكبيرة من الأرض حتى أن الخمر كانت تدفع للعمال وللزارعين مقابل جزء من أجورهم. (١) وقد أدى نشاط صناعة الزيت والخمر على هذا النحو إلى ازدهار صناعة أخرى لازمة بها وهي صناعة الأواني الفخارية ، فوجدت مصانع لصناعة الفخار وإنتاجه بكميات كبيرة وأحجام وأنواع مختلفة تصلح للأغراض المختلفة. (٢)

التجارة :

قامت هذه التجارة الضخمة في العصر الروماني استجابة لحاجيات تجارة عالمية لم يعرف لها مثيل من قبل ، وما من شك أن الإمبراطورية الرومانية التي وحدت العالم القديم ويسرت الانتقال من إقليم إلى إقليم كانت من أكبر أسباب ازدهار التجارة العالمية . وكان من الطبيعي أن تحتل مصر مركز الصدارة في هذه التجارة نظراً لموقعها للتوسط للمنتاز على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، ولا مثلاً كهاسواحل طويلة على كل من البحر الأحمر والبحر الأبيض . ولذلك لم يكن مستغرباً أن تصبح الإسكندرية ، ميناء مصر الأولى ، « أكبر مركز تجارى في العالم بأسره » . (٣) إذ لم تقتصر تجارة مصر الخارجية التي تركزت في الإسكندرية أساساً على ما تنتجه مصر محلياً ، فقد كان يؤتى بالبضائع إلى مصر من كل قطر خارجي ثم يعاد تصنيعها وتصديرها ثانية إلى الأسواق الخارجية . ولذلك حضر إلى الإسكندرية تجارة من جميع أرجاء

P, Flor, III, nos 321-322,

Johnson Roman

Egypt,

Strabo, 17, 1, 13 (C, 798)

(١)

(٢)

العالم القديم ليعقدوا صفقاتهم من أجل شراء البضائع المصرية والأجنبية على السواء.^(١)

وكانت مصر معدة للقيام بدورها أحسن إعداد بفضل موانئها البحرية وخاصة الأسكندرية . ولقد أدرك القدماء هذه الحقيقة ، فكتب استرايون عن مدينة الأسكندرية قرة تعتبر من أقيم التعليقات القديمة للعاصرة في مجال الحياة الاقتصادية ، فيقول : « تقع الأسكندرية على بحرين ، من ناحية الشمال يوجد البحر للمصرى — كما كان يسمى — ، ومن ناحية الجنوب توجد بحيرة ماريّا أو مربوط . وتتلأ هذه البحيرة عدد من القنوات المتفرعة من نهر النيل ، سواء من الناحية العلوية أو من الجوانب . وما يرد إلى المدينة عن طريق هذه القنوات يفوق كثيرا ما يأتي من البحر ، حتى أن الميناء الواقع على البحيرة أغنى من للميناء البحري . وكذلك في هذا الميناء البحري تفوق تجارة الصادر من الأسكندرية تجارة الوارد . ويستطيع الإنسان أن يرى بنفسه لو أنه وقف عند الإسكندرية أو دكيارخيا (Dicaearchia) وهي حالياً بنبولي Petoli ميناء إيطاليا الرئيسي في ذلك الوقت) ، كيف أن حمولة السفن تختلف تقلا وحفة عند مجيئها وذهابها »^(٢) .

(١) Pliny, Nat. Hist, VI 101 sq.; the Periplus of the Erythraean Sea, translated by scho, f (1912); Strabo, II, 101, XVII, 748, Wilken, Grundz., 262 ff., Johnson, Rom. Eg. 325 ff., L. C. West, Phases of Commercial Life in Roman Egypt, J. R. S, VII, (1917) 95—58; E. Leider, Der Handel von Alexandria (1933); E. H. Warmington, The Commerce Centron the Roman Empire add India (19 8), M. P. Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1924) esp. chapters 1 and 4, Strabo, 17, 1, 9 (C, 793), and 17, 1, 8 (C, 794). (٢)

في هذه الفقرة بتحدث استرابون عن الظروف في الأعوام الأولى من الإمبراطورية ، وهي فترة جديدة في تاريخ مصر وتاريخ العالم ، ولذلك فإن ما يلاحظه عن اختلاف طبيعة النشاط في الشحن بين الميناء الداخلي والميناء الخارجي في الأسكندرية له أهمية خاصة . فهو يقرر حقيقة هامة بالنسبة لتجارة مصر الخارجية في التاريخ القديم وهي أن صادرات مصر كانت تزيد كثيراً عن حجم وارداتها من البضائع . ولم تقتصر هذه الحقيقة على العصر الروماني ، بل سادت في جميع التاريخ القديم ، والسبب في هذه الظاهرة هو أن مصر تمتعت قديماً باكتفاء ذاتي فيما يتعلق بمواد الغذاء ، التي توفر لديها مزيد منها ، والتي كانت تصدره وخاصة القمح ، وتستورد بدلا منه فضة وخشباً وبدرجة أقل مواد مصنوعة . ولكن تجارة التصدير من مصر شملت أيضاً بضائع جىء بها أصلاً من أفريقيا وبلاد العرب والهند ، مثل العاج والبخور والمنسوجات القطنية وغيرها . وما من شك أن مثل هذه التجارة قديمة ، ولكنها في عصر الأسرة البطلمية ازدادت تركيزاً وأهمية ، ومرت جميعها من الأسكندرية ، بفضل الشبكة المتقنة من القنوات التي كانت تصل الأسكندرية عن طريق بحيرة مريوط بجميع أجزاء القطر المصري وجعلت النقل بين البحر الأحمر والأسكندرية سريعاً منتظماً .

أما في عصر الإمبراطورية الرومانية فقد طرأ على هذه الظروف تطوران هامان جديداً . فمنذ أن ألحقت مصر بدولة روما ، تغيرت طبيعة صادرات مصر إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ إذ لم تعد جميع البضائع تخرج من الأسكندرية لتباع في أسواق البحر الأبيض وتتقاضى مصر ثمنها فضة أو عن طريق المبادلة ببضائع أخرى . لأن صادرات مصر الآن انقسمت إلى نوعين : أحدهما للتجارة ، والآخر هو الضريبة النوعية التي كان على مصر أن تدفعها لرومان سنوياً ، وكان أهم مقوماتها القمح . ولذلك كادت تقتصر تجارة مصر الخارجية في البحر الأبيض المتوسط على الكماليات المرتفعة الثمن ، التي كانت تستورد من الشرق وتصنع في مصر

ثم يعاد تصديرها إلى إيطاليا وسائر بلدان البحر الأبيض .

أما فيما يتعلق بتجارة الجنوب والشرق فقد زادت أضعاا مضاعفة في القرنين الأولين من الإمبراطورية ، أولا بسبب اكتشاف الرياح الموسمية في المحيط الهندي بواسطة هيبالوس حوالي القرن الأول ق . م ^(١) فأطن هذا الاكتشاف بحارى الأسكندرية أن يتخذوا طريقا مباشرا عبر المحيط بين مخرج البحر الأحمر الجنوبي ومصب نهر السند وملابار (Malabar) بدلا من السير بسفنهم بمضاء الساحل . إن الاكتشاف الجديد على العموم أدى إلى سرعة السفر بحيث أصبح ممكنا الآن إتمام الرحلة بين مصر والمند ذهابا وإيابا في العام نفسه ، وهو ما لم يكن ممكنا من قبل ^(٢) .

وثانيا كان لسياسة أغسطس نحو حرية الاقتصاد آثار هامة في إنعاش الحياة الاقتصادية في الإمبراطورية . أما في مصر فإن السياسة الجديدة كانت تعنى إحلل سياسة الاحتكار البطلمية بحركة إنعاش رأسمالية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة وعلى ذلك فإن اكتشاف الرياح الموسمية الجديدة إلى جانب السياسة التى طبقها الرومان في تشجيع الاستثمار الحر سمحت للأثرياء في مصر أن يستثمروا أموالهم في التجارة الشرقية على نحو لم يعرف من قبل ؛ فنتج عن ذلك زيادة كبيرة فجأة في حجم التجارة الشرقية . ولقد تركت هذه الزيادة للفاضة في التجارة الشرقية آثارها في الحال في تجار البحر الأبيض المتوسط ولا حظها الكتاب للماصرون وهذا اعترايون مرة أخرى يدنا بملاحظاتنا عن الظروف التجارية الجديدة فيقول : « لأن كان دخل مصر السنوى في الماضى (في العصر

Periplus, 57; Plinius, Nat-Hist. VI. 100 sqq.; of. (١)

Warmington The Commerce, 35 ff.

(٢) أنظر وصف الرحلة و 106-101 Plinius. Nat - Hist. VI. و هناك

Warmington, op. cit. 48 ff.

حساب المسافة والزمن و

البطلى المتأخر) هو ١٢٥٠٠ نالتوم ، قترى كم يصل دخلها الآن (زمن الإمبراطورية)، حينما أصبحت تدبرشئونها بعناية فائقة، وحينما زادت التجارة مع الهند والصومال زيادة كبيرة . فلم تزد السفن التى كانت تسير فى البحر الأحمر ولم تعد خليج العرب عن عشرين سفينة ، أما الآن فإن الأساطيل الكبيرة تسير إلى الهند وإلى أقصى حدود أثيوبيا ، ومن هناك تعود بحملة بأعلى البضائع إلى مصر ، ثم توزع من مصر إلى سائر البلاد. وهكذا تجنى مصر ضريبة مزدوجة على البضائع حين ترد إليها وحين تصدر منها ، وترتفع الضريبة بقدر ارتفاع ثمن البضائع^(١). وفى موضع آخر يذكر استراين أن الفضل فى زيادة معلوماتنا عن البلاد الشرقية يرجع إلى تجارة الأسكندرية ويضيف أن لهم أكثر من مائة وعشرين سفينة تعمل فى تجارة الهند الشرقية^(٢). أى أن عدد السفن زاد ستة أضعاف . ولكن يجب أن نذكر أن الزيادة لم تقتصر على عدد السفن فحسب ، بل إن حجم السفن ذاتها زاد كثيراً ، وأصبحت السفن المستخدمة فى البحار الشرقية من أحجام أكبر وقدرة أكثر فى سرعة الملاحة^(٣).

هذه التجارة الضخمة بين الشرق والغرب مر جزء كبير منها بمصر بين موانئ البحر الأحمر والأسكندرية ؛ وفى الأسكندرية تجتمع التجار من مصر وخارج مصر من كل قطر . وما من شك فى أن عدد التجار الأجانب كان كبيراً ولكن يبدو أن أقوى عنصر بينهم سياسة كبار المستثمرين الرومان . ونحن نعرف مدى أهمية كبار المولدين الرومان فى نهاية العصر البطلى ، كما فى مثال رابيريوس Rabirius وعلاقاته بالقصر البطلى ؛ ويمكننا أن نتصور مدى ازدياد أهميتهم بعد ضم مصر إلى الإمبراطورية . ومع ذلك فيبدو أن هؤلاء

Strabo, 17. 1. 13 (C. 798) (١)

Strabo, 2 5. 13 (C. 118) (٢)

Periblus, 10 and 56; Plinius, Nat - Hist. VI. 82, (٣)

المولين لم يكونوا خطراً خديداً على التجار للصين ، لأن جهود المولين الرومان كانت موزعة على مراكز تجارية أخرى في البحر الأبيض مصر وسوريا وآسيا الصغرى والغاللة، في الوقت الذي احتكر تجار مصر وخاصة كبار التجار من الأسكندرية تجارة الشرق البحرية ، كما أن أساطيلهم التجارية الكبيرة مكنتهم من الاشتراك في تجارة البحر الأبيض بنصيب وافر^(١) .

أما في تجارة البحر الأحمر والمندقم يكن هناك منافسة حقيقية تهدد سيطرة الأسكندريين عليها ، لأن عرب الجزيرة العربية قصروا نشاطهم على تجارة القوافل البرية ، ولا يعرف سوى تجار تدمر (Palmyra) وبعض الرومان قطب القدين شاركوا في تجارة البحر الأحمر، ومن المستبعد أن هؤلاء كونوا خطراً حقيقياً طوال العصر الروماني لأن تجار تدمر تخصصوا في تجارة القوافل البرية أكثر من التجارة البحرية . من ذلك نرى أن تجار الأسكندرية احتكروا لأنفسهم تقريباً التجارة الشرقية (حتى أنه أصبحت الأسكندرية والأسكندريون في المند بمثابة رمز للعالم الغربي بأسره بدلا من روما والرومان^(٢) . ويبدو أيضاً أن اسم الأسكندرية كان أسبق الألفاظ الغربية في الوصول إلى الصين، حتى لقد اقترح أحد الباحثين مؤخراً أن كلمة «ليبيجين» (Li-jion) كانت كلمة صينية محرفة عن كلمة الأسكندرية وأنها تعني أصلاً أسكندرية مصر^(٣) .

من العسير أن نعرف على وجه التحديد قيمة هذه التجارة الشرقية ومقدار الفائدة التي عادت على مصر منها ، ولكن لحسن الحظ تذكر بعض المصادر المعاصرة معلومات قد تكون لها قيمتها في تقريب الصورة إلى عقولنا.

(١) انظر (1917) West, Phases of Commercial life, J. R. S., 7 (1917) 77 8.

Warmington, Tao Commerce, p. 68. (٢)

H.H. Dudo, A Roman City in Ancient China. London (٣)

وأهم مصدر هو الكاتب بلينيوس الذي يقول إن قيمة واردات الإمبراطورية من الهند وسيريس (*seres*) وبلاد العرب تربو على مائة مليون ستر كيس (*sesterces*) ، ويضيف بعد ذلك قوله « هكذا ندفع غالباً من أجل كالياتنا ونساتنا » .^(١) ولكن نعلم أن نحواً من نصف هذه التجارة كان يسلك طريق القوافل براً إلى اللواتي السورية ، أما عن الجزء الآخر الذي كان ينقل عن طريق البحر الأحمر إلى مصر فيقول إن الهند تأخذ منا كل عام ما لا يقل عن خمسين مليوناً ستر كيس (*sesterces*) ، مقابل بضائع تباع لنا بأثمان تبلغ مائة ضعف ثمنها الأصلي .^(٢) وما من شك أن هذه الأرقام بعيدة عن اللبالة ولا يبعد أنها تمثل الحقيقة ، خاصة وأن بلينيوس كان في مركز يمكنه من الاطلاع على وثائق الدولة الرسمية . ولكن يهمننا بصفة خاصة قوله إن هذه البضائع الشرقية كانت تباع في الغرب بمائة مثل ثمنها الأصلي . ذلك أن التجارة الشرقية كانت تقوم أساساً على الاتجار في الكاليات مثل اللؤلؤ والماج والحبر والبنجور ... إلخ ، وأن ضرائب باهظة كانت تجبي عليها عند دخولها مصر وعند خروجها للتصدير مرة ثانية .^(٣) وبالإضافة إلى هذه الضرائب المزدوجة تقاضى التجار مبالغ باهظة مقابل قيامهم بهذا العمل . فالملاحه في البحار الشرقية كانت شديدة الخطورة ، نظراً لانتشار القرصان في تلك البقاع ، حتى أن السفن التجارية كانت تسير عادة في حراسة سفن مسلحة خير تسليح لمقاومة القرصان .^(٤) لذلك كانت هذه الرحلات كثيرة التكاليف ، ومن الطبيعي أن يرفع التجار أسعارهم ليعوضوا تكاليفهم وخسائرهم وليغنموا ربحاً مناسباً .

Plinius, Nat - Hist. 15 - 84.

(١)

Sibid. 6. 101.

(٢)

trabo, 17. 1. 13 (C. 798).

(٣)

Periplus, 52; Plinius, Nat - Hist. 6. 26.

(٤)

هكذا تمكن كثير من الراساليين في الاسكندرية ومصر من مضاعفة ثروتهم ومنافسة كبار الراساليين في روما ذاتها ، ويكفي الدلالة على خطورة هذه الطبقة من الاسكندرانيين أن نذكر أن بعضهم تمكن من شق طريقه إلى أرقى المناصب في القصر الإمبراطوري في روما ، كما أن واحدا منهم وهو فيرموس (Firmus) استطاع أن يقود ثورة ناجحة في الاسكندرية تأييدا للملكة زينوبيا في القرن الثالث . ويقال إنه تمكن من تسليح جيش بأسره من دخله من تجارة البردى والصمغ العربي .

Cf. Juvenal, I. 26 J.; IV 24—5.
Historia Augusta, Firmus, III. 2.

(١)

(٢)

الحياة الثقافية والدينية

رأينا في دراستنا لتكوين المجتمع لمصر في العصرين البطلي والرومانى أن السكان كانوا خليطاً من شتى الجنسيات والشعوب القديمة : أغلبية مصرية وأقلية ممتازة من الإغريق ثم جاليات متفاوتة العدد من اليهود والسوريين واليبين والرومان وغيرهم . وقد يسأل سائل عن الوسيلة التى تم بها التفاهم بين هذه العناصر جميعاً . ما من شك أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية للبلاد منذ بداية العصر البطلى ، ولكن لغة هذا العصر كانت لغة يونانية متطورة بمكم اختلاطها باللهجات واللغات المحيطة المختلفة . فهذه اللغة كانت لغة الحديث بين الإغريق وسائر الجاليات الأجنبية التى تأغرقت تماماً فى هذا العصر وبها كانت تصدر الأوامر الملكية والقوانين العامة . وكانت فوق ذلك لغة الثقافة والفكر ، كتب بها الكتاب والشعراء .

وقد أقر الرومان هذا الوضع كما هو ، وبقيت اللغة اليونانية هى لغة البلاد الرسمية تصدر بها كافة القرارات والقوانين والأوامر ، حتى بيانات الإمبراطور وخطاباته التى كانت تكتب أصلاً باللاتينية كانت تترجم إلى اليونانية عند نشرها فى الأسكندرية . ولهذا فإن عدد الكتابات اللاتينية من مصر فى العصر الرومانى قليل جداً ويكاد يقتصر على شئون الجيش الرومانى . أما المصريون فكان على كثير منهم أن يتقن اللغة اليونانية حتى يستطيع أن يتولى الأعمال الإدارية فى الحكومة ، ولكن أكثرهم فى القرى والريف استمر يتحدث فى الحياة اليومية باللغة المصرية التى كان التعبير الكتابى لها الخط الديموطيقى الذى استخدمت فيه حروف متحددة من الحروف الهيروغليفية والتى لم يكن بها حروف متحركة مما يفيد حرية اللغة ويمنعها من تقبل الألفاظ الجديدة فظلت جامدة لا تسير التطور . لهذا كان تعلم الديموطيقية أمراً غيرا حتى على المصريين

أنفسهم . أمام هذه العفبات خطا للمصريون خطوة ثورية لإنقاذ لغتهم من هذا المأزق بأن اتخذوا الحروف اليونانية لكتابة لغتهم . ولما وجدوا أن الأبجدية اليونانية لا تفي بحاجة جميع أصوات اللغة المصرية أضافوا إليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية . وهكذا ولدت اللغة القبطية في القرن الثالث الميلادي ، وانطلقت اللغة من عقالمها لتقتل أنفاساً وأفكاراً جديدة ، ولتخرج بعد ذلك فكراً وأدباً جديداً . وكان أدل وأعظم أعمال اللغة القبطية الجديدة أنها نقلت الإنجيل إلى المصريين في لغة مصرية وثوب مصرية ، ليس بالأجنبي اليوناني أو اللاتيني ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت المسيحية تنتشر بين المصريين جميعاً كمقيدة شعبية .

هذه كلمة مختصرة عن اللغة رأينا أن نقدم بها للحدث الآن عن الثقافة والفكر الذي تميز به العصر الروماني في مصر ، والذي كانت وسيلته في التعبير هي اللغة اليونانية التي كانت ذائعة الانتشار خارج مصر أيضاً .

. . .

رأينا في العصر البطلمي كيف كانت الأسكندرية أشهر مركز في العالم في مجال الأدب والدراسة ، قصدها كثير من العلماء والدارسين إما لينضوا إلى هيئة علماء المكتبة والموسيون أو ليفتروا من معين هؤلاء العلماء .

وقد تركت مدرسة الأسكندرية أثرها على مراكز الأدب اليوناني الأخرى حتى في بلاد اليونان نفسها ثم تعدى تأثيرها العالم اليوناني إلى روما ، فظهر هناك أدباء وشعراء لاتينيون متأثرون باتجاهات الأدب الأسكندري ويحاكون نماذجه كما يحاكي بعض أدبائنا الآن نماذج الأدب الأوربي . ومن الغريب أن هذا التأثير على روما بلغ ذروته في عصر كليوباترة ، أي في الفترة التي تم في نهايتها ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية ، حتى أن من أراد من أدباء

روما أن يخرج على قوالب الأدب الأسكندري كان يفعل ذلك بقصد الثورة على سيطرة هذا الأدب على عقول الأدباء الرومان^(١).

لم يكن مستغرباً إذن أن يحتضن الرومان مؤسسات الثقافة والمعلم في الأسكندرية بعد الفتح ، فبقيت المكتبة واللوسيون يلتقيان التشجيع والتأييد من الأباطرة ، كما استمر العلماء يتلقون المعاءات والامتيازات المختلفة كالإعفاء من الضرائب وتناول الطعام في اللوسيون دون مقابل .

ويجب أن نذكر أن اللوسيون كان بمثابة أكاديمية للبحث وليست جامعة للتدريس ، إلا أن بها قاعات يجتمع بها العلماء ويقبضون فيها . ونحن نعرف أن الإمبراطور هادريان ، الذى كان شديد الحماس للحضارة اليونانية ، زار اللوسيون وشهد بعض فدوات العلماء والفلاسفة هناك واشترك في مناقشتهم . وبمناسبة هذه الزيارة زاد عدد العلماء بتعيين كثير من الأساتذة والفلاسفة ومنهم من كان من الفلاسفة المتجولين الذين لا يقيمون في الأسكندرية فكانوا أشبه بأعضاء مراسلين للوسيون كما نقول الآن . ويبدو أن التوسع في عضوية اللوسيون كان قد بدأ يتخذ اتجاهاً جديداً وهو جعل العضوية فيه شرفية بالنسبة لكثير من الشخصيات البارزة ، مثل كبار رجال الإدارة والجيش والأبطال الرياضيين .

وكان اللوسيون وثيق العلاقة بالمكتبة التى أنشأها البطالمة ورعاها ملوكهم منذ الملك بطليموس الأول وكانت لها شهرة عالمية ؛ حتى إنه حينما احترق جزء منها بسبب الحريق الذى نشب فى أسطول يوليوس قيصر فى الميناء ، قرر أنطونيوس تقديم التمويل اللازم لكليوباترة بعد ذلك بإهدائها ٢٠٠.٠٠٠

مجلد من مكتبة مدينة برغامه الشهيرة في آسيا الصغرى . وقد استمر للمكتبة أمناؤها من العلماء البارزين الذين اهتموا بأمرها طوال العصر الرومانى، ولكننا لا نسمع عن اهتمام الأباطرة والولاة بقمية المكتبة كما كان يفعل البطالة من قبل . ومع ذلك فقد بقى للمكتبة الكبرى التى كانت ملحقة بمعبد السرايوم شهرتها وكذلك المكتبة الصغرى الملحقة بمعبد القيصرون .

ولم تقتصر الحياة العلمية والثقافية فى الأسكندرية فى العصر الرومانى على الموسيون والمكتبة ، بل وجدت مدارس وقاعات للدراسة يدرس بها من شاء من هؤلاء العلماء أو غيرهم وكانت هذه المدارس والقاعات تكون ما يمكن أن يسى بجامعة الأسكندرية كما نفهم الآن معنى الجامعة . وكان يقصد هذه المدارس كثير من الطلاب من الأسكندرية ومصر عموماً ومن خارج مصر أيضاً. ولكن يجب أن نذكر هنا أن الحياة التعليمية فى الأسكندرية فى العصر الرومانى كانت حياة معقدة إلى أبعد الحدود ، وذلك لاصطدامها بالظروف الدينية الجديدة . فأصبح علماء الموسيون والمكتبة ومعاهد تدريبهم يمثلون الثقافة والحضارة الوثنية ؛ بينما نشأت مدارس جديدة : واحدة لدراسة الدين اليهودى دراسة فلسفية بين اليهود ، وأخرى لتدريس الدين المسيحى الجديد ، كما سنيين بعد قليل .

ولنتقل الآن إلى الحديث عما أسهمت به مصر فى مجال الثقافة والفكر والعلم فى العصر الرومانى . وقد استمرت الأسكندرية أيضاً مركز الحركة الثقافية والعلمية فى مصر بطبيعة الحال رغم أن كثيرين ممن نبغوا فى هذه الفترة جاءوا إليها من داخل البلاد مثل أثيناىوس Athenaeus من تقرأطيس وأقلوطين من أسيوط .

ولكن نوع الإنتاج الفكرى الذى امتازت به الأسكندرية فى العصر

الرومانى اخلف عن الطابع الذى تميزت به فى العصر البطلى . قد اشتهرت
أسكندرية البطالة بالأدب ودراساته ، وكذلك بالبحث العلمى الذى أثر أحياناً
على الإنتاج الأدبى . أما أسكندرية العصر الرومانى فلم تحافظ على تفوقها الأدبى
ويبدو أن عدم وجود القصر الملكى البطلى فى الأسكندرية أهد الشراء
التشجيع الكافى لبحث إلهامهم . فكان شعره هذه الفترة على أى حال مجرد
كلام متناوم بعيد كل البعد عن مفهوم الشعر الرافى واصطنع هذا النظم بالصيغة
العلمية فراح الشراء يظهرون مهاراتهم فى نظم قصائد جغرافية فى وصف ليبيا
مثلاً كما فعل دنىس (Dony) ، أو فى وصف الواحات كما فعل سوتيرىخوس
(Soterichos) .

أما فى مجال العلم فقد حافظت مصر على حمل مشعل التقدم فيه . وأشهر علماء هذه
الفترة غير منازع هو بطليموس الجغرافى الذى اشتهر كثيراً بين العرب فيما بعد .
وهو من أبناء مصر فى القرن الثانى لليلادى ، ويعتبر قمة فى علم الجغرافيا القديمة
متميزاً على سابقيه من أمثال استرابون ، وذلك لأنه لم يكن مثلهم جغرافياً
فحسب بل رياضياً مجدداً إلى جانب كونه فلكياً وعلماً طبيعياً . وبهذا القدر
العظيم من العلم تصدى بطليموس لمشكلة أعجزت القدماء وهى دراسة الجغرافيا
على أساس رياضى وفلكى ، وعمل خريطة للعالم وضع عليها الأماكن كل
إقليم بنسبة أبعادها الصحيحة . هذا العمل العظيم أنجزه بطليموس الذى قفز
بعلم الجغرافيا قفزة كبرى فى الاتجاه الصحيح ، كما أن أخطاءه ذاتها كانت
لها قيمتها ، لأنها أصبحت فيما بعد بمثابة نقط ارتكاز لتصحيح معلوماتنا
الجغرافية ، وأصبح عمله كله خير ممد لقيام علم الجغرافيا الحديثة .

ولكن ما من شك أن من أشهر ما تميزت به الأسكندرية فى هذا العصر
هو الحركة الفلسفية التى عرفت بها مدرسة الأسكندرية . هذا الاتجاه الفلسفى
كان جديداً على الأسكندرية ، لأنها لم تشتهر بالدراسات الفلسفية فى العصر

البطلى ، ولعل للو ك حيثئذ لم يشجعوا دراستها ليرحموا أنفسهم من أخطار انتشار للمعرفة الفلسفية وظهور مدارسها . ولم يكن الرومان بطبيعتهم أهل فلسفة ، ولكنهم لم يضيّقوا بها . وتعرف كثيرون من قادة روما وأباطرتها بمن تشيعوا لبعض المذاهب الفلسفية والأخلاقية التي انتشرت آنذاك مثل الرواقية والأيقورية . أما في الأسكندرية فقد وجدت ظروف معينة في هذا العصر ساعدت على بحث التفكير الفلسفي بين المثقفين . ولا تقصد بتلك الظروف سوى البيئة الدينية التي عاصرت قيام نظام الإمبراطورية الرومانية في الجزء الأخير من القرن الأول ق . م . واستمرت في القرون الثلاثة الأولى الميلادية في هذه البيئة . ففي هذا العصر واجه الإنسان أخطر موقف ديني عرفه في تاريخه بأسره . إذ تحت ظروف توحيد العالم في ظل الإمبراطورية ونشاط الاتصال بين البيئات المختلفة سالت الأديان من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى بيئة ونشأت في الوقت نفسه دعوات دينية جديدة مثل الغنوسية والمسيحية وكلها تؤكد للإنسان أن الأديان القديمة كلها هراء وكذب . في مثل هذه المواقف يلجأ الإنسان إلى تفكيره الشخصي ليبعث عن الطريق الصحيح . وهذا هو دفع إلى إثارة التفكير الفلسفي في الأسكندرية في ذلك الوقت متبها بطابع ديني .

وأول فيلسوف لمدرسة الأسكندرية هو فيلون اليهودي ، الذي عاش في القرن الأول الميلادي ، وكان من الطبيعي أن يتصدى لهذا الموقف فيلسوف يهودي لأن اليهود كانوا الفئة الوحيدة التي تدين بالتوحيد حيثئذ ، وكان الدين الجديد بدعوته إلى التوحيد قد واجهت الموسوية بتحدى خطير ، كما أن الفلسفة اليونانية كانت تسلب الموسوية أحيانا بعض أبنائها . فقام فيلون بمحاولة تسويخ دينه للعقل الجديد مستعينا بالفلسفة اليونانية على شرح الموسوية . فهو يبدأ بموقف ديني ثم يطرّق منه إلى الدليل الفلسفي على صدق الدعوة الدينية .

هذا الاتجاه الجديد كان خطيراً جداً على التفكير الفلسفى فيما بعد وسيصبح لمنهجه تأثير كبير على التفكير الفلسفى والدينى فى المصور الإسلامية والمسيحية، حين يشغل المفكرون أنفسهم بإثبات قضايا الدين عن طريق الفلسفة .

أما الفيلسوف الكبير الذى تخرج فى الإسكندرية ويعتبر زعيم الأفلاطونية الحديثة فهو أفلوطين من أبناء أسيوط فى صعيد مصر فى القرن الثالث الميلادى وكانت الوثنية قد بدأت تضعف شوكتها أمام الاتجاه المسيحى الجديد . ولهذا تصدى أفلوطين لحل المشكلة الدينية عن طريق الفلسفة ، مبتدئاً هذه المرة بالفلسفة ومنتهيًا بالفكرة الإلهية .

وقد حرص أفلوطين على استكمال ثقافته الفلسفية فالتحق بمجيش روماني كان ذاهباً إلى الشرق بقيادة الامبراطور جورجيانوس عام ٢٤٣٠٢م حتى علم بحكم الهند وفارس . ولكن حين فشلت هذه الحملة عاد مسرعاً إلى أنطاكية ومنها إلى روما حيث قضى بقية حياته يحاضر هناك ، وكان لما عرف عنه من عفة وقاء وسلوك تصوفى أثر كبير على أتباعه ومريديه من جميع الطبقات . لم يكن غريباً إذن أن تجمع فلسفة أفلوطين بين الفلسفة اليونانية والفكر الشرقى، فهو يعتمد أساساً على فلسفة أفلاطون والفيثاغورية الجديدة إلى جانب نظرية الفيض الإلهى الشرقى . ومجمل نظريته تدعو إلى وجود عالين : عالم الحس وعالم العقل المجرد . ويتوقف علينا أن نتجه بأفكارنا نحو أى العالمين . وعالم العقل المجرد هو الأسمى وينبغى أن يتجه نحوه كل إنسان عاقل . وبقدر ما نتجرد من التعلق بأسباب الدنيا والإنطلاق نحو التأمل الفكرى نتقرب من الهدف ، وبقدر ما نرتفع فى هذا العالم العقلى تزداد اقتراباً من الخير المطلق حتى تم عودة النفس إلى المبدأ الأول والاتحاد بالله .



أما عن الحياة الدينية فقد استمرت عبادة الثالوث البطلي المنكون من سرايس وإيزيس وهربوكراتيس والذي كان من صنع البطالة وظل محتفظاً بمكان الصدارة بين الآلهة في العصر الروماني ، بل لعلها نمت في الخارج عن ذي قبل ، وأعلن إدخالها رسمياً إلى روما حين أنشأ الإمبراطور دوميتيان (٨١ — ٩٦) معابد في روما لعبادة سرايس وإيزيس .

وكان ذلك بمثابة إعلان رسمي لقبول الآلهة المصرية في روما بعد أن كانت قد وصلت هناك قبل الفتح بصفة غير رسمية وخاصة الآلهة إيزيس التي تمثل الإلهة الزوجة لسرايس والإلهة الأم لمربوكراتيس . ولقد احتفظت إيزيس في العصر الروماني بشخصيتها المصرية رغم محاولة تشبيهها بديميتير وأفروديتي اليونانيتين . ولكن شخصيتها المصرية كانت قوية بذاتها خاصة وأنها تكون مع هرربوكراتيس صفة أساسية في الفكر الديني الإنساني ، وهي فكرة الإلهة الأم . وبذلك الشخصية استطاعت الإلهة إيزيس أن تفوز روما قبل أن يفتح أغسطس مصر ، وأن تنافس في اتساع إمبراطوريتها روما ذاتها . فقد انتشرت عبادتها كالبرق في سرعة غريبة إلى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية ثم تعدت حدود الإمبراطورية إلى أقاليم أكثر بعداً شرقاً وغرباً في ركب تجارة الأسكندرية . وليس أدل على ذلك من بردية مشهورة من البهنسا ترجع إلى القرن الثاني الميلادي تذكر الأماكن التي انتشرت فيها عبادة إيزيس في أرجاء المعمورة . هذه الأماكن تشمل معظم مدن مصر إذ أن هناك ذكراً لسبع وستين مدينة في الدلتا فقط ، أما خارج مصر فتذكر أسماء خمس وخمسين مدينة مرتبة حسب البلاد التي تقع فيها^(١) .

ومن دراسة هذه البردية يتبين أن سلطان الإلهة إيزيس شمل الهند وبلاد العرب وفارس شرقاً ، وسينوب على البحر الأسود شمالاً ، وروما وإيطاليا غرباً .

أما عن هر بركرا تيس فقد كان مصري الأصل أيضاً ، باعتباره إحدى صور
حورس ، ولكن سرعان ما اتخذ لنفسه صوراً أخرى لحورس ولآلهة أخرى
مصرية وغير مصرية وانتشرت عبادته خارج مصر في العالم اليوناني وفي خطوط
تجارة الأسكندرية وخاصة في ركب إيزيس التي كان يشار إليها معبداً عادة ،
إذ لم يعرف أنه تفرد بمعبود خاص ، باعتبار أنه حورس الصغير ومحب أن يبقى في
رعاية والدته . ومع ذلك فقد كان منتشرًا ومحبوبًا بين الطبقات الفقيرة ولكنه
عبد مستقلاً بشخصه في البيوت .

إلى جانب هذا الثالث حلت في مصر عبادة الأباطرة الرومان محل عبادة
البطالمة ، ولكن يجب أن نذكر هنا أن الأباطرة عبدوا على أن أشخاصهم مقدسة
وليس بوصفهم آلهة . وكانت العبادة قاصرة على الأباطرة بعد موتهم ، فكان
لهم كهان في الأسكندرية وتقام تماثيلهم في معابد الآلهة الكبرى ولم تفرد لهم
معابد خاصة . ولكن بقيت عبادة الأباطرة عبادة رسمية تمارس في المناسبات
العامة دون أن يكون لها طابع شخصي أو تعبد في البيوت .

إلى جانب هذه المعبودات ذات الطابع السياسي والديني معاً استمرت عبادة
الآلهة المصرية واليونانية والشرقية القديمة في هذا العصر أيضاً ، بل وازداد
اختلاطها وانتقالها عن ذي قبل ، حتى لم يكن أن يقال إن العالم لم يشهد فترة
امتزجت فيها الأديان القديمة جميعاً كما حدث في ظل الإمبراطورية الرومانية .
فإن تعدد الشعوب والحضارات التي شملتها الإمبراطورية وسياسة التسامح الديني
التي اتبعتها الرومان سمح لجميع الأديان أن تزدهر . كما أن السلام الذي ساد العالم
في الفترة الأولى من تاريخ الإمبراطورية والنشاط التجاري الذي انتشر بين
أرجاء العالم مكن الأديان المختلفة من أن تنتشر وأن تؤثر بعضها في بعض .
وكانت روما والأسكندرية من أهم مراكز إلتقاء هذه الديانات للتبانية كما

كانت قطعا لإشعاعها . في هذه البيئة الدينية المتعددة نشأت المسيحية وأقامت
كنيستها وطرقت الأديان القديمة .

بداية الحركة المسيحية في مصر (١) :

كان ظهور للمسيحية مع مولد الإمبراطورية الرومانية في الجزء الأخير
من القرن الأول ق . م من أخطر أحداث التاريخ وأكثرها تأثيراً في سير
الأحداث والحياة بكل مظاهرها بعد ذلك . غير أن ظهورها كان خافتاً صغيماً
أول الأمر يكتنفه كثير من الغموض ، حتى أننا لا نعرف كيف نشأت وكيف
انتشرت على وجه التحديد . ولكن من المرجح أنها وصلت إلى مصر منذ
عصر مبكر جداً . فيوسيبيوس ، أعظم مؤرخي الكنيسة الأولين والذي عاش
في القرن الرابع الميلادي ، يروي أن القديس مرقس نفسه حضر إلى مصر وأنه
بشر الدين الجديد في الإسكندرية في أواسط القرن الأول الميلادي وتروي إحدى
أساطير القديس مرقس أن أول أتباعه كان إسكافياً يهودياً .

هذا هو ما تذكره الروايات المسيحية الأولى ، ولكن ليس هناك أي دليل
معاصر يثبت وجود المسيحية في مصر خلال القرن الميلادي الأول . ومع ذلك
فنحن ندرك عقلاً أن عدم وجود الدليل لا ينهض شاهداً على عدم وجود
المسيحية في مصر في ذلك الوقت . فإن المبادئ والأفكار كانت تنقل حينئذ
بسرعة لا تقل عما تنقل بها الآن . فعبادة إيزيس مثلاً انتشرت في سرعة هائلة
مع انتشار تجارة الإسكندرية إلى أرجاء العالم زمن الإمبراطورية الرومانية .
فليس يستغرب إذن أن تسرى للمسيحية من فلسطين وسوريا إلى مصر في مسرى .
التجارة أو في موكب الجيوش عن طريق البر والبحر وكلاهما آمن من منظم . :

(١) عرض الكاتب لهذا الموضوع في مقال « حول نشأة المسيحية في مصر » لعبر في
« المجلة » عدد أغسطس ١٩٦٣ .

وأكبر دليل على صدق هذه الدعوى أنه منذ القرن الثانى للميلادى ظهر فى مصر نشاط وكتابات مسيحية على جانب كبير من الأهمية . فقد حفظت لنا أوراق البردى نضرة من إنجيل القديس يوحنا يرجع إلى النصف الأول من القرن الثانى . وكذلك عثر على إنجيل منسحق جديد غير الأناجيل الأربعة المعروفة ، ويرجع تاريخ تدوينه إلى الفترة نفسها أو بعدها بقليل . مثل هذه النصوص للمسيحية المبكرة وغيرها لها دلالتها رغم ندرتها^(١) ، خاصة حين تقدر الظروف التى تمت فيها هذه الأعمال . فنحن نعرف أن الأباطرة الرومان تقبوا المسيحية بالمقاومة والاضطهاد الشديدين منذ البداية ، ورغم ذلك استمر المسيحيون ينتشرون ويعملون فى الخفاء سواء فى مصر أو فى أنحاء الإمبراطورية المختلفة .

ولقد كان للظروف الدينية والفكرية التى سادت فى الأسكندرية فى ذلك الوقت تأثير كبير على المسيحية الناشئة . فبسبب توحيد العالم فى ظل الإمبراطورية الرومانية وكثرة الانتقال والاتصال بين البيئات المختلفة سرت الأديان والأفكار من بيئة إلى أخرى — كما سبق أن ذكرنا ، فواجهها الإنسان لأول مرة مجتمعة متنافسة وكان من أهمها الأسكندرية . وفى هذه المدينة وجدت مدرسة فلسفية نامية ، تأثرت بهذه الظروف الدينية واستجابت لها ، فاصطبغت فاسفتها بالطابع الدينى والروحانى ، ومن أكبر أعلامها فيلون وأفلاطون — وقد سبقت الإشارة إليهما . وفى هذه البيئة المعقدة ظهرت دعوة دينية جديدة على جانب كبير من الخطورة وهى الغنوسية أو الأدرية (Gnosticism) . كان أصحاب هذه الحركة يسكرون الدين القديم ويميلون

(١) يوجد ثبت بالنصوص المسيحية لى البردى فى :
 C. H. Roberts. The Christian Book and the Greek Papyri, Journal of Theological Studies, Vol. I. (1949) 155 ff.

إلى الاعتقاد في فكرة إلهية عليا تمثل فيها للثل الدينية الرفيعة دون التقييد بدين معين، أى أنها نوع من الفلسفة الدينية . هذه الغنوسية أو الأدرية كانت للنتيجة الطبيعية لتضارب الأديان في هذه الفترة من ناحية ، ولانتشار المدارس الفلسفية من ناحية أخرى فقد أخذت من الأديان جوهرها في الإيمان بفكرة إلهية ، وأخذت من فلسفة فيلون وأفلوطين الجانب التصوفي في الوصول إلى المعرفة الإلهية ، لأنه في عقيدتهم كان إدراك المعرفة الحقيقية — أى معرفة الإله والكون معاً — هبة من الله ، ولكن لا بد للوصول إليها من رياضة خاصة وتأمل في الذات الإلهية .

هذه الحركة الغنوسية ، رغم أنها كانت منافساً خطيراً للمسيحية في فترة البداية القاسية ، خلقت بيئة مناسبة لأن تسود المسيحية بعد ذلك ، إذ شجعت على الاتجاه نحو ترك الديانات القديمة لقصورها ، فأدت بذلك للمسيحية مساعدة كبرى . إلا أن الغنوسية من ناحية أخرى كانت ضامنة سلبية ، كما كانت حركة مفككة تعتمد على العمل الفردي ، ولهذا لم يتوفر لها عامل الإثارة والإيجابية الذي يلهب الحواس الدينية في الجماهير . ورغم أن الغنوسية هزمت في معركة الصراع الديني إلا أنها تركت في المسيحية أثرين هامين : الأول أنها فرضت على زعماء المسيحية في القرون الثاني والثالث والرابع أن يعيدوا التفكير في أسس عقيدتهم وأن يرجعوا إلى جذور الفكرة المسيحية وأن يحددها . لأن للمسيحيين الأولين بعد المسيح مباشرة شغلهم الحواس الدينية في انتظار عودة المسيح عن التفكير في جوهر الفكرة الدينية الجديدة . أما الأثر الثاني — وتشترك فيه الغنوسية مع الفلسفة — فهو قوة الاتجاه التصوفي والروحاني الذي عرف في المسيحية فيما بعد^(١) .

(١) يوجد مرض لم البيئة الدينية في مصر قبل المسيحية وعند ظهورها في كتاب :
H. I. Bell, Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt (1953).

في وسط هذا المتك العنيف بين المذاهب والفلسفات والأديان المختلفة من ناحية، ومقاومة الدولة من ناحية أخرى شقت المسيحية طريقها وأصبح لها في الأسكندرية مركز ورئيس ومدرسة غير رسمية لتدريس تعاليمها^(١) وكان الهدف من هذه المدرسة هو معارضة الجامعة الوثنية الشهيرة في الأسكندرية القديمة . ولقد استطاعت هذه المدرسة منذ وقت مبكر أن تكتسب مجداً وقوة على أيدي أساتذتها الكبار أمثال كليمنس وخليفته في الأستاذية أوريجينيس .

أما كليمنس فكان شخصية إنسانية جذابة ولد في أثينا في أواسط القرن الثاني الميلادي ونشأ وتربى واسع الثقافة اليونانية متبحراً في الأدب والفلسفة ، ثم حضر إلى الأسكندرية ، وبعد أن استمع إلى محاضرات في المدرسة المسيحية هناك اعتنق الدين الجديد وأصبح أستاذاً بالمدرسة نفسها بعد ذلك . وقد امتازت دروسه وكتاباته بأثر الفلسفة اليونانية وكذلك بأثر غنوس مما جعله معتدلاً متسامحاً واسع الأفق بعيداً عن التعصب . وفي سنة ٢٠٣ ميلادية وهو في ذروة مجده الديني والعلوي تعرض المسيحيون لاضطهاد شديد بسطه عليهم الإمبراطور سفروس ، فاضطر كليمنس إلى أن يهاجر إلى فلسطين وأن يعيش متخفياً حتى يموت في ظروف لا نعرفها .

جاء بعده أوريجينيس أعظم مفكرى المسيحية في عصره ، وقد نشأ أسكندرياً مسيحياً ، ورأى وهو في سن السابعة عشرة والده يستشهد أثناء اضطهاد سفروس وفي فورة الانفعال أراد أن يلحق بوالده لولا جيلة من والدته التي أخفت بلباسه . ولقد كان الاضطهاد شديداً على المدرسة فلم يترك أحداً من أفرادها سوى أوريجينيس ،

(١) عن للجيبة في مصر أنظر : E. R. Hardy, Christian Egypt Church and People (1952).

فاضطرب الأسقف ديمتريوس - رئيس للسيحيين في مصر آنذاك - أن يعينه في العام التالي وهو في سن الثامنة عشرة رئيساً للمدرسة خليفة لسكليمنس . ولقد كان أوريجينيس صاحب دراسة قلبفية عميقة وشديد التأثير بالغوسية إلى جانب دراسة عظيمة باللغة العبرية والتوراة ، حتى أنه قام بدراسة مقارنة بين النص العبري والنص اليوناني في الترجمة السبعينية عندها . لاحظ اختلافاً بين النصين . ولقد اكتسب أوريجينيس شهرة عظيمة بين المسيحيين في عصره حتى أنه كان يدعى ليحل مشاكلهم حينما كانوا يختلفون حول قضية دينية . وقد اكتشفت أخيراً بردية تتضمن محاورات لأوريجينيس مع بعض قادة الحركة المسيحية حول الأب والأبن والروح القدس ^(١) . ومن الغريب أن أوريجينيس قد نجح من الاضطهاد أثناء توليه الأستاذية رغم أن عدداً من تلاميذه لا قوا للوث مستشهدين ، علماً بأنه كان يلزم الشهادة حتى ساعة الاستشهاد الأخيرة . في وجه غضب الجماهير من الوثنيين . على أي حال بقي أوريجينيس حتى عام ٢٣٢م . ولكن يبدو أن اتجاهه الفلسفي قد أوقعه في خلاف مع رجال الدين الآخرين وعلى رأسهم الأسقف ديمتريوس . فاضطر أوريجينيس أن يترك الإسكندرية ويذهب إلى فلسطين حيث أكمل دراسته للكتاب المقدس . وكان لطريقته تأثير كبير في بلاد الشام ، حتى ليكن أن يقال إن له الفضل الكبير في إنشاء المدرسة المسيحية في أنطاكية . وقد بقي في تلك البقاع في سنة ٢٤٣ في مدينة صور في بعض حركات الاضطهاد التي حدثت آنذاك ، كما سيأتي فيما بعد .

فالمسيحية إذ دخلت الإسكندرية وأصبح لها هناك حركة قوية ، وفي نفس الوقت انتشرت أيضاً إلى أنحاء القطر المصري وكانت الجماعات المسيحية المحلية

J. Socherer, Entretien d'Origène avec Heraclide et les (١) évêques ses collègues sur le Père, le Fils, et l'Âme, Cairo (1949) .

على اتصال مستمر بالحركة السيعية بالأسكندرية والتي كانت بدورها واسطة الاتصال مع السيعية العالمية في الخارج. هذا الاتصال بين مراكز الحركة للسيعية تكشفه لنا بردية طريقة ترجع إلى عام ٢٦٤ - ٢٨٢ ميلادية^(١)، وهي تحتوي على خطاب كتبه شخص له مكانته فيما يبدو ويؤرخه من روما، ويبحث به إلى جماعة السيعيين إلى منطقة الفيوم وهو يخاطبهم بلفظ «إخواني» التي تعتبر تعبيراً مسيحياً جديداً في لغة الخطابات في ذلك الوقت؛ ويطلب إليهم أن يجمعوا مبلغاً من المال ويرسله إلى الأسكندرية حتى يمكن أن يحده في انتظاره حين يصل إلى المدينة. وفي الخطاب إشارة إلى البابا «ماكسيموس» الذي كان أسقفاً في الأسكندرية، هذا الخطاب له طرافته، إذ أنه يبين نوعاً من التعاون بين البيئات السيعية الأولى سواءً محلياً أو على نطاق عالمي. ولا غرو فقد كانت الحركة في الأسكندرية بمثابة رأس الحركة في القطر كله، وحين قامت الكنيسة في الأسكندرية كانت كنائس الأقاليم تابعة لها. وهذا واضح أيضاً من الخطاب، فالإشارة إلى أسقف الأسكندرية بلقب «بابا» يدل على أنه في ذلك الوقت كان رئيساً لجميع السيعيين في مصر. ومن الطريف أن نذكر هنا أن لقب «بابا» أطلق أول مرة على أسقف الأسكندرية هرقليس (٢٢٢-٢٤٩) قبل أن يطلق على رأس الكنيسة في روما ذاتها^(٢).

ولكن رغم هذا النشاط الجرم ورغم وجود المدرسة ورئيس السيعيين في الأسكندرية ومصر يدينه الجميع بالولاء والعاعة، لم تكن حياة السيعيين سهلة هيئة. فلقد كانت حياتهم حلقات من الخوف والتعرض لأشد أنواع الإيذاء

The Amherst Papyri, I. 3.

(١)

Eusebius, Hist. Ecclesiastica. VII. 754.

(٢)

والاضطهاد على يد السلطات الرومانية . وقد يعجب القارىء لتعمد الرومان اضطهاد المسيحيين ، في حين عرف عن الحكومة الرومانية التسامح الدينى تجاه الديانات القديمة جميعاً . ولكن الرومان تسامحوا طالما كانت الأديان لا تكون خطراً اجتماعياً أو سياسياً ، وكانت المسيحية في ذلك خطراً سياسياً لا تقبل التعايش مع أى عبادة أخرى ، ومن العبادات القديمة عبادة الإمبراطور . فالمسيحية بدعوته إلى التوحيد كانت تسلب الإمبراطور صفته المقدسة وهى من أئزم مقومات سلطاته وخاصة في امبراطورية مقدنة التركيب كالإمبراطورية الرومانية . ولذلك تعقت السلطات الرومانية للمسيحيين بالاضطهاد منذ تاريخ مبكر في روما ، ولكن أول اضطهاد منظم ضد المسيحيين في مصر حدث عام ٢٠٣ زمن الإمبراطور سيثيروس ، وقد سبقته الإشارة إليه . والاضطهاد الثانى الكبير حدث في منتصف القرن الثالث زمن الإمبراطور ديكْيوس حين تمت محاولة منظمة لإبادة المسيحية نهائياً في الإمبراطورية الرومانية ، فصدر قرار يحتم على الأفراد أن يستخرجوا من لجنة عينت لهذا الأمر خاصة شهادة تثبت أنهم يمارسون العبادات الوثنية وأنهم يضجون للآلهة^(١) أمام هذه اللجنة الناشئة تزعزع ثبات بعض للمسيحيين ، فشاركوا في التضحيات الوثنية اتقاء للعذاب . وقد كان مبلّك هؤلاء موضع خلاف كبير بين المسيحيين فيما يتعلق بتوبيتهم بعد ذلك . ولكن بعضاً آخر من الرجال والنساء واجه الاضطهاد بثبات ، وتحمل العذاب للرر من ضرب بالعصى وسمل للمين وجر فوق حصى الشوارع إلى خارج المدينة . ومن لقي حتفهم في هذا الاضطهاد العالم للمسيح الكبير أوريجين متأثراً بآثار العذاب في مدينة صور ، كما ذكرنا من قبل .

على أى حال بعد ديكْيوس أوقف الإمبراطور جالينيوس اضطهاد للمسيحيين

وسمح لهم بحرية العبادة ، وهكذا استطاع المسيحيون لأول مرة أن يبنوا
كنيسة لهم . وأول ذكر لكنيسة مصرية يوجد في بردية من البهنسا في سنة
٣٠٠^(١) . أما عن تاريخ المسيحية بعد ذلك فيقع في الفترة التاريخية التالية التي
تبدأ بمصر دقلديانوس ، وفيها تنتصر المسيحية نهائياً ، وتصبح سيادة الدولة
والسياسة في المجتمع الجديد بعد أن كانت طريقتهما في المجتمع القديم .

مراجع مصر في العصر الروماني

- H. I. Bell :— Egypt under the Early Principate (in Cambridge Ancient History, vol. X. chap X)
— Jews and Christians in Egypt.
- V. Chapot :— L'Egypte Romaine (dans G. Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne, Tome III.)
- A. C. Johnson:— Roman Egypt (being vol II. in An Economic Survey of Ancient Rome ed. by T. Frank).
— Egypt and the Roman Empire.
- A. H. M. Jones:— Cities of the Eastern Roman Provinces. Oxford (1937)
— Egypt and Rome (in the Legacy of Egypt ed by S. R. K. Glanville, pp 283—300)
- P. Jougue :— La Vie Municipale dans L'Egypte Romaine (1911)
- P. Jouguet:— L'Egypte Grecs - Romaine de la Conquête d'Alexandre à Diocletien (dans Précis de l'Histoire d'Egypte, Tom I.), le Caire 1932
— La Domination Romaine en Egypte aux deux premiers siècles après Jesus Christ), Alexandrie, 1947.
- J. Lesquier:— L'Armée romaine d'Egypte d'Auguste à Dioclétien. Le Caire, 1918.
- J. G. Milne :— A History of Egypt Under Roman Rule (1924)
- Th. Mommsen:— The Provinces of the Roman Empire (translated into English by W. P. Dickson) London, 1886.

مزاج مصر في العصر الروماني (تابع)

- H. A. Musurillo:— *The Acts of the Pagan Martyrs or Acts Alexandrinorum*, Oxford (1954)
- M. Rostovtzeff:— *Social and Economic History of the Roman Empire* (ولد ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ زكي على)
- R. Taubenschlag :— *Law of Greco - Roman Egypt*.
- S. L. R. Wallace :— *Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian*.

دكتور إبراهيم نصفي :

حضارة مصر في العصر الروماني (تاريخ الحضارة المصرية. المجلد الثاني ج ٢)

دكتور عبد الطيف أحمد على :

مصر والإمبراطورية الرومانية :

دكتور عبد الطيف أحمد على (وآخرون) :

كفاحنا ضد القزاة (العصر الروماني ١٢٥ - ٢٠٢) .

الباب الثالث
مصرفي العصر البنبرنطى
(٢٨٤ — ٦٤٠ م)

الفصل الأول

الدولة والدين في مصر البيزنطية

دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)

انتهت الحروب الأهلية والانتقامات العسكرية المتوالية التي شغلت معظم
سنى القرن الثالث والتي تركت الامبراطورية الرومانية متفصصة الأوصال تعبت
فيها الفوضى والاضطرابات دون سلطة مركزية يحسب لها حساب باستيلاء
دقلديانوس على الحكم . وكان هذا الإمبراطور بشبه فئة الأباطرة في الفترة
الأخيرة في بعض الجوانب ، ويختلف عنهم كل الاختلاف في جوانب أخرى،
مثلهم من حيث أنه جندي في الجيش الروماني من أصل متواضع وتمكن من
الوصول إلى منصب رفيع في الجيش ، ومثلهم أيضاً من حيث أنه توصل إلى
السلطة عن طريق الجيش والمؤامرة والحرب الأهلية . ولكنه يختلف عنهم في
أنه كان شخصية قوية ذا مواهب فذة في الإدارة والحكم بالرغم من أنه لم يكن
قائداً عسكرياً عظيماً ، وكثيراً ما عهد بقيادة الجيوش إلى غيره من أعوانه
الضباط . وبالرغم من أنه شخصية محافظة إلى أبعد حدود المحافظة، وخاصة من
الناحية الدينية ، ولكنه كرس نفسه لمهمة أعجزت من سبقه من الأباطرة وهي
وقف الإمبراطورية الرومانية من الانزلاق إلى هوة التدهور والفوضى التي
كانت مندفعة إليها . وفي قيامه بهذا العمل لم ينظر إلى أمام بقدر ما نظر إلى خاف،
فهو لم يعتبر نفسه واضع أسس نظام وعهد جديد ، وإنما اعتقد أنه يعمل ليعيد

الدولة إلى سابق شأنها . ولكن النظام القديم كان في معظمه قد لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يأتى دقلديانوس إلى الحكم، ولهذا حين تصدى هذا الإمبراطور للإصلاح لم يجد بدأ من وضع قواعد ونظم وقوانين جديدة ظلت أساس الإدارة والحكم في الإمبراطورية طيلة القرون الثلاثة التالية حتى زمن الإمبراطور جستنيان في القرن السادس . فلا غرو إذن إذا اعتبر المؤرخون المحدثون عصر دقلديانوس هو نقطة التحول في التاريخ القديم من عصر الإمبراطورية الرومانية إلى العصر البيزنطى والعصر المتأخر من الإمبراطورية الرومانية (١) .

ومن أهم إصلاحاته التى تأثرت بها مصر أنه فصل بين السلطين المدنية والعسكرية فى الولايات ، وبعد ذلك قسم الولايات الكبرى إلى عدد من الولايات الصغرى ليخفف عن كاهل الإدارة المركزية . فانقسمت مصر إلى ثلاث ولايات نتيجة لذلك (وسوف نتحدث عن هذا التنظيم الإدارى بمزيد من التفصيل فى فصل مستقل) . أما فى مجال المالية والاقتصاد فقد حاول دقلديانوس إصلاح نظام العملة بإصدار عملة جديدة ذهبية وفضية بالإضافة إلى الدينار البرنزى القديم بعد أن أدخل على وزنه بعض التعديل بما يتفق والنظام الجديد للعملة الذى كان الهدف الأساسى منه هو منع تدهور قيمة العملة الذى ساد فى القرن الثالث . ثم أتبع ذلك بإصدار قائمة تحدد أسعار السلع الضرورية فى أنحاء الإمبراطورية . وحين قادم التجار هذه اللشريات حاول تطبيقها بتسوة بالغة، ولكنه فشل أيضاً واختفت السلعة من الأسواق حتى اضطرت الحكومة إلى إغفال الأمر كلية. ولكن دقلديانوس كان أكثر توفيقاً فى محاولته إصلاح نظام الضرائب . فحسب مديحة فى توحيد نظم

(١) جميع كتب التاريخ التى تتألف هذا العصر تتحدث عن دقلديانوس وإصلاحاته، ولكن

أظهر بصفة خاصة : W. Enslin, The Reforms of Diocletian, in

Cambridge Ancient History, vol. XII, pp. 383 ff.

الإمبراطورية أخضع جميع الولايات لنظام ضرائبي جديد بدلا من النظم المتعددة المختلفة التي كانت متبعة من قبل. ويتلخص النظام الجديد في أبسط صورة في فرض ضريبة مزدوجة جديدة على الأفراد والأرض بقدر متساو في كل أنحاء الإمبراطورية. ولكن نظراً لأن القيمة النوعية للأرض تختلف حسب خصوبتها والغلة التي تنتجها فقد وضعت قواعد دقيقة لمرعاة ذلك، بحيث أن بائنين الفاكهة ومزارع الزيتون كانت تقدر عليها ضريبة أكثر من أرض الحبوب أو للراعي وهكذا. وقد أمكن تنفيذ هذه السياسة الجديدة عن طريق إجراء إحصاءات للأفراد ومسح للأراضي في فترات متقاربة (كانت وحدة قياس الأرض في النظام الجديد هي اليوجوم Jugum وهي تعادل نصف فدان أو أقل قليلاً). ولكن مهمة دقلديانوس في الحكم والإصلاح كانت غاية في الصعوبة، إذ كان عليه في الوقت نفسه أن يؤمن حدود الإمبراطورية للترامية ضد غزوات اللعبريين من كل جانب، ثم أن يقمع أى مقاومة أو ثورة محلية ضد حكمه أو تشريعاته، ثم أخيراً أن يحدد الحركة الدينية الجديدة التي تهدف إلى القضاء على جميع العقائد الدينية التي ألغتها الإمبراطورية حكومة وشعباً من قديم وتقصّد بالدين الجديد المسيحية. ولقد تمثلت هذه العناصر الثلاثة في مصر في ذلك الوقت، فكانت حدود مصر الجنوبية تماهى من هجمات القبائل المعروفة باسم Blomies جنوب مصر، وقد عالج دقلديانوس هذا الخطر بأن اشترى سلامهم بالمال، ثم أقام قبيلة قوية من النوبيين على حدود مصر الجنوبية؛ لتتكفل بحماية الحدود ضد أى خطر واتفق معهم على أن يدمم سنوياً بإعانة مالية مناسبة. ولكن ذلك لم يؤمن مصر، فسرعان ما ظهر خطر آخر أشد في داخل البلاد، إذ استطاع أحد القواد الرومان دوميتيانوس (Lucius Domitius Domitianus) والذي اشتهر في الأسكندرية باسم أخيليوس Achilleus من الثورة ضد الإمبراطور الجديد وأعلن نفسه إمبراطوراً في الأسكندرية.

تمثل هذه الثورة بالنسبة لدقلديانوس خطراً حقيقياً، نظراً لأنها تهدف إلى إيجاد إمبراطور جديد أولاً ، وأنها تتخذ مصر مركزاً لها . وفي ذلك تهديد صريح يمنع إرسال القمح إلى روما . ويكفى للدلالة على خطورة هذه الثورة أن دقلديانوس حضر بشخصه في الحال إلى الإسكندرية وقمع الثورة بعد حصار المدينة مدة ثمانية أشهر وتدمير أجزاء كثيرة منها. ويبدو أن الحالة في المدينة كانت سيئة جداً ، حتى أن الإمبراطور أمر بتوزيع جزء من القمح المرسل إلى روما بين الإسكندريين. ومن المحتمل أن أهل الإسكندرية أظهروا سعادتهم بهذه المنفعة من الإمبراطور بأن أقاموا له ذلك العمود الضخم المعروف باسم عمود بومبي ، ولا يزال موجوداً بالمدينة .

بعد القضاء على هذه الثورة أمكن تطبيق السياسة والنظم الجديدة في مصر ، ومن بين محاولات دقلديانوس في إعادة تنظيم وبناء الإمبراطورية على أساس متجانس يبعد عنها الاختلافات والاقسامات ، حتى ولو كانت اختلافات في الرأي أو العقيدة ، هي القضاء على الحركة المسيحية النامية في ذلك الوقت . فبالرغم من أن المسيحية أساساً دعوة دينية مجردة بعيدة عن السياسة كل البعد ، إلا أنها بدعوته إلى نبذ الآلهة القديمة جميعاً كانت تهتم ركناً أساسياً من أركان البناء الذي تقوم عليه الإمبراطورية خاصة وأن رفض المبادئ القديمة كان معناه رفض قدسية شخص الإمبراطور. من أجل ذلك اعتبرت للمسيحية في عصرها الأول على أنها حركة مناهضة للنظام الإمبراطوري للتوارث. فإذا كان الأباطرة السابقون قد ضاقوا بالمسيحيين، فمن المتوقع ألا يقف دقلديانوس بسياسته التي تؤمن بوحدة التنظيم ووحدة الهدف في البناء الإمبراطوري مكتوف الأيدي من هذه المشكلة أيضاً وكما فعل في مجال إصلاح الإدارة والاقتصاد عن طريق وضع مبادئ ونظم جديدة، كذلك حاول إصلاح الحالة الدينية بوضع مبدأ ديني جديد. هذا للبدا الجديد هو زيادة

الصفة المقدسة لشخص الإمبراطور ، وأطلق على نفسه لقب جيوفينوس (Jovius) ومعناها ممثل جوبيتر ، كبير الآلهة ، على الأرض . ومع ذلك فلم يسارع إلى الاضطهاد بل بقي فترة طويلة من حكمه تبلغ عشرين عاماً تقريباً يؤكد مركزه على رأس الدولة ، دون أن يتعرض للمسيحيين بأذى كبير ، حتى إذا كان عام ٢٩٨ قام بمحاولة عنيدة لتطهير الإدارة والجيش من المسيحيين ، بينما كان يستعد لحرب الفرس ، ولكن في سنة ٣٠٣ نجد دقلديانوس ييأس من الوسائل السلمية في حل مشكلة الانقسام الديني في الإمبراطورية ، ويبدأ أقصى اضطهاد عرفه المسيحيون . فصدرت الأوامر الإمبراطورية تقضى بجمع نسخ الكتاب المقدس لحرقها وتدمير الكنائس ومنع المسيحيين من الاجتماع والعبادة . وقد نفذت هذه الأوامر الإمبراطورية بقسوة بالغة في كثير من الأحيان ، واستمرت نحو من عشر سنوات ، أي ثماني سنوات بعد اعتزال دقلديانوس الحكم . ونظراً لأن حاكم مصر في ذلك الوقت كان من الحزب المتطرف في مقاومته وكرهه للمسيحيين فقد كان الاضطهاد في مصر أشد قسوة من بعض الولايات الأخرى ، وراح ضحيته ألوف كثيرة من شتى الطبقات والمدن ^(١) .

قسطنطين (٣٢٣ — ٣٣٧) :

استمر اضطهاد المسيحيين على أيدي الأباطرة الرومان بعد دقلديانوس ، حتى إذا كان عام ٣٢٣ نجح قسطنطين في تولي الحكم وأصبح أول إمبراطور مسيحي للإمبراطورية الرومانية ^(٢) . وكان أول عمل قام به هذا الإمبراطور

(١) انظر وصف جوسيبوس عن الاضطهاد في مصر .

Eusebius: Hist. Eccles. VII, 8.

(٢) انظر عن قسطنطين وعصره كتاب A. H. M. Jones, Constantine and

The Conversion of Europe, London, 1948

هو الاعتراف الرسمي بالمسيحية ، وبذلك بدأت عهداً وتاريخاً جديداً يختلف كل الاختلاف عن سيرتها السابقة . فنذ ذلك الوقت بدأ المسيحيون يعملون في حرية واطمئنان، وكان لذلك نتائجها السيئة أيضاً. ففي عصر الخوف والترقب السابق لم يجزؤ المسيحيون على إظهار خلافهم وانقسامهم في الرأي ، لأنهم في ذلك الوقت كانوا في أشد الحاجة إلى تماسكهم وتساندهم ، وربما أودى أى انقسام بينهم بالحركة كلها. ولم يكن معنى ذلك أنه لم توجد بين المسيحيين خلافات في الرأي قبل قسطنطين ، بل وجدت هذه الخلافات ، وقد أشرنا إلى الخلاف بين أوريجينيس والكنيسة في الأسكندرية وإلى انقسام رأى الكنيسة بشأن المرتدين في عصر الاضطهاد . ولكن للمسيحيين في ذلك الوقت كانوا يبقون هذه الانقسامات في أضيق نطاق ممكن، دون أن تتحول إلى خلافات جماعية . ولكن ما أن أمن للمسيحيون على أنفسهم من الاضطهاد وضمنوا الدولة إلى جانبهم حتى وجدناهم يظهرن ما كانوا بضرون من التشيع والانقسام ويهمننا من ذلك انقسامان حدثا في مصر. الأول وهو ظهور الدعوة الأروسية في الأسكندرية ، والثاني هو موقف مليتيوس من المرتدين في عصر الاضطهاد .

أما عن الدعوة الأروسية فهي نسبة إلى أريوس (Arius) الذي كان من أصل لبني وتعلم في أنطاكية وأصبح أحد رجال الكنيسة في الأسكندرية. ويبدو أنه كان على جانب كبير من العلوم وقوة الشخصية وحدة العقل، ونظراً لتعلمه في مدرسة أنطاكية المسيحية التي كانت تسود فيها فلسفة أوريجينيس الدينية التي كانت مشبعة بالفلسفة الأفلاطونية، فقد بقي محافظاً على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويمارسها في الأسكندرية بصورة متطرفة. وسرعان ما صاغ آراء مستقلة في العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة، مما أوقعه في صدام عنيف مع أسقف كنيسة الأسكندرية في ذلك الوقت للمسي إسكندر. وتتلخص عقيدة

أريوس في أنه ابتداء بموقف أنلاطوني وهو أن الإله وجود دائم ولا يمكن إدراكه ؛ ثم استنتج من ذلك نتيجة منطقية في أن «الإبن» لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى ، ولذلك يلزم منطقياً أن وجوده كان لاحقاً لوجود الإله ، وبعبارة أخرى أن «الإبن» له بداية ، في حين أن الإله «الأب» قديم ودائم. وأخيراً بما أن الإله «الأب» ، لا يقبل الاقسام فلا بد أن «الإبن» خلق من العدم. مثل هذا الآراء صدمت كثيرين من رجال الكنيسة في الأسكندرية الذين كانوا يعتقدون أن الإبن مثل الأب قديم دائم وأنهما من طبيعة واحدة؛ وقد تخرج للوقوف كثيراً نتيجة لذلك حتى اضطروا الأسقف اسكندر إلى عقد مجمع من القساوسة في مصر وليبيا وأصدروا استنكاراً لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة . ولكن خطر دعوة أريوس لم يقتصر على مصر بل انتشر خارجها في فلسطين وليبيا وآسيا الصغرى . ولم يمكث اسكندر مكتوف الأيدي بل راح يعمل بنشاط جمع بين أساقفة الكنائس في الولايات الشرقية يحضهم على مقاومة دعوة أريوس في مناطقهم بكل قوة . في ذلك الوقت حاول قسطنطين أن يتدخل في الأمر ويصلح بين أريوس واسكندر بدون جدوى فقرر عقد مجمع ديني عالى يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة في الشرق والغرب لوضع حد للاقسامات العقائدية التي انتشرت في ذلك الوقت، وأرسلت الدعوة للاجتماع في نيقيا في آسيا الصغرى في سنة ٣٢٥ .

أما عن المسألة الثانية وهي موقف ميليتيوس من معاملة الكنيسة للمرتدين فتتلخص في أن ميليتيوس كان يدعو إلى اتخاذ موقف متطرف متزمت من الذين ضعفوا أمام الاضطهاد وارتدوا عن المسيحية ، في حين أن الأسقف اسكندر كان يؤثر موقفاً متساهلاً ، يبيح العفو بعد التوبة^(١) . ورغم عدم

(١) انظر Bell, Jews and Christians in Egypt, pp. 38 ff.

خطورة موضوع الانقسام وبقائه مصرى إلا أن ميليتيوس كان عنيداً متعصباً، فلم يتزحزح عن آرائه قيد أنملة ، وشجعه على ذلك كثرة أتباعه ، حتى اضطرت الكنيسة المصرية إلى نفيه إلى فلسطين . وقد بلغ به التعصب أنه بنى له ولأتباعه كنيسة خاصة أطلقوا عليها اسم كنيسة الشهداء حتى لا يشاركوا المسيحيين الآخرين كنيسة الكاثوليكية . ورفع الأمر إلى قسطنطين الذى قرر عرضه على مجمع نيقيا أيضاً .

وانعقد مجمع نيقيا فى سنة ٣٢٥ وشهدته القساوسة من جميع أطراف الإمبراطورية ، ورأس الإمبراطور نفسه المجمع وشهد كثيراً من الجلسات وأشرف على إدارة المناقشات . وبالرغم من أن المجمع تناول كثيراً من مشا كل المسيحية فى ذلك الوقت إلا أن الخلاف بشأن العقيدة الأريوسية كان المشكلة الأساسية التى واجهها المجمع ، ولذلك شغل بأمر الوصول إلى صياغة للعقيدة المسيحية يمكن أن يقبلها المسيحيون من الفرق المختلفة . وفى الرحلة الأولى من المناقشة حاول أتباع مذهب أريوس اقتراح عقيدة ولكنها رفضت بأغلبية ساحقة ، وبعد مناقشات طويلة أمكن الوصول إلى صياغة عقيدة تتضمن المبادئ المسيحية الأساسية التى يقبلها الجميع ، ووضعت فى ألفاظ لا تثير الاختلافات للذهبية . ولكن بعد أن أقر المجمع هذه الصيغة اقترح قسطنطين إضافة لفظ واحد يصف العلاقة بين الأب والإبن بأنهما من طبيعة واحدة (homoousion) .

وتعتبر إضافة هذا اللفظ مجاملة كبرى من الإمبراطور لكثرة التى رفضت عقيدة أريوس ، لأن قسطنطين كان يحرص فى الواقع على كسب ولاء الأ كثرية قبل التفكير فى مناصرة مذهبهم الدينى . ولقد قبله أ كثر الحاضرين بما فيهم أتباع مذهب أريوس ، ولم يعترض على هذا القرار سوى اثنين من أتباع أريوس المخلصين ، فأصدر المجمع فى الحال قراره بحرمانهما مع أريوس

نفسه من الكنيسة كما أصدر الإمبراطور أمره بطردهم من مصر .

أما فيما يتعلق بفتنة ميليتيوس فقد صدر قرار طابعه الرحمة والسعى إلى الصلح بين الطرفين ، وضواء أن يحافظ ميليتيوس على لقبه الديني ، دون أن يمارس عمله في الكنيسة ، ولكن سمح لأتباعه من رجال الدين أن يعودوا إلى عملهم في الكنيسة بعد قبول الأسقف اسكندر لهم ^(١) .

ولكن رغم الإجماع والسياسة الموحدة التي ظهرت في مجمع نيقيا ، فإنه لم يضع الحل النهائي للمشاكل التي واجهها ، فالأريوسية لم تمت بنفى زعيمها ، والاقسام الميلينيوس لم يربأ باقتراح ذلك الصلح الساذج .

وقد أدرك الإمبراطور قسطنطين ذلك في الحال فسمى إلى استكمال وحدة الكلمة عن طريق إصدار عفو عن أريوس ، وأمر بإعادته إلى منصبه في الأسكندرية . ولكن اسكندر أسقف الأسكندرية رفض إجابة طلب الإمبراطور

وبذلك بدأ خلاف عنيف بين كنيسة الأسكندر والقصر الإمبراطوري في القسطنطينية ، وانسم موقف مصر في هذا الخلاف بالطابع الديني والسياسي في وقت واحد ، ويتضح للظهر السياسي بجلاء في أنه بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين إلى شرقية وغربية في القسطنطينية وروما ، تحسن العلاقات بين الأسكندرية وروما بقدر ما تسوء مع القسطنطينية . ولقد اكتسبت كنيسة الأسكندرية أهمية عالمية لا يشابهها في ذلك سوى كنيسة روما ذاتها . وكان لشخصية أثناسيوس ، الذي خلف اسكندر أسقفاً في سنة ٣٢٨ ، تأثير كبير على نمو الكنيسة المصرية في هذه الفترة . فقد منح أثناسيوس من طول

(١) هناك عرض ايم لمجمع نيقيا في كتاب Jones, Constantine, pp. 152—171

العمر وقوة الشخصية وذكاء العقل مامكنه من السيطرة على الكنيسة المصرية زهاء نصف قرن من الزمان .

وفي هذه السنين الطويلة واجه الأباطرة في القسطنطينية الواحد بعد الآخر وتحمل النفي مرة بعد أخرى في عناء وشدة مراس جعلت منه زعيماً شعبياً وليس مجرد أسقف للكنيسة^(١) .

ويبدأ الخلاف بين أنثاسيوس وقسطنطين أول الأمر بسبب مسألة أريوس، إذ يتخذ أنثاسيوس موقفاً شبيهاً بموقف سلفه ويصر على رفض أمر الإمبراطور بإعادة أريوس إلى كنيسة الأسكندرية . وبعد تكرار المحاولات يعتقد الإمبراطور مجعماً ديفيا في مدينة صور سنة ٣٣٥ لمحكمة أنثاسيوس الذي كُيلت له تهمة مختلفة لا تقتصر على موقفه من أريوس والإمبراطور وإنما بعضها ذات طابع سياسي مثل استخدام القوة في معاملة أتباع ميليتيوس والتدخل في تعطيل إبحار القميج المصري الذي كان يرسل إلى القسطنطينية كل عام ، ثم تأييده ثورة قامت ضد الإمبراطور في مصر قادها شخص يدعى فيلومينوس سنة ٣٣٥ . ويقرر مجمع صور عزل أنثاسيوس من منصبه، ويلحق الإمبراطور ذلك بأمر نفيه من مصر . ويذهب أنثاسيوس إلى بلاد الغالة أي إلى القسم الغربي من الإمبراطورية .

ولكن ما أن يتوفى الإمبراطور قسطنطين في عام ٣٣٧ حتى يعود أنثاسيوس إلى الأسكندرية، ويقاوم عودته أتباع أريوس وميليتيوس أشد المقاومة، ولكنه يتمكن من القضاء على مقاومتهم عن طريق إحضار جماعات من الرهبان بزعامة أنطون الراهب إلى الأسكندرية، وينجح في تولى مقاليد الكنيسة من جديد . ولكن الأمر لا يستقيم له طويلاً ، فإن الإمبراطور الجديد في الشرق، قسطنطيوس الثاني يضيق

(١) أنظر عرضاً لشخصية أنثاسيوس في كتاب :

Hardy, Chrisitan Egypt, pp. 47—78.

بهذا الأسقف الخطير ويصدر أمراً بطرده وأتباعه من الكنيسة في سنة ٣٣٩. وقد وجه إلى أنطاسيوس اتهام آخر وهو أنه باع القمع الذي منحه الإمبراطور للكنيسة لتوزيعه مجاناً بين المحتاجين . ويبدو أن هذا الاتهام لم يكن خالياً من بعض الصديق ، لأن أنطاسيوس كتب مفسراً بأنه وزع بعض القمع على مستحقيه مجاناً وأنه لم يبيع القمع كله . على أى حال لم ينتظر أنطاسيوس إلى أن يلقى القبض عليه بل فر إلى روما حيث كان يثق في مناصرة البابا وإمبراطور الغرب له . وفلا يتقبله أولوا الأمر في روما بالترحاب ويساعده إمبراطور الغرب على العودة إلى الأسكندرية ، وينجح مسعاه في سنة ٣٤٦ . وبذلك ينتهى فترة نفى أنطاسيوس الثانية ويعود إلى الأسكندرية . وتبدأ أجدد فترة في تاريخ رياسته للكنيسة الأسكندرية التي تستمر عشرة أعوام . وفي هذه الأعوام العشرة يعمل أنطاسيوس على توطيد مركزه في مصر ويحارب الأريوسية التي كان قد استشرى أمرها في البلاد في فترة نفيه . وفي هذه الفترة نمت الكنيسة المصرية نمواً كبيراً وتعددت حدود مصر ، فأنشأت كنيسة في إثيوبيا فرحاً من كنيسة الأسكندرية .

وكان للمسيحيون في هذه الأثناء منذ عصر قسطنطين قد دمر وا كثيراً من المعابد الوثنية أو حولوها كنائس . وكان ذلك يتم برضاء السلطات الرسمية وبأمرها أحياناً . ومن أشهر ما تم في هذا المجال هو قرار الإمبراطور بإعادة بناء معبد القيصرين وتحويله إلى كنيسة بالأسكندرية ، وكان ذلك في أثناء هذه السنين العشرة لأنطاسيوس ، ويبدو أن أسقف الأسكندرية تجعل الأيام ولم ينتظر حتى يتم بناء القيصرين ، بل أقام الصلاة فيه قبل إتمامه نظراً لاتساعه ويبدو أن الإمبراطور لم يكن راضياً عن زيادة نفوذ أنطاسيوس ، فانهز فرصة إقامته الصلاة في الكنيسة الجديدة دون إذنه ، فاعتبر ذلك تعدياً من أسقف الأسكندرية على امتيازات الإمبراطور . وكان إمبراطور روما الذي يعطف على أنطاسيوس

قد توفي ذلك الوقت وأصبح قسطنطيوس إمبراطوراً مفرداً في الإمبراطورية
بقسميها الشرق الغربي ، فقرر التخلّص من أثناسيوس وأرسل قوة مسلحة لإلقاء
القبض عليه في سنة ٣٥٦ ، ولكنه تمكن من الفرار واختفى بما يشبه المعجزة .
وخل مخفياً فترة تعتبر بمثابة نفية الثالث ، ولكن في هذه المرة لم يترك مصر بل
اختفى بين الرهبان المصريين منتقلاً بين الأديرة المختلفة التي كانت منتشرة في ذلك
الوقت سواء في الصعيد أو في صحراء مصر الغربية . وقد حاول أثناسيوس أن
يعود إلى كنيسته مرة ثانية في عهد الإمبراطور الجديد يوليوس (٣٦١-٣٦٣)
ولكنه فشل وأصدر الإمبراطور قراراً بنفيه من الإسكندرية ، فاضطر
أثناسيوس إلى أن يختفي ثانية بين الرهبان . وفي عام ٣٦٣ — ٣٦٤ تولى
العرش في القسطنطينية إمبراطور مؤيد لأثناسيوس ، فعفى عنه وأعادته إلى
كرسيه في كنيسة الأسكندرية .

ورغم تنفير الإمبراطور في القسطنطينية وتولى فالنس Valens الحكم في
التالي العام (٣٦٤ — ٣٧٨) وكان موالياً للحركة الأريوسية ، إلا أن أثناسيوس
تمكن بفضل شعبيته الكبيرة بين المصريين عموماً من البقاء في أسقفيته حتى
وفاته سنة ٣٧٣ .

بعد وفاة أثناسيوس خلفه أحد زملائه القدماء ، ويدعى بطرس ، ولكن
الإمبراطور فالنس الذي كان متشككاً للأريوسية أراد أن يفتن فرصة موت
أثناسيوس ويعين أسقفاً أريوسياً ، ولذلك لم يعترف ببطرس وعين لقيوس
Lucius ، وأقامه في أسقفية الأسكندرية بقوة السلاح حتى أن بطرس لجأ
إلى الفرار إلى روما .

وتعطل أسقفية لقيوس آخر محاولة أريوسية للسيطرة على كنيسة مصر ،
وقد تميزت أيامه ببعض الأحداث ذات الأهمية التاريخية . فراح ينتقم من أتباع

أثناسيوس وينسكل بهم وخاصة بين رهبان الصحراء الغربية بالقرب من الأسكندرية . ولكن صاحب حركة اضطهاد الرهبان صدور قرارات من الإمبراطور تلقى ضوئاً على الحياة العامة في مصر في هذه الفترة . ذلك أن بعض الأثرياء الذين تقع عليهم مسئولية تولى الوظائف العامة . انتهزوا فرصة اقتشار حركة الرهبنة وانضموا إلى صفوفها تاركين الحياة في المدينة عليهم بذلك يتجنبون مسئولية تولى الوظائف العامة التي كانت تكلفهم مبالغ كثيرة دون فائدة تذكر في تلك الأيام . وقد أضرب هذا الاتجاه بالنظام الإداري في مصر أيما ضرر . فأصدر الإمبراطور قراراً يقضى بأنه يجب على الأثرياء من المواطنين الذين يهجرون المدن بدعوى الانضمام إلى صفوف الرهبان أن يعودوا ثانية أو أن يسلموا جميع ممتلكاتهم للدولة .

ولكن إجراءات الدولة لم تمنع أفراداً من كل الطبقات أن يتركوا مواطنهم ويذهبوا إلى الأديرة ، مما أخذ يؤثر على حركة التجنيد للجيش ، فاضطر الإمبراطور إلى إصدار أوامره بتجنيد القادرين من الرهبان للخدمة في الجيش الروماني . وفجلاً ذهبت قوات عسكرية إلى الأديرة في الصحراء الغربية ، فاعتقلوا من اعتقلوا وقتلوا من قاوم ، كما نفت الدولة عدداً من رؤسائهم . كل ذلك أدى إلى ثورة الأهالي والرهبان على الأسقف الأريوسي ، حتى أنه اضطر إلى الفرار إلى القسطنطينية ، في حين تمكن بطرس الذي كان منفياً في روما من العودة إلى الأسكندرية (في عام ٣٧٥ أو ٣٧٦) .

بعد ذلك تولى الحكم في القسطنطينية إمبراطور جديد هو نيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥) ، وأراد أن يعالج المشاكل الدينية في الإمبراطورية بطريقة تظهر بساطة تفكيره وأنه لم يعرف مدى عمق هذه الانقسامات . فاجتهد بأن يعلن ضرورة تعميق عقيدة مجمع نيقيا في كل الكنائس ، ثم أكد ذلك الإعلان بأن عقد

بمهما في القسطنطينية دون أن يشهد ممثلون عن الكنيسة المصرية خطأ فيه خطوة جديدة نمو زيادة أهمية عاصمته من الناحية الدينية، فأعلن أن كنيسة القسطنطينية يجب أن يكون لها مكان الشرف العالي لكنيسة روما لأن القسطنطينية كانت « روما الجديدة » معنى ذلك أن الأسكندرية قدت مركزها كثناني كنيسة بعد روما. ثم أصدر المجمع قراراً آخر يقضى بأن تقتصر كل كنيسة على الإقليم الذي تقع فيه، وهذا يعنى أيضاً أن تقتصر كنيسة الأسكندرية على مصر بعد أن كان لها نشاط خارجي ملحوظ. هذه القرارات لم يكن لها رد فعل مباشر في مصر، ولكنه سيظهر بعد قليل، والسبب في ذلك هو أن الإمبراطور الجديد شغل الكنائس جميعاً والإدارة الامبراطورية في أمر القضاء على الوثنية في أرجاء الامبراطورية. وفي مصر تولى أسقف الأسكندرية في ذلك الوقت وهو ثيوفيلوس مهمة تنفيذ هذه السياسة، التي نفذها بكل قسوة ووحشية. ولما كان معبد السرابيوم في الأسكندرية من أشهر معابد الوثنية القديمة، وكثيراً ما احتفى به الوثنيون. لذلك استعان ثيوفيلوس بالسلطات العامة في المدينة وهاجم المعبد ومن فيه. فدمر المعبد والمكتبة الكبيرة التي كانت ملحقة به. وفي أثناء هذه الحنة فر كثير من رجال العلم والفلسفة الذين كانوا يشرفون على مدارس الأسكندرية، نظراً لأنها كانت مركزاً للفكر الوثني. بعد ذلك تحول ثيوفيلوس إلى اضطهاد خصومه في الرأي من رهبان الصحراء الغربية مستخدماً في ذلك قوة من الجنود الرومان أيضاً.

الاقسام المذهبي بين الأسكندرية والقسطنطينية :

في سنة ٤١٢ توفي ثيوفيلوس وخلفه الأسقف كيرلس الذي يعتبر أهم من تولى أمر الكنيسة المصرية بعد أناسيوس. ويطلب على شخصية كيرلس طابع التطرف سواء في أعماله أو أفكاره، مع ميل إلى العنف. وقد بدا ذلك واضحاً

فما حدث في أيامه من تجديد اضطهاد اليهود في الأسكندرية بعد أن خمد نوحاً من ثلاثة قرون، وفي هذا الاضطهاد لم يعتمد على جنود الحامية العسكرية ، بل اعتمد على العامة في المدينة والرهبان في الصحراء الغربية بالقرب من الأسكندرية. وبلغ من عنف هذه الأحداث أن اضطرب الأمن كل الاضطراب، وأخذ الفوغاء ينهبون بيوت الأثرياء ويمتلكونهم ، وعجز الوالى ورجال الجيش عن إخماد هذه الاضطرابات لأن كيرلس بدأ يقوم بدور سياسى شبيه بدور أنطانيوس وهو تولى زعامة الشعب المصرى ضد الإمبراطور وممثليه في مصر وهم الوالى وأعوانه .

وقد بلغ بكيرلس التطرف حتى أنه ضاق بمدارس الفلسفة في الأسكندرية باعتبارها مراكز للفكر الوثنى. ومن أبرز شخصيات الحياة الفكرية والأدبية في الأسكندرية في ذلك الوقت الفيلسوفة المشهورة هيبيثيا ، التى كانت على جانب كبير من العلم والجمال معاً . وكان يؤم دروسها الشباب من المسيحيين والوثنيين على السواء ، وكانت لها علاقات طيبة مع كثير من عليّة القوم في الأسكندرية من أصحاب الاتجاهات المختلفة . وقد وجه كيرلس اضطهاده ضد هذه السيدة العالمة وهاجمها الرهبان وقتلوا في سنة ٤١٥ . بعد ذلك تدخل الإمبراطور وأرسل بعثة للتحقيق فكف كيرلس عن هذه الأعمال .

على أن أهم ما يميز به كيرلس وعصره هو نشأة الصراع المذهبى بين القسطنطينية والأسكندرية الذى سينتهى بانفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية الشرقية نهائياً فيما بعد . فنقد أن أعلن ثيودوسيوس في سنة ٣٨١ جعل كنيسة القسطنطينية بمثابة الكنيسة الرسمية والأولى للإمبراطورية الشرقية، كان لمعنى هذا أن أصبح أسقف القسطنطينية بمثابة المتحدث الرسمى عن وجهة نظر القصر الإمبراطورى من الناحية الدينية . وقد حدث في ذلك الوقت أن نشأ خلاف جديد بين المسيحيين حول طبيعة المسيح من الناحيتين الإلهية والبشرية . وكان من الطبيعى أن تقرر

الكنيسة الرسمية في القسطنطينية موقفها من هذه المشاكل، وفعلاً أصدر نسطور أسقف القسطنطينية رأيه في الأمر منادياً ببشرية المسيح إلى جانب ألوهيته . وفي الحال اتسمت الكنائس المختلفة إلى فريقين: فريق يؤيد الدعوة النسطورية أو اللكائية كما أصبحت تدعى فيما بعد نظراً لأنها تعبر عن رأى الإمبراطور أيضاً ، وفريق يعارضها أشد المعارضة ، وقد تمثل الفريق المعارض في مصر وسوريا وأرمينيا ، وكانوا يدعون إلى اعتبار المسيح ذا طبيعة إلهية واحدة . ولذلك أطلق عليهم اسم أصحاب الطبيعة الواحدة (monophysites) وقد أطلق على المسيحيين في سوريا من أصحاب هذا المذهب اسم اليعاقبة نسبة إلى زعيمهم يعقوب . ولم يكن موقف كل من سوريا ومصر دينياً مجرداً (وكانا على صلة وثيقة في ذلك الوقت) ، بل كانت تسكن وراء موقفها دوافع قومية ورغبة ملحة في مبارضة الإمبراطور وكل ما يصدر عن السلطات الحاكمة ؛ وكانوا يجدون في الخلافات المذهبية سبيلاً لإظهار ذلك كله .

ولذلك ما أن أعلن نسطور عقيدته في القسطنطينية حتى راح كيرلس في الأسكندرية يهاجمها وينفدها ، ويعمل جاهداً على بلورة الفكرة المعارضة على أساس من الفقه الديني ليروج لها في مصر وخارج مصر . حتى أنه نجح في مجموع أفسوس سنة ٤٣٩ أن يفرض رأيه على الأعضاء ويصدر حكماً ضد نسطور نفسه .

وهكذا بقي كيرلس متمتعاً بمكانة عالية حتى نهاية حياته سنة ٤٤٤ ، وخلفه الأسقف ديوسقورس (٤٤٤ — ٤٥١) واستأنف الصراع ضد القسطنطينية ، إذ تجدد الخلاف مرة ثانية . ذلك أن أسقف القسطنطينية الجديد (فلاثيانوس) ، بعث الفكرة النسطورية من جديد ، ودعا لضرورة إثبات الطبيعتين للمسيح . وقد استطاع ديوسقورس أن يزرع لنفسه انتصاراً سريعاً في مجمع أفسوس سنة ٤٤٩ ؛ ولكن يبدو أن انتصاره تم بأساليب غير

مشروعة مثل الرشوة والتهديد ، حتى أطلق على هذا المجمع اسم « مجمع اللصوص » .

وفي العام التالي توفي الإمبراطور ثيودوسيوس الضعيف وخلفه ماركيانوس الذي قرر إلغاء قرارات مجمع أفسوس الأخير ودعا إلى عقد أكبر مجمع قديم في خلقيدون سنة ٤٥١ . وعن هذا المجمع خرجت عقيدة دينية جديدة تؤكد « أن المسيح طبيعتين ، غير مندمجتين ، ولا متغيرتين ، ولا منقسمتين ، ولا منفصلتين ^(١) » .

وقد حوكم ديوسقورس أمام هذا المجمع ، وصدر الحكم بزمه من منصبه لاسبب انحرافه عن العقيدة التي أقرها المجمع ولكن بسبب سوء سلوكه . وبعد ذلك صدر أمر الإمبراطور بنفيه إلى جانتجرا بآسيا الصغرى (Gangra) ، حيث توفي في سنة ٤٥٤ .

ولكن قرارات مؤتمر خلقيدون ونفي ديوسقورس لم تنه الخلاف ولم تنجح في إيجاد الوحدة الدينية للإمبراطورية ؛ وحين حاول الإمبراطور تطبيق هذه القرارات بالقوة ، أدى الأمر إلى اضطرابات عنيفة راح ضحيتها كثير من الأفراد وخاصة في مصر وسوريا ، حيث بقيت دعوة الطبيعة الواحدة قوية ، بل أخذت كل من سوريا ومصر تنزعان إلى الانفصال عن القسطنطينية وكان تاريخ الكنيسة المصرية بعد ذلك سلسلة من النزاعات بشأن اختيار الأسقف ، فن ينتخبه المصريون لايمنه الإمبراطور ، ومن يعينه الإمبراطور لا يقبله المصريون ؛ إلى أن تم الاتفاق أخيراً سنة ٤٨٢ على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل الإمبراطور حتى يمكن أن يتخذ هذا التاريخ بداية انفصال

(١) انظر نس المارة ومصادرها : Hardy, Christian Egypt, p. 112

وفي كتاب الدكتور الميد الباز المرقى : مصر البيزنطية ص ٧٣ .

(٢٠٠ - الاسكندر

كنيسة الأسكندرية عن القسطنطينية، رغم أن بعض الأباطرة سيجاولون التدخل في شئون الكنيسة المصرية بعد ذلك .

هذه الانقسامات المذهبية — كما سبق أن بينا — كانت دوافعها الحقيقة عصبية قومية ورغبة في الانفصال : لأن الاختلافات لم تكن جوهرية على النحو الذى قد يبدو لأول وهلة . فمعد تحليل هذه الآراء المتعارضة كما صاغها زعماءها من أمثال كيرلس وسيفيروس السورى وكا في عقيدة خلقيدون ، نجد جميعا يقررون بيشريّة المسيح وألوهيته معاً ، ولكن فريقاً منهم (مثل المصريين والسوريين) كانوا يرون أن الاندماج كان كاملاً بحيث لا يجوز تصور التمييز بينهما ، أما الفريق الآخر (خلقيدون) فكان يرى ضرورة تصور الطبيعتين لإدراك معنى التضحية التى قام بها المسيح . فالبداً الدينى في العقيدتين واحد ، ولكن الاختلاف حول استخدام لفظ « الطبيعتين » في نص العقيدة .

ولكن هذا الاختلاف حول الألفاظ الدينية في ذلك الوقت كانت له عواقب وخيمة . فقد انقسم الناس في كل مكان إلى فرق ومذاهب كثيرة ، خاصة وأن بعض هذه المذاهب الكبرى انقسم على نفسه إلى أحزاب مختلفة كما حدث لليعاقة في سوريا ومصر . وبذلك فقدت الإمبراطورية وحدتها ، كما أن الفتن والاضطرابات أوقعت الإمبراطورية الكثير من شباها وأضررت بالحياة الاقتصادية كل الضرر ، كما كان للنظام الإدارى كما وضعه دقلديانوس من تفتيت الإدارة وفصل السلطة للدنية عن السلطة العسكرية في الولايات آثار سيئة في إضعاف الجهاز الإدارى . كل ذلك أدى إلى سوء الأحوال عموماً في الإمبراطورية في النصف الثانى من القرن الخامس وبداية القرن السادس مما شجع على توالى الهجمات الأجنبية على الحدود .

وفي مصر نشطت القبائل النوبية من جديد ، وفي الشرق انتهز الفرس

فرصة سوء الأحوال في الإمبراطورية وأخذوا يتقدمون غربا حتى هددوا حدود مصر الشرقية . وبدا كأن الإمبراطورية توشك أن تصدع بسبب الاقسامات الداخلية والهجمات الخارجية .

جستنيان (٢٥٨ - ٥٦٥) :

في هذه الظروف تولى الحكم في القسطنطينية الإمبراطور جستنيان الأول الذى يعتبر آخر الأباطرة العظام في الإمبراطورية الرومانية في عصرها المتأخر . فقد كان واسم الطموح ، ذا مواهب فذة مكنته من الإصلاح . وكان في الإصلاح هو إعادة الوحدة للإمبراطورية عن طريق تحقيق الوحدة الدينية ، وإعادة تنظيم الإدارة ، وتقوية الجيش لتأمين الحدود ، ثم العمل على ازدهار الحياة الاقتصادية وتنشيط الصناعة والتجارة من جديد^(١) . وقد تمكن من تحقيق كثير مما سعى إليه من الإصلاح باستثناء الوحدة الدينية . ومن العسير حقا أن نتوقع له النجاح في تطبيق سياسته الدينية لسببين ، السبب الأول يرجع إلى حق الاقسامات الدينية رغم جهوده الكبيرة في تعميم عقيدة خلقيدون في جميع أعضاء الإمبراطورية . والسبب الثانى هو وجود الاقسام المذهبية داخل أسرة الإمبراطور ذاته ، ذلك أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا ، التى ابتدأت حياتها راقصة ، وأصبحت فيما بعد زوجة جستنيان وإمبراطورة الدولة ومن أمهر نساء التاريخ ، كانت تدين بالمذهب البيقوبى أى مذهب الطبيعة الواحدة ، فإذا كان الإمبراطور لم يتصن من تحقيق الوحدة الدينية داخل أسرته فكيف نتوقع له تحقيقها في الإمبراطورية !

ومع ذلك فعند تدقيق النظر في سياسة جستنيان الدينية نجد أنه أكثر حرصا

(١) أم دراسة حديث لمصر جستنيان من .

E. Stein, Histoire du Bas. Empire, II, 1949

على تحقيق الوحدة السياسية من الوحدة الدينية . فكان يهدف إلى أن يكون رؤساء الكنائس الأساسية في الإمبراطورية من نفس المذهب الإمبراطوري وهو الملكاني (أى مذهب خلقيدون) وأن يكون هؤلاء الأساقفة كمنديين أو ممثلين دينيين للإمبراطور شخصيا في الولايات ، حتى لا يتمكن أسقف محلي من معارضة الإمبراطور كما حدث من قبل . وهو لم يعبأ بعد ذلك إذا كان سائر القساوسة في داخل الولاية يتبعون مذهباً ، ماداموا لا يصلون إلى رئاسة الكنيسة في ولايتهم . ويتضح تنفيذ هذه السياسة في مصر ، إذ لم يترك المصريين حرية اختيار أسقف الأسكندرية بل أصر على أن يمين هو الأسقف . ونظراً لمقاومة المصريين لهذا الاتجاه وصعوبة العثور على أسقف مصري يقبل هذا الوضع ، وإذا وجد فن السير لإتمام مراسم التعيين الدينية دون ثورة المصريين عليه قبل أن يرسم ، فكان جستنيان يختار من يشاء ويجري له المراسم الدينية في الخارج ثم يرسله إلى الأسكندرية في حراسة قوة عسكرية تفرضه على الكنيسة فرضاً . وبذلك قطع تمكن جستنيان من إقامة أساقفة ملكانيين في الأسكندرية ، ولكن ذلك لم يمتد لأشخاص الأساقفة وعدداً من المحيطين بهم ، أما سائر المصريين فقد بقوا على مذهبهم يؤمنون بالطبيعة الواحدة ، ولكن دون أن تكون لهم الصدارة التي تتمتعوا بها زمن كيرلس وديوسقورس . وزاد موقف الأساقفة الملكانيين صعوبة أنهم حينما حاولوا فرض مذهبهم في مصر كانت الإمبراطورة تيودورا تحمي المصريين الذين كانت تشاركهم مذهبهم .

أما في المجالات الأخرى كان جستنيان أكثر توفيقاً ، فقد أدخل على الإدارة بعض الإصلاحات الأساسية سنتحدث عنها في فصل آخر ، ولكن يكفي أن نذكر هنا أنه أعاد توحيد السلطتين المدنية والعسكرية في شخص الولاية ، بينما أبقى على تقسيم مصر إلى عدة ولايات .

ومع ذلك فتوحيد السلطينتين المدنية والعسكرية ساعد على استتباب الأمن في البلاد وتأمين الحدود في الوقت نفسه . وفي أيامه استطاع المصريون أن يدوا نفوذهم الديني جنوباً فدخلت القبائل النوبية في المسيحية على المذهب اليمقوي ، رغم جهود الأسقف في الأسكندرية أن يكون للمذهب للسكاني السابق ولكن الإمبراطور السياسي لم يعبأ بانتشار أى للذهبيين في هذه البقاع ، ولعله كان يعلم أنها كانت خاضعة لتأثير مسيحي من صعيد مصر من قبل ، ولكنه كان سعيداً بتحويل هذه القبائل إلى المسيحية ، لأنه اعتقد أن ذلك ينى امتداداً لنفوذه وتأميناً لحدود مصر الجنوبية أيضاً .

نهاية مصر البيزنطية وفتح العرب :

ولكن خلفاء جستنيان لم يكونوا في مثل قدرته ، ولذلك لم يتمكنوا من الاستمرار في الإصلاح ، وسرعان ما ظهرت الميوب التي حاول جستنيان جاهداً أن يصلحها ، وعادت الفوضى إلى الإدارة والجيش معاً . فتجددت الهجمات الأجنبية على الحدود ، وإذا بالنوبيين يعاودون تهديدهم وغزوهم لحدود مصر الجنوبية ؛ ولم يكن لدخولهم في المسيحية أى أثر . وفي الوقت نفسه عاد الخلاف للذهبي في مصر إلى سابق عهده ، من مقاومة المصريين للأسقف للسكاني في الأسكندرية . ولذلك حين أعلن هرقل شعار الثورة ضد الإمبراطور ، وجدنا المصريين ينحازون إلى جانبه ، ليس عن رغبة صادقة في مناصرته ولكن كرها في الإمبراطور الحاكم . حتى إذا أصبح هرقل نفسه إمبراطوراً ، ضاقوا من جديد بأساقفته السكانيين ، رغم محاولته الوصول إلى حيل للتفاهم مع الأقباط المصريين .

ولكن حدث في ذلك الوقت أن هددت الدولة الفارسية حدود الإمبراطورية الشرقية ، وأنها نجحت في التوغل إلى داخل الإمبراطورية ذاتها فاستولت على

سوريا وفلسطين ثم مصر في عام ٦١٦ . ولكن امتداد النفوذ الفارسي على هذا النصر لم يدم سوى عشرة أعوام ، تمكن بعدها هرقل من إعادة هذه الولايات إلى حظيرة الإمبراطورية من جديد . ولم يكن استردادها بالأمر السير لما عرفت به فترة الاحتلال الفارسي من القسوة والعنف . وعاود هرقل جهوده في التناغم مع الأقباط المصريين على عقيدة دينية واحدة ، على أساس إدخال فكرة جديدة وهي بدعة « الإرادة الواحدة » . ولكن المصريين لم يكونوا مستعدين للتناغم بحال . فعين هرقل أسقف الأسكندرية الملاكاني قورثس المعروف باسم المقوقس ليكون حاكماً لمصر أيضاً . وكان المقوقس هذا معروفاً بقسوته وكراهيته لأصحاب الطبيعة الواحدة ، ومنحه الإمبراطور سلطة مطلقة لتحقيق سياسته في مصر . فأطلق على المصريين حملة من الاضطهاد العنيف مما زاد كراهية المصريين ونفورهم من الحكم الروماني .

وهنا تظهر على مسرح الأحداث العالمية دولة شرقية جديدة هي الدولة العربية ، خرجت من قلب الجزيرة العربية تحمل معها ديناً جديداً هو الإسلام . وبعد أن اطمانت هذه الدولة إلى سيادتها في الجزيرة العربية أولاً ، أخذت تتطلع إلى خارج حدودها ، فوجدت إمبراطوريتين متداعيتين هما الإمبراطورية الفارسية في الشرق والإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية في الغرب . وعند أول محاولة لبطش الدولة العربية الجديدة نفوذها في الخارج انهارت الإمبراطوريتان معاً . وكان سقوط مصر في يد العرب على يد عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ .

الفصل الرابع

معالم النظم والحضارة في مصر البيزنطية

(١) النظام الإداري

لقد سبق أن تحدثنا في هذا الباب عن آثار الاضطرابات والاضطرابات السياسية والعسكرية التي قطعت أوصال الإمبراطورية الرومانية خلال الجزء الأكبر من القرن الثالث . وكان من نتائج ذلك أن أصيبت الإدارة بعتل شديد بحيث أصبحت عاجزة عن القيام بوظيفتها على نحو مرضى ؛ وليس هناك حاجة إلى إثبات مدى الضرر والخطر الذي تتعرض له إمبراطورية عالمية بدون إدارة قوية . ولعلنا لا نبالي في شيء إذا قلنا أن أشد ما كانت الإمبراطورية في حاجة إليه هو رجل يصلح إدارتها ، وأن دقلديانوس كان ذلك الرجل . فإذا لم يكن لدقلديانوس مواهب عسكرية تخلد اسمه في تاريخ روما الحربي ، فقد كان له من مواهب الإدارة والتنظيم ما يمكنه من القيام بإصلاحات في نظم الإدارة والحكم والاقتصاد سادت من بعده مدة ثلاثة قرون تقريباً ، وأصبح عهده يمثل نقطة تحول في التاريخ القديم بأسره بدخول الإمبراطورية الرومانية في مرحلتها المتأخرة وأكبر عهد لقيام العصر البيزنطي في الشرق .

وكما سبق أن رأينا في وصف نظامه الضرائبي كانت مبادئه في الإصلاح تتلخص في التبسيط والتوحيد ، تبسيط النظم وتوحيدها في ولايات الإمبراطورية المختلفة . وفي سبيل تحقيق ذلك قرر العمل بمبدأ اللامركزية في إدارة الإمبراطورية ، حتى يخفف عن الإدارة المركزية في العاصمة من أعباء الروتين الإداري ، أولاً عن

طريق إشراك غير معه في الإدارة ثم عن طريق إنشاء وحدة إدارية كبيرة، تمثل حلقة متوسطة بين الإدارة المركزية وإدارة الولاية . هذه الحلقة المتوسطة أطلق عليها لفظ دوقية (*diocesis*) وقسمت الإمبراطورية إلى اثني عشر دوقية هي بريطانيا والنالة (وشملت شمال فرنسا وأرض الرين وهولندا) وفييننيس *Vienne* (جنوب فرنسا) وأسبانيا (بما فيها البرتغال ومراكش) وإيطاليا (ومعه صقلية وسردينيا وكورسيكا) وإفريقيا (الجزائر وتونس وطرابلس) وبانونيا وموسيا وطراقيا (وتمثل كل منها غرب ووسط وشرق البلقان) وأسيانا وبوتنيكا (وتمثلان جنوب غرب وشمال شرق آسيا الصغرى) ثم الشرق (وشملت كيليكيا وسوريا وفلسطين ومصر وقورينة) وبذلك قضى نهائياً على تنظيم الإمبراطور أغسطس في تقسيم الولايات بين الإمبراطور والسناو .

على هذا الأساس وقعت مصر في دوقية الشرق، ولكن إصلاح دوقية بانوس لم يتوقف عند هذا الحد، بل رأى أن يقسم الولايات الكبيرة إلى ولايات أصغر، وذلك عملاً بمبدأ اللامركزية . قسمت الولايات الكبيرة مثل إيطاليا وأسبانيا والنالة ومصر إلى ثلاث أو أربع أو خمس ولايات صغرى ، فمصر التي كانت طوال تاريخها القديم وحدة سياسية وإدارية واحدة قسمت إلى ثلاث ولايات أساسية^(١) : ولاية مصر الجويتيرية (*Aegyptus Iovia*) وتشمل غرب الدلتا بما فيها الإسكندرية (وسميت كذلك لأنها كانت الولاية الأولى في مصر ولأن

1) M. Gelzer. Studien Zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens (1909) ;

G. Rouillier, L'Administration Civile de L'Egypte Byzantine (1928) ;

A. H. M. Jones. Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 338—350 (1937).

والدكتور السيد الباز الميرى : مصر البيزنطية ص ٨١ — ٩٥ ، ١٠٠ — ١٧٧ .

دقلديانوس اتخذ لنفسه لقب جوفوريوس Jovius (أى أنه بمثابة ممثل كبير الآلهة على الأرض) ، وولاية مصر المرقلية (Aegyptus Hercolia) وتشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى للمروقة باسم هيتانوميا (وسميت المرقلية نسبة إلى اللقب الذى اتخذه شريك دقلديانوس فى إدارة الولايات الغربية (Maximian Hercolia) ثم ولاية طيبة (وتشمل الصعيد جنوبى أسيوط Panopolis) أما الصحراء الغربية فقد أصبحت ولاية مستقلة أطلق عليها اسم ليبيا . وقد تم تنفيذ هذا التقسيم فى عام ٢٩٧ بعد أن انتصر دقلديانوس على أخيلوس الذى ادعى لنفسه الإمبراطورية فى الإسكندرية ، ثم علنت أسماء الولايتين الشماليتين إلى مصر (Aegyptus) فى غرب الدلتا ، وأوغسطينيكا Augustamnica لشرق الدلتا ومصر الوسطى .

هكذا انقسمت مصر إلى ولايات ثلاثة منفصلة ، ومع ذلك فإن الفصل التام لم يتحقق ، إذ منح حاكم الولاية الأولى وهى مصر (الجويتيرية) الذى كان مقره الإسكندرية سلطاناً اسمى من حكام الولايتين الأخريين . فحصل ذلك الحاكم الأول لقب Praefectus Aegypti ، بينما أطلق على الحاكمين الآخرين لقب praeses ، ولكنهم جميعاً كانوا يقبمون المشرف على دوقية الشرق الذى حمل لقب كونت (comes) .

ولكن طرأ على هذا النظام بعض التعديل فى آخر القرن الرابع ، إذ أصبحت مصر تكون فى سنة ٣٨٢ دوقية مستقلة وألحقت بها ليبيا ، وبذلك استردت وحدتها الإدارية من جديد ، وأصبح يحكمها حاكم عام يسمى Praefectus Augustalis . وغلب ذلك فصلت مصر الوسطى (هيتانوميا) إدارياً ، وأصبحت تكون ولاية إدارية أطلق عليها اسم أركاديا Arcadia (فى سنة ٣٨٦) . وبعد ذلك أعيد تقسيم كل من طيبة وأوغسطينيكا ومصر ، كل إلى قسمين . ملاحظة أخيرة بشأن تقسيم السلطة فى الولاية حسب نظام دقلديانوس ،

هى فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية . فحكام الولايات الثلاثة الجدد
حكام مدنيون ليس لهم سلطان عسكرى كما كان الأمر فى النظام الذى وضعه
الإمبراطور أغسطس قديماً ، أما جيش الحامية العسكرية الرومانية فى مصر
بأسرها فقد وضع له قائد مستقل .

وقد تبع هذا الإصلاح الأساسى تعديل آخر يتعلق بالأقسام الإدارية المحلية
فى الريف . ذلك أن تعميم نظام الحكم المحلى فى مطلع القرن الثالث على يد
سپتيموس سيفيروس قد استكمل نموه فى عصر دقلديانوس وخلفائه ، إذ حولت
التومات الإدارية إلى مدن مستقلة ، ولم يعد هناك فى المدن الجديدة سوى إدارة
محلية حلت محل النظام للزواج القديم ، الذى كان يقوم على وجود موظفين
يمثلون السلطة للركزية وموظفين يمثلون الحكم المحلى . وهكذا اختفى منصب
الاستراتيجوس الذى كان يحكم النوموس طيلة المصريين اليونانى والرومانى ،
ثم أتبع ذلك بإلغاء أقسام النوموس القديمة وهى التوبارخيا (Toparchia) ،
وقسمت التومات إلى عدد من الوحدات الجديدة أطلق عليها اسم باجوس
(Pagus) يتولى إدارتها موظف يعرف باسم Praepositus . ونقطة باجوس
(Pagus) هو الاصطلاح اللاتينى التقليدى لأقسام الإقليم الزراعى للمدينة
(Chora) . وهكذا استكمل نظام الحكم المحلى تطبيقه فى مصر وأصبحت
الولايات الثلاثة تنقسم إلى عدد من المدن Poiois ، لكل مدينة أرض
زراعية تتبعها (Chora) وقسمت هذه الأرض الزراعية إلى عدد الوحدات
للسماء باغوس .

مامن شك فى أن الهدف الحقيقى من تدعيم نظام الحكم المحلى ليس توطيد
الحرية السياسية على أساس الحكم المحلى الحق ، ولكن أدرك دقلديانوس أن
النظام القديم للزواج قد ثبت فشله وعجزه ، وخاصة بعد أزمات القرن الثالث

للتلاخفة التي تركت الحكومة المركزية مسلوقة السلطة. ولعلك تسعى في إصلاحه الجديد إلى إلقاء عبء الإدارة المحلية بأكله على كاهل الأهالى ممثلين في هيئات الحكم المحلى . ولعله ظن أنه في ظل نظام الحكم المحلى الكامل سوف يزداد مجالس المدن وموظفوها إقبالاً على تحمل مسؤولياتهم مدفوعين بفكرة الشعور بالاستقلال وفي سبيل صلب التعديلات الإدارية بصيغة جديدة تماماً واستجابة تطورات عامة أخرى نمت في القرن الرابع ، أدخلت تعديلات في الوظائف للدينة القديمة فاخفت معظمها وحلت محلها وظائف جديدة . فن ذلك مناصب الكهنة والإشراف على الجنازيوم ، اختفت وحل محلها الكنيسة ورجالها ، كما أن مناصب أ كسجيتيس exegetes والشرف لتموين Euthenarches اختفت تدريجياً . أما المناصب الأساسية الجديدة فهي ثلاثة :

أولاً : المشرف على المدينة (Curator Civitatis أو Logiston) الذى أصبح خلال القرن الرابع أحد موظفى المدينة النظاميين . ينتخبه مجلس المدينة . وأصبح فى الواقع بمثابة رئيس المدينة ، له سلطات متعددة تشمل بعض اختصاصات الإستراتيجوس القديم وبعض الموظفين الآخرين أيضاً : وأصبح هو ومعاونوه الإداريون مسئولين عن أعمال مختلفة ، مثل ميزانية المدينة والإشراف على نقابات العمال والتجار ، وتقدير الضرائب ، والإشراف على الأمن وتموين المدينة .

ثانياً : حامى المدينة أو العامة (defensor civitatis or plebis أو ekdikos) وكان واجبه الأساسى حماية دافعى الضرائب من جامعى الضرائب . وكان له سلطة اعتقال أى شخص أو وضعه تحت المراقبة وتمديد إقامته فى المدينة ، إذا كان متبهما بإضرار شخص آخر .

ثالثاً : الموظف المالى oxaetor الذى تولى أهم وظيفة بالنسبة للحكومة

المركزية وهي جمع الضرائب . ولكن يبدو أن هذا الموظف كان قاصراً على مدن الريف في مصر ، أما في الأسكندرية فقد وجد موظف مالى آخر أطلق عليه لفظ «vindex» ويبدو أن هذه الوظيفة أنشئت في القرن الخامس ققط وبقيت بعد ذلك^(١).

أما عن المجالس المنتخبة (boule) فقد استمرت تحمل المسئوليات الإدارية، ولكن فقدت كل معنى الحكم المحلى . إذ أصبح أعضاء هذه المجالس يكونون منذ القرن الرابع طبقة وراثية ، هي الطبقة الثرية في كل مدينة .

هذه هي معالم النظام الإدارى الذى ساد مصر في القرنين الرابع والخامس والثالث الأول من القرن السادس ، حتى أصدر جستنيان قانونه الثالث عشر المشهور سنة ٥٢٨ . وليس هنا مجال دراسة هذا القانون دراسة تفصيلية ، وإنما نلاحظ أن جستنيان لم يعد يحفل بالنظم المدنية ، ولا حتى في الظاهر ، وإنما يسعى إلى تقوية الإدارة المباشرة بكل أسلوب . وأهم تعديل قام به جستنيان هو تقسيم دوقية مصر إلى أقسامها الأربع القديمة وأضاف إليها ولاية ليبيا ، فأصبحت مصر تنقسم إلى خمس ولايات . ولكن أخطر تعديل أدخله جستنيان على نظام دقلديانوس هو توحيد السلطة المدنية والعسكرية في يد حاكم كل ولاية ولعله كان يهدف من وراء هذا التعديل تقوية سلطة الحاكم على ولايته ، ولكن الذى حدث هو أنه زاد من تقسيم عرى الدولة إدارياً وعسكرياً معاً ، لأن الإدارة كانت رغم محاولة كل إصلاح — أضعف من أن تتغلب على ظروف البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فأعضاء المجالس التشريعية كانوا قد أصبحوا مجرد جامعى ضرائب ، كما أن تقسيم البلاد زاد من سلطان كبار الملاك الذين سيطروا على أقاليمهم سيطرة تامة في القرن السادس كما بيننا عند الحديث عن نظام

Evagrius, Hist. Eccl. III. 42; Justinian, Edict. XIII. 1. 13 (١)

الأراضي. ولهذا فإن توحيد السلطة المدنية والعسكرية في أيدي الحكام المحليين لم يأت بالنتيجة المرجوة، وكثيراً ما نشأت للتناقضات الصغيرة بين هؤلاء الحكام علماً بأن قوتهم العسكرية لم تكن قادرة في معظم الأحيان سوى القيام بأعمال البوليس، أو قمع فتنة صغيرة محلية، ولكنها كانت عاجزة كل العجز عن مواجهة أى خطر حقيقى من الخارج، وقد اتضح ذلك تماماً في القرن السابع أمام الفتح العربى، فسقطت البلاد دون مقاومة تذكر.

وكان من نتائج تقسيم البلاد وضعف الإدارة المركزية أن زاد شأن الكنيسة، حتى يمكن أن يقال أنها كانت العامل الأساسى الباقى من وحدة الدولة. ويتجلى ازدياد نفوذ الكنيسة في ذلك الوقت من أنها اضطلمت بكثير من أعمال الدولة؛ وخير مثال على ذلك سيرة يوحنا بطريرك الأسكندرية في مطلع القرن السابع، إذ كانت الكنيسة تهتم بشئون تموين المدينة وقت الأزمات الاقتصادية، فقتسود القمح من الخارج وتوزعه بين الناس؛ كما كان لها مستشفيات لعلاج للرضى وبيوت لإيواء الغرباء واللاجئين. كل ذلك يثبت اضطراب الإدارة وضعف الحكومة المركزية ضعفاً شديداً جعلها عاجزة عن تحمل أعبائها، ولذلك قام بها كل من الكنيسة وكبار الملاك.

ب - الحياة الاقتصادية

أولاً : نظام الأراضي :

بالرغم من أن للعالم الأساسية لنظام الأراضي في مصر البيزنطية واضحة بصورة عامة ، إلا أن معلوماتنا عن بعض مراحل تطورها لا زالت قليلة أو غير موجودة . والسبب في ذلك أن مصادرتنا عن هذه الفترة قد عراها بعض التغيير ، فالوثائق البردية تعتبر نسبياً أقل كثيراً من وثائق الفترة السابقة ، وإلى جانب قلتها فهي غير متصلة زمنياً ، وأكبر مثال على ذلك أنه لا تكاد توجد لدينا وثائق بردية ذات قيمة اقتصادية من القرن الخامس ، إلى جانب أوراق البردى وصلت إلينا مجموعات كبيرة من قوانين هذا العصر . وهي المعروفة باسم المجموعة القانونية . لثيودوسيوس والمجموعة القانونية لجستنيان . وبعض قوانين هاتين المجموعتين تمدنا بالجانب التشريعي من أعمال الدولة فيما يتعلق بنظام الأرض ، إلا أنها لا تمنطينا أيضاً الصورة كاملة ولا تملأ جميع الفجوات التي تركتها الوثائق البردية . وأخيراً نجد علينا نوع جديد من المصادر وهو الكتابات الدينية التي تتناول سير آباء الكنيسة الأول والرهبان . ورغم أن الظروف الاقتصادية هي أبعد شيء عن طبيعة هذه الكتابات ، إلا أن الدارس لما يجد فيها إشارات متفرقة تلقي ضوءاً على حياة مصر الاقتصادية في ذلك العصر^(١) .

Johnson—West. Byzantine Egypt, Economic Studies, 19 ff.;
G. Ronillard, La vie Rurale dans l'Empire Byzantin.
(Premiere partie : dans L'Egypte) pp. 14—79 ; E. R.
Hardy, Large Estates of Byzantine Egypt ; A. H. M.
Joner, Census Records of the Later Roman Empire, J.
R. S. 43, (1953) 49 ff.; Wilcken, Grundzüge, 309 ff.

أما عن نظام الأراضي فيمكننا أن نتخذ عام ٢٩٧ قطة الابداء ، حين حضر دقلديانوس إلى مصر للقضاء على فتنة أخيلئوس ، وقام بعدد من الإصلاحات والتشريعات كان الفرض الأساسى منها هو توحيد النظم فى مصر مع سائر أقطار الإمبراطورية . وفيما يتعلق بالضرائب الزراعية ، نعرف أنه فرض ضريبة موحدة فى جميع أنحاء البلاد على أساس مساحة الأرض ونوع المحصول^(١) ، وألغى جميع الضرائب السابقة التى كانت معقدة أشد التعقيد ، فكانت تختلف من مكان إلى مكان ، وتختلف أيضاً حسب الأشخاص ، فهناك من ملاك الأراضي من تمتع بإعفاء كامل من الضرائب أو من بعضها . ولكن عدا النظام الضرائبى لا نعرف أنه أدخل أى تعديل على نظام الأراضي ، فأقسام الأرض للألوفة فى العصر الرومانى استمرت بعد دقلديانوس خلال الثلث الأول من القرن الرابع على الأقل . ولكن نلاحظ بعد ذلك فى الفترة بين ٣٣٢-٣٥٠ أن قسماً رئيسياً من الأقسام السابقة وهو أرض الدولة بأنواعها *Ousiaké, demosia, basiliké* يختفى تماماً من الوثائق المصرية ، ولا يعود إلى الظهور ثانية ؛ ومن المحتمل أنها أُلغيت زمن الإمبراطور قسطنطين أو بعده بقليل^(٢) . وللتقبع للحياة الزراعية فى مصر الرومانية لا يجب لهذه الظاهرة الجديدة فى القرن الرابع ؛ فقد لاحظنا من قبل نمو لللكية الخاصة فى الأرض بصورة مضطربة على مدى القرون الثلاثة السابقة ومنذ منتصف القرن الثالث نجد أن أرض الدولة (*basiliké*) قد بدأت تنتقل إلى أيدي الأفراد^(٣) . وقد استمر هذا الاتجاه بصورة أقوى فى أثناء القرن الرابع ، أى

(١) أنظر Sammelbuch, V, 7622 (297 A. O.) Originally published by Boak, in *Étude de Papyrologie* II, no. 1.
(٢) Johnson. West, Byz. Eg. p. 19 f.
(٣) أنظر Sammelbuch, IV, 7474, Fayum (254 A. D.) :
P. Flor. 50, Hermopolis (263 A. D.)

في الوقت الذي ازداد فيه قطاع للملكية الخاصة عموماً والملكيات الكبيرة التي ابتدأت في القرن الثالث بصفة خاصة ؛ حتى ليتمكن أن يقال أنه عندما أُنشئت الأرض العامة (*basiliké*) كانت قد تضاعفت جداً بسبب بيعها للأفراد أو منحها للكنائس المسيحية الجديدة .

فالطابع العام لتطور نظام الأرض في مصر في القرن الرابع يشير إلى زيادة قطاع للملكية الخاصة من الأرض على حساب قطاع للملكية العامة التي تُمَتَّقَى تماماً في منتصف القرن .

ومن الطريف أن توضح هذه الصورة عن طريق الإشارة إلى بعض قوائم مسح الأرض في مصر في القرن الرابع ^(١) . فإحدى وثائق القيوم البردية من الربع الأول من القرن ^(٢) تبين أن مساحة الأرض العامة (*basiliké*) تكافئ مساحة الأرض الخاصة (*idiotiké*) في قرية 'ثيادلغا' (بطن هريت حالياً) ونحن لانملك لسوء الحظ سجلات أخرى لمسح الأرض في هذه القرية ، ولذلك فاضطر إلى البحث في السجلات التي وصلتنا من أماكن أخرى في مصر . فهناك وثيقة من مدينة هرموبوليس (الأشمونين) تؤرخ في الربع الثاني من القرن الرابع ^(٣) لا تظهر فيها أرض التاج (*basiliké*) ، ولكن تذكر الأرض العامة (*domosia*) فقط . وفي هذا السجل نلاحظ أن مساحة الأرض الخاصة تبلغ ٢٩٥٠ أرورا والأرض العامة ١٠٩٣ (أي ما يعادل نسبة ١:٣) .

(١) انظر Jones, *Census Records of the later Roman Empire*,

J. R. S., 43 (1953) 48 ff.

P. Princ, 134 (322 A D. ?)

P. Flor. 71.

(٢)

(٣)

وفى وثيقة ثالثة^(١) ، من المحتمل أنها من المدينة نفسها وحوالى تاريخ الوثيقة السابقة أو بعده بقليل ، تؤكد النتيجة ذاتها ؛ ويمكن تلخيص المعلومات الأساسية التى تتضمنها فيما يلى :

مساحة الأرض الكلية	١٦٤٣٩ أرورا
مساحة الأرض الخاصة	» ١٢٥٥٧
مساحة الأرض العامة	« ٢٤٨٦
مساحة أرض الحدائق	« ٤٤٤
مساحة أرض خاصة (أخرى)	« ٢٣

يتضح من هذه الإحصائية أن مساحة الأرض العامة كانت فى انكماش مستمر بالنسبة للأرض الخاصة ، فهى فى هذه الحالة تبلغ ٢٤٨٦ أرورا بينما بلغت أرض الملكية الخاصة ١٢٥٥٧ أرورا (أى ما يعادل ١٠:٥ تقريباً)

يتضح من هذا العرض أن للملكية الخاصة زادت كثيراً فى أثناء القرن الرابع ؛ وما من شك أن للملكية الكبيرة كانت الطابع للميز لهذه الزيادة^(٢) .
ولسوء الحظ أننا لا نستطيع تتبع هذا التطور فى القرن الخامس الذى يكون فى مرحلة مظلمة فى معلوماتنا عن مصر البيزنطية . ولكن كل الأدلة للوجود تشير إلى أن الاتجاه لدى لاحظنا فى القرن الرابع استمر أيضاً فى القرن الخامس .
ولإثبات ذلك يجب أن نشير إلى ظاهرة خطيرة صاحبت نمو الملكيات الكبيرة فى القرن الرابع ألا وهى ظهور نظام « الحماية » .

P. Ryl. IV. 655, Hermopolis (first half of IV cent. (١)
A. D ?)
Johnson-West. op. cit. 39 ff.

لقد أراد دقلديانوس بنظام الضرائب الذى فرضه على الإمبراطورية أن يسطر مهمة جمع الضرائب وبذلك يصعب التعايل والهروب . ولكن هذا النظام الجديد لم يحقق الهدف منه ، لأن الأرياء من أهل السلطة والحكم استطاعوا دائماً استخدام نفوذهم أو مالهم فى تجنب دفع الضرائب .

ونظراً لأن مسئولية دفع الضرائب فى ذلك الوقت كانت مسئولية جماعية ، أى على جميع سكان القرية أو المنطقة دفع أى عجز ، فقد كان من الممكن إرهاب أو حتى تعذيب صغار الملاك حتى يدفعوا العجز المطلوب . وباستمرار هذا الظلم فى جمع الضرائب وسوء الأحوال الاقتصادية من جراء الاضطهادات للتوالية التى كانت طابع هذا العصر ، وجد صغار الملاك أن لافائدة تجوف من امتلاك أراضيهم . فلجأوا إلى حيلة غريبة لتنجيهم من مواجهة مسئولية دفع الضرائب وهى أنهم طلبوا حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ فى المنطقة ، على أساس أن يتنازل له المالك الصغير عن أرضه ويتولى السيد الكبير أمر دفع الضرائب للدولة . وهكذا تحول من مالك حر إلى تابع أولاً ثم رقيق أرض ويستأجر من سيده الأرض التى كان يمتلكها^(١) ،

وقد حاولت الحكومة جامدة إيقاف هذا التيار طوال القرن الرابع^(٢) ، ولكن دون جدوى . فإن الكثيرين من المزارعين رأوا فى نظام الحماية المنقذ الوحيد لهم من ظروف لم يفروا على تحملها ، وفى الوقت نفسه كان كبار الملاك سعداء بزيادة رقة أرضهم وزيادة أتباعهم . ومن أشهر جهود الحكومة فى محاولة ضبط نظام الحماية على الأقل هو القانون الذى صدر سنة ٤١٥^(٣) ، ويقضى بالاعتراف بأعمال الحماية التى تمت قبل سنة ٣٩٧ ويلغى جميع محاولات الحماية بعد

Boll, in *Legacy of Egypt*. p. 335—6

(١)

Hardy, *Large Estates*. 22, ff.

(٢)

Code Theodosius, XI. 24, 6.

(٣)

هذا التاريخ ، ولكن استثنيت الكنيسة من هذا الحد التاريخي ، ويضيق من هذه القوانين أن قرى بأسرها قد أصبحت تحت حابة السادة من كبار الملاك .

وتأتى بعد ذلك فترة القرن الخامس التى لا نعرف عنها شيئاً ، ولكن ما أن يرفع الستار مرة ثانية عن حالة الأرض فى القرن السادس ، نذكر أن التطور الذى حدث فى القرن الرابع سار إلى مداه الطبيعى ، وإذا بالإقطاعات الكبيرة هى الطابع للميز للحياة الزراعية فى مصر فى القرن السادس . وكانت هذه الإقطاعات على نحو يفوق كل ما عرف فى مصر من قبل ، وإنما هو أشبه بالإقطاعات الكبرى التى عرفت فى أوروبا فى العصور الوسطى . فصاحب الإقطاع الآن يمتلك قرى ومدناً بأسرها ، وهو صاحب الأمر والنهى فى إقليمه دون أن يكون لموظفى الإدارة أى سلطة ، وكثير من هؤلاء الموظفين من بين أتباعه . وقد بلغ من سلطان بعض هؤلاء الإقطاعيين أنهم اتخذوا لأنفسهم جنوداً وشرطة وحرساً خاصاً ، كما كانت لهم محاكم وسجون خاصة بهم ، ولهم حق دفع ضرائبهم لخزانة الولاية مباشرة أوفى الأسكندرية (وهو المعروف بنظام autopragia) ، وليس عن طريق الموظفين جامعى الضرائب ^(١) .

ولكن يجب ألا نتصور أن أرض مصر كانت مقسمة إلى عدد من الإقطاعات الكبيرة فحسب ، بل وجدت أيضاً فى القرن السادس قرى حرة يمتلك أرضها صغار الملاك ويدفعون ضرائبهم للدولة مباشرة ، كما تثبت ذلك مجموعة من الوثائق البردية تنتمى إلى بعض مناطق مصر الوسطى ^(٢) . وإلى جانب هذه القرى الحرة وجدت قرى أخرى وممتلكات كثيرة تتبع الكنائس المختلفة وخاصة كنيسة الأسكندرية . وقد سبقت الإشارة إلى قانون ثيودوسيوس سنة ٤١٥

(١) خير دراسة لهذا الموضوع فى كتاب Hardy, Large Estates.

P. London, vol. IV.

(٢) هذه المجموعة ملفورة فى :

الذى يؤكد أملاك الكنيسة حتى عام ٣٩٧ وما بعده. ويبدو أن أملاك الكنائس كانت كبيرة بفضل الأوقاف وللنح التي كانت تأتيها سواء من الحكم أو الأفراد. وليس أدل على ضخامة هذه الممتلكات مما ترويه المصادر عن ثروة كنيسة الأسكندرية والنشاط التجاري الكبير الذى كانت تقوم به^(١).

الصناعة والتجارة :

يروى أحد الكتاب المسيحيين قصة ثلاثة عميان من الأسكندرية مييناً كيف فقد كل واحد منهم بصره. فأحدهم كان يعمل صانع زجاج ثم فقد بصره بسبب النار التى يستعملها فى صنعه ؛ والثانى كان يعمل قبطان سفينة وأصابه مرض فى عينيه أثناء رحلة بعيدة ولم يتمكن من علاج عينيه .

أما ثالثهم فكان لصاً وأصيب فى بصره بينما كان يسرق قبراً^(٢).

ولا تخلو هذه القصة من دلالة، فهى تعكس لنا صورة من العمل الشائع فى الميناء الكبير . فقد استمرت الأسكندرية فى العصر البيزنطى أيضاً أكبر مركز للصناعة والتجارة فى مصر ، ولكن ما من شك أن سوء الأحوال العامة وكثرة الاضطرابات وتوالى الاضطهادات أثر فى قدرة البلاد الإنتاجية وفى نوع الإنتاج أيضاً . فصناعة الزجاج مثلاً استمرت فى الأسكندرية ولكن ما عثر عليه فى الحفائر الحديثة فى منطقة اليوم يدل على تأخر المستوى عما عرف عن الزجاج المصرى من قبل ، ويؤيد هذه النتيجة أيضاً ندرة ما عثر عليه من الزجاج المصرى فى الخارج ، إذ يبدو أن تأخر الصناعة المصرية من ناحية وقوة المنافسة الخارجية صرف الأسواق الأجنبية عنه^(٣).

(١) انظر مثلاً Sophronius, Miracles of SS. Cyrus and John,

8; Life of St. John. The Almsgiver: of. Johnson-West, Byz. Eg. pp. 67. ff.

John Moschus: Pratum Spirituale.

(٢)

Harden, Roman Glass from Karanis, pp. 34. ff. — (٣)

وكذلك صناعة البردى التي اشتهرت بها مصر منذ القدم قد استمرت ، ولكن تأخر مستواها عن ذي قبل ، ويمكن أن نذكر هنا أيضاً أنه ما كان لرواج صناعة الكتب من رق الجلود (Pergamene) ، الذي كان يسجل عليه الأدب والفكر المسيحي الجديد^(١) ، تأثير على عدم العناية بإنتاج الأنواع الراقية من البردى القديم . ومع ذلك استمرت صناعة البردى وتصديره إلى الخارج بكميات كبيرة كما كان الحال من قبل . ويثبت ذلك ما جاء في حسابات كتيبه روما التي كان لها ممتلكات بالقرب من الأسكندرية وبين هذه الممتلكات مصانع تنتج أوراق البردى^(٢) . وما يدل على أن البردى المصري كان لا يزال سلعة عالمية أنه ذكر في نقش يحتوي على جزء من قائمة الأسعار التي أصدرها دقلديانوس ، ولكن لسوء الحظ أن الثمن غير موجود^(٣) .

أما الصناعة المصرية الثالثة التي كانت منتشرة أيضاً وهي نسج الكتان ، فقد وجدت أيضاً في ذلك العصر ، ويذكر دقلديانوس في قائمة أسعاره كتان الأسكندرية على أنه ضمن أفضل خمس أنواع من الكتان في الإمبراطورية بأسرها^(٤)

أما صناعة المطور والتوابل التي كانت تستورد من الأسواق الشرقية ثم تصنع في مصر ويماد تصديرها قد استمر أيضاً ، نظراً لأن التجارة الشرقية لم

F. C. Kenyon, *Readers and Books in Ancient Greece* (١) and Rome, ch. IV.

Liber Pontificalis, ed. Dusebevo, I. 34, p. 177. (٢)

The text in T. A. P. A., 71 (1940) p. 158. (٣)

T. Frang : *Rome and Italy of the Empire* pp. 305 ff., (٤) sects. 26—7.

تتوقف وإن قابلت بعض الصعوبات أحياناً . ويذكر كشف حساب ممتلكات كنيسة روما في مصر ، للشار إليه سابقاً ، أن مئآت الأبطال من الزيتون والتوابل والمطور بأنواعها كانت تصنع في مصانعهم بالقرب من الإسكندرية .

نستنتج من كل هذا أنه رغم سوء الأحوال العامة في مصر في العصر البيزنطي حين تقاس بالعصر الروماني الأول ، فإن الصناعات الأساسية استمرت في مصر وإن كانت قد تأخرت في متواها عن ذي قبل .

أما التجارة الخارجية فلها قصة أخرى فقد رأينا في الفصل السابق مدى النشاط الذي حققته مصر في مجال التجارة العالمية على أيدي تجار مدينة الإسكندرية ، الذين تمكنوا من احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم إلى حد بعيد ، كما كان أسطولهم التجاري في البحر الأبيض يعتبر الأول بين الولايات جميعاً . ورأينا مقدار الثروات الضخمة التي أكادها الإسكندريون من وراء هذه التجارة . ويكفي أن نذكر فيرموس ، الذي تمكن من دخله من تجارة البردى والصنع العربي ، في أسوأ فترات الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث ، أن يكون جيشاً وأن يطمح إلى منصب الإمبراطور لنفسه .

لذلك ليس باستغرب أن يتمسك تجار الإسكندرية بهذه التجارة بكل ما أوتوا من قوة ، ويبدو أنهم نجحوا في المحافظة على مراكزهم على رأس التجارة العالمية في العصر البيزنطي أيضاً . فقد استمر الاتصال مع الصومال وبلاد العرب والهند مستمراً دون انقطاع .

ويبدو أن النشاط الذي أبداه الأنوبيون كوسطاء في التجارة الشرقية لم يؤثر كثيراً على نشاط الإسكندرية في هذا المجال ، وثبتت إحدى قوائم الضرائب من منتصف القرن الرابع والتي تحتوي على قائمة بالمكوس المستحقة

عند مدخل قناة الأسكندرية أن الملاحين الأسكندريين كانوا على اتصال مباشر بالهند (nautai Indias)^(١). وفي النصف الأول من القرن السادس ثبتت مرة أخرى رحلات الراهب المصرى كوزماس ، الذى كان يعمل فى التجارة الشرقية من قبل ، وفى الفصل الأخير من كتابه بصفة خاصة ، أن التجارة المباشرة مع كل من الهند وسيلان لم تتوقف .

أما فى البحر الأبيض المتوسط فإن خطوط الملاحة كانت تمتد من الأسكندرية إلى جميع الموانئ الرئيسية^(٢).

ولكن يجب أن نذكر تغيراً جديداً حدث فى خطوط الملاحة ، وهو انطلق بين الأسكندرية والقسطنطينية أصبح أهمها بدلاً من خط روما. والسبب فى ذلك التغير هو تحويل القمح المصرى من روما إلى القسطنطينية التى اتخذها قسطنطين عاصمته الجديدة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠^(٣). ومع ذلك فيبدو أن الملاحة التجارية بين مصر وروما لم تهمل كثيراً. فهذا هو القديس جيروم فى سنة ٤٠٢ يخاطب الرومان بقوله : « وما أظن أنها مرة ثانية مع عودة الربيع أغنيكم من سلع الشرق وأرسل خزائن الأسكندرية إلى روما »^(٤).

أما عن صادرات مصر فهى معروفة : القمح طبعاً ، ثم الكتان والبردى والروائح والعاج والمطور والتوابل . ويبدو أن الزجاج لم يعد يصدر الآن كما

(١) Sammelbuch, 7756 (259 A. D)

(٢) انظر بيان دلفيانوس من الأسفار .

New Fragments, T. A. P. A. (1940) 57 ff.

وقاعة الطرق الملاحة بالاسكندرية

Johnson-West, op. cit. 140.

وأخذ إليها من القسطنطينية :

John Moschus, Pratum Sprituale 75-6

Jones, Constantine, 232-8

(٣)

St. Jerome, Epist. 91. 1.

(٤)

أن تجارة الورق من اللبدي تأثرت بالإقبال على استخدام رقوق الجلد ، ومع ذلك فقد استمر تصدير الورق .

أما عن الواردات الأساسية فهي المعادن (وخاصة الفضة أو الصفيح) والمحور والحديد والمطور والتوابل من أجل صناعتها محلياً وإعادة تصديرها . وفي دراسة حديثة لهذه الواردات اتضح أنها كانت تأتي إلى مصر من شتى بقاع العالم من الصين والهند شرقاً إلى ألبانيا وبريطانيا غرباً^(١) . وما من شك أن ما لم يكن يصدر من هذه الواردات كان يباع في الإسكندرية للاستخدام الخاص بواسطة الطبقة الغنية البورجوازية المزدهرة في هذه المدينة ، وكذلك كبار الأمر الغنية في الريف .

أما الطبقة البورجوازية في الريف فقد انكشت كثيراً في هذا العصر ، وفقدت قدرتها الشرائية القديمة ؛ أما سائر السكان فكان أكبر همهم هو المحافظة على الحياة أو الفرار إلى الدير .

أما عن موقف الدولة من هذه التجارة ؛ فيبدو أنها كانت حرة في أيدي الأفراد ؛ باستثناء الجزية التي كان على مصر إرسائها إلى روما أولاً والقسططينية بعد ذلك . ويوضح وجود هذه التجارة الحرة البيان الذي أصدره دقلديانوس لتعديد أسعار السلع ، فهو في هذا البيان يتحدث عن جشع التجار وطمعهم في أكثر من موضع ، ولكن يهتما بصفة خاصة قوله : « إن هذا البيان العالي سيصبح بمثابة ضابط بين المشتري والتجار الذين يزورون اللوائى والولايات الأجنبية عادة ، حين يطمعون أنه عندما ترتفع الأسعار لا يستطيعون أن يتعدوا

Johnson-West, Op. cit., 137—151 ; also see West, (١)
Phases of Commercial life in Roman Egypt, J. R. S.
(1917) 45 ff.

الأسعار المقررة للسلع . فيجب حساب المسافات ونفقات الشحن وغير ذلك عند البيع ، حتى تتضح عدالة بياقا حين يمنع كل من تحدته نفسه بتصدير السلع إلى أماكن أخرى ليبيع بأسعار أكثر ارتفاعاً »^(١).

نقطة أخرى لها طرافتها في مجال النشاط المالي مارسها كبار المولدين وهي القروض المالية في الخارج ، ففي وثيقة بردية من القرن السادس نجد مصريين يتعاقدون على اقتراض مبلغ من المال في القسطنطينية ، ومقدار الدين هو عشرون سوليدوس (Solidi) من الذهب ، بفائدة ٨ ٪ . ورغم أن العقد تم في القسطنطينية إلا أنه ينص على أن يرد الدين في الإسكندرية .

وأطراف هذا العقد المدينان وهما شخصان من قرية أفروديتو (كوم أشقاو في مصر الوسطى) والدائن ويسى فلاثيوس أناستاسيوس Fl. Anastasius الذي يصف نفسه بأنه محمول ورئيساً للبنك المقدس (أى الإمبراطورى في القسطنطينية) . وتفيدنا البردية فوق ذلك أن لهذا المول الكبير « مكتب » (Apothekè) في الإسكندرية حيث يستطيع المدينان أن يدفعوا المبلغ المقرض بالإضافة إلى الفائدة المقررة^(٢) .

مثل هذه الوثيقة توضح أيضاً العلاقات المالية الوثيقة التي ربطت الإسكندرية بالقسطنطينية . فكتب أناستاسيوس موجود بالإسكندرية ليقوم بوظيفتين : الأولى عقد الصفقات التجارية والثانية القيام بأعمال البنوك الدولية . فالبلغ الذي سيدفعه المدينان المصريان في الإسكندرية لم يكن يرسل إلى القسطنطينية ، وإنما كان يبقى في الإسكندرية ليستغل في عقد الصفقات التجارية . وتظهر لنا هذه

Preamble to the Edict, ed. by Elsa Rose Graser, in T. (١)

Frank Rome and Italy of the Empire ; also T. A. P. A. (1940) 57 ff,

P. Cairo Maspero II. 67 126 (Jan. 7th 541 A. D)

الوثيقة أيضاً كيف أن كبار المولدين في القسطنطينية قد حلوا محل ممولى روما في عصرها الإمبراطورى الأول، وكان لهم مكاتبهم ووكلاءهم في الأسكندرية كما كان لساقيهم من الرومان. كان بعض هؤلاء الأثرياء من أهل القسطنطينية من أصحاب الثقافات اليونانية الراقية . وكثيراً ما تمسكوا بالعقائد الوثنية القديمة . وفي ظروف اضطهاد الوثنيين القاسية ، وحين تضيق بهم الحياة في القسطنطينية ، كان في استطاعتهم أن يفروا إلى مصر وأن يختفوا فيها مستعينين بأموالهم هناك . وبممكننا أن نورد مثالا على ذلك وهو أجابىوس الهليني ، وكان من كبار المولدين في القسطنطينية . ويصفه الكاتب المسيحي سوفرونىوس بقوله « ولم يقصر نشاطه على الأعمال المالية فحسب ، بل كان متحدثاً مشهوداً له باللغة اليونانية ، شديد الراح باقتناء التماثيل ، وكان يستخدم الخلق ضد الخالق » وحدث أن ألقى القبض عليه في القسطنطينية ، ولكنه تمكن عن طريق الرشوة أن يفر من الحبس وأن يذهب إلى الأسكندرية ، حيث مرض ومات . واختياره الأسكندرية دون سائر أرجاء الإمبراطورية تبعث على الاعتقاد بأنه كانت له أعمال وأموال هناك .

مثل هذه الأخبار من ناحية أخرى تبين مدى السعة المالية التي كانت للأسكندرية كسوق عالمية للتجارة والاستثمار؛ وأن الحياة المالية في المدينة كانت من التعميد والثراء ما يفسر قدرتها على ممارسة تجارتها العالمية مدى قرون طويلة .

وبممكننا أن نضيف هنا كلمة أخيرة عن نشاط الكنيسة في مجال التجارة الخارجية . فكما كان للكنيسة أملاك في الأرض شملت كثيراً من القرى ، كذلك عملت الكنيسة على استغلال أموالها في التجارة الخارجية التي كانت مصدر ربح وفير ، يتضح لنا هذا النشاط بصفة خاصة في سيرة القديس يوحنا الذي تولى أمر الكنيسة في مطلع القرن السابع ، فديره هذا الأسقف الذي

الرحيم تكشف عن مدى ثراء الكنيسة إلى درجة أنها امتلكت أسطولا تجارياً في البحر الأبيض المتوسط . وقد استخدم هذا الأسطول في استيراد القمح من صقلية في أثناء مجاعة نزلت بالبلاد^(١) ؛ وفي مناسبة أخرى أرسل إمدادات كثيرة إلى بيت المقدس حين هاجمها الفرس^(٢) ؛ وفي مناسبة ثالثة نعم أن ثلاث عشرة سفينة من سفن الكنيسة ، كل منها تحمل بشرة آلاف أردب من القمح اغرقت في عاصفة في بحر الأدرياتيك . وبالإضافة إلى القمح حملت هذه السفن ملابس وقضة وأشياء أخرى قيمة^(٣) .

وأخيراً نسمع أن هذا الأسقف أعار سفينة من سفن الكنيسة لتاجر تمطمت سفينته ، وأن هذا التاجر أبحر بعشرين ألف أردب من القمح إلى بريطانيا ، واستبدل قمحه بصفيح - إذ توجد في بريطانيا مناجم هذا المعدن - ولكن حدثت بعد ذلك معجزة وهي أن الصفيح تحول إلى فضة أثناء رحلة العودة^(٤) .

John Almsgiver, 13.

Ibid., 9 and Suppl. 20.

Ibid., Suppl. 28.

Ibid., 10.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

٢ - نشأة الرهبنة المسيحية في مصر

تعتبر نشأة الرهبنة المسيحية في مصر البيزنطية من أهم مظاهر الحياة في ذلك العصر ، وخير تعبير عن الروح التي سادته ؛ كما تعتبر من ناحية أخرى أهم ما ساهمت به مصر في بناء حضارة العصور الوسطى للمسيحية بوجه عام . ويجب أن نذكر في هذا المجال أن الرهبنة ليست قاصرة على المسيحية أو أن المصريين أسبق الناس إلى ممارستها ؛ بل لقد عرفها الإنسان في تجرته الدينية في أمم مختلفة قديمة . ففي الهند ابتدأها بوذا منذ القرن السادس ق.م . ووضع لها أسساً وقواعد^(١) ، ومن البوذية انتشرت في الأديان الهندية الكبرى ثم انتقلت إلى بلاد أخرى مجاورة مثل التبت والصين وغيرها وفي منطقة الشرق الأوسط عرقها جماعات من اليهود في فلسطين قبيل ظهور المسيحية وانتشارها مثل جماعات الإسينيين (Essenes) والناصريين (Nazariten) . ومع ذلك فلم تعرف للمسيحية نظام الرهبنة إلا في مصر أولاً ، ومن مصر انتشرت إلى جميع الأرجاء التي انتشرت إليها المسيحية ، ومن ثم دخولها أوروبا منذ بداية القرون الوسطى . ولهذا كانت كل دراسة للرهبنة المسيحية ونشأتها تنبجها إلى مصر فقط للبحث عن أصولها وطبيعتها .

أما عن الرهبنة أو التسلك الديني في مصر قبل المسيحية فيمكن تتبع أصولها في أكثر من مكان . ومن أمثلة ذلك ما كشفت عنه مجموعة كبيرة من أوراق

Heinrich Hackmann, Buddhism, in Religions of the World,
ed. by Carl Clemen, pp. 306 ff.
(translated by Rev. A. K. Dallas, London, 1931)

البردى التى ترجع إلى العصر البطلمى وثبت وجود حركة تنسكية (Katoche) حول معبد السرايوم فى ممفيس . ومن دراسة هذه الوثائق نقبين أن أفراداً من شتى الطبقات كانوا بناء على افعال دينى ينفذون للإله نساكا وعبادة ، متوحدين فى قلالي ، منقطعين عن حياة المجتمع فى شتى مظاهره ، ونعلم أيضاً أن من هؤلاء النساك (Katochoi) من بقى طوال حياته متنسكا ، ومنهم من كان تنسك لفترة معينة يعود بعدها إلى الحياة الدنيا^(١) . وقد وجدت حركة تنسكية أخرى بين طبقة الكهنة فى هليوبوليس فى الفترة التى سبقت المسيحية مباشرة . فكان هؤلاء الكهنة الرهبان ينقطعون عن جميع أعمال المعبدين المختلفة من أجل التعبد والتأمل ، وكان سيولهم فى ذلك هو سبيل النساك للألوف من التوحد والتشف وللبالغة فى العبادة والصلاة^(٢) . ولكن يجب أن نلاحظ أن حركة التنسك فى هليوبوليس كانت تختلف عن نساك سرايس فى ممفيس وعن الرهبنة للسيحية ، فى أن نساك الإلاه آتون كانوا من بين الكهنة فقط ، أما نساك سرايس فكانوا من عامة الناس ، ومن هنا كانت أهمية هذه الفئة الأخيرة . وأخيراً يمكننا أن نضيف إلى هذه الحركات التنسكية ما ظهر بين اليهود فى الأسكندرية ، وهى التى عرفت بحركة الثيرابيين أو الشافين (Therapeutai) فى القرن الأول للميلادى وقد أفرد فيلون الفيلسوف اليهودى الأسكندرى لوصف هذه الحركة كتاباً

(١) قام فلكن بنغر وخراسة الوثائق البردية وعبر مقدمة لها أحسن دراسة لهذا

الموضوع حتى الآن : U. Wilcken, Urkunden der Ptolemäer —

Zeit : I, Papyri aus Unterägypten, Berlin, Leipzig

(1922). H. I. Bell, Cults and Creeds, pp. 21—22.

and Evelyn White, The Monasteries of Wadi n'Natran, (v)

II. p. 6.

خاصاً^(١)، وقراءة ما كتبه فيلون تبين أن هؤلاء الشافيين كانوا يعيشون في شكل مستعمرة تنسكية بالقرب من الأسكندرية وأن نظام حياتهم شديد الشبه بحركات الرهبنة الأولى، فكانوا رجالاً ونساءً يهجرون المجتمع ومافيه من روابط اجتماعية، ويمسكون عن شرب الخمر وأكل اللحم، وكانوا ينقطعون للعبادة والتأمل والصلاة. وكانوا يعيشون في مساكن متفرقة ولهم دار عامة للاجتماع والصلاة العامة^(٢)،



يتضح من هذه المقدمة أن التمسك والرهبنة الدينية كانت لها أصول في البيئة المصرية قبل المسيحية، ومن الغريب أن الرهبنة المسيحية لم تأخذ من هذه المحاولات والتجارب القديمة مباشرة، وإنما أخذت بدايتها من ظاهرة مصرية قديمة أخرى بعيدة كل البعد عن التقاليد الدينية. ذلك أن المصري القديم كان قد ألف في ظروف الضيق أن يفر من المدينة أو القرية إلى الصحراء أو إلى أحرش المستنقعات، كان يفعل ذلك حين يمجز عن دفع ضرائب الدولة المستحقة عليه، فكان يفر من وجه الحكومة خشية العقاب الشديد الذي يصيبه في هذه الظروف، وكان يطلق على مثل هذا الشخص لفظ المهرب أو المختفي *anachorites* في المصريين اليوناني والروماني. وهذا هو السبيل الذي سلكه المسيحيون الأولون، فعين تعرضوا لمخاطر الاضطهاد العنيفة في تاريخهم الأول، لم يجد كثيرون منهم بدامن الفرار من وجه الدولة والاختفاء في الصحراء والجبال حفاظاً على دينهم وعقيدتهم، وقد أطلق على مثل هؤلاء الأفراد اللفظ القديم ذاته (*anachorites*) ولدينا نص قديم

Do Vira Contemplativa

(١)

(٢) بالرغم من احتمال مبالغة فيلون في وصفه لحركة العائين، ليس هناك ما يدعو إلى الشك في حقيقة وجود حركة العائين ببحار الاسكندرية، على نحو ما يدعى أولي: (O'Loary, Logao of Egypt, 318) وقد سبقت الإشارة إلى وجود حركات مشابهة في فلسين أيضاً.

مشهور يبين انتشار هذه الظاهرة بين المسيحيين الأولين ، وهو رسالة ديونيسيوس أسقف الأسكندرية في وصف اضطهاد دقييوس عام ٢٥٠ ، إذ يقول : « وهل هناك حاجة إلى ذكر جماعات أولئك الذين ضربوا في الصحارى والجبال وهلكوا من الجوع والعطش والصقيع والأمراض أو بفعل القصوص والنوحوش الضارية ^(١) » ومنهم من عاد فروى ما حدث وما تحملوا من أهوال ، ومنهم من لم يعد ، لأنه هلك أو لأنه آثر حياة العزلة في الصحراء . على أن الشائع أن أكثرهم كان يعود إلى موطنه بمجرد شعوره بالاطمئنان إلى انتهاء خطر الاضطهاد ، لأن الاضطهادات لم تكن مستمرة . ولكن يحتفظ تاريخ الكنيسة الأول بذكرى شخصية مصرية قديمة ، يجعله نقطة البداية في نشأة الرهبنة المسيحية في مصر ، وهو الأنبا بولس أو بولس من طيبة في أعالي الصعيد الذي خرج أثناء اضطهاد دقييوس إلى الصحراء الشرقية ولكنه لم يعد . فنشأت حوله أساطير تروى أنه قرر البقاء في الجبال من أجل العبادة وأنه عاش حتى العام الثالث عشر بعد المائة ، وأنه في هذه الحياة الطويلة قابل كثيراً من الأهوال وحدثت له معجزات ^(٢) .

قصة الأنبا بولس قصة أسطورية ، هذا أمر لا شك فيه ، ومع ذلك فهي ذات أهمية تاريخية ، ولذا ننتمى على أن بعض المسيحيين الأولين وجدوا الحياة في قرانهم ومواطنهم الأصلية غير محتملة ، فسلكوا سبيل الاختفاء والاعتزال في الصحارى ، حيث كانت أهوال الطبيعة أخف عليهم من أهوال العذاب والاضطهاد على أيدي الإدارة وممثليها .

(١) أنظر رسالة نيسيوس Eusebius, Hist. Eccl. VI. 42 2.
(٢) أنظر The Paradise of Palladius, II. 18.

هكذا بدأت حركة الاعتزال والتبسك البيعى الأولى في مصر الرومانية^(١)، وكانت في بدايتها على هذا النحو حركة فردية ، ولكنها لم تبقى على هذا النحو طويلا وسرعان ما انتقلت إلى المرحلة الثانية من حياة الرهينة أو التبسك الجماعية. وفى هذه المرحلة تحمل كثيراً من أوجه العبه مع النظم النفسكية التي كانت موجودة في الأديان القديمة السابقة على المسيحية . وصاحب الفضل في إدخال نظام الحياة الجماعية على الرهينة للمسيحية هو القديس أنطونيوس من مدينة كوم (هرتليوبوليس) في مصر الوسطى. وهو شخصية تاريخية لعب دوراً في أحداث القرن الرابع، مناصراً أنطاسيوس ضد أريوس ، وسيرة حياته كما كتبها أنطاسيوس نفسه (Vita Antonii) وأحاد صياغتها القديس جيروم^(٢)، سيرة واضحة المعالم بعيدة عن اللبالات والطابع الأسطوري مما تقتصف به سيرة الأنبا بولا المألوفة الذكر . وسيرة أنطونيوس تدلنا على أنه مصرى صميم ، أمى لا يتكلم عبر اللغة القبطية ، ولد لأبوين موسرين في منتصف القرن الثالث . ولما ناهز أنطونيوس العشرين كان قد فقد أبويه وورث عنهما ثروة تقدر بثلاثمائة أروزال (ما يعادل ١٥٠ فداناً تقريباً) .

ولكن نظراً لنشأته المسيحية الأولى ، إذ كان أبوه مسيحيين ، وليله الشخصى إلى الحياة الدينية ، إذ كان كثير التردد على الكنيسة ، بدأ يحنح إلى حياة العمل والعبادة في قريته .

O'Leary, in *Legacy of Egypt*, pp. 317—332 ;
 E. R. Hardy: *Christian Egypt*, pp. 35—9' 69—76, otosopo
 O. F. A. Meinardus, *Monks and Monasteries of* أيضاً (٧)
the Egyptian Deserts, 11 ff.

وبعد ذلك نتيجة لافعال ديني قرر بيع بعض ما ورث من الأرض ووزع
 ثمنها بين الفقراء ، وأبقى من الأرض ما كان كافياً لحياة أخته الصغرى . ثم
 استبدت به الرغبة بعد ذلك في أن يهجر حياة القرية نهائياً ، فهدأ بأخته إلى
 جماعة من المذاري للسيحيات اللاتي كن يتعبدن في حجر الكنييسة ، وباع ما بقي
 من الأرض ، وقرر هو اتخاذ حياة النساك لنفسه . فبعد نهر النيل إلى الصحراء
 والجبال الشرقية ، وأقام في بقايا قلعة مهجورة في موقع يقال له *پسپير* *Pispir*
 نحواً من عشرين عاماً (بين عامي ٢٨٥ و ٣٠٥ تقريباً) . وكثيراً ما تردد عليه
 أصدقاؤه ومحبهه ، جالسين له القليل من الزاد الذي كان يحتاج إليه ، فكان
 يتحدث إليهم عن تجاربه في الاعتزال والتساك ، وعن مواقفه مع شياطين
 الصحراء ، وأساليب الإغراء والامتحان التي تعرض لها وقاومها .

وسرعان ما ذاع صيته ، وأقبل عليه للسيحيون من كل صوب عن أخذوا
 أنفسهم بحياة التساك ، طالبين التلذذ على يديه والتعلم من تجربته . وهكذا
 نشأت حركة رهبانية جماعية حول القديس أنطونيوس في مصر الوسطى ولكنها
 لم تصل بعد إلى نظام الرهبنة الجماعية الكاملة ، لأن النساك عاشوا متجاورين
 فقط ، ولكن كل واحد منهم أقام منفرداً في قلاية أو كهف ، والرابطة الوحيدة
 بينهم هي التفاهم حول زعيمهم أنطونيوس ، الذي كان لدور الأستاذ وللوجه
 الروحي ، ولم تكن له صفة الرئيس بحال من أحوال .

ولكن بعد عام ٣٠٥ عاوده الحنين إلى حياة الاعتزال والاختطاع الديني
 فهجر « *پسپير* » إلى كهف في الجبال الشرقية المشرفة على البحر الأحمر ؛ وبقي
 هناك حتى آخر حياته ، غير أنه كان يتردد على أتباعه عند *پسپير* يزورهم ويرشدهم
 بنصائحه وتوجيهاته .

ويبدو أن القديس أنطونيوس لم يكن من أولئك النساك الذين انقطعوا
 (م ٢١ — الإسكندر الأكبر)

عن الدنيا فتسوها ونسام الناس ؛ إذ يبدو أن علاقته بالحياة في مصر استمرت قوية ، وكان على علم تام بحقيقة القضية المسيحية في تلك الفترة. كأن المسيحيين في مصر ، عدا من تنسك منهم كانوا شديدي التعلق والإعجاب به ، وكانوا ينظرون إليه نظرة فيها كثير من الإكبار والإجلال . وليس أدل على أهمية القديس أنطونيوس من أنه ترك عزلته إلى مصر في موقنين عصيين تعرضت فيها المسيحية المصرية لخطر شديد للموقف الأول حين سلاط الإمبراطور مكسيمينوس موجة اضطهاد قاسية عام ٣١١، فنزل أنطونيوس إلى الوادي يزور المسيحيين داخل السجون وخارجها يثبت من عزائمهم ويقوى من إيمانهم ، حتى وصل الأسكندرية ذاتها معرضاً نفسه اشتى الأخطار والموقف الثاني في سنة ٣٣٨ زمن الإمبراطور قسطنطين ، حين تعرضت الكنيسة المصرية للانتقام بسبب الخلاف العقائدي الذي نشأ بين أنثاسيوس وأريوس. وكان أنثاسيوس بطريرك الكنيسة في الأسكندرية فذهب إليه أنطونيوس لمساندة وتوحيد كلمة للمسيحيين حوله ضد أريوس .

ولم تكن بسبير هي المنطقة الوحيدة التي نشأت فيها حركة رهبانية جماعية في مصر فقد عاصرت الرهبة الأنطونية ، حركات رهبانية أخرى في أماكن متعددة من مصر ، في منطقة طيبة في أعلى الصعيد ، وفي منطقة مدينة البهنسا (Oxyrhynchon) وإسنا (Latopolis) والشيخ عباد (Antinoe) ، وليكوس (Lyous) بالقرب من أسيوط ، ومنطقة وادي النطرون في شرق الدلتا. ووصول الرهبة إلى شمال مصر عند وادي النطرون في وقت مبكر من القرن الرابع له أهمية لاتأخذه هذه المنطقة لمدينة الأسكندرية . إذ كان معنى ذلك أن الرهبة للمسيحية التي نشأت مصرية تماماً ، قد غزت البيئات ذات الصبغة الإغريقية في مصر منذ

وقت مبكر . فقد وجد في أديرة وادى النطرون رهبان من المصريين والإغريق على السواء (إلى جانب بعض الجفسيات الأخرى) . ويقول بلاديوس الذى زار هذه المنطقة في نهاية القرن الرابع أنه وجد بها أكثر من خمسة آلاف راهب^(١) .

أما عن نظام الرهبنة في وادى النطرون فهو نظام الرهبنة الأنطونية الذى ساد في أديرة مصر الوسطى والدلتا أى شمال أسيوط (Lycoopolis) ومامن شك أن خير مكان لدراسة هذا النظام هو منطقة وادى النطرون ، وذلك لتفاصيل الكثيرة التى يوردها عدد من المصادر فى وصف أديرتها (كما فى التاريخ اللوسيانى ، ف ٨ ؛ تاريخ المتوحدين ، ٢١ — ٢٢) .

ومن هذا الوصف نعرف أن الرهبان فى وادى النطرون كانوا من طائفتين : « الأولى » تتكون من خمسة آلاف راهب يعيشون على جبل نتريا ذاته ، كل له نظامه الخاص (Politeia) حسب قدرته واستعداداته . ولكن يسمح لهم أن يقيموا فرادى أو متقن أو أكثر ، وكانوا يجتمعون جميعاً للصلاة يوم السبت والأحد ، أما فى أيام الأسبوع الأخرى فكان كل يصلى فى صومعته أو دبره بحيث أنه إذا وقف الإنسان فى المساء فى تلك المنطقة سمع الزامير والتسايع صاعدة من الصوامع حوله ، فيظن أنه فى الفردوس .

أما الفئة الثانية من الرهبان فى تلك المنطقة فهم النساك المعزولون (anasoretas) الذين يعيشون متوحدين فى جوف الصحراء كل فى

(١) يذكر بلاديوس فى تاريخه وجود خمسة آلاف راهب فى اسرها والذين آخرين بالعربى من الاسكندرية (فى الفصل السابع) ويتفق سوسومن مع ذكر الألف راهب قرب الاسكندرية Sosomen, Hier. eccl., VI, 29.

كهنه أو قلته ، بعيداً عن زميله . وهؤلاء يلبثون السجادة عداً . ولا يجتمعون
أو يتصلون برهبان الأديرة إلا يوم السبت والأحد حين يشهدون
الصلوة الجامعة .

نلاحظ من هذا الوصف أن هذه الرهبنة الأنطونية في مظهرها الديرى كما
وجدت في وادى النطرون كانت لاتزال تتميز بالطابع الفردى واستقلال كل
راهب في حياته الخاصة ، رغم حياتهم سوياً في أديرة أو صوامع . إذ لم
يكن هناك نظام موحد للحياة يخضع له جميع الرهبان . حقيقة مارس الشيوخ
نفوذاً على الشباب ، ولكنه نفوذ أدبى وشخصى محض ، ليس فيه
أى إلزام .

ويجب أن نضيف هنا أن حركة الرهبنة في منطقة وادى النطرون تقتن
باسم اثنين من أئمة الحركة المسيحية في ذلك الوقت هما آمون الذى نزع إلى
هذه الصحراء في عام ٣٢٥ ، والتدريس مكاريوس الأسكندرى وإليه ينسب
الدير للوجود الآن في وادى النطرون باسم دير ابو مقار ولا يزال إلى جواره
حتى اليوم أديرة ثلاثة أخرى هى السريان والبرموس وبشوى^(١) ، ولا زالت
حياة الرهبان فيها تحتفظ بكثير من طابعها الفردى الأول .

ولم تقتصر الرهبنة الأنطونية على الرجال فحسب بل شملت النساء أيضاً اللاتى
لم تكن حياة الاعتزال لزاماً عليهن ، بل كان في استطاعتهم أن يقمن بحياة الطهر
والتفكك في بيوتهم أو في جماعات صغيرة من المسيحيات العذارى . ومن أمثلة التفكك
بين النساء « بي آمون » التى تكسبت ما يكفى حياتهم مع أمهات طريق الفزل والنسج ،
وقد اكتسبت شهرة في عصرها بفضل الدور الذى قامت به لمنع إحدى الممارك

(١) أنظر O. Meinardus, Monks and Monasteries, pp. 117 ff.

للألوف في مصر قديماً بين قريتين بسبب تقسيم مياه الري^(١). ويبدو أن إقبال الرجال على الرهبنة لأسباب مختلفة، سواء بدافع العاطفة الدينية العنيفة أو بدافع الهروب من تحمل أعباء الوظائف العامة أو العمل في الجيش الروماني، فقد ترك كثيراً من النساء بنير أزواج : وهو وضع قد يؤدي إلى حالة أخلاقية خطيرة ولذلك لجأ المسئولون عن الكنيسة إلى تشجيع النساء على حياة التبتل المنزلي حتى داخل بيوتهن ، وراحوا يؤلفون الكتب التي ترشد العذارى إلى كيفية ممارسة هذه الحياة ومن أم هذه الكتب التي وصلتنا «رسالة التبتل المنزلي» التي كتبت في القرن الرابع والمنسوبة إلى زعيم كنيسة مصر الأكبر القديس أنطونيوس . ويتضمن الكتاب نصائح مبسطة على النساء مراعاتها في حياتها الخاصة ، مثل المواظبة على قراءة الكتاب المقدس في المنزل ، وأداء الصلاة في مواعيدها ، وأن ترتدى ملابس متميزة حين تذهب إلى الكنيسة أو للعمل وأنه يجب عليها أن تتناول عشاء بسيطاً بعد الساعة التاسعة ، ومن الرغوب فيه أن تمسك عن شرب الخمر ، أما إذا كانت تقيم مع عذارى أخريات ممن لا يرعين هذه القاعدة فخير لها أن تتناول القليل من الخمر حتى تتجنب الظهور بمظهر الكبرياء ، ولكن إذا كان زميلاتها من المتقدمات في السن ممن يسرفن في الحديث ، فيجب أن لا تنقاد في هذه العادة وأن تكون هي قلدوة حسنة لمن . ثم هناك نصائح عامة أخرى مثل ضرورة مساعدة الفقراء والمحتاجين ، وإذا قابلها « رجل فاضل » (أى راهب) فعليها أن تحسن لقاءه والاستماع إلى نصائحه^(٢).

في الوقت ذاته الذي ذاع فيه مذهب أنطونيوس «أبو الرهبان» في مصر

Palladius, Hist. Lausiacae, 2, 22, 31; of Hardy, Christian(١)

Egypt, p. 69.

Hardy, Christian Egypt, pp. 69-70

(٢) أنظر

الوسطى والسفلى إلى الألكندرية، كان هناك علم آخر من أعلام المسيحية المصرية يعمل في جبهه وجهه مقطوع النظير لتأسيس مذهب رهباني آخر في صعيد مصر الأعلى، ذلك هو القديس باخوميوس^(١) الذي ولد في الجزء الأخير من القرن الثالث في إحدى بلدان إقليم طيبة القديم يقال لها كينوبوسكيون (Kynoboskion)، ويقال إن مكانها لأن بقعة قصر الصياد في مديرية قنا.

وكل ما نعرفه عن تاريخه الأول هو أنه خدم في الجيش الروماني تحت قسطنطين وليسينيوس، وأنه في هذه الفترة تعرف على جماعة مسيحية لأول مرة في مدينة لاويوليس (إسنا الحالية) وأنه بمجرد تركه الخدمة العسكرية اعتنق المسيحية واتخذ سبيل الرهبنة أيضاً؛ وكان أستاذه في ذلك راهب يقال له بلامون (Polaemon). ولكن باخوميوس من أولئك الرجال الذين يولدون ليسكونوا قادة أو زعماء، ولهذا سرعان ما ظهرت معالم شخصيته القوية، فجمع حوله جماعة من التلاميذ وأقنعهم بضرورة تأسيس نظام جديد للرهبنة الجماعية، يحقق فكرة الحياة الجماعية بصورة أقوى وعلى نحو من التنظيم أدق مما هو حادث في الرهبنة الأنطونية وبذلك أنشأ دير الأول في سنة ٣٢٣ عند تبليس (Tabennisi) بالقرب من دلتة الحالية، وبذلك بدأ نظام رهباني جديد يعرف بالرهبنة الجماعية الكاملة.

ومرعان ما انتشر النظام الباخومي الجديد حتى ليقال إنه عند وفاة باخوميوس حوالي سنة ٣٤٥ كان قد شمل نظامه أديرة كثيرة في أماكن متفرقة في الصعيد الأعلى. وكان الطابع المميز لهذه الحركة الديرية هو خضوعها لنظام عام موحد يعكس النظم الإدارية والعسكرية إلى حد بعيد، فهناك قانون عام

(١) يوجد عرض وافٍ لحركة باخوميوس في مقالة الدكتور عزيز سوريال في مجموعة الرهبنة القبطية، ص ١٦١ - ١٧٧.

يخضع له الجميع ، وهناك رؤساء يجب أن يطعمهم عامة الرهبان . وكان الرهبان في كل دير ينقسمون إلى بيوت منفصلة ، يضم كل بيت بين ثلاثين وأربعين راهبا ، عليهم رئيس ومعاون وغيرهما من الموظفين .

ولم تكن حياة الدير الباخومي قاصرة على العبادة والتفكير ، وإنما أشبه بمستمرة اقتصادية يكاد يكتفى أهلها اكتفاء ذاتيا ، فكانت البيوت منظمة على أساس الصناعات والحرف ، فهناك بيت للخيازين ، وبيت للتجارين ، وبيت لتعدادين ، وبيت للزراع ، وبيت لناسخى الكتب وهكذا ..

وبالرغم من أن الأكثرية الغالبة من الرهبان الباخوميين كانوا من الأقباط المصريين ، إلا أنه سمح للأجناس الأخرى أن تنضم إلى هذه الأديرة ، ولكن أفرد لكل عنصر بيت خاص للاغريق والسرمان واللاتين وغيرهم ممن انتظموا في سلك الرهبنة الباخومية . ولعل هذا هو الأصل في منشأ النظام القدي ورمته الجماعات في العصور الوسطى ، حيث انتشر نظام البيوت والأروقة للأجناس المختلفة . فكان في جامعة باريس خمس أمم تشمل الفرنسيين والإنجليز والنورمنديين والبكرديين والبرمان والبريطان ، ثم هناك نظام الأروقة المشهور القدي ساد في الجامعة الأزهرية إلى عهد قريب مثل أروقة الصايدة والبحاروة والمغاربة والشراقوة والأحباش وغيرهم^(١) .

على أن من أهم مظاهر نظام الديرية الباخومية هو الجانب التعليمي القدي قضى بوجوب تعليم الراهب القراءة والكتابة ومعرفة الكتاب المقدس عن ظهر قلب كشرط أساسي^(٢) .

أما في جانب التعمد والتفكير ، فكان النظام الباخومي أقل صرامة ، وظهر

(١) انظر مقالة الدكتور عزيز سوريال السالفة الذكر ص ١٧٢ .

(٢) المجلد ذاته ص ١٧٠ .

فيه العنصر الفردى الذى تميزت به الرهبنة المصرية عموماً. فرغم أنه كانت هناك وجبات عامة للطعام، إلا أنه ترك للأفراد حرية الأكل والصيام كيفما يشاءون ورغم أنه كانت هناك صلاة عامة للجميع، فكانت معظم الواجبات الدينية تتم عن طريق البيوت، وللأفراد أن يصلوا في قلوبهم كيفما شاءوا^(١).

ويجب أن نذكر أيضاً أن الديرية الباخومية لم تقتصر على الرهبان بل شملت الراهبات في أديرة خاصة بهن، ومن المعروف أن أنثى مديرين الراهبات إلى جانب تسعة أديرة الرهبان في أعلى الصعيد أيضاً؛ وأن جميع هذه الأديرة للرهبان والراهبات كانت تتبع رئاسة باخوم الشخصية المباشرة وأنه كان يقوم بحولات تفتيشية عليها ليتأكد من حسن سير العمل فيها جميعاً^(٢)، وقد استمر الأمر كذلك من بعده.

هذه هي معالم الديرية الباخومية، وهى وإن كانت من ناحية النظام الإدارى والاقتصادى تمثل أرقى أنواع الديرية القبطية، إلا أنه من الناحية الروحية البهجة بقي للرهبان الأنطونييين ورهبان وادى النطرون الصدارة في هذا المجال، ويمكن أن نذكر هنا قصة زيارة أبو مقار من منطقة وادى النطرون متخفياً لدير تاتونيسى (Tatonnisi) حيث أظهر من ضروب القدرة على الصيام والعبادة والتعشف ما أذهل الرهبان الباخوميين، فهمسوا فيما بينهم قائلين: «إنه رجل بلا جسد»^(٣).

وقد وجدت حركات ديرية أخرى بعد ذلك، فعمل على الربط بين النظامين

Butler, The Historia Lausiaca of Palladius, 237.

Hardy, Christian Egypt. 71.

Palladius, Laus. Hist., 38—9.

(١)

(٢)

الأنطوني والباخومي ، ومن أشهرها الأديرة الليبية وحركة الأنبا شنودة . وتنسب الأديرة الليبية إلى ميليطيوس القدي كان يتخذ موقفاً متشدداً من قضية المرتدين أثناء اضطهاد دقلديانوس في مطلع القرن الرابع ، ثم أصبح لأتباعه أديرة ومراكز كثيرة في مصر الوسطى ، وتتميز هذه الأديرة بنظام أكثر ديمقراطية من النظام الباخومي^(١) ولكن هذه الحركة لم تدم طويلاً ، وخاصة بعد الوصول إلى اتفاق بينهم وبين كنيسة الأسكندرية كما سبق أن بينا في فصل سابق . أما الأنبا شنودة فقد تعلم في أحد الأديرة الباخومية ، ولكنه لم يرض ذلك النظام ، فأتخذ لنفسه نظاماً جديداً طبقه في ديرين هما «الدير الأبيض» و «الدير الأحمر» في منطقة سوهاج .

وقد حاول أن يجعل حياة الديرية أكثر صرامة ودقة من نظام باخوميوس ، ولذلك قرر أن يقصر حق دخول أديرته على الأقباط من المصريين فحسب ، ورفض جميع العناصر الأخرى التي كان يسمح لها بالانضمام إلى أديرة باخوميوس ، ثم إنه وضع بعد ذلك نظاماً دقيقاً للحياة في الدير ، لا يتردد في تطبيق العقاب الشديد على كل من يتهاون في القيام بمسئوليته أو يسيء السلوك ، ولو بلغ الأمر إلى حد الضرب المبرح .

على أن أهمية شنودة لا تقتصر على حركته الديرية ، وإنما ترجع أيضاً أنه كان ذا ذوق أدبي ، وقد بقيت الكثير من دروسه وعظاته التي كتبها باللغة القبطية بلهجة منطقة اخميم ، وقد ذاع أمر كتاباته بما ذلك حتى أصبحت اللهجة التي كتب بها هي لغة الكنيسة القبطية لمدة قرون كثيرة^(٢) .

Bell, Jews and Christians, pp. 38 ff.
O'Leary, Legacy of Egypt. 320—1.

(١) انظر

(٢)

— ٣٤٦ —

هكذا نشأت الرهبنة المسيحية في مصر وأصبح لها نظم وقواعد مطبقة
وممارسة على نطاق واسع جداً منذ القرن الرابع . وسرعان ما انتشرت خارج
مصر إلى اليونان وسوريا والعراق ، ثم إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا حتى
وصلت إلى أيرلندا غرباً في فترة وجيزة جداً .

(د) الحياة الثقافية

أما عن الحياة الثقافية في العصر البيزنطي فقد اتخذت مظهراً وطابعاً جديداً نتيجة لتغير الظروف العامة في الإمبراطورية بأسرها ، وقصدتها سيادة الدين المسيحي الجديد واتخاذها ديناً رسمياً للدولة . فنذ القرن الرابع الميلادي وإعلان الإمبراطور قسطنطين المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية ، وجدنا المسيحية تشغل الناس وتسيطر على النشاط الفكري والثقافي في الإمبراطورية . وكانت مصر والأسكندرية بصفة خاصة إحدى المراكز الهامة للدين الجديد كما سبق أن بينا، ولم يكن غريباً أن تساهم مصر والأسكندرية بنصيب وافر في الحركة الثقافية الدينية الجديدة . وكان محور هذه الحركة هو الكتابة في شرح الدين الجديد وتمجيد أبطاله الأول ، وحين انقسم المسيحيون في القرن الرابع إلى مذاهب و فرق ، وجدنا أتباع كل مذهب و فرقة يؤلفون ويكتبون في الدعاية لوجهة نظرم والدفاع عنها . ومن أشهر هذه الاقسامات ما حدث بين أريوس وأثناسيوس وقد سبقت الإشارة إلى طبيعة هذا الخلاف وتطوره وآثاره السياسية ، ويهمننا هنا أن نشير في إيجاز إلى المظهر الثقافي لهذه الحركة الدينية . قد كان كلا الزعيمين من أكثر أهل مصر ثقافة و حدة عقل . أريوس ينتسب إلى مدرسة أنطاكية المسيحية التي كانت متأثرة بتماليم أوريجينيس للشبهة أساساً بالفلسفة الأفلاطونية . ولهذا جاءت نظراته إلى الدين نظرة فلسفية و خرج بنظريته الثورية التي تدعو إلى الفصل بين الإله الآب والمسيح الإبن ، بناء على ألوهية الآب وإنسانية الإبن . وكانت له كتابات و رسائل في إثبات وجهة نظره والدعوة

لما ، ولكن نظراً لانهزام مذهبهم أمام كنيسة الأسكندرية وغيرها بزعامه القديس أنثاسيوس فقد هلكت كتاباته واعتبر مذهب هرطقة وإلحاداً ، وما وصلنا منها جاء عن طريق كتابات خصومه الذين تصدوا لتفنيدها .

واخطر خصومه جميعاً وأعظمهم من غير شك القديس أنثاسيوس . ونحن لا نكاد نعلم شيئاً يقينياً عن نسب هذا الرجل القذ وأبوتة ، ولكن هناك من الدلائل ما يرجح أنه من أصل مصرى . وكل ما نعرفه عن طفولته أنه نشأ بمدينة الأسكندرية واستطاع بمقله اللعاح أن يصيب من ثقافة المدينة أكبر قدر مستطاع ونظراً لما اتصفت به نفسه من البساطة والبعد عن التعميد ، مع الجاس الدينى الدافق ، وجدنا أسلوبه فى الكتابة اليونانية يتصف أيضاً بالبساطة والوضوح مع القوة فى التعبير . ومن أشهر الأمثلة على ذلك مجموعة كتاباته فى دحض الدعوة الأريوسية *Historia Arianorum* . ومن كتاباته ذات الأهمية التاريخية أيضاً ما يتحدث فيه عن مواقفه الدينية وأعماله مثل *Apologia de fuga sua* ؛ كما أن كتابه عن حياة القديس أنطون يعتبر من أقدم وأهم الكتابات عن نشأة الرهبانية المسيحية . وغير ذلك كثير ، ولا يسعنا فى هذا المجال أن نفصل القول تفصيلاً .

وينبى هنا أن نذكر شيئاً أيضاً عن الأدب القبطى . وقد سبقت الإشارة إلى نشأة اللغة القبطية بين المصريين فى الوقت الذى ذاعت فيه المسيحية وانتشرت . وبالرغم من أن كنيسة الأسكندرية والمسيحيين فى المدينة استمروا يستخدمون اللغة اليونانية ، فإن الأقباط المصريين جعلوا اللغة القبطية لغتهم فى مراحلهم التاريخية الجديدة .

وسرعان ما دونوا بها الأدب الجديد ، مبتدئين بالإنجيل ثم الدعوات

والأناشيد الدينية ، ثم توسعوا كثيراً في التأليف بها عن سير آباء الكنيسة
الأولين وخاصة سير القديسين للصريين .

ويمكننا هنا أن نشير إلى مثل واحد منها وهو سيرة القديس مينا ، الذى
استشهد في الاضطهاد الكبير زمن الإمبراطور دقلديانوس ، ودفن رماده
(أو هكذا أعتقد القدماء) في المنطقة التى تنسب إليه إلى الآن في الصحراء
جنوب غرب الأسكندرية . والكتاب^(١) ينقسم إلى أجزاء ثلاثة : الاستشهاد
والمعجزات والتجديد . وغنى عن البيان أن مثل هذه الكتابات القبطية ؛ هى
في واقع الأمر نوع من الأدب الشعبي الدينى ، الذى تغلب عليه البساطة المفرطة :
بساطة في الأسلوب وبساطة في التفكير .

ولاغربة فوضوعها الأسامى هو المعجزات أى الأعمال — وكثير منها
خرافي — التى لا تخضع لقوانين الطبيعة وقدرات الإنسان للألفة . ولذلك
غلب على هذه الكتابات اللبالة النابعة عن العقل الدينى الساذج .

ولعل من المناسب أن نختم حديثنا عن الحياة الثقافية بكلمة عن مدارس
الأسكندرية وجامعتها . استمرت الأسكندرية في العصر البيزنطى مركزاً للعلم
والثقافة يقصد إليها الدارسون من سائر الأقطار . فقد استمرت المدرسة الوثنية
بها تتمتع بشهرة عالمية في الفلسفة والرياضة ، مما اضطر الكنيسة إلى أن تنشئ
في المدينة مدرسة مسيحية قوية تقاوم المدرسة الوثنية وتنافسها ، ولتجذب
إلى المسيحية الشباب الجديد .

وكثيراً ما حضر الشباب إلى الأسكندرية لدراسة العلوم الإنسانية (أى
الفلسفة الوثنية وآدابها) ثم تحولوا بعد ذلك إلى المسيحية وخاصة في القرنين

الرابع والخامس . ومثال ذلك القديس سيقيروس الذى جاء من أنطاكية وكان لا يزال وثنياً ، ودرس العلوم الوثنية في جامعة الأسكندرية . وهناك التقى بعدد من أعلام العصر مثل زكريا من غزة ، وتوماس الفيلسوف من غزة وربنودونوس من لسبوس ، وباراليوس من كاريا (آسيا الصغرى) .

ويرسم لنا زكريا في كتابه عن سيرة القديس صورة واضحة عن اقسام كل من الأساتذة والطلبة بين المدرستين الوثنية والسيحية وما كان يحدث بينهم من خلاف بشأن قضايا الدين والفلسفة ، وذلك مثل ما حدث من خلاف أدى إلى شجار من الجانبين حينما اعتنق باراليوس من كاريا الدين للمسيحي^(١) .

أما سيقيروس نفسه ، فبعد أن أتم دراسة الفلسفة والأدب في الأسكندرية ذهب إلى بيروت حيث أعلن اعتناقه للمسيحية ودخل أحد الأديرة راهباً ؛ ثم أصبح في عام ٥١٢ أسقفاً لكنيسة أنطاكية . فقد كانت كل من الأسكندرية وأنطاكية تقبلان مذهب الطبيعة الواحدة ، وكانت تربطها روابط قوية ؛ حتى أنه حين تمرض أصحاب هذا المذهب لاضطهاد الدولة فر سيقيروس من أنطاكية ولجأ إلى الأسكندرية عام ٥١٨^(٢) .

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة وهي أن النصر المصرى ازداد انتشاراً في الدوائر العلمية في الأسكندرية ؛ إذ لم يعد علماء الأسكندرية قاصرين على مواطني الأسكندريين أو الإغريق . ومن الأمثلة التي توضح هذا الاتجاه شخصية الفيلسوف هور أبولوا الذى كان رئيساً للمدرسة الوثنية في الأسكندرية ، ولعب تلاميذه دوراً أساسياً في موضوع باراليوس . وهو ينسب إلى أسرة من

Vie de Severo, par Zacharie Le Scholastique (P. O.) (١)
pp. 22—3.

E. R. Hardy, Christian Egypt, pp. 123—132 انظر (٢)

صعيد مصر ، ويبدو أنه لم يكن أول من حضر من أسرته إلى الأسكندرية ،
فهذه التدريس شأن سائر الملحن في العصر البيزنطى كانت وراثية ، ويذكر هور
أبوللو في إحدى البرديات في شيء من القنصر أن آباءه من قبله كانوا مدرسين ،
وأن والده كان أستاذ في الأسكندرية كما نعرف من مصادر أخرى أن أفراداً
آخرين من أسرته كانوا يشتغلون بالتدريس في الأسكندرية أيضاً .^(١)

ومن الشخصيات اللامعة في تاريخ جامعة الأسكندرية الوثنية في العصر
البيزنطى الفيلسوف الجيلة هيبيثيا ، وكان والدها أستاذ للرياضة ، وهى أستاذة
لل فلسفة . وبلغ من شهرتها ومجدها أن قصدوا الطلاب واستمع إليها الوثنيون
والمسيحيون على السواء ، حتى تقيت مصرعها على آلات التعذيب والحريق أثناء
بعض الفتن في مطلع القرن الخامس .

ومن أشهر الشخصيات التى تلقت المعرفة على يدى هيبيثيا سنيسيوس أسقف
كنيسة قورينة في بركة ، الذى عاش في السنوات العvisية في نهاية القرن الرابع
وبداية القرن الخامس حين كانت تضطهد الوثنية بكل الوسائل للشريعة وغير
للشريعة . وبالرغم من كونه مسيحياً ورجل دين له مكانته ، فلم يخف إعجابه
الشديد بهيبيثيا — رغم وثنيها — وبمدرسة الفلسفة بالأسكندرية . ويكفى
أن قرأ بعض رسائله التى بقيت لنا لذلك مكانة الأسكندرية ك مركز للعلم
والتعليم في ذلك الوقت ، وأنها كانت لا تزال منافساً قوياً لأثينا . وقد عبر
سنيسيوس في إحدى رسائله عن هذه المنافسة حين زار مدينة أثينا ، وكتب إلى
أخيه يقول :

C. Maspero, Horapollon et la fin du Paganisme (١)
Egyption, BIFAO, II (1913) p. 184 f. ; cf. P. Cairo
Masp. nos. 67020, 67383, 67295.

« إن رحلتى هذه إلى أثينا ستريحنى من إكبار أولئك الذين يتعلمون فى أثينا ويعودون إلينا . إنهم لا يختلفون فى شيء عنا ، نحن بنى الإنسان العاديين إنهم لا يعرفون أرسطو وأفلاطون خيراً منا ، ومع ذلك فهم يسرون بيننا كما لو كانوا أنصاف آله بين دواب ٠٠٠ » .

وفى خطاب آخر يقول :

« ٠٠٠ لم يبق لأثينا شيء رفيع سوى أسماء البلاد المشهورة ، فالיום قد تلقت مصر وصانت الحكمة النافعة من هيباتيا ، قديما كانت أثينا موطن الحكمة ، أما اليوم فتجار العسل هم مصدر فخارها^(١) » .

هذه الشهرة العلمية العظيمة التى تمتعت بها جامعة الأسكندرية القديمة كانت تسندها مكتبتها الكبيرة ، التى سبق أن تحدثنا عنها وعن ظروف نشأتها . وظلت الأسكندرية تتمتع بهذه المكتبة حتى نهاية القرن الرابع حين شن أسقف كنيسة الأسكندرية ثيوفيلوس أكبر حملة اضطهاد تعرض لها الوثنيون ، من أجل القضاء عليهم نهائياً .

وكان من أكبر أهدافه القضاء على مدرسة الأسكندرية الوثنية ، ولذلك اتجه إلى تدمير المكتبة وحرقها باعتبارها أكبر مركز للثقافة الوثنية . وتعتبر هذه الحملة أكبر كارثة حلت بمكتبة الأسكندرية ، ومن المحقق أن مكنتبات المعابد الأخرى هلك أنثائها ؛ ولكن من الثابت أيضاً أن بعض الكتب قد نجت وأن الأسكندرية استمرت مركز للمعرفة والتعليم فى القرنين الخامس والسادس ، حتى الفتح العربى . ولكن يبدو أن المكتبة المشهورة انتهى تاريخها فى

(١) انظر خطابه رقم ٥٥ ، ١٣٦ . خطابه إلى هيباتيا ١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٣ .
٠ ١٥٤ ، ١٢٤ ، ٨١

أضهاد ثيوفيلوس ، ولا نسمع عن وجودها بعد ذلك ، وليس هناك من سبيل إلى ادعاء وجودها وأن العرب قاموا بحرقها بعد الفتح . بل لعل هناك ما يثبت أن العرب سمحوا باستمرار التعليم القديم في الإسكندرية إذ حضر يعقوب من إيديسا إلى الإسكندرية في سنة ٦٨٠ ليتم تعليمه بها^(١) .

A. J. Butler, *The Arab Conquest of Egypt*, p. 401. ff;(١)
 T. A. Parions, *The Alexandrian Library*, p. 273 f. ;
 W. L. westrman *Bull. Fac. Arts, Alexandria*, (1943 p. 12 ff,

قائمة المراجع الأساسية

1. Ch. Diehl : *l'Egypte Chrétienne et Byzantine*, (Tome III dans. G. Hanotaux, *Histoire de la Nation Egyptienne*) Paris 1931.
2. J.G. Milne *A History of Egypt Under Roman Rule*. London, 1924.
3. E. R. Hardy : *Christian Egypt: Church and People* New York, 1952.
4. E.R. Hardy : *The Large Estates Byzantine Egypt*, New York (1951).
5. J.M. Creed and De Lacy O'Leary : *the Egyptian Contribution to Christianity (in the Legacy of Egypt, pp. 300-332.)* 1941.
6. H. I. Bell : *Egypt and the Byzantine Empire (the Legacy of Egypt, 332-648)*
7. R.M. French : *The Eastern Orthodox Church*, London, 1951
8. A.H.M. Jones : *Constantin and the Conversion of Europe*, London, 1948.
9. Ernest Stein : *Histoire du Bas Empire, de la disparition de l'Empire d'Occident à la mort de Justinien (476-565)*, Paris--Bruxelles--Amsterdam, 1949.
10. G.Ostrogorsky : *History of the Byzantine State*, Translated by Joan Hussey, Blackwell, Oxford, 1956.
11. N.H. Baynes : *Byzantine Studies and Other Essays*, London, 1960.
12. N.H. Baynes : *The Byzantine Empire*. London, 1958.
13. J.B. Bury : *History of the Later Roman Empire*
14. S. Runciman : *Byzantine Civilization*. London 1961.
15. A. Vasiliev : *History of the Ryzantine Empire*, Oxford, 1952

16. Germaine Rouillard ; l'Administration Civile de l'Egypte Byzantine, Paris, 1928.
17. Germaine Rouillard ; La Vie Rurale dans L'Empire Byzantine, Paris, 1953
18. A.C. Johnson and L.C. Lewis ; Byzantine, Egypt. Economic Studies, Princeton, 1949
19. J. Maspero ; Histoire des Patriarches d'Alexandrie, Paris 1923
20. J. Maspero ; Organisation Militaire de l'Egpte Byzantine, Paris, 1912-
21. Denis Van Berchem, l'Armée de Dioclétien et la Reforme Constantinienne, Paris 1952.
22. E. A. Parsons, The Alexandrian Library, London, 1952.

(٢٣) الدكتور السيد الباز المريفى : مصر البيزنطية — القاهرة ١٩٦١ .

(٢٤) الدكتور مسراد كامل : حضارة مصر فى العصر البيزنطى (تاريخ الحضارة المصرية الجزء الثانى) .

موضوعات الكتاب

صفحة	المقدمة
٣	
١٤٨-٥	الباب الأول : العصر البطلي
٧	الفصل الأول : مصر والإغريق قبل قيام دولة البطالمة :
٧	(١) علاقة مصر ببلاد اليونان قبل الفتح المقدوني .
١٧	(ب) مصر في عصر الإسكندر الأكبر . . .
٢٨	الفصل الثاني : التاريخ السياسي لمصر في العصر البطلي ، عصر القوة :
٢٨	(١) بطليموس الأول سوتير (٣٢٣ - ٢٨٤ ق.م.) .
٥٤	(ب) بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م.) .
٦٥	(ج) بطليموس الثالث يورجيتيس (٢٤٦ - ٢٢١ ق.م.) .
٧١	(د) بطليموس الرابع فيلوپاتور (٢٢١ - ٢٠٥ ق.م.) .
٧٧	الفصل الثالث : التاريخ السياسي لمصر في العصر البطلي ، عصر الضعف :
٧٧	(١) بطليموس الخامس إيفانيس (٢٠٥ - ١٨٠ ق.م.) .
٨٥	(ب) فترة المنازعات الأسرية (١٨٠ - ٥١ ق.م.) .
٩٩	(ج) كليوباترا السابعة (٥١ - ٣٠ ق.م.) . .
١٠٧	الفصل الرابع : معالم النظم والحضارة المصرية في العصر البطلي :
١٠٧	(١) تكوين المجتمع
١١٧	(ب) نظام الحكم والإدارة
١٢٨	(ج) النظم الاقتصادية
١٤٣	(د) الحياة الثقافية

منحة

الباب الثانى : مصر فى العصر الرومانى ١٤٩—٢٨٦

الفصل الأول : التاريخ السياسى لمصر فى العصر الرومانى : ١٥١

(١) القرنان الأول والثانى من الإمبراطورية الرومانية .

(ب) مصر فى فترة الحقبة الكبرى للإمبراطورية الرومانية

١٩١ فى القرن الثالث

الفصل الثانى : معالم النظم والحضارة فى مصر فى العصر الرومانى : ٢٠١

(١) تكوين المجتمع ٢٠١

(ب) نظم الإدارة ٢٢٣

(ج) الحياة الاقتصادية ٢٤٣

٢٦٧ . الحياة الثقافية والدينية — ظهور المسيحية

الباب الثالث : مصر فى العصر البيزنطى ٢٨٧—٣٥٤

الفصل الأول : الدولة والدين فى مصر البيزنطية : ٢٨٩

الفصل الثانى : معالم النظم والحضارة فى مصر البيزنطية : ٣١١

(١) النظام الإدارى ٣١١

(ب) الحياة الاجتماعية والاقتصادية ٣١٨

(ج) نشأة الرهبنة فى مصر ٣٣٢

(د) الحياة الثقافية ٣٤٧

٣٥٥ . فائمة للمراجع الأساسية

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ ش محمد فريد - القاهرة

